مركز دراسات الوحدة العربية



دور الأدب في الوعي القومي العربي

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية
التي أعدها ونظمها
مركز دراسات الوحدة العربية

د. سعدون حمادي
د. جلال الخياط
د. نوري القيسي
د. علي عباس علوان
د. عادل جاسم البياتي
د. عمر الطالب
د. عصام عبد علي
محيي الدين اسماعيل
هلال ناجي
عثمان سعدي

دور الأدب في الوعي
القومي العربي



مركز دراسات الوحدة العربية

دور الأدب في الوعي القومي العربي

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية
التي أعدها ونظمها
مركز دراسات الوحدة العربية

د. سعدون حمادي — د. جلال الخياط
د. نوري القيسي — د. علي عباس علوان
د. عادل جاسم البياتي — د. عمر الطالب
د. عصام عبد علي — محيي الدين اسماعيل
هلال ناجي — عثمان سعدي

« الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية »

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الاولى : بيروت : كانون الاول/ديسمبر ١٩٨٠
الطبعة الثانية : بيروت : ايلول/سبتمبر ١٩٨٢
الطبعة الثالثة : بيروت : شباط/فبراير ١٩٨٤
الطبعة الرابعة : بيروت : حزيران/يونيو ١٩٨٦

المحتويات

كلمة شكر

يود مركز دراسات الوحدة العربية أن يقدم الشكر الجزيل إلى المؤسسات التي شاركته في إعداد وتنفيذ هذه الندوة وهي اتحاد الأدباء والكتاب العرب ونقابة المعلمين في الجمهورية العراقية. كما لا بد من تقديم الشكر أيضاً إلى الاستاذ شفيق الكمالي والدكتور ناجح الراوي للمساهمة الكبيرة في مجال الإعداد الفكري والمساعدات المادية التي كانت ضرورية جدا لنجاح هذا العمل. لقد قامت لجنة الصياغة بعمل مهم تستحق عليه الشكر. فقد قدم كل من الدكتور مسارع الراوي والدكتور عصام عبد علي والدكتور نوري القيسي والأستاذ حميد الهيتي والأستاذ ماجد السامرائي خدمات جليلة في مجالات متعددة وبصورة تطوعية يستحقون عليها الشكر والامتنان.

وبالطبع فإن السادة الذين تقدموا ببحوث كانوا في الحقيقة هم الأساس في نجاح الندوة، وعملهم الجليل هذا يستحق جزيل الشكر، كذلك جميع الذين حضروا الاجتماعات وساهموا في المناقشة.

مركز دراسات الوحدة العربية

المشاركون

١ ـ د. إبراهيم الداقوقي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٢ ـ أحمد عباس صالح	أكاديمية الفنون الجميلة ـ جامعة بغداد
٣ ـ أزهر جواد شريف	إختصاصي تربوي ـ وزارة التربية
٤ ـ بشرى حمدي البستاني	فرع نقابة المعلمين ـ نينوى
٥ ـ د. بهجة الحديثي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٦ ـ د. جميل الملائكة	المجمع العلمي العراقي ـ كلية الهندسة ـ جامعة بغداد
٧ ـ جبار الكواز	فرع نقابة المعلمين ـ بابل
٨ ـ د. جلال الخياط	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٩ ـ د. حكمة علي الأوسي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
١٠ـ حمدان عبد المجيد الكبيسي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
١١ـ حميد الهيتي	عميد كلية الاداب ـ الجامعة المستنصرية
١٢ـ خليل ابراهيم عبد الرزاق	أمين سر نقابة المعلمين / المركز العام ـ بغداد
١٣ـ خليل إبراهيم علي	مدير عام التعليم الثانوي / وزارة التربية
١٤ـ ذنون الأطرقجي	فرع نقابة المعلمين ـ نينوى
١٥ـ د. رشيد العبيدي	كلية التربية ـ جامعة بغداد
١٦ـ د. زكي محمد الجابر	الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار
١٧ـ د. سعدون حمادي	المجمع العلمي العراقي ـ رئيس مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية
١٨ـ سعد قاسم حمودي	نقيب الصحفيين العراقيين

١٩- سعدية الفرحان — نقابة المعلمين / المركز العام - بغداد
٢٠- د. سنان سعيد — كلية الاداب - جامعة بغداد
٢١- شفيق عبد الجبار الكمالي — رئيس تحرير آفاق عربية - بغداد
٢٢- د. صالح أحمد العلي — المجمع العلمي العراقي
٢٣- صالح أحمد عزب — الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)
٢٤- صالح العزاوي — فرع نقابة المعلمين - بابل
٢٥- صابر عبيد سعيد — نقابة المعلمين / المركز العام - بغداد
٢٦- طارق نعمان — رئيس فرع نقابة المعلمين - الأنبار
٢٧- طالب علي الشرقي — فرع نقابة المعلمين - النجف
٢٨- طه باقر — المجمع العلمي العراقي - كلية الاداب - آثار - جامعة بغداد
٢٩- طاهر شوكة — فرع نقابة المعلمين - ديالي
٣٠- د. عادل جاسم البياتي — جامعة المستنصرية - بغداد
٣١- عباس توفيق رضا — فرع نقابة المعلمين - السليمانية
٣٢- عثمان سعدي — كاتب جزائري
٣٣- عبد الجبار العاشور — اختصاصي تربوي - وزارة التربية - بغداد
٣٤- عبد الرحمن منيف — مجلة النفط والتنمية / الرياض
٣٥- د. عزمي الصالحي — كلية التربية - جامعة بغداد
٣٦- عبد الستار جواد — اتحاد الأدباء العرب - بغداد
٣٧- عبد الستار خلف إبراهيم — نقابة المعلمين فرع التأميم - بغداد
٣٨- د. عصام عبد علي — جامعة بغداد
٣٩- علي حسن الشديدي — نائب نقيب المعلمين / المركز العام - بغداد
٤٠- د. علي عباس علوان — كلية التربية - جامعة بغداد
٤١- علي عبد الحسين الدايني — رئيس فرع نقابة المعلمين - التأميم - بغداد
٤٢- د. علي عطية — كلية العلوم - جامعة بغداد
٤٣- د. علاء نورس — كلية الاداب - جامعة بغداد
٤٤- د. عمر محمد الطالب — كلية الاداب - جامعة الموصل
٤٥- د. عناد اسماعيل الكبيسي — الجامعة المستنصرية - بغداد

٤٦ـ د. عناد عزوان	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٤٧ـ غالب باقر محمد	كلية الاداب ـ جامعة البصرة
٤٨ـ د. فاروق صالح العمر	جامعة البصرة
٤٩ـ د. فاروق عمر فوزي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٥٠ـ د. فؤاد المرسي	المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية
٥١ـ فوزي فاضل	نقابة المعلمين / المركز العام ـ بغداد
٥٢ـ د. كامل حسن البصير	عميد كلية الاداب ـ جامعة السليمانية
٥٣ـ كريم حسين ناصح	فرع نقابة المعلمين ـ ذي قار
٥٤ـ كمال عبد الله	نائب رئيس تحرير جريدة الثورة ـ بغداد
٥٥ـ د. كمال نشأت	كلية الاداب ـ الجامعة المستنصرية
٥٦ـ ليلى فرحان	فرع نقابة المعلمين ـ واسط
٥٧ـ ماجد صالح السامرائي	جريدة الجمهورية ـ بغداد
٥٨ـ د. محسن جاسم الموسوي	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٥٩ـ د. مسارع حسن الراوي	رئيس الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ بغداد
٦٠ـ د. مصطفى عبد القادر النجار	مركز دراسات الخليج العربي ـ جامعة البصرة
٦١ـ محمد أحمد حسن	رئيس فرع بغداد ـ نقابة المعلمين
٦٢ـ د. محمد أنور عبد السلام	الجامعة المستنصرية / المعهد القومي للدراسات القومية والاشتراكية
٦٣ـ محمد بهجة الاثري	المجمع العلمي العراقي
٦٤ـ محمد الجزائري	مجلة فنون ـ بغداد
٦٥ـ د. محمد حسين آل ياسين	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٦٦ـ د. محمود عبد الله الجادر	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٦٧ـ محمود هاشم الكرخي	مجلة الاجيال / نقابة المعلمين / المركز العام ـ بغداد
٦٨ـ د. محيي الدين توفيق	عميد كلية التربية ـ جامعة الموصل
٦٩ـ د. منير بكر	كلية الاداب ـ جامعة بغداد
٧٠ـ د. ناجح محمد خليل	نقيب المعلمين العراقيين
٧١ـ ناصيف عواد	مكتب الاعلام القومي في القيادة القومية
٧٢ـ د. نزار عبد اللطيف الحديثي	المعهد القومي للدراسات القومية والاشتراكية

٧٣- د. نعمة رحيم العزاوي	وزارة التربية - بغداد
٧٤- د. نوري حمودي علي القيسي	المجمع العلمي العراقي / كلية الاداب / جامعة بغداد
٧٥- د. هادي الحمداني	كلية التربية - جامعة بغداد
٧٦- هاشم جعفر الحبوبي	نقابة المعلمين / المركز العام - بغداد
٧٧- هلال ناجي	شاعر وكاتب
٧٨- د. واجدة الاطرقجي	نقابة المعلمين / المركز العام - كلية التربية - جامعة بغداد
٧٩- د. وميض عمر نظمي	كلية القانون والسياسة - جامعة بغداد
٨٠- د. يحيى الشاهري	كلية الاداب - جامعة بغداد

تقـــديم

نظم مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ونقابة المعلمين في الجمهورية العراقية ندوة فكرية حول دور الأدب في نشر الوعي القومي والدعوة الى الوحدة العربية، ضمن سلسلة من الندوات ينظمها مركز دراسات الوحدة العربية ضمن منهاجه الثقافي في عدد من الأقطار العربية. وقد تألفت لجنة تحضيرية من الدكتور سعدون حمادي والدكتور مسارع الراوي والأستاذ شفيق الكمالي والدكتور نوري القيسي والدكتور عصام عبد علي، وقامت بوضع منهج الندوة واقتراح المواضيع وتكليف الباحثين، وتحديد أسماء المشاركين، وإنجاز كل ما يتطلبه عقد الندوة من أعمال تتعلق بالمحتوى أو تتعلق بالاجراءات.

وقد عقدت الندوة خلال يومي ٢٨ و٢٩ نيسان/أبريل ١٩٨٠ في مقر نقابة المعلمين العراقيين في بغداد، وامتدت على أربعة اجتماعات خلال اليومين. ففي جلسة الافتتاح من صباح اليوم الأول ألقيت كلمات الافتتاح من قبل الدكتور سعدون حمادي عن مركز دراسات الوحدة العربية، والأستاذ شفيق الكمالي عن اتحاد الأدباء والكتاب العرب، والدكتور ناجح الراوي عن نقابة المعلمين في الجمهورية العراقية. وكان الاجتماع برئاسة الأستاذ شفيق الكمالي. وشكلت لجنة لصياغة القرارات والنتائج من الدكتور مسارع الراوي والدكتور عصام عبد علي والدكتور نوري القيسي والأستاذ شفيق الكمالي والأستاذ حميد الهيتي والأستاذ ماجد السامرائي. كما تم اختيار الأستاذ حميد الهيتي مقرراً عاماً للندوة.

وبعد الجلسة الافتتاحية توالى تقديم الأبحاث، وتوالت مناقشاتها من جانب السادة

المشاركين، الذين بلغ عددهم ثمانين من المثقفين المهتمين بشؤون الأدب والفكر القومي من مختلف المؤسسات الثقافية في العراق كما شارك فيها مثقفون من عدد من الأقطار العربية الأخرى.

وخصصت الجلسة المسائية في اليوم الثاني من يومي انعقاد الندوة لمناقشة «البيان الختامي» وإقراره.

كلمة الدكتور سعدون حمّادي

رئيس مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية

أيها الأخوة . . .

باسم مركز دراسات الوحدة العربية يسرني أن أرحب بكم في هذه المناسبة الثقافية التي نظمتها مؤسسات ثلاث تعمل كل حسب اختصاصها في مجالات العمل الثقافي. إن مركز دراسات الوحدة العربية هو المؤسسة الوحيدة في الوطن العربي التي تعمل في مجال البحث العلمي في كل ما يتعلق بشؤون الوحدة العربية، وفي كل ما يؤدي إلى تقوية الشعور القومي العربي.

إن هذه المؤسسة الخاصة التي أسسها لفيف من المثقفين العرب من مختلف الأقطار العربية، والتي يعود تاريخ فكرتها الأولى إلى نكبة حزيران ١٩٦٧ ، قد قطعت الآن شوطا مهما في مجال نشاطها الثقافي. وما هذه الندوة المشتركة إلا أحد تلك النشاطات.

إن اختيار موضوع هذه الندوة، الذي تم بالتشاور، يدل على اهتمام المؤسسات المنظِّمة بدور الأدب العربي في التأثير في الرأي العام المثقف وفي جماهير المواطنين. والأدب، الذي هو تعبير عن الوجدان ومرآة للمشاعر العميقة للأمة، قد عكس في مختلف المراحل التاريخية التي عالجتها مواضيع الندوة شعور العرب بأنهم أمة واحدة ينبغي أن يكون لها دور إيجابي في التاريخ. إن الطريقة التي انعكس بها ذلك الشعور ليست واحدة، كما أن المعاني التي عبر بها الأدباء العرب ـ شعراء وكتّاب ليست واحدة، وفي بعض الأحيان ليست بسيطة. كل ذلك، من أجل أن يكشف ويحلل، يحتاج إلى البحث من قبل المختصين، وذلك ما حاول أن يقوم به الباحثون. إن المساهمة في هذا النشاط الثقافي، سواء بالبحث أو النقاش، أو حتى بمجرد الاستماع، لا بد أن تكون مفيدة فكرياً وممتعة بنفس الوقت.

ولعل أهم ما يمكن أن تظهره هذه الندوة من أفكار هو أنها توضح، بما لا يقبل الالتباس، أن الشعور القومي عند العرب يغوص في أعماق تاريخهم. فهو يعود إلى الجاهلية، وليس انعكاسا لاحتكاك العرب بالغرب، الذي تكونت قومياته حديثا، كما يقول بعض الذين يرغبون بتفسير كل شيء من منظار غربي.

كما تُظهر مواد هذه الندوة أيضا أن روح المقاومة كانت دائما موجودة عند العرب. فأوقات الأزمات لم تتسم بالاستسلام واليأس، بل صاحبتها الدعوة للنهوض والوقوف بوجه الأخطار. أما إذا تساءل أحد عن الهدف النهائي لمثل هذا النوع من النشاط، فالجواب لن يكون غير استنهاض همة الأدباء لزيادة مساهمتهم في بث الشعور القومي والدعوة لتوحيد الأمة، لما للأدب، وخاصة الشعر، من دور مؤثر في تكوين مشاعر العرب الذين توارثوا هذه الصفحة منذ أقدم العصور. إنها دعوة للقادرين على أن يعملوا أكثر وأن يساهموا أكثر في مقاومة الواقع وبناء ما يجب أن يكون عليه.

أرجو لجميع المساهمين بهذه الندوة التوفيق في مسعاهم، مكبرا فيهم الاهتمام والعمل الذي تطلبه إعدادها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ شفيق الكمالي

الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

الحضور الكرام،

في القومية، إحساسا وتوجهاً وانتماءً، يزدهي الأدب.. وليس ثمة أدب حقيقي لا ينتمي إلى جذر قومي.. البعض يعتقد أن «كوزموبولوتية» الأدب، هي إنسانية، ويتجاهل الأبعاد التي تؤصل الخلق الإبداعي، والتي تكمن أولاً في بيئية الأدب، في ظرفيته، في تعبيره عن الأرض، وانتمائه لها..

وحين يفتقد الأدب سحنة الوجه القومي، يفتقد سماته الإنسانية، آنذاك لا يكون شيئاً في مقابل هذا الخلق التراثي، الحضاري، الكبير..

هل نتساءل: أكان للأدب دوره في بث الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية؟

إنّ تساءلنا.. طرحنا الشك،.. ولم نتشبث باليقين. في حين أن الوطن العربي، والحضارة العربية، والتراث العربي يحمل الإجابة الأصدق على ذلك السؤال ـ الشك!

من هنا، لا نحتاج، في مثل هذا الموقف، لأن نستعرض شعراء الموقف، والتحريض، والدعوة، والاستنارة، والنضال.. لأنهم، على مدى الحقب التاريخية كانوا، وعلى مدى النضال كانوا، وعلى مدى الوعي، كانوا.. حضوراً لا أغنى ولا أروع..

بشارة الأديب، وبشارة الشاعر، وبشارة الخالق المبدع، كانت الكلمة..
في البدء، وفي الحضور.
في اليقظة وفي الاستنهاض المبكر..
في الدعوة، وفي ترسيخ الإيمان القومي،

لذا فالشاعر، والكاتب، لم يكونا، في الوطن العربي، سوى لسان الأمة. . تلك هي الظاهرة، ولكل ظاهرة، وقاعدة، شذوذ. .

والذين تنكروا لعروبتهم، وعياً ومنهجاً، وتراباً، وتراثاً، لم يستطيعوا أن يقنعوا حتى انفسهم، فاللسان العربي الذي كان في إبداعهم، لغة وتعبيراً، ظل لسانهم، وإن تشوهت الأفكار. .

لكنهم لم يستطيعوا أن ينكروا لهذا النبع، الـثرّ، الغني، وهو، في اليقين، أسٌّ من أسس عروبة الحاضر، كما هو ركيزة من ركائز المبنى الحضاري لأمة أعطت خير ما أعطت للبشرية من إبداع، في العلوم والآداب، والانسانيات، واللسان معاً. .

والذين حاولوا أن يبيعوا ذمتهم وضميرهم وتاريخهم هم، أولاً وآخراً، المضاد الفاشل للوعي القومي وللوحدة العربية، . . لأنهم، وإن شكلوا علامات، لكنهم لم يشكلوا التيار الأغلب، أو الأصدق. .

أيها الكرام:

تجتمعون، هنا وتواجهون، من على هذا المنبر، محصلة طبيعية في القناعة والايمان تكمن في الـ«نعم» لدور الأدب العربي في بث الوعي القومي، والـ«نعم» في دوره للدعوة إلى الوحدة العربية، وفي الرفض الكامل للنزعات التي تحاول تشويه القيم، وتحريف التاريخ، وبالتالي تحاول أن تشكل ـ مثل النزعات الشعوبية كلها ـ مضاداً لحركة الثورة العربية ومضاداً، لحركة القومية العربية والوحدة العربية. .

وهذا المضاد الشعوبي، المتمثل بالتيار المتصارع غير المتجانس، والحاقد معاً لم يشكل في الوطن العربي ـ قوة مؤثرة على الوعي القومي العربي . . . وإن يكن مضاداً تخريبياً مشوهاً ومشوشاً معاً . . ولكن حسبنا أن أبناء الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، يعون جيداً دورهم القومي العربي، ويقفون ضد أي تجاوز على هويتهم ويقينهم، وبالتالي ضد أي تجاوز لكيانهم العربي القومي الوحدوي.

في هذا الملتقى، ومن هذا الملتقى، نحييكم باسم الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، راجين أن تتمخض أبحاثكم ومداخلاتكم وحواراتكم عن الجدوى الحقيقية، والنموذج لأصالة أمتكم العربية،

والسلام عليكم

كلمة الدكتور ناجح الراوي

نقيب المعلمين في الجمهورية العراقية

السيدات والسادة الحضور،

أرحب بكم أجمل ترحيب، وأبارك الجهود التي بُذلت للاعداد لهذه الندوة الفكرية، التي يسُر نقابة المعلمين أن تشارك فيها بنخبة متميزة من أعضائها، انطلاقا من إيمانها العميق بأهمية الدراسات العلمية والحوار الهادفِ لتشخيص الطريق السليم. فما الوحدة العربية هدفٌ مركزي من أهداف حركة الثورة العربية، وحلم من أحلام الجماهير العربية. استقطبت جهود المفكرين العرب ومنظماتهم الشعبية والمهنية، لما لها من أولويات بين أهداف حركة الثورة العربية، ولما يمكن لها أن تلعبه لعلاج مشاكل الوطن العربي المجزأ.

أيها السادة

في العام الماضي شاركتْ نقابة المعلمين، وفي هذه القاعة، في الندوة الفكرية حول التعليم والوحدة العربية، ويسرنا اليوم أن نشارك في هذه الندوة حول دور الأدب في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، والاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.

ونقابة المعلمين إذ تشارك في هذه الندوة الفكرية، وفق منظور دور الأدب في الوعي القومي والوحدة العربية، فإنها تدرك أن التوعية في هذا الاتجاه تشكل الربط الحقيقي بين توظيف الأدب وتعميق دوره، وبين تأكيد هذا الدور في تحقيق الوعي القومي والوحدة، فقد استطاع الأدب أن يأخذ هذا الدور ويستثير في نفوس أبناء الأمة دواعي الاعتزاز وعناصر التوحد والحس القومي. فقدم الأدباء من خلال انتاجهم المتميز، في مراحل مختلفة من تاريخنا نتائج حميدة، واستطاعوا أن يدفعوا الجماهير إلى مواضع متقدمة في استيعاب دورها

وتأكيد ذاتها وترسيخ قواعد وجودها. وكانت اللغة عاملا حاسماً في التعبير لأنها تمثل عنصرا أساسيا من عناصر شعور الجماعة بالانتماء والاحساس بالوجود، ولأنها تحمل أسباب الوحدة، وتمتلك دوافع التحرك وتؤدي مهماتها في استلهام الأحداث التاريخية المشتركة والذكريات الإنسانية التي طبعتْ وجودها على صفحات المجد الانساني.

واللغة دائما تعطي دلالتها الحية في التوجه نحو وحدة التفكير والاحساس بوحدة الأهداف التي تعبر عن المطامح المشروعة، وتشكل الرباط الخالد والامتداد الفكريّ الذي تُستمد منه أواصر الترابط. وتظل اللغة الوعاء الحقيقيّ والصادق لروح الجمهور المعبر عن تراثه الخالد وتجاربه المشتركة، ووجوده الانساني؛ لأن الجمهور يجد في أساليبها مسارب التعبير، وفي رموزها مجالات الاحساس.

أيها السادة

إن أمتنا التي تمر بمنعطف تاريخي حاسم تتطلع إلى إنتاج أدبائها وفنانيها ومفكريها ليقوم كل منهم بدوره في نهوض المجتمع وتطويره نحو الغد الأفضل.

أشكركم لتلبية هذه الدعوة، وأرجو أن تحقق الندوة الفكرية أهدافها من خلال البحوث المقدمة، والمناقشات الهادفة والآراء الموضوعية، لتكون لبنة جديدة في طريق البناء.

والسلام عليكم

كلمة الأستاذ حميد الهيتي

مقرر الندوة

هذه هي جلسة الافتتاح للندوة الفكرية عن دور الأدب في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية، التي تنظمها المؤسسات المشاركة وهي مركز دراسات الوحدة العربية، واتحاد الأدباء والكتاب العرب، ونقابة المعلمين في الجمهورية العراقية.

إن الندوة تقصد بهذا العنوان أن تلفت نظرنا إلى دور الأدب في الوعي القومي، بصورة عامة، وإلى إسهامه في الدعوة إلى الوحدة العربية بصفة خاصة. وإذا كان الأدب قد لعب دوره لدى أمم الأرض جميعا في التعبير عن أفكار تلك الشعوب وأصالتها ونزوعها نحو تأكيد ذاتها وتحررها وانعتاقها، فإن أدبنا العربي كان في مختلف العصور التاريخية ملتزما ورائدا في هذا المجال. إن الأدب العربي وبصورة خاصة الشعر قد أثبت دوره بهذا المفهوم، قبل الإسلام وبعد الإسلام، وفي إبان الدولة العربية الأموية والدولة العربية العباسية وحتى العصر الحاضر. ومن بخس الأدب العربي حقه ونفى عنه أنه فارق هذا المفهوم قبل الإسلام أو بعده، فقد وهم كثيرا لأن الشاعر العربي قبل الإسلام أكد دوره القومي ضمن المفاهيم السائدة في عصره. ولعل ما فعله الشعراء العرب إبان حرب ذي قار كان وجها من أوجه التوجه القومي النازع إلى الوحدة العربية، والمتصدي للاستعمار الفارسي حينذاك. ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر هذا البيت للأعشى حين أسف ألا يكون العرب جميعا قد شاركوا في هذه الحرب، لأنها شرف للعرب جميعا حين قال بهذا الخصوص:

لو أن كل معد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

وكان هذا الموقف أيضا قد فعل فعله في قلب الرسول العربي العظيم محمد (ص) حين بلغه انتصار العرب على الفرس وقال: الحمد لله الذي بشرني بهذا اليوم، فهذا أول

يوم انتصف به العرب من العجم. وعلى مدى التاريخ ومسيرته كان الشاعر العربي ملتزما بالقضية. والشواهد كثيرة عن الأدباء والشعراء الملتزمين في عصر الدعوة الإسلامية، ولعل العدد المعلوم لديكم يشير إلى الحجم المعروف في الاتجاه النازع نحو تأكيد وجود الأمة العربية، ووحدتها ودورها الفاعل في التاريخ. ولم يتخل الشعر العربي، والأدب العربي بعامة، عن هذا الدور حتى في العصر العباسي الثاني، رغم تآمر الشعوبية على الوجود العربي. ويخطىء من يقول إن الأدب العربي في تلك الحقبة قد سخر للسلاطين فقط، يمدحهم ويتملقهم، لأن الباحث فيه بوعي وإدراك يجد من خلاله ومضات نيرة كثيرة وواسعة من الأدب المتصدي والرافض. إن عددا واسعا من الشعراء قد عارض وانتصر للعروبة بطريقته الخاصة. فمنهم من جابه بالثورة، ومنهم من جابه بالفكر الرصين، ومنهم من اعتمد الطريق السلبي بالرفض أو السخرية في الرفض. ومن نماذج ذلك أدب المكدين وأدب المقامات وأدب الشعر القومي وأدب الفتوة العربية وأدب الصوفية، وما شابه ذلك من الآداب المتصدية أو الرافضة حينئذ.

البيان الختامي

للندوة الفكرية عن دور الأدب في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية

في ضوء التوجهات القومية للمؤسسات والمنظمات والاتحادات الثقافية العربية، وما ترسمه المرحلة الحاضرة من نضال الأمة العربية من مهمات على طريق نضالها ضد الإستعمار والصهيونية وقوى الرجعية والظلام.. نظم مركز دراسات الوحدة العربية والاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ونقابة المعلمين في الجمهورية العراقية ندوة فكرية عن «دور الأدب في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية» وعقدت الندوة في مقر نقابة المعلمين في بغداد للفترة من ٢٨ ـ ٢٩ نيسان ١٩٨٠.

وقد تضمنت أعمال الندوة ـ إلى جانب مراسم جلسة الافتتاح ـ أربع جلسات صباحية ومسائية قدمت فيها ونوقشت ثمانية بحوث استعرضت ودرست الأدب العربي عبر العصور المختلفة للأمة العربية، كاشفة عن مدى إسهامه في التوجه القومي للأمة العربية، وفي النضال من أجل تحررها ووحدتها الشاملة.

وقد اتفقت جميع البحوث المقدمة على إبراز حضور الأديب العربي على امتداد تاريخ الأمة، على مستوى التعبير عن ضميرها وتأكيد النزوع القومي المتوثب لشعبها.

وفي إطار هذه البحوث والمناقشات التي أغنت مضامينها يمكن تحديد أبرز الاتجاهات التي ظهرت في هذه الندوة والمتمثلة في:

أولا ـ وفاء الشعر العربي قبل الإسلام بمسؤولياته القومية، وتأكيده الذات العربية. فقد تمكن الشاعر في هذه المرحلة من التعبير عن الحس القومي العربي، متخذا من الشعر سلاحا من أسلحة التصدي للأعداء في الدفاع عن الوجود العربي والذات العربية وتأكيد قيم البطولة العربية. وقد كانت معركة ذي قار وانتصار العرب فيها على الفرس مثلا صادقا

على هذا التوجه الذي أغنى الشعر العربي بقيم الاعتزاز القومي، والروح العربية.

ثانيا ـ استيعاب الأدب العربي في العصر الاسلامي لمهماته القومية، ومواكبته لمراحل الثورة الاسلامية التي حملت قيمه إلى أمم الأرض جميعا. وقد تمثل الدور الريادي للأدب في هذا العصر في تلك النماذج الناضجة التي جسدت الجانب الملتزم في مرحلة مبكرة من تلك الثورة. وقد تأكدت هذه القيم وتبلورت على نحو أكبر وأكثر إشراقا مع امتداد حروب التحرير العربية في عصر الراشدين والأمويين. فقد كان الأدب في هاتين المرحلتين أمينا على حمل رسالة الأمة، قوميا وإنسانيا، إضافة إلى ما مثّله من مظاهر الاعتزاز بالأمة ورسالتها.

ثالثا ـ أما في العصر العباسي فقد برزت قدرة الأدب العربي على استيعاب مسؤولياته القومية الواسعة في ظل الدولة العربية بالتأكيد على وحدة الوجود العربي والذات العربية متحديا كل القوى الطارئة التي استهدفت الأمة العربية وجودا ومصيرا، كالحركات الشعوبية المناهضة لروح الأمة العربية وجوهر رسالتها الإنسانية. وقد اقترن التزام الأديب العربي في هذا العصر بالربط بين المضمون القومي والاجتماعي في أدبه وبين المستوى الرفيع لتعبيره، مما عزز موقع الأدب في الحياة وعمق تأثيره فيها.

رابعا ـ حتى إذا جئنا إلى عصرنا الحديث، وجدنا أن الأدب فيه قد استلهم ذات الأبعاد والمواقف، مضيفا إليها إسهامه في تنبيه الأمة الى ما يحيق بها من مخاطر، جاعلا من مختلف أساليب التعبير فيه وسيلة مهمة من وسائل نشر الوعي القومي، بتأكيد شخصية الأمة العربية، في عمقها التاريخي بما فيها من رموز البطولة، داعيا إلى التحرر والوحدة، نابذا كل ما أشاعته فترات الاحتلال والاستعمار الأجنبي من عوامل الانحطاط والتجزئة.

إن ندوتنا الفكرية هذه، وهي تتخذ من الأدب العربي ودوره في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية موضوعا لها، تجد في الأدب فعلا من الأفعال المؤثرة في العملية التاريخية وفي رفد الطاقة النضالية للإنسان العربي بشحنات إيجابية خلاقة لبناء الشخصية الجديدة.

فالأدب في مثل هذه الحال، يمثل قوة مؤثرة في الواقع من خلال تفاعلها مع جوهر الشخصية الفردية والاجتماعية. لذلك فنحن ننظر إلى الأدب من خلال علاقته بالمعاناة الفكرية والنضالية، وصلة هذه المعاناة بتجربة الأمة، من خلال الارتباط بحركة التاريخ العربي المعاصر.

والأدب القومي، كما نعنيه هنا، يتمثل في ذلك الجانب المعبر عن حقيقة الوجود

العربي بما فيه من صراع. . صراع الانسان العربي مع كل ما يحيط به ويطوقه من قيود، خارجية أو داخلية، لتحرير هذا الانسان وتحقيق ذاته القومية. فالأدب القومي، في أساسه، أدب صراع.

وإننا إذ نطرح هذه الأبعاد التاريخية في ندوتنا هذه إنما ندعو الأدباء العرب إلى تجاوز ما في واقعهم من سلبيات ليكون إنتاجهم معبرا عن إرادة التغيير لواقع الأمة، بما فيه من تخلف وتجزئة ونظرات لا تنسجم مع الفكر القومي. . كما نؤكد أن الاتجاه القومي الوحدوي التحرري الاشتراكي هو الاتجاه المعبر عن روح الأمة وجوهر أصالتها التاريخية والحضارية.

وفي هذا السياق من فهمنا لوظيفة الأدب، نؤكد دوره الخطير والكبير في بناء المجتمع وإيقاظ الوجدان العربي، وتحقيق النهضة العربية في المجالات كافة. .

وفي ظل هذا التصور تتسع أمام الأديب العربي المعاصر في نظرته الشاملة إلى واقع الأمة العربية مجالات كبيرة ينفذ من خلالها إلى ميادين العمل الفني الملتزم في مسيرة الثورة العربية، وفي تصديها لأعدائها، وفي بث الوعي في صفوف الجماهير العربية. ونجد أن الكتابة للأطفال من مثل هذا الموقف وهذه الرؤية إحدى المهمات المطروحة على الأديب اليوم، باعتبار الأطفال رصيد الأمة في غدها المتطور.

وختاما، تقرر الندوة إعتزازها بعطاء الأدب العربي في عصوره كافة، مؤكدة دعوتها للأديب المعاصر إلى تقديم عطاء استثنائي أفضل يتكافأ وطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة العربية في صراعها المرير ضد الاستعمار والصهيونية وقوى الظلام.

وإننا لعلى ثقة عالية بالنصر

ملاحظة تصويبية

لقد تم ضبط مناقشات الندوة عن طريق أجهزة التسجيل وقد حدثت أخطاء فنية أدت إلى سقوط بعض المقاطع من المناقشات وتشويش بعضها الآخر لذلك فإن المناقشات المثبتة في هذا الكتاب ليست كاملة الأمر الذي يقتضي التنويه والاعتذار.

الفصل الأول

الأدب والوعي القومي
آراء فيما يجب أن يكون

الدكتور سعدون حمادي

إذا كانت نقطة البداية في تكوين المعرفة هي ملاحظة الظواهر المحيطة بالإنسان، إجتماعية وطبيعية، وإذا كانت الطرق لتفسير أو تكوين رأي حول معنى تلك الظواهر وعلاقاتها ببعضها متباينة، وإذا كان الالهام أحد تلك الطرق، عندها يكون الأدب طريقاً من طرق المعرفة. ففي مجال العلوم الطبيعية يلاحظ الباحث الظواهر الطبيعية المحيطة به، ويتأثر بها من حيث أنه يكوّن الرغبة في معرفة معناها وارتباط بعضها بالبعض الآخر كنتيجة وسبب، ويستخدم البحث العلمي كطريقة للوصول إلى المعرفة. وفي مجال العلوم الاجتماعية يتأمل الباحث في الظواهر الاجتماعية وتتكون لديه الرغبة في تفسيرها. وقد يستخدم لذلك الطريقة العلمية المعروفة.

ولكن بجانب ذلك هناك طريق آخر للمعرفة هو طريق الالهام، أو النفوذ إلى حقيقة الأشياء عن طريق التأمل والانفعال الداخلي والاندماج بالظواهر المدروسة، وبالتالي تكوين موقف منها أو استنباط تفسير لها. إن العبقرية، وحدّة الذهن، وصفاء النفس صفات من شأنها تقريب الإنسان من الحقيقة ومساعدته على النفوذ إليها احياناً. ولا يحدث ذلك بواسطة الطريقة العلمية المعروفة، أو عن طريق استخدام القواعد العقلية والاستنتاج، بل عن طريق الالهام. لذلك فالأدب وسيلة من وسائل المعرفة، وطريق من طرق الوصول أو الاقتراب من الحقيقة، مع الفوارق التي ذكرناها بينه وبين البحث العلمي أو البحث الاجتماعي. ولكن لا بد من زيادة إيضاح هذه المسألة.

في البحث العلمي أو الاجتماعي تكون مادة البحث هي الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية حسب الحالة، ويكون العقل هو أداة التحليل والاستنتاج وتكوين المعرفة. أما في الأدب، فيمتزج العقل الاحساس، ويتفاعل الوضع الذهني بالوضع النفسي في تلك

العملية، أي عملية مراقبة الظواهر والانفعال بها وتكوين موقف منها. ولا تخضع عملية التفاعل هذه إلى قوانين ثابتة ، كما أنها وهي تتحقق لا تمر بخطوات معروفة مكررة في كل حالة كما هو الحال في البحث العلمي أو البحث الاجتماعي. إن انفعال الأديب بما يحيطه، وتكوين تفسير لذلك، مسألة إنفعـالية يتفاعل فيها الأديب ذهناً وروحاً. وقد تحدث هذه العملية عند كل أديب بشكل خاص، وقد تحدث في كل عملية بشكل خاص أيضاً، أي أنها تتباين من حالة لأخرى عند نفس الأديب.

ثمة مسألة مهمة لا بد من التعرض لها في هذه الملاحظات التقديمية هي أن الأدب، كعملية تفاعل بين الأديب والظواهر، يبحث عن مواضع الجمال في الظواهر التي ينفعل ويتأثر بها والتي تكون موضوعاته. والمقصود بالجمال طبعاً هو ذلك المعنى الواسع للجمال الذي يتعدى المعنى العامي المتداول المقصور أحياناً على جمال الطبيعة وجمال المرأة. فالجمال في الأدب والفن هو قيمة عليا قوامها التلاؤم بشتى أنواعه، فهو يشمل التلاؤم بين الظواهر المادية من مقاييس وتناسق الوان.. الخ كما يشمل التلاؤم في الأفكار والمواقف. هو التلاؤم الحسي من خلال الحواس والتلاؤم الروحي من خلال الفكر.

-٢-

والآن ما هي علاقة ذلك بالقومية العربية؟

القومية العربية كما عرفت في الأدبيات القومية هي إيمان، والمقصود بذلك أنها شعور داخلي موجود عند الفرد العربي كوّنه المزيج من العوامل خلال التاريخ الطويل. والشعور الداخلي هذا قد يخفت في ظرف من الظروف، ويتنبه في ظرف آخر، وذلك ما يدعى بشعور الانتماء والسمة القومية. والشعور بهذا المعنى لا يتكوّن نتيجة لنشاط الذهن، وهو ليس من نتاج البحث العلمي في الظواهر الاجتماعية، أي أنه ليس ظاهرة تجلب انتباه الانسان فيحللها بطريقة علمية أو استنتاجية، ويتوصل إلى الاقتناع بها، بل هي شعور ذاتي داخلي موجود عند الفرد العربي كما هو موجود عند أفراد الأمم لأخرى. وبالطبع، القول بأن القومية العربية هي إيمان يجب ألاّ يقود إلى المعنى الخاطىء، المتداول أحياناً عند البعض، الذي يقرن الايمان بالتعصب. فبين التعصب والايمان فرق كبير لسنا في صدد بحثه الآن. الإنسان يؤمن بقيم عليا ويشعر بها داخلياً كنتيجة لفعل الضمير كالايمان بالعدالة، والايمان بالحرية، والايمان بكرامة الانسان. إن الايمان بهذه القيم كما هو واضح لا يتكون بطريقة البحث العلمي أو العمل الذهني، بل هو إدراك لقيم عليا. من ذلك نصل للاستنتاج إن إيمان العرب بالقومية العربية، وبالتالي إيمانهم بوحدتهم ومستقبلهم كأمة واحدة، ليس

مسألة يتوصل إليها الفرد لعربي عن طريق البحث العلمي ، كما أن الايمان بالقيم العليا لا يتوصل إليه الانسان عن هذا الطريق.

إذن هناك شيء مشترك مهم بين الأدب وبين القومية العربية. الأدب طريق من طرق المعرفة يعتمد على الالهام والشعور الداخلي الذي يتفاعل فيه العقل والنفس، والقومية العربية هي إيمان أساسه شعور داخلي. إن الأدب وسيلة ملائمة للتعبير عن مشاعر الانسان الداخلية سواء أكانت المشاعر المتعلقة بادراكه لهويته وانتمائه، أو إدراكه للقيم العليا، أو فهمه للظواهر المحيطة بالانسان - طبيعية أو إجتماعية. إن الأديب كانسان موهوب، يجتمع فيه صفاء الذهن وعمق الشعور وحساسية الروح، يستطيع أن يعبر عن أحاسيسه الداخلية بصورة أدق وأسرع من الفرد الاعتيادي. لذلك كان الأدب أقرب الوسائل للتعبير عنها، والأديب يجد بأدبه أحسن أداة للافصاح عن مشاعره الداخلية. هذا فيما يتعلق بعلاقة الأديب بالشعور القومي.

وأخيراً لا بد من كلمة عن دور الأدب في بث الوعي القومي. عندما نقول إن الأدب وسيلة ممتازة للتعبير عن الشعور القومي نقصد بذلك شيئاً معيناً. إن عبقرية الأديب وحساسيته تتجلى في قدرته على توضيح أبعاد ذلك الشعور، إذ المقصود بالشعور ليس الاحساس المبهم الموجز الذي يأتي كومضة غامضة لا تلبث أن تزول، وإنما ذلك الاحساس العميق الذي يحرك جميع الحواس الداخلية، ويحرك الذهن ذاته، ويساعد على رسم كامل صورة الموضوع أو الجزء الأعظم منها. فهو الذي يذهب لرسم التفاصيل والأبعاد والألوان، ويوحي بمغزى الأمور وعلاقاتها ببعضها، ويفصّلها ويوحي بما يجب أن يكون. إن هذا النوع من الادراك الذي يتكون عند الأديب لا يتكون عند الانسان العادي، فالنفس البشرية عند الأديب تتقدم وتتأثر وتوحي بشكل مختلف عنها عند الانسان العادي. لذلك يقال إن العبقري أو الأديب يستطيع التعبير عن روح الأمة، ويرسم صورة أوضاعها، ويتنبه للأخطار التي تحيط بها، ويتنبأ بمستقبلها؛ أفضل وأسرع من الفرد العادي. ولذلك كان للأديب رسالة. الأديب الذي يتنبه عنده الشعور القومي بهذا المعنى الواسع للشعور يستطيع أن يساعد الانسان الاعتيادي في إدراك هذه المعاني التي لم يستطع أن يتوصل إليها بقواه الذاتية لأنه ليس أديباً ولا عبقرياً. ذلك هو دور قيادة الجمهور للتوصل إلى ما توصل إليه الأديب، لادراك ما أدركه هو بصورة أوضح وبوقت أقصر مما أدركه الجمهور الاعتيادي. لذلك كان الأدب سباقاً في فهم أوضاع الأمة، وتشخيص أمراضها، ورسم مستقبلها، ولذلك كانت الثورات غالباً ما تسبقها نهضة أدبية وفكرية، تدل عليها، وتقود الجماهير في طريقها، كما حدث في الثورة الفرنسية والثورة الروسية.

طبعاً ليس كل الأدب أدباً أصيلاً، كما ليس كل الأدب أدباً جيداً. ولذلك فليس كل الأدب أدباً مؤثراً في الجماهير، ولكن بمقدار ما يكون الأدب أصيلاً بمعنى الصدق في التعبير عن الشعور القومي، وبمقدار ما يكون الأدب عميقاً وجيداً في رسم أبعاد ذلك الشعور، بالمعنى الواسع للشعور، بذلك المقدار يكون الأدب مؤثراً في بث الوعي القومي، أو تحريك الوعي القومي بعبارة أدق. وهذا هو المعنى الحقيقي للقول «إن الكلمة التي تخرج من القلب تقع فيه». وأود بهذا المجال أن أورد مثالاً مبسطاً على ذلك. أتذكر في ١٩٤٨ عندما وقعت كارثة فلسطين وقامت الحرب سمعت، وكنا طلاباً صغاراً، من زميل لي في المدرسة يقول إن المطلب المهم بالنسبة لنا الآن هو السلام، وكانت الحركة الشيوعية في العالم تقود حملة أنصار السلام بذلك الوقت. إن تلك الكلمة لم تلامس قلبي، ولم تجد الاستجابة في نفسي، ولم اكن في ذلك الوقت منتمياً لحركة سياسية. ولكني كنت اشعر بالانتماء للأمة، وأفهم مغزى ما يحدث في فلسطين، فوجدت بذلك الكلام شيئاً لا يمت لواقع الشعور بصلة إنها كلمة لم تكن صادرة من القلب ولم تقع فيه.

الأدب هو أفضل وسيلة للتعبير عن الشعور القومي، والعلم أفضل وسيلة لشرح ذلك الشعور.

- ٣ -

وبعد تلك الملاحظات في التعريف والامور العامة، نتحول الآن لصلب الموضوع ألا وهو ما يجب أن يكون عليه الأدب[١] كوسيلة لايقاظ الشعور القومي والوحدة العربية. ولكننا ـ كما هو منطقي ـ لا نستطيع أن نفعل ذلك دون أن يكون الواقع الذي عليه الأدب الآن منطلقاً لذلك. وبعبارة أخرى، لا بد من أن نقول بعض الشيء عن هذا الواقع.

لم يستطع الأدب في وضعه الحالي أن يكون معزولاً عن الوضع الفكري والثقافي الذي نمر به، والوضع الفكري والثقافي الذي نمر به الآن هو وضع هابط ومتأثر، بدلاً من أن يكون في وضع الصعود والأصالة. لقد تأثر الفكر العربي بتيارات الفكر الغربي، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وما موجة ظهور الأدبيات الماركسية بالشكل الذي يلفت النظر إلا مظهراً لذلك. لم يكن إدخال الأدبيات الماركسية في الثقافة العربية بدافع الاطلاع، بل غالباً ما كان ذلك بدافع التقليد. لذلك كان دخولها بشكل فج وبدون اختيار، وبكل ما فيها من

(١) إنني في هذا البحث أود الايضاح انني عندما اتحدث عن الأدب أقصد في الغالب الشعر، وربما كان ذلك قصوراً إلا أنه حقيقة أملتها علي أن معرفتي بالشعر (ورغبتي فيه) هي أكثر من معرفتي ورغبتي بابواب الأدب الأخرى. لذلك يلاحظ القارىء أن الأمثلة التي أوردها غالباً ما تتعلق بالشعراء دون غيرهم من الأدباء.

تناقضات. وقد عكس الفكر العربي لحد بعيد ما بداخل تلك الأدبيات، وكان مجال النقد والاختيار والتطوير والتهذيب محدوداً ومعروف موقف الأدبيات الماركسية من القومية كقضية، ومن القومية العربية بالذات. إنه موقف يتراوح بين عدم الاهتمام والتقليل من الأهمية، إلى موقف العداء والحقد الذي تجلى في كتابات بعض قادة الماركسية من الشعوبيين في البلاد العربية وذلك أمر معروف. صحيح أن موقف الأدبيات الماركسية قد تغير مؤخراً في بعض الأحيان، وأصبح أكثر تلاؤماً مع حركة القومية العربية، إلا أن ذلك لم يكن من الوضوح والحسم الكافي فبقي في أحسن حالاته موقف الاستجابة للظروف أكثر من موقف الصدق مع بعض الاستثناءات.

ثم أتت الحوادث السياسية التي أدت إلى هبوط الروح المعنوية، ففشل الوحدة بين سورية ومصر، ونكبة الخامس من حزيران، قد ساهمت لدرجة مهمة في تكوين الجزر في الشعور بالوحدة العربية، وانعكس ذلك في الفكر السياسي. وهكذا أخذ الفكر السياسي يتحول عن المنهج، الذي بدأ بالتصاعد منذ بداية النهضة العربية الحديثة، معبرة عنه الأدبيات الواسعة نسبياً في القومية العربية والوحدة العربية، إلى منهج أفرزته الظروف المحيطة، وأساس الظروف المحيطة هو الانكسار النفسي الذي ولدته التطورات السياسية التي مر ذكرها. وفي ظرف الانكسار تأثر الأدب كما تأثر الفكر السياسي. لذلك لم تعد القومية العربية والوحدة العربية والنهضة العربية ما يشغل اهتمام الشعراء وتكون مواضيع شعرهم.

فمن حيث الموضوع، أصبحت القضية الاجتماعية، وترجيع حوادث العالم المحيط بنا، هي المواضيع العامة في مادة الشعر. ومن ناحية أخرى، ظهر الاهتمام بالنفس ومعالجة القضايا النفسية الخاصة، فالنفس البشرية وما يتفاعل فيها، وما يحدث بداخلها من الانفعالات، وما يتكون فيها من عقد وآراء ومواقف، أصبحت من المواضيع التي يعيرها الشاعر اهتماماً بارزاً، وبذلك ظهر ما يمكن أن يطلق عليه إسم الشعر النفسي. وجاء ذلك مقروناً بالغموض والتعابير غير المألوفة والأوصاف الغريبة. أما شعر القضية الاجتماعية فكان أكثر اهتماماً بالأمور العامة، ولكنه هو الآخر شعر الانكسار النفسي، والهروب من الواقع، والتعويض عن معالجة القضية الأساسية وهي القضية القومية. أما في مجال الأسلوب فقد ظهرت مدرسة الشعر الحر، وميول الخروج من الخصوصية القومية إلى الاندماج في التيارات والأساليب العالمية. إن ظهور الشعر الحر مهما قيل عنه لا يمكن في الحقيقة إلا أن يكون مظهراً من مظاهر الانحسار في الشعور القومي، فهو ليس قضية تتعلق بالشكل أو الطريقة، بل هو في النهاية تعبير عن موقف قومي. هذه بنظري هي مجمل

سمات الأدب في الوقت الحاضر، وهي التي تشكل نقطة الانطلاق في بحث ما يجب أن يكون عليه الأدب. أقول ذلك ولا أقصد أن هذا التحليل كامل، أو أنه بدون استثناءات، أو أنه لا توجد بجانبه ظواهر إيجابية سأتعرض لها فيما بعد.

- ٤ -

في بحث ما يجب أن يكون عليه الأدب أو الشعر في مجال بث الوعي القومي، لا بد من جلب الانتباه إلى ضرورة ترسيخ النظرة لوحدة الوطن العربي عن طريق التأكيد على ترجيع أصداء ما يحدث في أحد أقطارها من قبل الأقطار الأخرى، وذلك هو أحد معاني تجاوز الحدود وتقوية الرابطة القومية. هل ما يحدث في قطر من الأقطار العربية من حوادث قومية هو من شؤون ذلك القطر وحده، أم أن العرب جميعاً يجب أن يتجاوبوا مع ذلك فرحاً أو حزناً؟ الجواب في المنظار القومي معروف، وليس المقصود في هذا المجال هو ترجيع صدى الأمور الداخلية لكل قطر مما لا يعكس معنى قومياً، بل ترجيع صدى الحوادث والتطورات ذات المعنى القومي كمقاومة الاستعمار والاعتداء على السيادة والأمور التي تتعلق بسلامة الأرض العربية وقدسية حدودها الجغرافية مع جيرانها. إن كل ما يتعلق بوحدة قطر مع قطر آخر، وكل ما يتعلق بتعاون الأقطار العربية جماعياً أو جزئياً يقع في هذا النطاق. وأود أن أقول إن ترجيع الصدى والتجاوب يجب ألا يقتصر على النكبات والمحن، بل يجب أن يكون في الانتصارات والافراح أيضاً. إن تجاوب الأدب مع ذلك، وتحويله لمادة للانتاج، من شأنه أن يقوي الشعور بالوحدة وبالرابطة القومية وينعش الوضع النفسي المتلائم مع القربى والانتماء الواحد والمصير المشترك، ويضعف الشعور الاقليمي الذي يتكون بصورة تلقائية بظل أوضاع التجزئة ويفتح ثغرة في جدار الحدود الاقليمية. إن أثر هذا التجاوب الأدبي على الجماهير عظيم ويجب عدم التقليل من أهميته. لقد قام شعراء بداية النهضة العربية بهذا الدور على أفضل مما يقوم به شعراؤنا الآن، فما أروع قول الرصافي عن تونس:

أَتُونُسُ إنَّ فِي بَغْدَادَ قَوْمَاً ... تَرِفُّ قُلُوبُهُمْ لَكِ بِالوِدَادِ
وَيَجْمَعُهُمْ وإيَّاكِ انْتِسَابٌ ... إلَى مَنْ خُصَّ مَنْطِقُهُم بِضَادِ
فنحنُ على الحقيقةِ اهلُ قُربى ... وإنْ قَضَتِ السِّيَاسَةُ بِالبُعَادِ

إن هذه الابيات معروفة في تونس ويحفظها الكثير، وقد أنشدت لنا في مناسبة قريبة كنا بها في زيارة لهذا البلد العربي. وقصيدة شوقي: سلام من صبا بردى. . . . عن احتلال غورو لدمشق معروفة يتغنى بها الطلبة في كل مكان من الوطن العربي.

لم يكن معروفاً عن شوقي أنه قال شعراً مباشراً في بث الشعور القومي، ولكنه

بترجيعه صدى ما حدث لسورية قد عبر عن ذلك الشعور أحسن تعبير، كما أن تخليده لاستشهاد عمر المختار على يد المستعمر الايطالي في قصيدته المعروفة:

رَكَزُوا رُفَاتَكَ في التُّرابِ لِواءا   تَسْتَنْهِضُ العَلْيَا صَبَاحَ مَسَاءا

قد أوضح للعرب وحدة في الشعور القومي من خلال تمجيد بطولة عربية ضد محتل أجنبي. إن هذا اللون من شعر التجاوب القومي وتقوية الروابط قليل الوجود الآن.

- ٥ -

وفي مجال المضمون أيضاً مطلوب من الأدب أن يقاوم ظواهر الانقسام وحوادث الفرقة في الوطن العربي، فالقطر العربي لا يمكن أن يرفع السلاح بوجه قطر عربي آخر، ولا يسفح دم عربي من قطر بيد عربية من قطر آخر، على أساس نزاع بين قطر وقطر آخر. والوطن العربي يجب ألا تقوم به حرب انقسامية بين محور ومحور، وألا تقوم به انقسامات طائفية أو مذهبية أو دينية أو عرقية. وألا يحدث فيه أي صراع يقسم الأمة ويشرخ وحدتها. إن مقاومة ظاهرة الانقسام أو الميول للانقسام موضوع مهم من المواضيع التي يستطيع الأدب أن يعالجها راسماً أبعادها وموضحاً المخاطر التي تنطوي عليها. إن وحدة الأمة وتلاحمها تحتاج دوماً إلى إيقاظ ضميريّ وتنبيه قومي، يكبح غرائز الانقسام والفرقة، ويقوي ميول الخير عند الجماهير. إن الميول الشريرة للانقسام، إن لم تجد تعبئة جماهيرية تقف في وجهها وتكبحها، من شأنها أن تنمو وتتسع. وهنا يستطيع الأدب أن يلعب دوراً مهماً في الدفاع عن الكيان القومي.

إن الوحدة القومية للأمة العربية يغذيها تراث مشترك من القيم الروحية والأخلاقية التي اقترنت بالنهضة العربية، تلك القيم التي تشكل عاملاً روحياً موحداً للأمة العربية، فتراثنا الحضاري، والأخلاق التي كرسها الإسلام، والقيم العليا التي ورثناها منذ أقدم العصور، هي من أقوى الروابط المشتركة للأمة العربية، وتشكل مادة واسعة وغنية يستطيع الأدب أن يتناولها ويشرح معانيها ويقدمها للجماهير بقوالب مفهومة وأسلوب ينبه فيها الميول لتلك القيم والمثل العليا. إن ما استطاع أبو تمام أن ينقله للعرب جيلاً بعد جيل من صورة أدبية رائعة لقيمة الشهامة والشجاعة والدفاع عن الوجود القومي، في قصيدته عما فعله المعتصم في يوم عمورية، يشكل مثالاً جيداً للمقصود في هذا المجال.

إن صياغة مشاهد من حياة المجتمع العربي القديم، والتقاط حوادث مهمة من التاريخ وتقديمها بصياغة أدبية جذابة، تنقل بصورة لا شعورية الاحساس المشترك بوحدة التاريخ، والاشتراك بالذكريات بحد ذاته عامل من شأنه تغذية الشعور الوحدوي. إن

الرواية الشعرية لأحمد شوقي عن مجنون ليلى التي مثلت في مدارسنا الثانوية، وشاعت أشعارها بين الشباب العرب في كل مكان من الوطن العربي، قد ساهمت في ذلك الجهد الأدبي الذي قوى الشعور المشترك بوحدة التراث. إن هجرة القبائل العربية من الجزيرة إلى شمال افريقيا تصلح لأن تكون مادة أدبية غنية في الشعر والرواية والمسرحية والقصص الشعبية على غرار أساطير أبي زيد الهلالي. إن رسم صورة الأصول المشتركة، واللهجات، أمور من شأنها تقوية الشعور القومي المشترك وتبديد أفكار العصبيات المحلية والعرقية التي بدأت تنشأ في بعض تلك الأقطار. فالتاريخ العربي غني بالمادة، ومليء بالحوادث ذات المغزى، وهو معين لم يغرف منه الأدب كما يجب بعد.

وليس أقل أهمية من ذلك تثبيت المبدأ الأساسي في الوضع القومي الذي نمر به الآن. إننا في وضع تكاد أن تهتز فيه صورة العلاقة بين القضايا العامة. لقد أصبحت القضية القومية عند بعض المثقفين قضية كإحدى القضايا الأخرى، كالقضية الاجتماعية وكقضية تجديد الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تحشر في عدادها وتقارن بها في حين أن ذلك أمر غاية في الخطأ وغاية في الخطورة. القضية القومية هي أساس كل شيء، ولا يمكن مقارنتها بأي هدف اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي آخر. إن وحدة الأمة العربية، وسلامة رقعتها الجغرافية، وسيادتها واستقلالها في داخل حدودها، أمر لا يمكن أن يرقى لأهميته أي شيء آخر، فهو الهدف الأول والرئيسي الذي يجب أن يتقدم على كل شيء سواه، فالأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أمور اجتهادية يصوغها العقل البشري، وهي نسبية، أي قابلة للتطور والتغيير بتغيير الظروف، في حين أن القضية القومية ليست كذلك. هذه المسألة المهمة تصلح أن تكون مادة للأدب يتناولها بالتوضيح. إن تركيز هذا الفهم والتأكيد على هذه المسألة من الأمور التي يستطيع الأدب أن يلعب فيها دوراً مهماً. ومما يؤسف له، ويدعو للقلق، هو أن الأدب ليس فقط أنه لم يستجب لذلك، بل حتى أنه ساهم في تشويش هذه العلاقة. المهم هو أن يؤكد الأدب على القومية العربية كأساس للحياة العربية لأنها مسألة الكيان والوجود للأمة. لذلك يجب أن تكون بعداد المقدس بالنسبة للأمة. فهي يجب أن ترسخ وتعمق جذورها وتبعد عن كل شك وتوضع فوق كل اعتبار. والأدب كوسيلة لمخاطبة العقل، وإقناعه، والتأثير في العاطفة، وتقوية النشاط البشري، يجب عليه أن يعمل على تكوين قناعة محسومة ونهائية في العقول والنفوس. إن قضية وجود الأمة هي أعلى وأرفع قضية وفي سبيلها يهون كل شيء آخر.

- ٦ -

لذلك وكتفرع من هذا التحليل، لا بد أن يكون للأدب دور وموقف أساسي من

قضية الدفاع عن الوطن بمعناه الجغرافي، أي رقعة الأرض التي هي الوطن العربي، فإذا جاز كل شيء في مجال السياسة، فلا يجوز أبداً التنازل عن أي شبر من رقعة الوطن، فالوطن العربي بحدوده المعروفة قضية تتفرع قدسيتها من قدسية وجود الأمة، أي من القومية العربية نفسها. وفي هذا المعنى التفصيلي، يستطيع الأدب أن يقوم بدور مهم في غرس مفهوم قدسية أرض الوطن العربي بشتى الوسائل والأساليب وعبر قنوات المخاطبة للعقل والعاطفة عند الفرد العربي. فوصف الطبيعة في الوطن العربي وكشف مواضع الجمال فيها بحد ذاته مساهمة في تقوية الروح الوطنية. . إننا بالفعل بحاجة ماسة لسبر أغوار النفس البشرية، ووصف ما يتفاعل فيها من عواطف وأفكار ومواقف في قضية العلاقة بين الانسان وأرض الوطن، ولدينا بذلك تجارب غنية. إن حياةاللاجئين الفلسطينيين عواطفهم وأفكارهم ومشاعرهم، أثناء تجربة النزوح عن الوطن، غنية بالمادة التي تصلح للابداع من أجل إخراج تلك المشاعر ووصف تفاصيلها للمواطن العربي. ويعني ذلك أن قضية الأرض والوطن يجب أن تكون موضوعاً رئيسياً لأدبنا الحديث من أجل أن يكون صادقاً ومؤدياً لرسالة. إن مشاعر الغربة وعدم الاتصال، وفقدان الاستقرار النفسي، وغموض المستقبل، ووضع الاختلاف عن الوضع الطبيعي، وفقدان الحماية، والشعور بانعدام الغاية من الحياة، والأمل في المستقبل، وغيرها من المشاعر التي تتكون عند من يفقد وطنه وأرضه، لم يتناولها أدبنا الحديث بالتصوير والتوضيح، وهو ما نحتاج إليه تماماً في ظل ظروفنا الحالية، ظروف الاضطراب والتهديد والصراع. .والذي يبدو أن الاهتمام بالشعر الاجتماعي قد خف منذ البداية الجيدة التي بدأها الرصافي في قصائده المعروفة كاليتيم في العيد، والأرملة المرضعة والسجن في بغداد.

إن الأمة العربية الآن في حالة تجزئة، وهي في حالة تهديد، وأجزاء من وطنها لا تزال محتلة ومسلوبة من قبل الأجنبي، وواضح أن الدفاع عن أرض الوطن، واسترجاع الأجزاء السليبة منه، والدفاع عن وجود الأمة وتوحيدها وبناء كيانها الجديد، إنما هي أهداف كبرى لا يمكن أن تتحقق إلا بالمعاناة وبالنضال. إن اعادة بناء الانسان العربي من جديد، وبدء النهضة العربية بحد ذاته، يحتاج إلى عملية النضال والمعاناة. لذلك فلا بد من ترسيخ هذه القيم عند الانسان العربي. ويعني ذلك أننا بحاجة إلى غرس مثل القتال والمجابهة، واقتحام الصعاب، وتنمية روح التحدي والتمرد على الواقع، ومقاومة العدو. إن قيم القتال، وروح الفروسية، ونظرة النضال، تحتاج إلى أن تغرس وتنمي في الفرد العربي. ويستطيع الأدب أن يؤدي دوراً مهماً في ذلك. بإمكان الأدب أن يتخذ من الاستشهاد، والعيش الصعب، والحياة الخشنة، والاقبال على النضال، والاستهانة بالموت، وتوخي البطولة

والمثل العليا، مواضيع ومادة له، بدلاً من وصف الحياة المترفة، وتمجيد اللذائذ المادية، والتعلق بمباهج الحياة، ووصف عواطف الاستقرار والركود، وتزكية مواقف المساومة والواقعية، وحلول التلاؤم ومواقف التردد. إن الأدب الذي يتجه نحو شحذ الهمم، وتجديد الحيوية، ونفخ روح الشباب، وتهيئة المواطن لمواجهة الظروف الصعبة المحيطة بالأمة، لا بد أن يمجد قيم الكرامة والرجولة والفروسية والمثل العليا، مقابل قيم المصلحة واللذة الحسية وقبول الأمر الواقع والقناعة بالموجود والتعلق بالحياة. إذ من الواضح أن مثل هذه القيم تعمل في الاتجاه المعاكس لما يجب أن يكون عليه الفرد العربي اليوم. وللأدب في كل ذلك دور: إما إيجابي وبذلك يكون أدباً متلائماً مع الثورة، وإما سلبي وبذلك يكون أدباً مشجعاً على الاستسلام.

إن أدب تحفيز الشباب يجب أن يحتل جزءاً مهماً من أدبنا الحديث، في حين أن شعراً على غرار «أمم تجد ونلعب» للجواهري لا يزال قليلاً نسبياً عندنا الآن.

- ٧ -

وبعد بحث قضية المواضيع، لا بد من الانتقال لبحث أمور ذات علاقة مهمة بقضية الأدب التي نتعرض لها الآن، هي قضية الأسلوب وقضية الجمال وقضية الالتزام. وفيما يلي شيء عن كل من هذه القضايا.

فيما يتعلق بالأسلوب، لا بد أن تبرز قضية مقارنة الأسلوب المباشر بالأسلوب غير المباشر. الأسلوب المباشر يعني ببساطة الافصاح عن الهدف مباشرة. فالشاعر عندما يقصد بث الوعي القومي يعمد إلى مخاطبة المواطن العربي بلغة مباشرة على غرار «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب» لليازجي. إن هذا الأسلوب لا بد أن يخاطب المشاعر ويتوجه للوجدان العربي، وهو بذلك يستطيع أن يؤدي مهمته القومية. ولكن حتى هذا الأسلوب المباشر يجب ألا يقتصر على معان محدودة، وصيغ قليلة في التعبير، فمجال الابداع فيه متوفر. والأسلوب المباشر يجب ألا يقتصر على مواقف الخطابة، وإلا تعرض للرتابة والملل والاقتراب من الحديث العادي. إن الشاعر أو الأديب المبدع يستطيع أن يكون مجدداً في اختيار المواضيع. فهناك التاريخ العربي بكل ما فيه من مواقف بطولية وحوادث يمكن، من خلال تصويرها، إعطاء الامثلة الجيدة، وإيصال القارىء إلى العبر التي يمكن أن تستخلص منها. إن استثارة الحماس القومي والدعوة للوحدة العربية من الممكن أن تصب في قوالب كثيرة، وأن تطرق في سبيلها المعاني الجديدة، حتى عندما يكون الأسلوب مباشراً يسمي الأشياء بأسمائها. وهو ما يجده القارىء في شعر الرصافي من خلال قصائد عديدة في تمجيد الأمة العربية

والدفاع عن وحدتها وحضارتها، كقصيدة « إلى الأمة العربية» وقصيدة «صبح الأماني» وقصيدة «في معرض السيف».

ولكن الأسلوب المباشر يجب ألا يكون الأسلوب الوحيد، وهو على كل حال ليس الأسلوب الأكثر تأثيراً في النفس، فالأسلوب الذي يعتمد المضمون الذي يوحي للقارىء بالمعنى المقصود، دون أن يقال ذلك صراحة، لا يقل تأثيراً عن الأسلوب المباشر إن لم يتفوق عليه. وهنا لا بد أن أشير إلى أنني شخصياً أرى أن الأسلوب غير المباشر، في غالب الأحيان، أكثر تأثيراً وأرحب مجالاً للتجديد من الأسلوب المباشر. فالشاعر يستطيع أن يطرق مواضيع لا حصر لها، ولكنها في النهاية تخلق في القارىء تلك المحاكمة العقلية، أو ذلك الاستنتاج الذي ينتهي بأن الوحدة العربية هي الهدف الذي يجب أن نسعى من أجله، وهي طريق الخلاص للأمة. إن إيراد الأمثلة غير المباشرة، ممكن كالتعرض لضروب حالات التجمع والانضمام والتضافر، مقابل حالات التنافر والانقسام والعداء، وهي أمور يتضح مغزاها في حالات الأفراد وحالات العائلة والقرية والمدينة وكافة مستويات التجمع البشري. إن أمثلة التعاطف القومي، والانشداد للأمة، كثيرة في التاريخ العربي، وأمثلة الاعتزاز بالعروبة واللغة العربية والأدب العربي كثيرة، كما أن حالات التشابك القومي بين القبائل واختلاط السكان العرب في التاريخ كثيرة أيضاً. المتنبي لم يذكر العرب والعروبة في كل قصيدة قالها بوصف حروب سيف الدولة، أو بمدح هذا الأمير، ولكن أليست كل قصيدة قالها في حروب سيف الدولة، أو بمدح هذا الأمير، تنضح بالاعتزاز بالعروبة وأرض العرب ضد الخطر البيزنطي، وتنم عن تمسكه القومي بالدفاع عن الأهل والأرض؟ ألم تتضح عبقريته بأحسن ما تجلت في وصف الحرب ضد البيزنطيين؟

لعل من أجمل ما قيل في الشعر القومي بأسلوب مجدد هو قصيدة الشاعر القروي «تحية اندلسية» حيث يسأل مخاطباً الأندلس العربية: «خبرينا كيف نقريك السلاما»، ثم يستمر في وصف المحن التي يمر بها العرب بأسلوب مشرق، ولغة مفهومة جميلة، ويقول ما معناه أننا لا نستطيع أن نهديك السلام بسبب تلك المحن وما نزل بالأمة العربية من نكبات.

ولكنه يعود لنفخ روح الأمل فيقول:

يَـا ابْنَـةَ الـزهـراءِ يـا أنـدلُسيَّـهْ
لَمْ يَـزَلْ فِيـكِ من المَجْـدِ بَقيَّـهْ
لَمَعَتْ فيهـا السُّيـوفُ المُشْـرفيَّـهْ

ضَـارِبَـاتٍ بِـزنُـودٍ عـربـيَّـهْ
فَعَلى مِثْـلِكِ لا تُـلْقَى الـتحيَّـهْ
بِـأَكُفٍّ لم يـجـرِّدْنَ حُـسـامَـا
خبِّـرينـا كيفَ نقـريـكِ السَّـلامَـا

ويستمر في أسلوب مبدع ويقول إذا ما نهضت بغداد وعادت لمجدها القديم، وإذا ما تحررت بيروت واستقل لبنان:

فَلَبِسْنَـا الْعِـزَّ أَوْ مِتْنَـا كِـرامَـا
عِنْدَ هذا سَوْفَ نُهديكِ السَّلامَـا

وفي مجال الحديث عن الأسلوب المباشر وغير المباشر، تجدر الإشارة إلى أن مدى التأثير وعمقه في المخاطب لا يعتمد على كمية ما يقال، ولا على التكرار، بل النوعية، أي على القدرة في إيراد المعنى الذي يرمز للمعنى المقصود، أي الذي يقدح في الذهن فكرة الوحدة العربية والتعلق القومي.

إن بريقاً واحداً قد يترك في النفس أثراً يفوق الكلام الكثير والتكرار الممل، كما أن عمق التأثير قد يعتمد في أحوال كثيرة على التدرج، أي أن يكون إيصال الفكرة للقارىء على مراحل، وبدفعات، وليس بجرعة واحدة. فتبدأ العملية مثلاً برمز أو إيحاء بسيط يتعاظم تدريجياً. ويصح ذلك خاصة في التفريق بين أدب الأطفال وأدب الشباب وأدب الكبار. فإيصال فكرة الوحدة وبث الوعي القومي في هذه الأنواع من الأدب يجب ألا يكون واحداً، بل متفاوتاً بالتدرج، ومتبايناً بالأسلوب، ليكون مؤثراً ومفيداً.

إن مسألة الأسلوب غير المباشر تورد للذهن أن اختيار الموضوع، كواسطة لنقل الفكرة، هو عمل إبداعي يتميز به الأديب المبدع. فالموضوع قد لا يمت للفكرة بصلة مباشرة أو ظاهرة للعيان، والأديب المبدع هو الذي يحسن اختيار المواضيع، ويملك القدرة على ابتداع المعاني الجديدة، وخلق الصور المبتكرة، وهو الذي يستطيع أن ينقل فكرته بوسائط وأواني عديدة. وقد تكون تلك الأواني بسيطة جداً لا ترد للذهن الاعتيادي، على غرار ما استطاع أن يفعله همنغواي في موضوع صياد عجوز يصطاد سمكة قرش في رواية الشيخ والبحر.

إن بعض المشاهد هي بنفسها تدل على المعنى المقصود، بحد ذاتها، ولا تحتاج إلى

التوضيح الصريح. فصورة لحياة عربي يتطوع للقتال في ثورة قطر عربي آخر هي بحد ذاتها ترمز إلى الرابطة القومية، ولا تحتاج إلى التوضيح الصريح لمعنى ذلك. إن القصة التي تجري حوادثها في عدد من الأقطار العربية، بدلاً من قطر واحد، بغض النظر عن المضمون تساعد على ترسيخ فكرة وحدة المجتمع العربي في الذهن وهكذا.

- ٨ -

والآن نأتي لمسألة الجمال. وبدون إسهاب في هذا الموضوع نقول إن الجمال قيمة عليا تتجلى في التناسق، وفي الألوان، وفي التجديد، وفي كل ما يثير الانفعال الراقي في النفس البشرية، وهو كقيمة عليا لا يستطيع إدراكها كل انسان، أو أن الأفراد لا يدركونها بدرجات متساوية أو بسرعة متماثلة. فبقدر ما تكون النفس مصقولة ومهذبة يكون إدراك الجمال، وبقدر ما تكون النفس شفافة والحس مرهفاً تكون المقدرة على التحسس بالجمال أكبر. إن إدراك الجمال والاحساس به من شأنه إن يثير في النفس نوعاً من الراحة والرضى والاغتباط، أو ما يقال عنه في اللغة الدارجة ما ترتاح له العين. والأدب ينقل أفكـاره ليس عن طريق الكلام الاعتيادي، بل عن طريق قوالب جمالية، وذلك ما يفرقه عن الكلام الاعتيادي. إذن فالأدب يبحث عن الجمال ويتوخاه كواسطة لنقل الأفكار. وحول هذه العبارة هناك ملاحظتان:

الأولى هي أن الجمال، كقيمة عليا عندما يستطيع الأديب اقتناصها أو تكوينها ونقلها للقارىء، يكون بذلك قد دل القارىء عليها، ولولا ذلك لما استطاع لوحده أن يهتدي إليها. إن ذلك يعني بشكل آخر، أو بمعنى آخر، أن الأديب يخلق للقارىء حالات الجمال، أي الحالات التي تتجلى بها قيمة الجمال، ويقدمها للقارىء بطريقة سهلة كاشفة. إن ذلك بحد ذاته يحرك في نفس القارىء شعوراً مريحاً، وانسجاماً فكرياً، واقتراباً من قيم عليا تخلق في النفس الراحة واللذة الفكرية، وتحرك بالتالي الفكر. والنفس، بتعرضها لصيغ الجمال، يحصل فيها ذلك الصقل الذي يقر بها، ويدربها على الادراك الأفضل لقيم الجمال. وبعبارات أخرى مألوفة، إن تـذوق الجمال بحد ذاته يخلق مزيداً من القدرة على التذوق، ومزيداً من رقة النفس والاحساس. وكل ذلك من شأنه أن يحرك الفكر ويزيد من قابلية الاسهام، لما للصفاء النفسي ورقة الشعور من علاقة وثيقة بصفاء الفكر وخصوبته وزيادة قدرته على التحليل والايغال في عملية تكوين المعرفة.

والملاحظة الثانية هي أن قوالب الجمال، وإن كانت واسطة لنقل الفكرة وإناء لها،

إلا أنها بحد ذاتها تتخذ من الأفكار مادة لها، أي أن الجمال ليس مجرد ألفاظ، ومجرد تناسق بين أمور مادية، فالجمال قد يتجلى، وربما كان أحسن ما يتجلى به هو الأفكار. وذلك هو معنى الحديث في مجال النقد الأدبي عن التجديد في المعاني عند الشعراء. فالمعاني الجديدة إنما هي صيغ جمالية.. وبهذا المعنى كما أتصور نستطيع القول أن الجمال غاية ووسيلة بنفس الوقت.

إن الأدب لا يمكن التفكير به بمعزل عن الجمال وإلا تحول إلى وعظ وإرشاد. أردت إيراد هذه الملاحظات بقصد إلقاء بعض الضوء على النقاش التقليدي القديم حول الأدب للأدب أم الأدب للمجتمع. ومعروف أن حديث هل الأدب للأدب يعني في الغالب هل يجب أن يتوخى الأدب الصيغ الجمالية في التعبير ويكتفي بذلك؟ هل إن رسالة الأديب تقتصر على الاهتمام بالجمال كقيمة عليا وإيصال المجتمع لها؟ أما الجزء الثاني من النقاش فيدور حول فيما إذا كان هدف الأدب الفكرة السامية التي يريد إيصالها للمجتمع. الأدب جهد إنساني يقوم به بعض الأفراد من أجل تقريب المجتمع لمجالات القيم العليا أو مساعدته للتقرب منها. فالحق قيمة عليا كما أن الجمال قيمة عليا. القومية العربية والوحدة العربية هي عين الحق. ولكن الدعوة لهذه القيمة العليا في مجال الأدب يجب أن تكون قوالبها جمالية مواضيعها من عالم الجمال. ومن الخطأ التصور أن القيم مفصولة عن بعضها بشكل جامد، فالقول إن الحق قيمة عليا، وأن الجمال قيمة عليا، يعني أن إدراك هذه القيم والاقتراب منها يتطلب صفاء فكرياً وحساسية نفسية، ويعني أن هذا الادراك يحصل بصورة متمازجة ومعقدة. وخلاصة هذا النقاش هي أن الأدب الأصيل، الذي يتجه نحو القيم العليا في الجمال، لا يمكن أن يعيش بمعزل عن القيم العليا المتجسدة في الحياة الحية وهي القومية العربية والوحدة العربية. كما أن إدراك القومية العربية والوحدة العربية، وغرسها في النفوس، وتقريب الذهن العام منها، بإمكانه أن يحصل من خلال صيغ جمالية، وبدون ذلك يتحول الادب إلى مجرد وعظ كما أشرنا.

- ٩ -

القضية الثالثة هي قضية الالتزام التي كانت ولا تزال مدار نقاش في أوساط الأدب والفكر. إن الأديب في عمله الأدبي يعبر عن هواجسه الداخلية، وما يدور أو يتكون في ذهنه من أفكار، فإن كان شعوره الداخلي قد نضج لدرجة إدراك الوعي القومي، فإن ذلك الذي تكوّن في داخله سرعان ما يكون محركاً لانتاج أدبي في هذا الاتجاه. إذا كان الأديب مدركاً للقيمة العليا التي ينطوي عليها الشعور القومي، وإذا كان قد توصل لذلك شخصياً،

وتفاعلت هذه الفكرة في داخله، ونضج ذلك الاحساس في نفسه، عبر عن ذلك تلقائياً في انتاجه الأدبي. وإن لم يكن لديه مثل هذا الشعور فيعني ذلك أن مشاعره لم تتطور بعد، وأن أفكاره لم تنضج لتبلغ هذا المستوى، وبذلك يكون تعبيره متناسباً مع ذلك المستوى، أي ما لديه من مشاعر داخلية. قد يكون ذلك الانسان موهوباً، وقد يكون مبدعاً في التعرف على صيغ جمالية، إلا أنه قد لا يكون قد تطور في فهم المعاني الكبيرة التي تهم المجتمع وتؤثر فيه. إن الأديب يعبر عما وصل إليه داخلياً في عملية التطور في طريق المثل والقيم العليا، ويكون إنتاجه متناسباً مع درجة ذلك التطور. إن عملية التطور هذه، إن لم تكن قد حصلت أو في طريق التحقق، فلن ينفع شيء في الدعوة للالتزام. وبعبارة أخرى يكون الأديب كما تكون مشاعره الداخلية.

إن توجه بعض الأدباء لمواضيع أقل أهمية لا يمكن تفسيره إلا بنقص في تطور مشاعرهم وأفكارهم، ومقارنة هذا الأديب بالأديب الملتزم هي نفس المقارنة بين المواطن المندمج بقضية الوطن والمواطن المقصر بذلك، فكما أن وطنية الأفراد تتفاوت حسب تفاوت التطور الذي يحصل في داخل كل واحد منهم، فكذلك درجة نضج العبقرية تتفاوت من أديب لآخر، وكما أن قمة الوطنية هي النضال لحد التضحية بالنفس من أجل كيان ووحدة الأمة كذلك الأديب والشاعر. إن ذلك لا يعني بالطبع ألا يطرق الأديب إلا موضوعاً واحداً، فالأديب المبدع هو الذي يتأثر بما حوله من ظواهر بشرية أو جمالية. المقصود هو أن يكون قد بلغ درجة من التطور وصل بها إلى مرحلة إدراك القيمة العليا في حياة المجتمع وهي القومية العربية. إن هذا الادراك هو الروح التي تسري في جميع اجزاء إنتاجه الأدبي، بدرجات متباينة، وبأسلوب متباين، فهي لا بد تنبض بشكل ما، حتى عندما يتعرض الشاعر لوصف الطبيعة مثلاً.

وهناك أيضاً مسألة الأدب الذي أطلقنا عليه الأدب النفسي، وهو الأدب الذي يعالج خوالج النفس وعقدها، وما يدور فيها من تفاعلات ذاتية، وذلك شيء مختلف تماماً عن التفاعل الذي يصاحب الارتقاء لادراك القيم العليا. إن أدب الاضطرابات والعقد النفسية ليس في الحقيقة إلا صدى للاضطراب، وترجيعاً للمؤثرات التي تتعرض لها النفس. إن هذا التفاعل يجري عادة في مستوى بدائي من مستويات التطور الفكري، وإن كانت فيه، بعض الأحيان، ومضات فكرية ومحاولات للارتقاء، إلا أنه يبقى في أغلبه ردود فعل بدون تطور. إن الاهتمام بالذات وتصوير تموجاتها يشكل جزءاً كبيراً من إنتاج بعض الشعراء الشباب. وغالباً ما تكون لغة هذا النوع من الشعر معقدة وغامضة. في هذين

المجالين يتضح الابتعاد عن الالتزام، وسواء في حالة المواضيع الثانوية أو في حالة الشعر النفسي فإن سبب التوجه واحد وهو عدم اكتمال التطور. أما أسباب عدم الاكتمال هذا فمتباينة ولسنا في مجال بحثها، وأكثر ما يمكن أن يقال عن ذلك في هذا الصدد هو أن عدم الاكتمال هذا يمكن أن يكون مؤقتاً، أي قابلاً للزوال بنضج الشخصية وإغناء الثقافة وصقل النفس، كما أنه من الممكن ألا يكون مؤقتاً، بل دائماً لا مجال لزواله.

- ١٠ -

ولن يكون البحث كاملاً بدون بعض الاهتمام بقضية اللغة والطريقة. اللغة العربية الفصحى هي لغة الأدب العربي. والشعر العربي على وجه التخصيص يستمد من جمال هذه اللغة، وموسيقاها الخاصة، وغناء مفرداتها، الشيء الكثير من تأثيره في شعور القارىء. اللغة الفصحى هي لغة النهضة وهي لغة السمو والتقدم، هي لغة القرآن، ومعروف أثر القرآن في العرب ومجتمع الجاهلية الذي نزل فيه. والأمة عندما تكون في حالة رقي ونهضة يعني ذلك أنها ترتفع من المعاني الاعتيادية إلى المعاني السامية، ومن حياة الركود إلى القيم العليا. لذلك فمن المنطقي تماماً أن يكون من متطلبات وشروط الأدب المبدع أن تكون لغته الفصحى. وهذا القول لا يعني بالطبع ما هو صعب وغير متداول وغير رقيق من الفصحى الشعر المبدع هو الذي يحسن اختيار الكلمات، ويحسن انتقاء التعابير، ويجيد اختيار كل ما هو موحٍ ومثير للخيال، ومؤثر في النفس ومحرك للفكر. إن مسألة الابداع الجمالي نفسه تتعلق لحد ما، وبشكل ما، بمسألة الانتقاء في اللغة من حيث التعبير والمفردات. ويعني ذلك بالمقابل المنطقي أن العامية، وهي نتاج عصر التأخر وذوبان الشخصية القومية والتأثر بالاجنبي، لا يمكن أن تساعد الأدب في عملية الابداع والتكوين الجمالي، بل على العكس من ذلك فهي فقيرة وضحلة ومتخلفة.

وبعد مسألة اللغة تأتي مسألة الطريقة. الشعر العربي شعر أصيل، ويعود تاريخه إلى أبعاد عميقة في تراثنا الحضاري، وله طريقة وأوزان ومقاييس أصبحت الآن كالموسيقى مسجلة وذات قواعد منطقية. إن القافية العربية من أروع معالم أدبنا القومي، وطريقة النظم كانت وستبقى صفة مميزة لأدبنا الأصيل. ومعروف أن قضية الشعر الحر لا تتعلق بتقييم طريقة النظم، بل هي جزء من ذلك الموج الذي انتشر في العالم المعروف باسم الفنون الحديثة. إن ظهور هذا الاتجاه في الفنون له دوافع عديدة تتراوح بين مجرد الرغبة في التغيير وبين العجز في مجاراة الفنون الاصلية. إنني شخصياً لا أجد أي مبرر لتغيير طريقتنا القومية في الشعر التي ارتبطت بتراثنا وتاريخنا، والتي من خلالها أبدع الموهوبون من شعرائنا أيما

إبداع. كما أنني لا أجد مجالاً للمقارنة بين موسيقى وجمال وأصالة طريقتنا وطريقة الشعر الحر في أحسن أحوالها. إن هذه الطريقة هي الآن طبعاً في طريق التراجع، وهي ككل حالات التقليد تأتي وتنتشر لفترة ثم لا تلبث أن تنكمش وتتلاشى. إن الذي لا يستطيع أن يلمس جمال الشعر العربي، بطريقته المعروف بها، فيما يقرأ للمتنبي والجواهري قد فاته شيء مهم في هذا المجال. من دون شك أن الطريقة في الشعر العربي عامل مؤثر بحد ذاته في جمال هذا الصنف من الأدب.

المناقشات

الدكتور عصام عبد علي: أود أولا أن أشيد بالجهد الذي بذله الدكتور سعدون حمادي من خلال طرحه لهذه التصورات القيمة، ولدي بعض الملاحظات المتواضعة قد تبدو متداخلة أحيانا. النقطة الأولى التي تحدث عنها الدكتور حمادي مرتين هي قضية الشعر الحر وربط هذه القضية بموضوع خروجه على الخصوصية القومية في التراث الفني العربي، وفي رأيي المتواضع أن هذا الشعر لم يخرج من الإطار العربي أو عن الخصوصية القومية، وقد أحسن التعامل الواعي مع التراث أحيانا كثيرة، ولدينا نماذج كثيرة من هذا الشعر تؤكد ذلك. الموضوع الثاني قضية الانحسـار في الشعر، وتبدو لي هذه القضية قضية عالمية إذا صح التعبير. وهناك انحسار في الشعر على صعيد المجتمع الانساني. وقد يكون لهذا الموضوع مبرراته وطبعا هذا الانحسار العالمي لا بد أن يطغى على العالم وكل الأدب بشكل عام. الأدب العربي في أنواعه الأدبية الأخرى كان معبرا. ولعل الأخوة المختصين في مجال الرواية والقصة المسرحية يستطيعون أن يعطوا أمثلة كثيرة من الجانب الموفق لهذه الأنواع الأدبية في التعبير عن الذات العربية والوجود العربي. نأتي إلى مسألة الشعر، وهل يصبح هذا الشعر منشورا أو أن الشعر له مهمات أكبر. وهذا الموضوع يقودنا إلى مناقشة مسألة الشعر الظرفي. والشعر الظرفي قد يتحول إلى شعر مناسبات، ومعنى ذلك أن ينتقل من شعر قضية إلى رد فعل، ويبدو لي أن الذي نحتاجه اليوم هو شعر قضية وليس شعرا ظرفيا، والشعر العربي الحديث والشعر الحر منه غني بنماذج من شعر القضية. النقطة الأخرى التي أود أن أشير إليها هي مسألة كيف يعبر الشعر، أو كيف يعالج الانقسام بين أقطار الأمة العربية، وهل من مهمته أن يدعو إلى الوحدة العربية وأن يعبر عن، أو يصور، هذا الإنقسام؟ في تقديري أن الشعر يجب بالأساس أن يعبر عن وحدة الأمة كمصير، ومتجاوزا

صيغ التجزئة، لأنه هو تنبه للمستقبل وإصرار عليه. أشار الأخ الدكتور سعدون حمادي إلى كيفية التعامل مع حياة المجتمع العربي القديم. وفي رأيي المتواضع أن تحميل الشعر هذه القضية قد يكون فوق طاقته وقد يصبح فلما تسجيليا وثائقيا، لكن من مهماته الرئيسية أن يتعامل مع هذه الأحداث التاريخية المهمة من خلال رؤية العصر حاضرا ومستقبلا. الدكتور المحاضر كان يريد أن يسجل الشعر قضية مأساة اللاجئين، وهذا حق، ويبدو لي أن الشعر لم يقصر في هذا المجال وصولا إلى «تل الزعتر»، ولكن الشعر مطالب أيضا أن يضع أمام الأمة، أمام الإنسان العربي، كيف إذا ما بقينا على هذه الحال، ما هو المصير الذي تنتظره الأمة عندما نتحول إلى لاجئين؟ وهذه الرؤية هي الأوسع والأعمق.

شفيق الكمالي: الدكتور سعدون حمادي في موضوعه يذكرني بأساتذتنا عندما كنا في المدرسة، بيده العصا، وهذا يكون وهذا لا يكون. الشاعر أو الأديب عموما هو إنسان وليس آلة. الشاعر والأديب في مفهوم الدكتور سعدون بعد أن وضع له قواعد.. لما يجوز ولما لا يجوز حوله آلة تُحشى بالمعلومات ثم يضغط على الزرفتخرج فلسطين أو الوحدة.. الخ. لا أعتقد هكذا يجب أن يعامل الشاعر أو الأديب عموما .الشاعر كتلة من المشاعر وهو إنسان من لحم ودم، له خصوصياته وله عمومياته. الشعر القومي لا ينقص منه عندما نكتب عن شعب آخر. يعني لا يمكن أن أعيش أنا الآن بعد أن قصرت المسافة بين العالم. إن التأثر بشعب يضطهد بمكان ما لا ينقص من الشعر، كالكتابة عن فيتنام مثلا. إنني معه في موضوع الناحية النفسية أو الشعر النفسي. لقد فهمت منه أنه يقصد به الشعر النفسي الذاتي. الانسان هو إنسان يحب ويكره ويشعر بالاضطهاد ويشعر بالعنفوان. كل هذه المشاعر المتناقضة موجودة في الانسان. عندما يكتب شاعر ما عن الحب مثلا، الحب هو قضية ذاتية، فلان يحب فلانا، مثال: مجنون ليلى الذي أصبح رمزا لكل العشاق. يعني خرج من كونه خاصا إلى مسألة عامة. فهنا انتقال الخاص إلى العام أو العام إلى الخاص. القضية القومية أيضا تتحول إلى خاص وعام في آن واحد. إنني معه في الالتزام الذي تفضل به، وكان صادقاً جداً، وأنا مؤيد له مئة بالمئة: الالتزام وليس الإلزام. لكن أحيانا تقع بين هذين القوسين إن جاز التعبير، في حين المطلوب من الشاعر أو الأديب الذي يعيش قضية أمته أن تتحول المسألة بالنسبة له إلى حياة. عندما يكتب الكاتب عن فلسطين أو عن الجزائر أو يكتب عن أية قضية عربية يعيشها، هناك فرق بين هذا وبين أن يطلب من فلان أن يكتب عن شيء لا يؤمن به. أما مسألة الشعر الحديث، فهي مسألة أعتقد أنه ليس من السهولة أن نتطرق إليها في هذه العجالة. هل هو خروج عن القواعد؟ هل الشعر الحديث في دور الانكفاء؟ على كل حال أنا لا أعتقد أنه منكفىء الآن. هو في دور الاكتشاف، وجائز

أنه راح يستهلك نفسه من خلال المدارس المتعددة التي ظهرت به. ورغم أنه مر عليه أكثر من عشرين سنة فقد ظهرت به حوالي ٤٠٠ مدرسة متشابهة أحيانا. الشعر الحديث الآن ما هو منكفىء، وهو ليس خروجاً بالمعنى المتزمت. إذا رجعنا إلى شعرنا العربي، إلى التراث العربي، نجد جذوراً لهذا الشعر الحديث. يعني شعر حديث مثل ما كتبه السياب وكتبه آخرون من أساتذة مدرسة الشعر الحديث. أما شعر الشباب الآن، المدارس في لبنان وغيرها فهي مسائل تقليدية صرفة، أنا معك أن كل ما يظهر في الغرب ينقل لنا ولذلك فإن هذا الشيء لا يمكن أن يعيش..

الموشحات، هل كانت خروجا؟ إنها عمليا كانت خروجا عن طريقة النظم في القصيدة العربية القديمة. والموشحات تطورت إلى درجة أصبحت تشابه الشعر الحديث الآن، إذا رجعنا إلى مقدمة ابن خلدون نجد بعض النماذج من هذه الموشحات. ثم ظهر عندنا نوع في العراق، الذي يعتمد التفعيلة أساسا وليس البحر. ثم لماذا نصر على أن شكل القصيدة كما ورثناه يبقى كما هو ولا نطالب الأدباء الناثرين الذين يكتبون النثر بأن يعودوا أيضا إلى الجملة العربية القديمة؟ لنرجع إلى الصحف سنة ٣٠ أو ٢٠، إن الكثير منا يمكن أن لا يفهمها لأن الأسلوب تطور. اللغة تطورت كما تطــور كثير من المسائل الحياتية. الشعر الحديث أنا شخصيا لا أعتقد أنه نقيض الشكل القومي. صحيح أنا أكتب بطريقتين الشعر العمودي وأكتب الشعر الحديث، ولن يكون أحدهما على حساب الثاني. المسألة ليست بهذا التحديد الكامل، أحيانا عندما أكتب بعض القصائد على الطريقة التي تعارفنا على تسميتها بالعمودي وهي تسمية مخطوءة، أعتقد أنني غير قادر على أن أعبر كما أريد، فالمعنى أحيانا عندي ينتهي بتفعيلتين أو بثلاث تفعيـلات. فعندما أكتب على الطريقة القديمة التي هي أربع تفعيلات بأربع تفعيلات يكون لزاما علي أن آتي بزيادة مثل ما تأتي بنقطة حبر تضعها في قدح أو في برميل. المعنى الذي هو بتفعيلتين يضيع في وسط الستة تفاعيل الأخرى الزيادة. هذه مسألة فنية، أما أن تنجح أو لا تنجح هذه الطريقة فذلك متروك للزمن.

لكن شكل هذه القصيدة لا يمكن أن يعتبر مناقضا للهدف القومي. لأنه في هذا الشعر آلاف القصائد مما كتب عن القضية العربية. إذا أجرينا مقارنة بينه وبين الشعر القريض نجد أن ما كتب فيه عن القضية العربية أضعاف ما كتب في الشعر القريض، لنأخذ المعنى أو المحتوى ثم إذا لم نرد أن نعتبره شعرا فلنعتبره نوعا من أنواع الأدب الهادف، الذي يساعدنا أيضا على نشر فكرنا وآرائنا وإنهاض الناس لقضايانا القومية.

ناصيف عواد: سبقني الأستاذ شفيق حول موضوع الشعر الحر، ولا أريد أن أكرر ما

قاله، وإنما أكتفي بالقول إن الشعر والأدب حي ومتطور، ولا بد أن يأخذ أشكالا جديدة، المهم في الحكم على سقوطه أو انتهاكه هو الجودة دائما. من الشعر الحديث ما هو جيد ومؤثر ومنه ما هو جيد لكنه غير مؤثر، لأنه لا يفهم لدى الغالبية من الناس، وعلى سبيل المثال، قصيدة محمود درويش: سجل أنا عربي. تأثيرها مثل أي قصيدة عمودية أو تقليدية. المهم هو الجودة والشحنة التي يحملها الشعر. الموضوع الآخر هو موضوع المباشرة وغير المباشرة: في تصوري أن الشعر والأدب عموما إذا كانت له مهمة معينة فلا بأس من المباشرة. ذكر الدكتور سعدون حمادي نموذجاً جيلاً وجيداً ومؤثراً بالفعل، ولكن هناك عشرات النماذج من الشعر المباشر ولكنه أيضا مؤثر في تفجير الوعي القومي وتردده الأجيال، منها البيت المشهور: تنبهوا واستفيقوا أيها العرب، ومنها بلاد العرب أوطاني، ليس هناك أكثر مباشرة من ذلك ولكنها مباشرة تمس نفس الإنسان وتفجر فيها الوعي. المهم في كلتا الحالتين، سواء فيما يتعلق بالشعر الحر أو العمودي أو في المباشرة والبعد عن المباشرة، هو الصدق. عندما يكون الشاعر صادقا صادرا عن نفس حساسة غير متأثر إلا بما يمليه عليه الحس والشعور الذي أشار إليه الدكتور سعدون في بداية حديثه، من أن الشاعر يتميز بثقافة وحدة الذهن، عندما يكون الشاعر منطلقا من هذا المفهوم. أي عندما يكون صادقا يكون شعره مؤثرا مهما كان شكله، ومهما كانت الطريقة التي قيل فيها. حتى شعر المناسبات يصح عليه ذلك. ظل كل الشعر العربي شعر مناسبات وشعر المتنبي العظيم هو شعر مدح أو هجاء أو غزل أو قضايا شخصية، وهو شعر خالد وعظيم لأن الممدوح في ذلك الوقت كان شيئا كبيرا إنه سيف الدولة الذي يجسد طموح الأمة ويشكل في الحياة العربية نموذجاً حياً فاعلاً. عندما انقضت مثل هذه النماذج أصبح المديح كذباً ورياءً وزوراً، وبالتالي أصبح بمثابة كلام فارغ نبتعد عنه. حتى الهجاء، كهجائيات المتنبي في كافور هي من الشعر الخالد. هل يعيب الشعر الآن أن يهجي الخونة وأن يمتدح النماذج المبشرة والمعبرة عن مستقبل الأمة؟ أنا في تقديري مثل هذه الأمور لا تعيب الشعر ولا تنقص من قيمته ولا من تأثيره، إذا كان الشاعر في كل الأحوال صادقا ومخلصا مع نفسه.

عثمان سعدي: أولا أود أن أشكر الدكتور سعدون حمادي على هذا البحث القيم. والدكتور سعدون عودنا دائما سواء في المحافل الأدبية أو السياسية بعمق تفكيره وانطلاقه من أبعاد فلسفته للموضوع الذي يتطرق إليه. ولا أبالغ إذا قلت أن هذا البحث مكمل لسائر الأبحاث الأخرى لأنه يتناول الأبعاد الفلسفية والعقائدية لموضوع هذه الندوة. ولكن لي بعض الملاحظات على ما قاله الدكتور سعدون حمادي:

نتفق معه عندما يقول إن القومية مزيج من عدة عوامل. نتفق معه عندما يقول

الأدب وسيلة ممتازة للتعبير عن الشعور القومي. لكن لا أتفق معه ـ مثلا ـ في قوله إن أفضل أدب في هذا الميدان هو ما قيل في بداية النهضة العربية. ولقد وجدت أن شعر الثورة الجزائرية غائب في هذه الندوة فسعدت لاستماعي إلى البحث القيم الذي حمل عنوان الأدب والشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية. ولكن كنت أود لو أنني استمعت إلى بحث يحمل عنوان الأدب والشعور القومي من خلال الثورة الجزائرية. وأنا لو طلب مني هذا البحث لقمت به لأن عندي تجربة في هذا الميدان، فقد قضيت أربعين شهرا في بغداد كسفير للجزائر، وتمكنت من جمع ٢٥٤ قصيدة في الثورة الجزائرية قالها ١٠٧ شعراء من العراق فقط. انتقلت إلى سوريا كسفير واستطعت أن أجمع ١٩٨ قصيدة قالها ٦٢ شاعرا سوريا في الثورة الجزائرية. هذا الشعر الذي جمعته من العراق وأنا في العراق وأنا أرى خمسة أو ستة شعراء يجلسون هنا ممن ضمتهـم موسوعتي التي جمعتها، ينتمون إلى ٢٠ مدينة وقرية من العراق. يطالب الدكتور سعدون بتجاوز الحدود في هذه الموسوعة. وجدت فعلا ولمست تجاوز الحدود. يكاد لا يوجد حدث من أحداث الثورة الجزائرية لم يسجله الشاعر العراقي. مثلا بعد الاستقلال قرر الرئيس الراحل هواري بومدين تأميم الشركات الأنكلوأمريكية كرد على عدوان ١٩٦٧ عندما وقف الرئيس جمال عبد الناصر وألقى خطابه عن تواطؤ أمريكا وبريطانيا. فقام بتأميم الشركات البترولية البريطانية والأمريكية كرد على ذلك. تحرشت بميناء شرشا بالجزائر قطعة من الأسطول السادس الأمريكي، قدمت الحكومة الجزائرية احتجاجا إلى هيئة الأمم المتحدة. وجدت شاعرا بسيطا موظفا في بلدية الديوانية قال قصيدة بذلك عنوانها: لن يمروا، قالها شعب الجزائر. إن أعظم صيحة خرجت من العراق هي صيحة السياب آه لوهران التي لا تثور. الشعر الذي قيل في الثورة الجزائرية قبل ١٩٥٨ كان كله تحريضا للشعب العراقي لأن يثور: وعندي دراسة عنوانها شعر ما قبل ١٩٥٨ ودوره في تحريض الجماهير العراقية للثورة. مثلا، قصيدة يقولها إبراهيم الوائلي، وهو شاعر عراقي لم يطبع له ديوان، يقول عندما يتكلم عن حلف الأطلسي، يعني حلف بغداد في العراق هو : حلف يسند الظلما

ويستبسل للشر

فيا خيبة بريزه وخزي العالم الحر

العالم الحر هو حلف بغداد. بكل أسف الثورة الجزائرية في غياب كامل في هذه الندوة. هذا أمر محير. يقول الشاعر أحمد فرج الله وهو شاعر مدرس في إعدادية يحيي بها استقلال الجزائر، من العراق:

يا سائرين ويا أهل النضال... تسمو الأنام بكم عجما وعربانا

يعنيكم أنكم نبراس أمتنا وأنكم قد رفعتم للعلى شانا
إليكم تعبر الأجواء غارقة نشوة الفرحة الكبرى تحايانا

فلسطين نذكرها ولكن نحن مهزومون فيها، لكن تجربة الثورة الجزائرية انتصرنا فيها، ولهذا الشعر الذي قيل فيها شعر عظيم وينبغي ألا يغيب عن هذه الندوة، كذلك تكلم الدكتور سعدون عن الشعر الحر، وأنا في موسوعتي في العراق جمعت شعرا حرا وشعرا عموديا، وكباحث وجدت قصائد في الشعر الحر خاصة منه الأصيل وعلى الخصوص مثلا ما قاله السياب أبو الشعر الحر،عندما استقلت الجزائر يحيي الجزائر بقصيدة من الشعر الحر من أعظم ما قيل وهو على فراش الموت.. يقول:

سلاما إلى .. الخراب
ومأوى اليتامى
وأرض القبور
أتى الغيث وانفك عقد السحاب
فروى .. جائعا للبذور

قصيدة من أعظم القصائد التي قيلت في الثورة الجزائرية وهي من الشعر الحر.

قصيدة الجواهري التي قالها سنة ١٩٥٧ هدية عظيمة للثورة الجزائرية. كلها حث واستفزاز للجماهير العراقية لتثور ضد حلف بغداد والنظام الملكي.

ولهذا كنت أتوقع،عندما يسرد الدكتور سعدون الأحداث الكبرى تحت الحدث الفلسطيني ،أن يورد الثورة الجزائرية كحدث عظيم اتفقت عليه العرب في مشارقها ومغاربها دامت ثماني سنوات دارت في أغنى عقدين في قرننا شعرا وفنا ملتزما وأدبا ملتزما، ولكن بكل أسف لم أجد ذلك. وأثار أيضا الدكتور سعدون مادة الشعر كمجنون ليلى وتراث أبو زيد الهلالي وهي أفكار تعطي مادة لشعرائنا وكتابنا ومسرحيينا ومخرجينا. فخلاصة القول أن بحث الدكتور سعدون عظيم ومهم، وخاصة في بعديه الفلسفي والعقائدي.

الدكتور زكي الجابر: الملاحظ أن الأخوة بحكم دراساتهم الأدبية ذهبوا إلى بيت هنا وبيت هناك يستشهدون حول هذا الموضوع. إن المؤشرات العلمية يمكن أن تكون كما بدأها الأخ عثمان. يمكن أن تكون عن طريق لقاء أو استنقاء آراء الأدباء وكيف يستطيعون أن يبيعوا فكرة الوحدة.. وقد تكون عن طريق تبادل المجلات. كم من أبناء الشعب العراقي يقرأ مجلة العلم ويجدها في الأسواق أو عن طريق مجالات النشر؟ وكم مثلا من الأدباء العرب يجدون مجالا في *مجلة الأقلام أو آفاق عربية*؟ ويؤسفني أن أقول أن الصورة محزنة جدا، فلا

أكتمكم أن العدد الأخير مثلا من مجلة الأقلام الذي يضم ١٤ كاتبا، كاتب أوحد من خارج العراق. وفي العدد الذي قبله ١٦ كاتب، ١٢ عراقيين في آفاق عربية العدد الأخير ٦ من ٢٧ . في الآداب التي نعتبرها مجلة رائدة قومية هناك كاتب لبناني واحد بين مجموعة الكتاب.
هذا نموذج لطريقة القياس التي يمكن أن نسير عليها، وإذا كنت أرتدي قبعة الباحث السياسي فلا بد أن أختم هذا النقاش بأنني أرى أن التسلح بنظرية ثورية كاملة هو المنطلق الأساسي في المعركة الفاصلة ضد قوى التجزئة والاستعمار. فالنظرية الشاملة تضع في مدى الرؤية الأبعاد القريبة والبعيدة لمستويات المعرفة. . على أن النضال ضد قوى الفاشية والعمالة لا يمكن أن ينتصر في أية فكرة يسيرة إن لم تكن شاملة تجمع العناصر الأساسية للثقافة، وهي الارتباط بين ما يقوله الأديب وما يعمله على صعيد التراث وبين صفوف المناضلين تنظيماً وثقافة وأرجو أن يكون في كلمتي مسك الختام وشكراً.

الدكتور وميض نظمي: الحقيقة لا بد أن أعترف شخصيا أنني قد تتلمذت على يد الدكتور سعدون حمادي منذ فترة أكثر من عشرين عاما. لذلك أرجو ألا تكون ملاحظاتي على هذا البحث القيم بمثابة عقوق على هذا الأستاذ المعلم. الحقيقة ذكر السيد الكاتب في الملخص وفي الأصل ما يفهم منه أن الإيمان بالقومية والشعور بهذه القومية، لا يمكن أن يتم عن طريق البحث العلمي للظواهر الاجتماعية ولا عن طريق الاستنساخ العقلي وأن إيمان العرب بقوميتهم ليس مسألة يتوصل إليها الفرد العربي عن طريق البحث العلمي. الحقيقة لقد أثار هذا القول نوعا من التذكير، هل هناك مانع أن يؤمن الإنسان بقوميته إيمانا مثاليا وفي نفس الوقت يتوصل للإيمان بالقومية العربية عن طريق البحث العلمي والاستنساخ والاستقراء؟ ألم نتوصل إلى ضرورة الدولة القومية عبر قراءتنا لتاريخ العالم ولتاريخ أمتنا العربية وتوصلنا بعد هذه المطالعة وهذا العمل العقلي والاستنساخ بأن الدولة القومية هي المنطقة التي يسعد فيها الإنسان؟ ليست الدولة الاستعمارية وليست الدولة الدينية وليست الدولة الطائفية. ثم هل هناك ضرر، هل هناك ما يشوه القومية العربية لو التجأنا إلى تطبيق معايير سياسية كمبدأ المنفعة ومبدأ الإقتصاد ومبدأ الاتصال ومبدأ المصلحة وجعلناه جزءاً من هذه القومية العربية، لكي نصل بشكل أكثر شمولية إلى عقل الجماهير؟ أليس من المفيد أن نقول أن إيماننا بالوحدة العربية هو إيمان بحق شعب في أن يتحد؟ وهو في نفس الوقت توفير سوق إقتصادية واسعة بدونها لا يمكن أن تستمر التنمية القطرية أو المصالح القطرية؟ أليس من الأفضل أن نقول للجماهير المصرية أن مصلحتها الاقتصادية، مصلحتها حتى القطرية ترتبط أرتباطاً واضحاً وأكيداً بانتمائها إلى الأمة العربية إقتصادياً وإجتماعياً وفكرياً؟ أليس من المصلحة أن نقول لو كان العرب يملكون جيشاً واحداً لجنبهم ذلك مناطق النفوذ

ولخرجوا من خطر الحرب العالمية النووية التي تهددهم حالياً، باعتبار أكثريتهم يتجه لهذه الدولة أو تلك الدولة؟ أعتقد أن هذه الأمور لا تضر القومية العربية في شيء. لا يجوز أن تبقى القومية العربية في برج عاجي من الإيمان والمثالية بل يجب أن نتوصل إليها عن طريق المعرفة والعقل والانتاج التاريخي وندخل المبادىء المصلحية والاقتصادية حتى يكون إيماننا بهذه القومية إيماناً عقلياً يؤثر على الجماهير أكثر من الشكل الآخر.

الحقيقة تكلم الكاتب عن ظهور الشعر الحر، لذلك لا أجد مبررا للإفاضة في ذلك الموضوع، وأكد الدكتور سعدون حمادي بأن هناك تدهورا في الإيمان بالمسألة القومية وأن مسائل أخرى كالمسائل الإجتماعية وغيرها بدأت تعزز نفسها على السطح على حساب الحركة القومية. ولا أتفق معه في ذلك التحليل وفي ذلك القلق. ولكنني مطمئن إلى أن من يؤمنون إيماناً حقيقياً بالمسألة الاجتماعية وبطرح قضية الطبقات سيكشفون أن الميدان الوحيد لتحقيق هذه المبادىء يتم عن طريق الوحدة العربية وعن طريق الأمة العربية وليس عن طريق كيانات ضئيلة وهزيلة. نقطة أخرى أتفق مع الدكتور حمادي فيها هي الأهمية الكبيرة لقضية الوحدة العربية. ولكن يبدو لي أن القومية العربية هنا ينظر لها كبقعة جغرافية واستقلال سياسي في داخل حدودها، في حين المفهوم الحديث للقومية الذي أفرزته الثورة الفرنسية، أن القومية ليست سيادة الشعب الخارجية والداخلية إنما هي سيادة الشعب كبديل للسلطات الاستبدادية والملكية والديكتاتورية. أي أن القومية بمعناها الشعبي هي ممارسة عملية الديمقراطية في نفس الوقت. وكلمة أخرى حيرتني كثيرا. إنني أؤيد إبراز المسألة القومية، ولكن أن يقال أن الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ظروف اجتهادية يصوغها العقل البشري وهي نسبية. صحيح أن يكون العقل البشري منفتحا، ويجب أن ننفتح على معالجة المسائل عن طريق المراقبة المادية وإصلاح هذا الخطأ وهذه العلل في النظام الاشتراكي أو غيره ولكنني كنت أحسب أننا عندما نتكلم عن القومية العربية فإننا نتكلم عن الأغلبية الساحقة من المواطنين العرب، وهم المواطنون الكادحون، وبالتالي فإن القومية العربية بحد ذاتها ترتبط بمفهوم اشتراكي ينطلق منها ولا يمكن أن يخرج عن ذلك.

الأستاذ أحمد عباس صالح: العجيب أنني كنت أريد أن أتكلم حرفيا في النقطة التي تكلم فيها الدكتور وميض. وكنت منطلقا من نقطتين. الأولى ما يمكن أن يسمى بنظرية الإلهام في بحث الدكتور سعدون ـ والنقطة الثانية، وهي متولدة عن النقطة الأولى، وهي نظرية الإيمان. نحن في مجال نسميه ما فوق العقل. على الرغم من أن التعريف الذي ورد لمفهوم الإلهام تعريف واقعي ومقبول إلى حد ما، ولكنه لم يزل يحوطه الغموض الكامل عن فكرة الأدب. وبالتالي من المنطقي أن يتولى عن ذلك أن أحد وسائل المعرفة هو الإيمان

الناتج أيضا عن إلهام. وبهذه الطريقة علينا أن نؤمن بالصلة بحياتنا ونضالنا دون أن نصل إلى ذلك عن طريق العقل والاقتناع. وهذه النقطة وافاها الدكتور وميص ولا حاجة للرجوع إليها. أما بالنسبة لنظرية الإلهام في الأدب فلا أعتقد بورود هذه النظرية في الكثير من الآراء. إنها نظرية تساعدنا كثيرا في بناء حركة فنية وأدبية ثورية تساعد هذا المجتمع على فهم ذاته وعلى تحركه تحركا سليما. فإذا كنا نصل إلى المعرفة عن طريق العلم، ويقال هنا أن العلم يأخذ من الخاص إلى العام أما الأدب فيأخذ من العام إلى الخاص، وبهذه الصورة تتكامل المعرفة أو تعرّف الإنسان على الظواهر أو القضايا المختلفة. ومعنى هذا أن الأديب لكي يكون أديبا متفوقا ومعبرا تعبيرا صحيحا لا بد أن يكون مُلما إلماما كافيا بكل الظواهر التي يعالجها. لنأخذ مثالا في تقريب الانتقال من العام إلى الخاص، وهو فكرة الوحدة العربية. فكرة الوحدة العربية فكرة عامة لها شروطها المطلقة المجردة عندما يعبر عنها الكاتب أو الشاعر أو الفنان هو يجسدها، ينقلها من المجرد إلى المثقف، من العام إلى الخاص وبهذه الطريقة نستطيع أن نتعرف على المدلول الجوهري لفكرة الوحدة، يتم ذلك مثلا عن طريق تجسيد فني في مسرحية أو تجسيد فني في قصيدة أو تجسيد فني في رواية إلى آخر الأنواع الفنية أو الأدبية. فإن مسألة الإلهام، على ورودها في كثير من النظريات الأدبية، لعلها لا تساعدنا كثيرا، وفعلا تؤدي بنا إلى نمط التفكير الغيبي الذي توصلنا به إلى أن القومية العربية تحولت إلى إيمان. وبالتالي فإن تحركنا من الضروري في اعتقادي في خطواتنا الحالية، ونحن نواجه تحديا علمانيا موضوعيا، لا بد أن يكون بارز التفكير واعيا لشكل خطواته. لا بد أيضا أن نتمسك بكل النظريات والمفاهيم والاتجاهات العلمانية والعقلانية في اتجاهاتنا. وهذا ممكن جدا في مجال الأدب. وللأسف إن الفرصة غير متاحة لمزيد من هذا، وقطعا الجميع يعلمون في هذا أكثر مما أعلم.

الدكتور سعدون حمادي: بشكل موجز أود أن أقول عن قضية الشعر الحر إنني لا أقصد أولا أن كل الشعر الحر هو شعر غير جيد، فهذا لم أقله. ولكن أريد أن أقول كذلك، إن الشعر الحر لم يطرح كأحد أساليب الشعر. أنا أتذكر الملاحظة التي وردت عن الفرعونية. الفرعونية لو أنها طرحت كقضية حضارية، كحضارة، كمرحلة من مراحل التاريخ العربي، لما كانت تثير هذا الانتقاد، لكنها طرحت كبديل، وكشيء مناقض للقومية. الشعر الحر لم يطرح على أنه أسلوب من الأساليب الجديدة ومظهر من مظاهر التجديد والانفتاح. بل طرح كبديل للشعر العربي الأصيل. أنا لا أقصد أنه عند كل من كتب بالشعر الحر يوجد هذا التفكير. لكن أنا لا أجد كذلك مبررا أنه عندما يظهر نمط من العمل الأدبي في العالم تخلع الأمة ثيابها القومية وتلبس الثوب الجديد لمجرد أنه قادم من عالم

متقدم. لو كان الموضوع مطروحا أن الشعر العربي الأصيل شعر جيد وطريقته جيدة والشعر الحر هو شيء من الابداع وأسلوب جديد قابل للاقتباس أن هناك مجالا للاثنين لما أثار الأمر أي نقاش، ولكن الذي طرح، طرح كبديل مثلما تطرح العامية كبديل للفصحى. أنا لست ضد كتـابة بعض الأشياء بالعامية، ولكن عندما تطرح العامية كبديل للفصحى، يصبح الموضوع مختلفاً. هذا فيما يتعلق بالشعر الحر. حول الملاحظة التي أوردها الدكتور عصام، أنا لم أقصد تسجيل مأساة الشعب الفلسطيني، قصدت أن ظاهرة اللاجئين الفلسطينيين، تكون مادة جيدة لأدبائنا ليستطيعوا من خلالها تصوير مشاعر الإنسان عندما يفقد الأرض ويفقد الوطن، وبالتالي ليساهموا في عملية تقوية رابطة الإنسان العربية بوطنه.

حول ملاحظة الأستاذ شفيق أنا لم أقل أنه يجب عمل هذا أو ذاك. وأنا لم أقل أن الشاعر الذي لا يعمل كذا هو غير شاعر أو خائن. لكن في النقد الأدبي، أي نقد أدبي، هل بالإمكان أن يقوم أي نقد إذا لم يكن هناك مقياس مسبق لما هو خطأ وصواب؟ عندما نقول أن قصيدة الرصافي أو المتنبي الفلانية قصيدة جيدة أو البيت الفلاني به معنى رائع، ألسنا نقول ذلك بناء على مقياس مسبق في أذهاننا يفرق بين ما هو جديد وما هو غير جديد، وبين ما هو رائع وغيررائع؟ إذن لا مناص من وجود المقاييس. على كل هذا اجتهاد. أنا لا أنكر أنني أنطلق بهذه الآراء من عقيدة وإيمان بتفكير سياسي معين. هذا صحيح، تماما إنني بناء على هذه المقاييس رأيت أن الأدباء والشعراء يمكن أن يساهموا بقضية النهضة عن هذا الطريق. أنا لم أقل الذي لا يتبع هذه المقاييس ليس أديبا أو ليس شاعرا.

فيما يتعلق بقول الأستاذ عثمان السعدي إنني أقدر التعليقات التي أوردها، ولكني أعتقد ـ دون شك ـ أن تجاوب الأدباء والشعراء بما يحصل في الأقطار العربية الآن ليس كما كان قبل ثلاثين سنة. وحول ما قيل في الثورة الجزائرية أظن أن الأستاذ عثمان يتحدث عن الكم، وهذا صحيح، ولكن من حيث النوع وبالرغم من أنني لست ناقدا أدبيا فلا أستطيع أن أقول إن ما قيل في الثورة الجزائرية هو أبدع وأرقى ما قيل في الشعر العربي الحديث. الأستاذ عثمان مثلا يعود لـ ١٩٥٧ أي لقبل أكثر من عشرين سنة. لا شك أن ما قاله الزهاوي والرصافي وبدوي الجبل وشوقي وتجاوب الأدباء والشعراء العرب في ترجيع أصداء ما يحدث في الأقطار العربية ليس الآن كما كان سابقا. هذا كل الذي أردت أن أقوله، وهذا لا يعني أنه لا يوجد شيء الآن، أو أن ما قيل في الثورة الجزائرية غير موجود.

وفيما يتعلق بما قاله الدكتور وميض لا أجد ما نختلف عليه. كل الذي أردت أن أقوله أن الطريقة العلمية ليست الطريقة الوحيدة للمعرفة، ويعني هذا أن طريقة البحث العلمي المختبري هي ليست الطريقة الوحيدة للمعرفة بل هناك طرق أخرى. فكما أن اكتشاف

قانون الجاذبية لا يمكن أن يكون عن طريق الإلهام وإنما يكون عن طريق البحث العلمي، كذلك هناك بعض صنوف المعرفة ليس أفضل وسيلة للوصول إليها طريقة البحث العلمي. هذا لا يعني أن ما نصل إليه عن طريق الإلهام هو متناقض مع ما نصل إليه بطريق البحث العلمي، كلا، هناك الطرق المختلفة للوصول إلى المعرفة ولنفس النتيجة. وملاحظته الأخرى عن الأنظمة والفكرة القومية هو أجاب عليها. فالنظام السياسي والنظام الاجتماعي، مسائل اجتهادية وتتطور، لكن القضية القومية ليست مسألة اجتهادية، وليست قضية خاضعة للاجتهاد إذا عُرفت بأنها لكل أمة حدود جغرافية ويجب أن تكون مستقلة ولها إرادة موحدة. هذه أمور لا تخضع للاجتهاد ولا تتبدَّل بتبدل الوقت والزمان. إن الأمة التي تريد أن تحافظ على كيانها لا تضع قضية كيانها ووحدتها موضع اجتهاد. وهذا لا يعني أن القومية العربية متناقضة مع نوع معين من الأنظمة. لكن لا شك أن هناك اتجاهات، وهي ليست اتجاهات قومية، تعرض القضية الاجتماعية كبديل مناقض لـقضية القومية. المهم أن ينتصر كفاح الطبقة العاملة وليس المهم أن تستقل الأمة العربية. ألم يبرر احتلال فلسطين في وقت من الأوقات من قبل الحزب الشيوعي العراقي على أنه إذا كان قيام إسرائيل يؤدي إلى تقدم في قضية الطبقة العاملة، فمسألة احتلال فلسطين ليست مسألة خطيرة، كما يتصورها القوميون؟ هذا الكلام ناتج عن وضع القضية الاجتماعية كبديل للقضية القومية.

الفصل الثاني

الوحدة ودور الشعر قبل الإسلام

الدكتور نوري حمودي علي القيسي

تؤكد أحداث التاريخ البشري أن القدرة الانسانية المتمثلة في الذات، والحرص على الوجود كانت عاملا حاسما من عوامل التصدي لكثير من التحديات التي تعرضت إليها البشرية في مسيرتها الطويلة، وأن هذه القدرة كانت ترسم طريق الحضارة، وتمهد لقيام الدول، وتشارك في بناء الأمم وتكوينها، ومن الطبيعي أن تزداد قدرة الأمم على الاندفاع من أجل بناء وجودها عندما تتضاعف أشكال التحديات، وتقوى شكيمة الذين يحاولون الإيغال في تجاوز المقدرات التي عاشت عليها. ولا بد أن يكون الإندفاع من أجل بناء الوجود في المراحل الأولى غير محدد من حيث الأساليب التي يستهدي بها والنهج الذي يلتزم به، والمجابهات التي يمكن أن يستخدمها. ومن الطبيعي أيضاً أن تستمد الأمة تلك الأساليب من الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه، والظروف التاريخية الخاصة بها، والعوامل الفاعلة في صنع هذا التاريخ، وبمقدار الأشكال التي تفرض عليها، وتحاول قهرها أو استغلالها، يكون مقدار التحدي، وتكون قدرة المجابهة، ويتبلور أسلوب النضال والمقاومة.

لقد استطاعت هذه العوامل أن تحرك الإحساس بشكل واضح على الرغم من وجود الإنتماء. فالأمم موجودة، والولاء لها موجود، استدعته نوازع الترابط الاجتماعي وأكده الشعور التاريخي المشترك، ووحدة مسار اللغة، ورفدته دواعي الارتباط بالأرض والمصلحة المشتركة والمصير الموحد، وإن هذا الولاء تشتد أواصره وتتوحد أجزاؤه كلما اشتدت حركة نضال الأمة وعظمت صور التحدي التي يتعرض إليها هذا الولاء. وقد ظلت جحافل الغزو وحملات الاستعمار، وأشكال السيطرة والاستغلال هي الحوافز الكبيرة التي تثير في الأمة كوامن الاعتزاز، وترفع في داخلها مشاعر التحدي وتثير في نفوس أبنائها دوافع الوحدة من

أجل الحفاظ على الوجود، لأن الأمة تشعر - في حالة الاستسلام - بأن بناءها الفكري والثقافي، وقيمها الاجتماعية ووجودها الحضاري يتعرض للضياع، وبالتالي تبدأ آفاق قدرتها وعطائها تنحصر في المجال الضيق الذي يتركها عرضة للاضمحلال ومجالا للتمزق. ومن خلال ذلك تستثار في أوصالها روح المقاومة وتبعث في نفسها نوازع الاندفاع لتأكيد الوجود، وتثبيت دعائم الاستمرار، فالإحساس بوحدة الإنتماء، والشعور بالوجود المشترك يمثل الحقيقة التي ظلت البشرية تسعى إليها، وتندفع من أجل تحقيقها، لأنها صورة الإنسان المؤمن، ورمز الفكرة الأصيلة التي عاشت في وجوده، ولازمت حياته، وتجسدت في شعائره وتقاليده. وعبر عنها في صراعه ونضاله، ودافع عنها عند تعرضها لكل ما يثلم كرامتها، ويمس وجودها. ولهذا كانت أساليب هذه الوحدة تتحدد في إطار المراحل التي يمر بها، وكانت أشكال التعبير عنها تمر عبر القنوات الحسية، والممارسات الوجدانية التي يراها قادرة على نقل ذلك الإحساس، وفي ظل الإرادة التي تحمله على التطلع المستمر والاندفاع المتنامي.

وقد ظلت الأمم تعاني من أسباب تمزقها وتشتت وحدتها وما يخلفه هذا الوضع البائس من تأثيرات في وضعها الثقافي والحضاري، وما تتركه آثار ذلك التمزق على أبنائها الذين يصبحون نهبا لكل مستغل، وحقلا لكل طامح، فكانت تثير في نفوس الأبناء الحرص على الوحدة وتقوي فيهم نزعة التقارب حرصا على الوجود، وتأكيدا لوحدة الترابط، وتوثيقا لعوامل البناء الاجتماعي الذي يفرض على الجميع الشعور المشترك بالانتماء. وقد دلّت الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمم على أن عصور الوحدة كانت عصور نماء حضاري وازدهار ثقافي. كما أكدت أحداث التاريخ أن أمة العرب ظلت قوية الجانب عزيزة الجاه، وبقيت قوة محاربة، عندما كانت مجتمعة، حتى امتد نفوذها إلى كل أطراف الجزيرة العربية وبدأ نفوذها يمتد إلى كل جانب حتى بدأت الحكومات تحسب لها حسابها، لما وجدوه فيها من قوة ولعل أخبار شمريهرعش وما قيل بشأن غزواته لأرمينيا وبلاد فارس والهند ومصر والحبشة تؤكد هذه الحقيقة، إلى جانب حملاته العسكرية التي حشد لها قبائل عسير وتهامة، ومعاركه البحرية مع الأحباش والتي انتهت بانتصاره الساحق[1]. وقد أدت فتوحات شمريهرعش، والتي بلغت سواحل البحر الأحمر، إلى دخوله في نزاع مع الحبش الذين كانوا يحتلون مواضع من الساحل، كما حارب الفرس وأنزل بهم خسائر فادحة[2]. وقد ظلت

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨).

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٥٠.

مناوشاته مع الأحباش قائمة حتى استطاع أحد أحفاده أن يطردهم من العربية الجنوبية[٣]. ومثل شمريهرعش (أسعد أبو كرب) الذي قدم بجيوشه الأنبار والحيرة وغزا بلاد الترك والتبت والصين.

وذكر الهمداني (عبد كلال) الذي أقبل من اليمن لينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن وليجعل حج الناس عنده وإلى بلاده. ولما رأت كنانة وقريش وقبائل خندق ومن كان معهم من أفناء مضر،ذلك، خرجت إليه ورئيسها فهر بن مالك فاقتتلوا قتالا شديدا حتى انهزمت جيوش عبد كلال وأسر ابنه.

وفي الحضر صبر (برسميا) بجنوده ودافع معهم عن أسوار المدينة التي حاصرها الرومان، وبسبب المقاومة العنيفة التي أظهرها الفرسان العرب والدفاع المستميت الذي أبدوه دفاعا عن مدينتهم الباسلة، اضطر القائد الروماني إلى التراجع بعد أن ألهبوه بقنابل النفط وقذائف اللهب.

إن هذه الدلائل وغيرها تؤكد عظم المقاومة التي كانت تبديها القبائل العربية وهي تدافع عن أرضها وإنسانها وتشد من أزر أبناء قومها، لترد عنهم غائلة الاستعباد، وتصد عنهم جحافل الطامعين الذين يحاولون بكل الوسائل غزو أرضهم واستثمار ثرواتهم وإجبارهم على الخضوع أو دفع الضرائب أو تسخيرهم من أجل حماية قوافلهم التجارية. ومن الطبيعي أن يكون الشعر في كل مرحلة من تلك المراحل قد أدى دوره وساهم مساهمة فعالة في إذكاء الشعور القومي وإلهاب الحس القبلي، الذي يجمع الناس على الوحدة ويدفعهم إلى القتال، ويثير في نفوسهم دواخل الشعور بالإنتماء. ولا بد أن يكون الشعراء الذين ضاعت قصائدهم قد أخذوا على عاتقهم هذه المهمة، فأدوا أدوارهم بإخلاص وتحملوا مسؤولياتهم بجرأة، لأن الدلائل التي وجدناها في الشعر الذي وصل إلينا بعد هذه الفترة أكد هذه الحقيقة، ولأن المعاني التي شحنت بها مضامين الشعر لم تكن وليدة عصر، أو لأن المعاني لم تكن نتاج مرحلة متأخرة، وإنما هي استمرار لإحساس متنامٍ، وقيم أخلاقية موغلة بالقدم ألفها الناس فاستجابوا لها، ووجدوا فيها ما يجمع شملهم ويحقق وجودهم ويقوي وحدتهم. فآمنوا بها وتأثروا بمعانيها واندفعوا من أجل تحقيقها بكل الوسائل الممكنة. لأن الإحساس بالقوة والشعور بالانتماء يدفع الإنسان في كل مراحله إلى الأسلوب الذي يحقق له تلك المشاعر، وإن التحدي الذي كانت تتعرض له الأمة في وجودها، والاستجابة المتحققة من خلال الدعوة إلى وحدتها على ألسن الشعراء وفي خطب القادة

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٩.

والرؤساء تمثل العنصر الواعي الذي استطاع أن ينزع عن نفسه كل العوائق التي كانت تحول دون تحقيق تلك الوحدة، ولو بشكل مرحلي أو مؤقت، ووفق الظروف التي كانت تستدعيها تلك المرحلة والفهم الذي تتحقق فيه صورة التجمع، وإن تحكم النزعة التي تفرضها عليه طبيعة الحياة، والقيم السائدة كانت موازية، من حيث الشدة، لمقدار التحديات التي كان يراها حادة وعنيفة. وفي هذه البؤرة كان يتحدد الحكم الفاصل بين الاندفاع والتحفز لإحياء وحدة التحالف وتكوين نواة التوحد، وبين درجة التراجع التي كانت تفضي إلى الإنهزام وتقع في دائرة التراجع التي كانت تتعرض إليها الأمة عندما تتبعثر قبائلها وتتفرق وحدتها وتتحكم في أبنائها النزعة الفردية.

وقد أكدت كل الحقائق التاريخية والنصوص التي عثر عليها أن العرب سكنوا بادية الشام منذ عهود قديمة، وأن الممالك التي شمخت في امتداد الصحراء المترامية لم تكن وليدة مرحلة قريبة، إذ أن رحلاتهم المستمرة إلى هذه المنطقةوغيرها كانت توحي باتصالهم القديم ببلاد الشام والهلال الخصيب، وأنها امتداد طبيعي لأرض الجزيرة، وأن الحركة المستمرة بين هذه المواضع قديمة قدم ظهورها إلى الوجود. وأن هذه الحركة كانت تمتد إلى الحضر والرها وحمص، وتفرض سلطانها على غيرها من المدن التي حكمتها أسر عربية[٤]. وقد ظلت أرض الجزيرة مطمع أنظار الدولتين الكبيرتين اللتين كانتا تحاولان فرض سلطانها عليها تحقيقا لأغراضها السياسية وتطمينا لحاجتها المادية، التي تحاول وضع ثروة هذه الأمة في تحقيق أطماع تلك الدولتين. وقد جعل هذا الوضع الأمة متأهبة في كل وقت لمجابهة الاعتداء المنتظر، وصد الحملات الكثيفة التي كانت تحاول اقتحامها، وكبح جماح تطلع أبنائها الذين كانوا يتوقون إلى السيادة ويتطلعون إلى جمع الكلمة، لإيقاف النفوذ الأجنبي الذي كان يسعى إلى السيطرة عليهم.

فالأمة كانت تتحسس وجودها الانساني، وتشعر بقدرتها وهي تتوارث تاريخا عريقا من النضال، ووحدة من المصالح والثقافة واللغة والأرض، وبناء متكاملا من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقد تجلت في هذا التكوين صورة الأصالة التي ظلت ملازمة لحياتها بعد أن تجسدت في كل مظهر من مظاهرها، واتضحت في كل نمط من أنماط حركتها. وكانت اللغة رمزا حيا تجمعت حوله القلوب، وتوحدت في إطار وحدته الأفئدة، يصوغون فيها أشعارهم، ويعبرون من خلال ألفاظها عن أحاسيسهم وأفكارهم، وكان سوق عكاظ محفلا كبيرا من محافلهم، وملتقى عظيما يعقدون فيه الندوات، وتحدد في أيامه

---

(٤) دنيو ديسو، العرب في سورية، ترجمة عبد الحميد الدواخلي.

مناهج العمل وأساليب الحياة، وتكتب في ظل مبادئه العقود والأحلاف وتعقد الصفقات. . ويتبادل الناس السلع والحاجيات، أما القيم والعادات والأعراف والتقاليد التي تمثلتها الأمة في سلوكها ومارستها في علاقاتها اليومية والتزم بها الأفراد وحرصت على تطبيقها والأخذ بها الجماعات، فكانت شكلا آخر من أشكال الترابط الذي ضربت أصوله في كل أرض، وامتدت قواعده إلى كل ربع من ربوع الجزيرة، وكانت وحدة أخرى من وحدات التماسك ونموذجا آخر من نماذج التوافق البياني، والتواصل الشعوري الذي وجد صوته في كل نفس، واتخذ موقعه في كل قلب وحدد أبعاده عند كل جماعة. وكان الشعر بعد كل هذا صوت الحقيقة النابعة من الوجدان وصورة الحس القومي المتعالي من خفقات المشاعر القومية، ولون النضال البطولي الذي تخوضه الجحافل وهي تدافع عن الأرض أو تجابه التحدي، أو تصون الحمى. وكان الإنسان العربي الذي يطوف فوق أرض الجزيرة ويجوب أطرافها المتباعدة، ويتحرك في نطاق تجمعه القومي يعلم أن المصالح الأجنبية كانت تتسرب إلى كل ناحية وتنفذ إلى كل بقعة، وأن نفوذها يمتد إلى بعض القبائل ويتجاوزها إلى الكيانات السياسية القائمة. وكان هذا الإنسان يدرك أن تلك القوى كانت قادرة على أن تدخل الجزيرة متى شاءت، وقد هيأت جحافلها الكبيرة وأعدت كتائبها المجهزة بكل أنواع السلاح، وهو تهديد يستهدف هذا الإنسان صاحب الأرض ويسعى من أجل انتزاع حقه منها، وكانت القبائل العربية تجد في مملكة كندة وجودا مستقلا، ورمزا لدولة عربية حاولت أن توقف الزحف الأجنبي، وتبعد عنها كل نفوذ. كما كانت تعتز من خلال رفضها القاطع لأي تدخل مهما كان شكله، عن استقلاليتها الواضحة وخروجها عن الطوق المفروض الذي حاولت أن تضربه عليها جيوش الفرس أو الرومان. ومن الطبيعي أن تتعرض هذه المملكة وهي تحاول إثبات وجودها إلى التهديد والتآمر بعد أن أخذ أشكالاً مختلفة، وأوضاعاً تتناسب مع الوضع الذي كانت عليه هذه المملكة. ولعل محاولة تأليب بعض القبائل العربية واستدراج البعض الآخر تحت أية حجة، واستثارة النعرات التي فرقت وحدة تلك القبائل قد هيأت المناخ المناسب للاجهاز على هذه المملكة وتفتيت وحدتها وإنهاء حكمها، الذي ظل حلماً من أحلام القبائل العربية التي كانت تجد فيها صوتها، وتتأمل فيها النواة الاساسية لتكوين الدولة العربية المنشودة. وكانت مأساة الشاعر العربي امرىء القيس، الذي أدرك عمقها وعرف أبعاد التمزق، وتحسس صورة الوجدان العربي الذي دافع عنه عبر رحلة طويلة ومعاناة مريرة وهو يجوب الأرض العربية ويطوف القبائل التي توخى منها المعاونة، وتأمل في قدرتها إدراك مطلبه، ولكنها تبددت في سورة المطامع الشخصية التي تلاشت في خضم المصالح الضائعة ولكن صيحته ظلت تملأ الفضاء

الرحب وتنشر الصوت الكبير والشعار البطولي الرائد والصرخة الأصيلة التي مات من أجلها بعد أن تمثلت في أبياته.

ولـو أن مـا أسعى لأدنى معيشـة كفاني - ولم أطلب - قليل من المال
ولكنـمـا أسعى لمجـد مؤثـل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وهي صيحة كانت تتردد في كل صوت أصيل، وتتمثل في كل لون من ألوان نوازعهم الرافضة وتتجلى في مقاومتهم التي ظلت مثلاً نادراً، وصورة فريدة من صور الإباء. وأصوات الشعراء على الرغم من تباعدها من حيث المكان، وتباينها من حيث الزمان، تشكل تياراً رافضاً كان يجوب الجزيرة، ويتنقل من خلال التحديات التي كانت تريد فرضها جيوش الروم أو الفرس وكانت الأمة تشعر بهذا الموقف الصعب وهي تواجه هذه المواقف المتأزمة التي كانت تسعى من أجل استهدافها، وتتحرك في دائرة الاجهاز على كل مظهر من مظاهر وجودها لأنها تمتلك القدرة على استيعاب أهدافها التاريخية إلى جانب إحساسها بالامتحان الحاسم لإرادتها وقدرة نضالها، وقوة مجابهتها ولما يراد بها. وقد تمثلت كل أشكال هذا التحدي في الرفض البطولي الرائد الذي سجلته قصائد الشعراء وهي تعبر عن إباء الإنسان ورفضه لما كانت تتعرض له أرضه، وما كان يراد بشعبه. وإذا حاولنا قراءة شعر امرىء القيس من خلال هذه الرؤية، وتابعنا الهواجس النفسية التي كانت تتراءى له وهو يخوض معركة الدفاع عن المجد المؤثل، والصوت العربي الواحد، والبناء القومي الذي تبدد في خضم المطامع والأهواء لاستطعنا الوقوف عند مجموعة من الأفكار التي كانت تتسرب في معانيه، وتبرز من خلال زفراته التي كانت تتلاشى في (أرض قيصرا) التي كانت نهاية المطاف وخاتمة المأساة. وإذا قدر لأصوات امرىء القيس أن يظل بعضها، ويتلاشى بعضها الآخر في متاهات الضياع التي التهمت الشعر العربي، فإن أصواتا أخرى كانت تتناقلها الجزيرة العربية وهي تعلن غضبتها وتستنكر محاولة النفوذ الأجنبي والسيطرة الاستيطانية التي ظلت صورة ماثلة وشكلا بارزا في الواقع العربي آنذاك. وأن محاولة الشعراء التي كانت ترتفع لتجميع القوى، وتوحيد الصف، وتأكيد الشخصية العربية الرافضة والذات العربية التي تنزع إلى التخلص من ذلك النفوذ كانت تمتد إلى مجالات أوسع، لأنها كانت تعلم أن النفوذ والتدخل كانا يحاولان بكل الوسائل الممكنة استخدام بعض القبائل، واسترضاء بعضها الآخر بمختلف الأساليب وتأليب قسمٍ منها على مجموعة أخرى. وهذا ما دفع تلك الأصوات إلى أن تحدد أشكال تحديها، ومجالات إبائها، وتكشف عن بواطن الاستهداف التي كانت تحاول استخدامها، وهو يعاني الصراع الداخلي ويقاوم النزعات الذاتية، ويحاول أن يتجاوز الواقع، ويقاوم قوى النفوذ التي تريد أن تمد سلطانها،

وتحقق أغراضها وتمكن أقدام استغلالها، ويسط ذراعها على الأرض، لتستثمر الإنسان العربي، وتسخره في حراسة مصالحها وتطمين رغباتها، وترسيخ وجودها. وظلت نوازعها الداخلية، ومطامحها الأساسية تأخذ بعدها في التأثير الاجتماعي فاعلة ومتفاعلة لتحدد لعوامل التحدي الخارجي مجال الارتداد، ولتثير أمامها عوامل الانتكاس؛ ومن أجل أن يكون الرد بمستوى التحدي، ومن أجل أن تتكامل عناصر الذات التي وجدت نفسها تتعرض لهزة التداعي كانت الوحدة بشكلها الواسع صورة كبيرة، وكان الرفض بشكله الفردي أو الجماعي زاوية من زوايا تلك الصورة. وكان الإحساس بالانتماء بكل ألوانه إشراقة تلك الصورة وقد تجلت هذه الصورة واضحة في مجالات التعبير، ومواطن التفاعل، وأنماط السلوك الاجتماعي الذي مارسته بعض الفئات معبرة عن الرفض، معلنة التحدي، مؤكدة قدرتها على إدراك الذات، واستجلاء هذه القدرات لمقاومة التيارات المناهضة وهي تواجه الأمة في كل مجال، وتحول دون تحقيق ما تصبو إليه.

وكان الأخنس بن شهاب من أوائل الشعراء العرب قبل الإسلام الذين غنوا الوحدة العربية متجاوزين أطرهم القبلية، مفتخرين بأرضهم التي تمتد إلى ما وراء الشام وتصعد إلى جبال العرب وتهبط إلى محاذاة البحر العربي. وهم لم يقتصروا في فخرهم وحماستهم على قبائلهم، بل ذكروا قبائل أخرى استوطنت البحرين وسيطرت على الموانىء كلها حيث تأتي السفن بالتجارة إلى بلاد العرب وتخرج منها وهي صامدة قوية برغم ما تتعرض له من الهجمات القوية. وقصيدة الأخنس سجل للقبائل العربية التي كانت تشكل النواة الحقيقية لوحدة العرب. فبكر تحمي العراق من كل احتلال أجنبي، فإن ضاق بها الأمر جاءها العون والنجدة من اليمامة، كما حصل في يوم ذي قار عندما اجتمعت يد القبائل العربية في العراق إلى جانب بكر لترد الفرس. واستوطنت تميم أرضا واسعة من بلاد العرب ما خشن منها وما لان، وكذلك قبيلة كلب. أما غسان فهم ملوك الشام يظهر أثر عزهم في غيرهم. ومثلها بهراء التي خططت طرق حمص وتشعباتها حتى الرصافة. وسكنت أياد سواد العراق، تضارب الأعاجم دون وجل. أما اللخميون ملوك الناس فقد حكموا زمنا طويلا وكانت الحيرة عاصمة لهم، وآخر ملوكهم النعمان بن المنذر، وكان أحدهم إذا أراد أمرا أجابوه إلى أمره.

هذه طائفة من القبائل العربية التي افتخر بها الشاعر ثم افتخر بوطنه الكبير الذي لا يحجزه حاجز حيث ينتقل متى شاء، يسير مع الغيث ويستقر عند منابت الكلأ. ثم يعبر عن بطولة أبناء قومه، وبأنهم قوم أحرار في وطنهم العربي الكبير، يتركون سوامهم وإبلهم ترعى حيث شاءت وليسوا مثل غيرهم ممن يخاف أن يتجاوز فحل إبله الأرض التي خصصت له

فيتسبب ذلك في إهانته وأذاه. إن هذه القصيدة تكشف بوضوح عن المكانة العظيمة التي كان العرب يطمحون إليها قبل الإسلام، وكيف تحققت تلك الوحدة المقدسة بين القبائل، فأصبح العربي يفخر بأنه إذا ركب جمله وضرب في أعماق الوطن لا يعترضه أحد. والشاعر يرسم صورة الوحدة من خلال وحدةالقبائل، ويضع الدعائم الحقيقية لها من خلال وحدة الأرض التي لا تقف عند حد ولا تنتهي في ظل فكرة. والقصيدة بعد هذا لوحة خالدة من لوحات التطلع القومي الذي تجاوز كل الحدود، وعبر كل المسارات والتيارات التي استقرت في بعض القيم.

قال الأخنس بن شهاب يشيد بالأمة العربية ويعدد القبائل ومفاخرها قبيلة قبيلة(٥):

لِكُلِّ أُناسٍ من مَعدّ عِمارَةٌ ... عَروض إليها يَلْجأون وجانبُ
لُكَيْزٌ لها البَحران والسيف كلُّهُ ... وإنْ يأتِها بأسٌ من الهند كاربُ
وبكرٌ لها ظهرُ العراق وإن تَشَأ ... يَحُلْ دونها مِنَ اليمامة حاجب
وصارت تميمٌ بين قفّ ورملةٍ ... لها من جبال منتأى ومذاهب
وكلبٌ لها خَبْت ورملة عالج ... إلى الحَرّة الرّجلاء حيثُ تُحارب
وغسّان حَيٌّ عِزّهم في سواهُمُ ... يُجالد عنهم مِقنب وكتائب
وبهراءُ حي قد علمنا مكانَهم ... لهم شَرَكٌ حول الرُّصافة لاحِبُ
وغارتْ إيادٌ في السواد ودُونها ... برازيقُ عُجْمٍ تبتغي مَنْ تُضارب
ولخمٌ ملوك الناس يُجبى إليهمُ ... إذا قال منهم قائل فهو واجب
ونحن أناسٌ لا حجاز بأرضنا ... مع الغيث ما نُلقى ومن هو غالب
وإن قصُرتْ أسيافنا كان وصلُها ... خُطانا إلى القوم الذين نضارب
فلله قَومٌ مثلُ قومي سُوقةً ... إذا اجتمعت عند الملوك العصائب
أرى كل قوم قاربُوا قَيد فحلهم ... ونحن خلعنا قيدُه فهو سَارِب

وفي صوت بشامة النهشلي الذي اصطبغت حياته وحياة أبناء قومه بالحرب دفاعا عن الأرض، وصيانة للذكر الجميل، وتخليدا للعمل الصالح، يتمثل ابتذال النفس في هذه المواضع وإن كانت عزيزة في المواقع الأخرى(٦).

(٥) ابو طالب بن سلمى المفضل الضبي، ديوان المفضليات (اكسفورد : كلارندون بريس، ١٩١٨ - ١٩٢٤) ، ج ٢، ص ٧ - ٨ .

(٦) حبيب بن أوس ابو تمام، ديوان الحماسة (الاستانة : مكتبة اسماعيل سابكي، ١٩٦٩) ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

أنـا لنـرخص يـوم الـروع أنفسنـا ... ولـو نسـامُ بهـا في الأمن أُغْلينـا
إنـي لمـن معشـر أفنـى أوائـلهـم ... قـولُ الكمـاة الا أين المحـامونـا
لو كان في الألف منا واحدا فـدعوا ... من فـارسٌ خـالهم إيّـاهُ يعنـونـا
إذا الـكمـاة تنحـوا أنْ ينـالَهـم ... حد الضبـات وصلنـاهـا بـأيـدينـا

وبقي هذا الصوت في إبائه ورفضه يأخذ مساحته في كل نفس، وتتسع أبعاده في كل تحرك قبلي أو قومي، لأنه يرسم صورة التحمل، ويحدد أطراف المسؤولية ويسجل قدرة التحدي التي تمثلت في كل الأصوات الأخرى التي كانت تتعالى في نفوس الأبناء الآخرين الذين كانوا يتحسسون الوضع نفسه، ويقدرون الأمور حق قدرها، فكانت صرخة طرفة بن العبد:

إذا القـوم قالـوا من فتى خلت أنني ... عـنيـت فـلم أكسـل ولـم أتبـلدِ

وكانت صرخة الشاعر الآخر:

إذا القـوم قـالـوا من فتى لعـظيمـة ... فمـا كلهم يـدعى ولـكنـه الـفتى

فالقوم في كل النفوس هم الدعاة الحقيقيون، والقوم هم الذين يستجاب لهم، وهم الذين تلبى دعوتهم، والشعراء هم الأصوات الواعية التي كانت تعبر عن الأحاسيس الداخلية، وترسم الوجه الحقيقي للدعوات الواعية التي تتمثل في التحرك القبلي، وعند كل تأزم تشتد أوقاته، أو كل محاولة حادة تتعرض لها الأمة. وقد عاشت أمتنا هذا الواقع الذي فرضته الظروف الحياتية والأحوال البيئية. وقد دفعت الظروف هذا الإنسان إلى أن يقاوم الاحتلال مقاومة مفروضة، ويحدد طرق هذه المقاومة وأساليبها، منتفعا من تجربته التاريخية، وتجربة الأجيال التي وضعت أمامه عناصر التحدى وجها لوجه، فولدت في نفسه عناصر المقاومة والصمود التي تتناسب مع تلك العناصر. فالرفض والإباء والتحدي والدعوة إلى الوحدة ومجابهة الرضوخ، واستثارة العزائم معطيات حية كانت تجد صداها في كل نفس تواقة إلى المجد، متطلعة إلى التخلص، وكانت تتجلى أشكال هذه المعطيات الإنسانية من خلال المسيرة الزمنية التي قطعتها الأمة وعبر الأعمال الشعرية التي كانت تتنامى في ظل صراع فردي محدود، أو إجماع قبلي متميز، أو مشاركة قومية رائدة. وكانت هذه المظاهر تأخذ أشكالا متفاوتة، وتنبثق من خلال التضاد الحسي المتوثب، وتتعالى بطريقة تعبيرية حادة إذا شعرت بالتحدي. والأمم الحية دائما هي التي تمتلك من دواعي الوجود والأصالة ما يدعوها إلى الرفض والإباء، وهي التي تقف شامخة بوجه التحديات، لأنها ترتبط بما يهيء لها هذا

الشموخ وبما يدعوها إلى هذا الموقف الرافض. فعندما حاول أبرهة أن يعتدي على الكعبة، وعندما حاولت جيوشه الغازية أن تدخل الحرم الشريف كانت أصداء اعتدائه استثارة لكل المطامح المشروعة المتمثلة في إيقاف التسلط وإسكات الأصوات التي تحاول التجاوز على الأرض الكريمة. ومن أرض اليمن تعالت صرخات سيف بن ذي يزن لتعلن لكل الأبناء البررة رفضها لهذا الاعتداء ودعوتها لكل الحريصين على التراب الطاهر أن يتوحدوا تحت شعار واحد لتحرير الأرض وتحقيق الاستقلال وإيقاف الهجمة الظالمة التي كانت تقاومها الجحافل المؤمنة. وهنا عاد صوت الشعر ثانية ليخلد في هذا البطل ثورته، ويمجد فيه روح الجهاد والمصاولة. ووقف أمية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن ويهنئه بانتصاره على الأحباش(٧).

ليطلب الثأر أمثال ابن ذي يزن ... في البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده النصر الذي سالا

وقال في قصيدة أخرى(٨):

جلبنا المدح تحمله المطايا ... إلى أكوار أجمال ونوق
مغلغلة مرافقها تعالى ... إلى صنعاء من فج عميق
نؤم بها ابن ذي يزن وتفرى ... بطون خفافها أم الطريق
ونلمح من مخايله بروقا ... مواصلة الوميض إلى بروق
فلما واقعت صنعاء صارت ... بدار الملك والحسب العتيق

وارتفعت كل الأصوات ثانية لتقف مع سيف بن ذي يزن مرة أخرى وهو يقاوم التدخل الفارسي، ويجابه القوة التي كانت تحاول استغلال اندحار الأحباش، لتعود ثانية محتلة ومستغلة. وبنفس الاندفاع الأصيل، والقدرة المؤمنة والعقيدة الثابتة تحركت القبائل العربية مساندة هذا الصوت، ومحاولة خوض معركة التحرير ثانية، وفي إطار توحد قومي مترامي الأطراف، وإحساس عربي لدفع الغرباء الذين حاولوا بسط سلطانهم.

ووقف الشعر وقفة أخرى على لسان زهير بن أبي سلمى وهو يرى حيا من بني

---

(٧) امية بن ابي الصلت ، ديوان امية بن ابي الصلت ، تحقيق بهجت عبد الغفور ، الطبعة٢ (دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٧) ، ص ٣٤٤ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ٤٤١ .

عبس (بني رواحة) عندما حاول أن يستنجد بهم النعمان، حين طلبه كسرى ليقتله بعد أن أبت كثير من القبائل حمايته، وكان التزامهم بالدفاع عنه ومنعهم ما يمنعون منه أنفسهم صورة للحس القومي المتوثب الذي امتحن في مسألة مصيرية، وجوبه بإرادة قادرة ومتمكنة، وكان صوت زهير الذي خلد أولئك الذين تحملوا عبء مسؤوليتهم، ووضعوا أنفسهم في الموضع الحقيقي يرتفع ليعلن[٩]:

سوى أن حيا من رواحة اقبلوا … وكانوا قديما يتقون المخازيا
يسيرون حتى حبسوا عند بابه … ثقال الروايا والهجان المتاليا
فقال لهم خيرا واثنى عليهم … وودعهم وداع أنْ لا تلاقيا

وظل النعمان يطوف القبائل، ويثير، ويشحذ الهمم، ليوقظ الحس القومي ويرفع درجة الاندفاع من أجل كبح جماح القوى الظالمة، وكانت أحاسيس النعمان تتسرب إلى أقوال الشعراء وهي تحمل الشكوى، وتؤكد القدرة العربية التي كانت تتلمس الوحدة بأي شكل، وتحقق الذات بأي لون، وتقاوم الجبروت وفق أية صيغة. وكانت رموز الرجال الذين يباشرون هذا الحس تتحدد من خلال الأعمال والممارسة، وعزائمهم تمتحن في إطار التوجه القبلي أو القومي الذي يتعالى في أوقات المجابهة وترتفع أصواته عندما يحين الحين، وتتجسد الصور، وتنطلق نداءات الارتباط بالمصير المشترك. وكان الشعراء يضعون أمام قبائلهم، وهي تعاني مرارة الصراع الدامي وتخوض جبروت الاقتتال، الطريق الصحيح، والمنهج الصائب، والحل السليم، لأنهم كانوا يدركون - وهم الرواد الحقيقيون - النتائج المترقبة على قبائلهم إذا ظلت متفرقة، وعلى قومهم إذا بقيت الشحناء بينهم قائمة، والحروب متلاحقة، وهذا ما كان يدفعهم إلى الدعوة للتصالح، وإنهاء الخلافات وإزالة كل مظهر من مظاهر التفرقة للوقوف بحزم بوجه الطامعين، ورد كيد الأعداء والخصوم، لأن الظهور بمظهر القوة، يقتضي توحيد الجهد وتجميع القوى وتسليم القيادة لمن هو أهل لها والتهيؤ لإسقاط كل المحاولات التي كان يراد بها استهداف وحدة القبائل، وتسخير أبنائها لتحقيق الأهداف التي تتوخاها الدول الطامعة.

فالقصيدة بكل مضامينها اللفظية والدلالية كانت إعلانا قائما بنفسه، وصحيفة متنقلة، تتسرب معانيها وتنتقل أغراضها بين القبائل انتقالا سريعا، ويرددها الناس مستمعين إليها، ومتمثلين بأبياتها، لأنها كانت تحمل الفكرة وتؤكد القيم التي يؤمنون

---

(٩) ديوان زهير بن ابي سلمى (بيروت: دار صادر [و] دار بيروت ، ١٩٦٠) .

بها. وقد أضفى عليها ذلك أهمية واضحة تجلت في اهتمام القبائل بالشعراء، واعتزازهم بهم واحتماء القبائل بهم والتزامهم بكل ما يقولون به أو يتحدثون عنه، لأنهم وسيلة القوم والأداة التي يستطيعون من خلالها أن يظهروا قدرتهم، ويحفظوا وجودهم، ويؤرخوا أيامهم، ويدافعوا عن أحسابهم التي كانت تمثل هوياتهم. وهذا ما حمل المسيب ابن علي على أن يقول(١٠):

فلأهدِيَن مع الرياح قصيدة ... منّي مغلغلة إلى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة ... في القوم بين تَمَثّل وسماع

لأن القصيدة صورة الإعلام المتنقل الذي كان يتوغل إلى كل نفس وينفذ إلى كل غور ويتسرب إلى كل طرف من أطراف الجزيرة أو أفق من آفاقها الرحبة لينقل إليهم الكلمة الهادفة والصورة الرائدة والنشيد البطولي والقيمة الأخلاقية، وهي بالتالي تمثل الأداة الطيعة للنشر والسبيل اليسير للإنتقال، يحملها الرواة بلا إعياء، ويتمثلون بها عند كل حاجة ويتمادحون بمفاخرها في كل ناد. وهذا ما جعلها قناة إعلامية رائدة يمكن استخدامها في كل مجال، لأن الركبان الذين يطوفون الجزيرة مكلفون بنقلها، والذين يزجون مطاياهم يبلغون مضامينها لكل الراغبين في الوقوف على الأوضاع العامة. وقد دفع ذلك الشعراء إلى أن يجعلوا في كثير من مطالع قصائدهم (ألا أبلغ).. أو (أيها الراكب المزجي مطيته) إلى غير ذلك من الألفاظ الدالة على هذه المعاني.. لأنهم أدركوا مهمتهم الإعلامية وعرفوا قدر أنفسهم، وهم يضطلعون بهذه المهمات الجسيمة في نقل الأحاسيس وتأكيد المشاعر ووضع الصورة الكاملة للمستقبل الذي تتوخاه القبيلة ويسعى إليه القوم. ولعلّ تقديس القصائد واعتزاز بعض القبائل بشعرائها إلى حدّ التقديس يحدد لنا أهمية هذا الفن وأثره في الحياة، والتفاف الناس حول قائليه، وقد وقف ابن رشيق في كتاب العمدة عند أبواب مختلفة في فضل الشعر واحتماء القبائل بشعرائها ومن رفعه الشعر، وغير ذلك من الأبواب(١١).

ولا بد أن تتخذ أشكال المقاومة العربية ضد بقايا الاحتلال في الجزيرة أشكالاً من المناهضة، وصوراً من الكفاح الذي تجلى في بعض أحداث الأيام، وتمثل في إنهاء هذا الاحتلال عندما توجه الشعب من مختلف الأصقاع، وتعدد الجهات والأطراف، ليلتقي

---

(١٠) المفضل الضبي، ديوان المفضليات، ج ١، ص ٦٠.

(١١) ابو علي الحسن بن علي ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده (القاهرة: مطبعة امين هندية، ١٩٢٥)، ج ١، ص ٧، ٢٧ ـ ٤٩.

عند أرض العراق ويجعلها ممرا لجيوشه التي كانت تتلهف لاستعادة الأرض وتحرير الإنسان، وتحقيق اجتماع الشمل بعد أن انفرط باقتطاع تلك الأصقاع.

إن هذا الإعداد القومي والديني الذي تمثل في الحملة الكبيرة، والتضحية النادرة والاستشهاد الرائع قد مهد له وبشكل واضح (يوم ذي قار) الذي برزت أحداثه بصورة جلية، وأخذ مجاله من خلال التحرك البشري الواسع في الدعوة إلى الوحدة ومجابهة الرفض والتحدي للوجود الأجنبي فوق أرض الجزيرة، فكان نقطة تحول في تغيير مجرى الأحداث وتوجه قومي حاد نحو قدرة الانتماء، والتي بدأت القبائل العربية تجد نفسها ملزمة بالدفاع عنها، والتضحية من أجل استمرار وجودها، وإذا حاولنا استجلاء مظاهر الوحدة، والوقوف عند أشكال النضال الذي عرفته الجزيرة، فإن الأيام التي سبقت (ذي قار) كانت تمهيدا نضاليا واستمرارا للمقاومة التي تجلت في يوم (السلان) و(الصفقة) و(يوم الفرات) و(يوم سفوان) و(يوم الفجار) التي كانت تمثل هذه الدعوة، وتؤكد جانب المجابهة الذي عرفته القبائل العربية، وهي تعبر عن نفسها تجاه المواقف التي حاولت قوى الإستعمار أن تفرضها عليها. وقد استطاع الشعر في كل هذه الأيام أن يجسد عمق هذا الحس القومي، الذي كانت تتعالى أصواته من خلال الرفض العربي لكل أنواع الوصاية. وفي أبيات لبيد التي تفتخر بأيام قومه إشارة صريحة لهذا اليوم، ووقفة قومية أصيلة لما كان يدور في نفوس أبناء الأمة وهم يجابهون الخصم ويتصدون لمحاولة الاستيطان حيث يقول[١٢]:

إني امرؤ منعت أرومة عامر ... ضيمي وقد جنفت عليّ خصوم
جهدوا العداوة كلها فأصدها ... عني مناكب عزها معلوم
منها حويّ والذهاب وقبله ... يوم ببرقة رحرحان كريم
وغداة قاع القرنتين أتيتهم ... رهوا يلوح خلالها التسويم
بكتائب تردى تعود كبشها ... نطح الكباش كأنهن نجوم
نمضي بها حتى تصيب عدونا ... وترد منها غانم وكليم

وكان الشعراء يعلمون أن التماسك بين أبناء القوم، والاعتزاز بما يقدمونه من أعمال يمثل الخطوة الأولى التي تضع القبيلة على طريق الانتصار، وتوحد بين الأبناء الذين يصنعون المجد التاريخي للأمة ويحققون السبل القويمة لمسيرتها. وهذا ما كان

---

(١٢) ابو عقيل بن ربيعة لبيد، ديوان لبيد (ليدن : بريل، ١٨٩١)، ص ١٣٢.

يدفعهم إلى الحديث عن ذلك بصدق، والوقوف عند هذا الجانب بإمعان. وكانت الأحاسيس التي تساورهم وهم يقدمون هذه الأحاديث تحمل الوجدان الصادق والحس القومي الواضح الذي تمتزج فيه الذات الفردية بالذات الجماعية، وتنتهي في معانيه كل الدلالات التي يمكن أن تطغى في المواقف الأخرى، لأن الإحساس بالجماعة كان الصورة المطلقة للمجتمع العربي، والاندفاع وراء تحقيق المستقبل الذي تطمح إليه القبيلة في نطاق القوم ويرسم الصوره التي ظل الشاعر يدافع عنها في كل موقع، ويقدم من أجلها التضحيات الجسيمة. وكان صوت ربيعة بن مقروم الضبي الذي تحدث عن قومه صورة رائدة في هذا المجال حيث قال[١٣]:

وقومي فإن أنت كذبتني ... بقولي فاسأل بقومي عليما
أليسوا الذين إذا أزمة ... ألحّت على الناس تنسي الحلوما
يهينون في الحق أموالهم ... إذا اللزبات التحين المسيما
طوال الرماح غداة الصباح ... ذوو نجدة يمنعون الحريما
بنو الحرب يوما إذا استلأموا ... حسبتهم في الحديد القروما

وتأخذ بعض الأيام جانبا آخر من جوانب التحدي عندما تتفق القبائل العربية على مهاجمة قافلة كسرى فتأخذ ما كان معها وتقتسمه باعتباره حقا من حقوقها وثروة من أرضها وهو إحساس باسترداد الثروة وشعور بتحشيد القبائل من أجل الدفاع عن هذه الثروة، وتأكيد لمبدأ القدرة على مقاومة الغزاة والتصدي لقوافلهم، إلى جانب كونه نموذجا من نماذج الإحساس بالوحدة والشعور بالترابط والدفاع عن المصلحة المشتركة والمصير الموحد، عندما بدأت القبائل تتجمع وتتوحد لتقاتل أقواما غرباء احتلوا الأرض، واستعبدوا الإنسان، واستغلوا الثروة[١٤].

لقد أدرك الظل الأجنبي منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة إرادة الرفض العربي، وقد استخدم لإيقافه والحد منه بعض أتباعه. وقد حاول هؤلاء الأتباع سلوك مسالك

---

(١٣) المفضل الضبي ، ديوان المفضليات ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(١٤) ينظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الطبعة ٢ (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣) ، ج ٥ ، ص ٢٢٤ ؛ ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤) ، ج ١٧ ، ص ٣٣٧ ؛ ياقوت الرومي ، معجم البلدان (بيروت : دار بيروت [و] دار صادر ، ١٩٦٨) ، ج١ ، ص ٣٦٨ ؛ ابن الاثير ، ج١ ، ص ٢٧٥ ؛ عادل جاسم البياتي ، ايام العرب ، ص ٣١٦ ، ٤٢٢ .

شتى لفرض هذا الظل، وتثبيت أقدامه، ولكنه كان يجابه بقوة حازمة، وعنف متصل، وكانت الردود الرافضة تستمد قوتها من قوة الأمة، وعلو إبائها وقدرتها على المقاومة. ومن هنا كانت أعمال الأتباع الذين استخدموا للحد من هذا التحدي تتسم بطابع القوة. وتأخذ شكل الإرهاب الدموي في بعض الأحيان، محاولين بذلك إيقاف المد العربي المتطلع نحو مجابهة الإحتلال، وإيقاف جبروته. وقد تجسدت تلك المحاولات في المجزرة الرهيبة التي دبرها بعض صنائع المحتلين من رجال القبائل المغرر بهم بالتعاون مع كسرى. فقد حبس كسرى عن القبائل التي اشتركت في استرداد الثروة وهاجمت قافلة الميرة في سنة مجدبة، ثم أرسل إلى هوذه فأتاه، فقال، أين هؤلاء فاشفني منهم واشتف، وأرسل معه ألفا من الأساورة بقيادة رجل يقال له المكعبر(١٥)، فساروا حتى نزلوا المشقر ثم نودي: إن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة، وقد أمر لكم بميرة، فتعالوا فامتاروا. فانصب عليهم الناس، وكان أعظم من أتاهم بنو سعد، فجعلوا إذا جاؤوا إلى باب المشقر أدخلوا رجلا رجلا، حتى يذهب به إلى المكعبر فتضرب عنقه، وقد وضع سلاحه قبل أن يدخل فإذا مر رجل من بني تميم بينه وبين هوذة إخاء، أو رجل يرجوه، قال للمكعبر: هذا من قومي فيخليه له، فنظر خيبرى بن عبادة إلى قومه يدخلون ولا يخرجون فقال ويلكم: أين عقولكم؟ فوالله ما بعد السلب إلا القتل، وتناول سيفا، وضرب سلسلة كانت على باب المشقر فقطعها وقطع يد رجل كان واقفا بجانبها، فانفتح الباب فإذا الناس يقتلون، فثارت بنو تميم وهاجموا الحصن، وقتلوا الحرس، وأنزلوا بجيش كسرى الهزيمة فقتل من الأساورة من قتل، وانهزم من انهزم. ولم يغفر العرب لهوذة بن علي خيانته، بعد أن رشاه كسرى بأن وضع التاج على رأسه، فكان يقال له: هوذة المتوج، تمجد له الفرس كلما مرت به، وظل اسمه رمزا من رموز الخيانة، وصورة من صور الاستسلام، ونموذجا من نماذج التهاون في الأهداف المصيرية والقضايا التي تمس وجود الأمة لفترة من الزمن.

إن مواقف التحدي التي كانت تقفها الأمة، ومواقف الرفض التي كانت ترسم صورة المجد النضالي كانت تتحدد من خلال النصوص المتوفرة وأن هذه النصوص كانت تدور في إطار الدعوة إلى توحيد القبائل ومساندة المقاومة في كل أشكالها واتخاذ المواقف التي تجسد المسؤولية القومية والإنسانية، ومجابهة القوى التي تحاول السيطرة أو

(١٥) كان المكعبر عامل كسرى على البحرين، وسمي بذلك لكعبرته الرؤوس، ولانه كان يقطع الايدي والارجل.

الاستحواذ، وهي مفاهيم كانت تتحدد من خلال المواقف الثابتة التي عبر بها الشعراء عن الحس القومي الذي كان. . .

ويستثير دوافع بالتأكيد على القيم التي ترتبط بالمبدأ، ولم تكن توقعات الشعراء بعيدة عن التحليل والتعليل الذي يضع المسائل موضع التقييم السليم، وتحديد النتائج التي تنتهي إليها مواقف الاستسلام الأولية، والعواقب الوخيمة التي ستتركها على مستقبل الأمة. وقد لمعت أسماء مجموعة من الشعراء الذين سبقوا العصر الإسلامي في سماء الأدب العربي، منها جابر بن حني التغلبي والمرقش الأكبر، ويزيد بن الحذاق، والممزق العبدي، والحارث بن ظالم المري، وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ولبيد بن ربيعة والنابغة الذبياني ولقيط بن يعمر الأيادي والأعشى، وهي أسماء تؤكد قاعدة الشعراء الذين كانوا يخوضون المعركة من خلال أدبهم، ويسجلون طموح الأمة من ثنايا طموحهم، ويرسمون للأجيال المستقبل الواضح، ويحددون معالم الطريق الإنساني للأمة وحقها في الحياة، فقد ظلت قصيدة لقيط ابن يعمر التي مطلعها:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

صرخة من صرخات الوفاء، ورمزا من رموز التحرير، وبقيت معانيها الصادقة تعبر القرون وتجتاز الأجيال حية تحمل قدرة الوفاء، لامعة تنشر قيم الإخلاص والتضحية لأنها نابعة من ضمير الأمة التي انجبت هذا الشاعر وأنجبت غيره من الشعراء الذين كانت لهم مواقفهم الصريحة، وصادرة عن نوازع القدرة النضالية التي ظلت آمالها تثير في نفوس أبنائها عوامل الاقتدار، ودوافع الرفض، ونزعات التحدي. وقد حاول هذا الشاعر أن يفتتح هذه القصيدة بالوقوف على أطلال (عمرة) التي أهاجت له الهموم والأحزان، وهو لم يكن موقفا عفويا اقتضته طبيعة البناء الفني، أو فرضته لوازم الأداء، أو حققته نزعة المخاطبة الجامدة، وإنما وقوف يمثل الإلتصاق الحيوي بالأرض، والترابط المصيري بين الفرد والوطن المكاني والاندماج الأصيل الذي يشد الإنسان بموطنه الذي عاش فوق أرضه وقدم من أجله التضحيات. ومن الطبيعي أن يتخذ الشاعر من ذلك مدخلا إلى الموضوع الذي كان يأخذ بتلابيب الشاعر منذ البدايات الأولى، بعد أن تجلى حسا قوميا، واستثارة مصيرية، ودوافع إنسانية، فدار عمرة التي وقف عندها هي الأرض التي يعتز بها، لأنها تحمل ذكريات الوجود الأولي، وتحمل أحلام الأيام التي شهدت نشأته ونشأة أترابه من أبناء قومه، لأن الإنسان الذي حاول أن يتحدث معه لينقل حسه هو الإنسان الذي نذر له نفسه وتحمل من أجله التضحية الخالدة. وقد ظلت هذه المعاني هي

المحور الذي دارت عليه الأبيات، وكانت صرخة الهم والحزن والأوجاع هي المسحة البارزة منذ البيت الأول على الرغم من التزام الشاعر بالبداية التقليدية، التي حاول من خلالها الربط بين المعنى والفكرة، والرغبة والانتماء والإحساس والمسؤولية. وقد جسد الصورة برمز المرأة لأنها صورة الإحساس، وغموذج الخلود وصوت الضمير الإنساني. وقد اتخذ منها الشاعر جسرا ليتحدث من خلاله إلى الراكب ـ أي راكب ـ يقطع الجزيرة على عجل ـ دون تمهل ـ ليدرك قومه قبل أن تصل إليهم طلائع كسرى ليخبرهم بوصيته، ويبلغهم الأمانة التي حرص على نقلها، وقد حاول الشاعر أن يؤكد عنصر السرعة من خلال ألفاظه ليبدد المباغتة، الذي حاول كسرى أن يستخدمه لينقض على إياد. وقد تجلت الملامح الوجدانية والذاتية التي كانت تساوره وهو يتطلع إلى الجزيرة، الأرض التي شهدت ميلاد قومه، وعاشت تطلع وجوده، وتشهد الآن انتشار إياد برجالها وأطفالها ونسائها ومتاعها وترقب نعمهم، وتحدب عليها، يتطلع إليها والحرقة تؤذيه، وهو يرقب الصورة التي ستكون عليها بعد أن تدوسها أقدام الغزاة وتستبيح فوق ترابها دماء الآباء والأبناء(١٦).

لقد كان صوت الشاعر إيذانا بالإحساس الذاتي الذي كان يعتمل في النفوس، ويتعالى في كل قلب من أجل الحفاظ على وحدة القوم والحرص على تراب الأرض الذي ظل حمى مصونا.

لقد حاول الشاعر أن يملأ الصورة بما يوحي بالإيذاء، ويشدد على الجوانب المريرة التي يمكن أن تثير الحمية، وتخلق الشعور بما يدفع إلى التوثب والاستعداد. وقد استخدم فيها من ألوان الإثارة ومواقع الهلع ما يدل على المصير الذي ينتظر القبيلة العربية، التي أخذت على نفسها حق الدفاع عن الأرض العربية أمام جحافل الغزو الغربية. وتبلغ الصرخة ذروتها في أبياته التي يخاطب بها قومه فيقول(١٧):

صونوا جيادكم وأجلوا سيوفكم ... وجددوا للقسي النبل والشرعا
اذكوا العيون وراء السرح واحترسوا ... حتى تُرى الخيل من تعدائها رُجُعا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم ... مجدا قد اشفقت أن يفنى وينقطعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم ... إن ضاع آخره أو ذل واتضعا

(١٦) تنظر القصيدة في لقيط بن يعمر الايادي، ديوان لقيط بن يعمر الايادي (بيروت : دار الامانة، ١٩٧١)، ص ٢٧ ـ ٥١.
(١٧) المصدر نفسه.

يـا قـوم لا تـأملوا إن كنتُمْ غُيُـراً على نسـائكم كسـرى ومـا جمعـا
قـومـوا قيـامـا على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قـد ينال الأمن من فـزعا
وقـلـدوا أمـركـم لله دركـم رحب الذراع بأمر الحرب مضـطلعا

ولقد كانت مجموعة الشعراء تجوب المنطقة المحصورة في القسم الشرقي والشمالي الشرقي من جزيرة العرب، وهي المنطقة التي كانت تتطلع إليها أنظار الطامعين في كل الفترات التاريخية. ومثل لقيط صنع عبد الله بن جدعان عندما أرسل إلى بني عامر يعلمهم بخبر النعمان وصنائعه ووضائعه، الذين حاولوا مباغتة عامر بعد أن عرضت بنو عامر للطيمة كسرى، فحذروا وتهيأوا للحرب، وتحرزوا ووضعوا العيون. وكانت هند بنت النعمان في بني سنان عندما علمت بجموع كسرى وهي تحاول الإيقاع ببني بكر، فقالت قصيدتها التي تنذر العرب بها:

ألا أبـلـغ بـنـي بـكـر رسـولا فـقـد جـد النـفيـر بـعـنـفـقـيـر
فـليت الـجـيش كـلـهـم فـداكـم ونفسـي والسـريـر وذا الـسـريـر
كـأني حيـن جـد بـهـم إلـيـكم مـعلقـة الـذوائـب بـالـعـبـور
فـلـو أني أطـقـت لـذاك دفـعـا إذا لـدفـعـتـه بـدمـي وزيـري

وعندما حدثت النعمان الغساني نفسه بغزو بني حن تعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم، ولما رأى منه إصرارا شديدا، أرسل إلى عشيرته يدعوها إلى أن تعين بني حن فأعانتها، ومنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة، وفي ذلك يقول النابغة(١٨):

قـد قـلت للنعمـان لـمـا رأيتـه يـريـد بـني حن بـثـغـرة صـادر
تـجنب بني حـن فـإن لـقـاءهـم شـديـد وإن لم تلق إلا بصـابـر
عـظام اللهي أبـنـاء عـذرة إنهـم لهـا ميم يستلهـونهـا بـالجـراجـر
هم منعـوا نخل القرى من عدوهـم بجمـع شـديـد كـيـده للمكـاثـر

إن هذه النداءات القومية، التي كانت تأخذ شكل المراسلة أو المواصلة، تمثل امتداد الإحساس القومي، والترابط المصيري المشترك الذي كان يسود أبناء الأمة، والخوف الذي كان ينتاب الوجود العربي وهو يتحسس الهجمة ويتصور الحالة التي ستكون عليها هذه القبائل إذا تعرضت لمثل هذه الهجمات، ووقعت تحت رحمة هذه

---

(١٨) زياد بن معاوية النابغة الذبياني، ديوان الذبياني (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦)، ص ١٤٤.

الجيوش الغازية، وأصبحت مرتعا خصبا لغرض السيطرة والاستغلال، ومجالا من مجالات النفوذ. . وكانت هذه المخاوف تأخذ أشكال التهويل، وترتدي ثياب التحذير، وترسم صور الجيش الغازي من جهة وتخويف الغزاة من خلال تحذيرهم من قوة القبيلة إذا اتفق أبناؤها واتحدت كلمتهم، وتعداد مناقبها ومآثرها من جهة أخرى. . وقد احتفظ الشعر العربي بأشكال هذه النماذج وقدم صورا كثيرة من صور هذ الإحساس الذي ظلت خيوطه تشد أبناء الأمة بما يجعلها قادرة على مجابهة كل تحد. ويمكن اعتبار (ذي قار) الصورة الكبيرة التي تجسدت فيها قوة الشعر، وتحددت من خلالها معالم الإحساس القومي، وتوافقت في إطارها أهداف الأمة التي كانت تتطلع إلى يوم الوحدة الذي ظل أمنية من أمانيها وهي تتعرض لهجمات القوى الظالمة التي كانت تحاول قهرها، واستنزاف طاقاتها، واستثمار خيراتها، وتجابه قوى الانقضاض وهي تسعى من أجل إجبارها على الخضوع وقهر إرادتها في التخلي عن قيمها الخيرة وفضائلها المشهودة وأمانيها في المستقبل. وكان امتحانا رهيبا، وانعطافا حادا في تاريخها القومي، وتحولا مشهودا في مسيرتها الذاتية من أجل تأكيد وجودها، واستمرار قدرتها على البقاء، وتثبيت مرتكزات إنسانيتها. و(ذي قار) تمثل محاولة كسرى لرد اعتباره، بعد أن بدأت غارات القبائل العربية (بكر وتميم) على أطراف مملكته، تتعرض لأسراب قوافله التي كانت تخترق الأرض العربية وهي تحمل الثروة العربية لتنقلها إليه وإلى أرضه. وقد وجد كسرى في مسألة رد دروع النعمان وأسلحته سببا مباشرا لاتخاذه ذريعة، فأرسل إلى هانىء بن قبيصة يطلب منه رد الدروع والأسلحة، وبعث إلى بكر بالجيوش يقودها (الهامرز) على ألف من الأساورة، وكان على مسلحة كسرى بالسواد، ومن قوادها من العرب (أياس بن قبيصة الطائي)، وكان يحكم على ما كان يحكمه النعمان ومعه كتيبتان؛ الشهباء والدوسر. وقد أمر كسرى قيس بن مسعود أن يسير معه وخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وأياد. وكان كسرى قد طلب من بكر أن يسلموا حلقة النعمان ويقدموا مائة غلام يكونون رهنا بما تحدثه القبائل على حدود مملكته أو خيرهم بين ذلك وبين الجلاء عن أرضهم أو القتال. فاختاروا القتال. وتزعمهم في هذا اليوم (حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي) الذي عرف من ذلك اليوم بمقطع الوضن[19]، سمي بذلك لأنه قطع وضن الإبل التي تحمل النساء حتى لا يفر المقاتلة، وحتى يعرف الواحد منهم أنه إذا هرب لم تستطع امرأته أن تفر معه، ويزيد بن مسهر الشيباني، وهانىء بن قبيصة الشيباني. وقد ذهب بنو شيبان خاصة بفخر هذا

---

(١٩) الوضين : الحزام .

اليوم[٢٠]، وقد خلد الأعشى هذا اليوم بأربع قصائد هدد في بعضها كسرى بالحرب، ورفض ما كان يطلبه من رهائن، وقد فصل ذلك في واحدة منها، حيث أكد له رفض تقديم الرهائن لأن ذلك يعني تعريضهم للفناء والقتل، وسيكون مصيرهم مصير أولئك الذين قتلهم وأتلفهم من قبل، ثم يستبعد ذلك استبعادا مطلقا، ويصر على القتال مهما كانت النتائج، لأن اختيار الحرب هو القدر المحتوم. ومن هنا كانت حربا على المتمردين الطغاة، لا تهدأ حتى تستعر نارها، ويتأجج حطبها. ثم يعرض لفضائل الأمة من سياق حديثه عن قيمها وأخلاقها وما عرفت به من مثل. وهي قصيدة خالدة رسمت بدقة تصميم الأمة على المجابهة، وحددت بثقة قدرتها على التحدي. وهيأت لنفسها من المقومات ما يجعلها قادرة على الصمود، متمكنة من الاستعداد. وقد اختارت الوقت الذي تريد وحددت المكان الذي يضمن لها النصر، ووضعت الخطة. ولم يكن حديثه عن أرض بعينها وإنما كانت الأرض التي يتحدث عنها تمتد من عانة والفرات إلى كل أطراف الجزيرة العربية وهي أرض لا يمكن أن تهدأ، ما دامت جيوش الغزاة تطأها. وقد افتتح حديثه بمخاطبة كسرى حيث قال[٢١]:

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه　　عني مالك مخمشات شردا
آليت لا نعطيه من أبنائنا　　رهنا فيفسدهم كمن قد أفسدا
كلا يمين الله حتى تنزلوا　　من رأس شاهقة إلينا الأسودا
لنقاتلنكم على ما خيّلتْ　　ولنَجْعَلَنَّ لمن بغى وتمردا
ما بين عانة والفرات كأنما　　حش الغواة بها حريقا موقدا

حتى إذا بلغ الشاعر الذروة في التحدي، اتجه إلى كسرى وقد تعالت في نفسه سورة الغضب، وتأججت في روحه قدرة الإباء خاطب كسرى وهدده، وطلب منه أن يقعد وقد اعتصب بتاجه، ولا يحاول أن يسوم الناس الذل، ويخضعهم لاستعباده، لأنهم ليسوا بغافلين كيده، ولا ممن يرهبون تهديده:

فاقعد عليك التاج متعصباً به　　لا تطلبن سوامنا فتعبدا

ويظل الأعشى يتغنى بانتصار هذا اليوم، ويردد مآثر القوم فيه، ويسجل أمجاد

---

(٢٠) سرور طه عبد الباقي ابو عبيدة، النقائض (ليدن: بريل، ١٩٠٧)، ص ٦٣٨؛ الطبري، ج ٢، ص ٢٠٧ ـ ٢١٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص ٢٦٢ وما بعدها؛ ابو بصير ميمون بن قيس الاعشى، ديوان الاعشى (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ص ٢٢٦.
(٢١) الاعشى، ديوان الاعشى، ص ٢٢٩.

الأمة في مجابهة التحدي، وقوتها في رد الهجمة الظالمة، فالانتصار انتصار أمة، والشرف العظيم هو شرف لكل الرجال الذين وقفوا وقفة واحدة، ورددوا شعارا واحدا، وأقسموا على أن يكون النصر أو الموت حتى كتب لهم النصر، فقال[٢٢]:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ... منا كتائب تُزجي الموت فانصرفوا
جحاجح وبنو ملك غطارفة ... من الأعاجم في آذانها النطف
إذا امالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهام يختلف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
ولو أن كلّ معد كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

وبقيت أغاني ذي قار تشكل اللحن القومي الذي هز الشعراء أوتاره وعزفوا أنغامه ورددوا بطولته. وبقيت أناشيد البطولة في هذا اليوم الخالد تردد في كتب التاريخ أصداء تضحية خالدة، وصور يوم بطولي رائع، ونغمات مجد منح الأمة قدرات الاندفاع من أجل تحقيق الانتصارات، ومواطن قوة ألهمت الأجيال صلابة الاستماتة لتسجيل المستقبل الانساني الذي حاولت الأمة أن تخطط له من خلال وجودها واستقرارها، ولتجميع الأبناء في إطار وحدة راودت النفوس.

ويوم ذي قار لم يقف عند حدود تسجيل الإنتصار، أو تثبيت مواقف الإقتدار على قطع داء التحرك الأجنبي الذي حاول أن يمد سلطانه على الجزيرة، وإنما كان تشخيصا للعناصر التي آمنت بالحس القومي، والتزمت بالتوجه الصائب الذي وضعته الأمة لنفسها وهي تستعيد وحدتها، وتخطط لرسم مستقبلها ومستقبل أجيالها، وهذا يعني محاولة استقطاب العناصر التي كانت تقف مع المنهج الجديد، وتجميع القوى المؤمنة بسلامة هذا النهج، والقادرة على التضحية من أجل مد التيار وتوسيع مجالات تحركه.. ومن الطبيعي أن يتجه الشعراء إلى تثمين الدور الذي أدته بعض القبائل، والبلاء الذي أبلته لتأخذ دورها في حركة التقييم ولتكون نموذجا من نماذج الإقتداء والمقارنة، وهذا ما أثار في نفس الأعشى حمية الإتجاه إلى تقييم هذا الدور، وإلى تحديد الموازين التي تحدد لها منزلتها، أو تقرر لها موقعها في حركة التاريخ.. وكانت ذهل بن شيبان قبيلة متميزة، أعلى الله ذكرها في المحامد، فردت كيد البغاة، وأذاقتهم من الهوان أشده، وكانت تخفق على رؤوسهم الرايات الطوال، وتلمع في خضم الحرب بريق البيض التي كانوا يضعونها على

(٢٢) المصدر نفسه.

رؤوسهم. وقد وجد الشاعر نفسه أمام عمل جليل لا يمكن تجاوزه فوقف عندهم يشيد بذكرهم فيقول[٢٣]:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت
فلله عينا من رأى من عصابة ... أشد على أيدي السعاة من التي
أتتهم من البطحاء يبرق بيضها ... وقد رفعت راياتها فاستقلت
فثاروا وثرنا والمنية بيننا ... وهاجت علينا غمرة فتجلت

وهي قصيدة طويلة وقف فيها الشاعر عند القيم التي تحلى بها أفراد هذه القبيلة من حماية الحمى، والموت دون الوصول إلى النساء أو النصر، وقد سقوا الخصوم كأسا مريرة. وكان يرسم من خلال ذلك صور البطولة، وألوان الفروسية، وأشكال التضحية. ومثلما كان يقف عند هذه المواقف المشرقة كان يقف عند مواطن الضعف، ومواقع الانهزام، ومواقف الاستسلام فكانت رائعته التي خاطب فيها قيس بن مسعود. وقيس هذا كان واليا لكسرى على (الأبلة) ولاه عليها شراء لذمته، وثمنا لخيانته. وقد سار مع جيش كسرى لمحاربة بكر في يوم (ذي قار)، ثم رحل بعد هزيمة كسرى إليه يعتذر عن انتصار قومه، وما صنعوه بكسرى وجيشه، والأعشى في هذا الموقف يلومه على مسيره، ويسفه رأيه، ويذكره بأن قومه كانوا كفيلين بحمايته، وإغنائه عن كسرى ومذلته وهوانه. وهو يأخذ عليه قيامه بهذه (الرحلة) التي يطلب فيها الصفح والاعتذار بعد الذي سفك من دماء قومه في يوم (ذي قار). لقد كانت الأمة ترجو من قيس الخير، وتعقد عليه الآمال، ولكنها شعرت بخيبة الأمل مرتين في عام واحد، فقد صحب كسرى، والتقى به، ورحل إليه واتفق معه، ولم يجد الأعشى، والجزيرة تغلي، وشعبها ينتظر ساعة الفرج، سوى أنه تمنى لو (مات) ساعة (ولد) وليت (القوابل) غرقته بمائه لتدفن معه إلى الأبد كل الآثام الكبيرة، وتقتل معه كل نزعات الشرور، وتسقط صورة التخاذل، وتُنهي معالم الجبن والهزيمة وتختفي آثار الذي لازمه. وبقيت لعنة الأعشى خمسة عشر قرنا ملازمة لهذا الرجل الذي استهان بحرمة الأمة، وغرق بآثام الخيانة حتى الرأس فقال[٢٤]:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل
أطورين في عام غزاة ورحلة ... ألا ليت قيسا غرقته القوابل

---

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

وليتك حال البحر دونك كله وكنت لقى تجرى عليه السوائل
كأنك لن تشهد قرابين جمة تعيث ضباع فيهم وعواسل
تركتهم صرعى لدى كل منهل وأقبلت تبغي الصلح أمك هابل
لقد كان في شيبان لو كنت راضيا قباب وحي حلة وقنابل

لقد كانت أشكال التحدي تأخذ ألوانا وصورا تتناسب مع طبيعة الصراع، لأنه كان يأخذ طابعا منفردا أحيانا عندما تكون قدرات الخصوم مكثفة، ومراكز تجمعه قادرة على رد الهجمات. وفي هذه الحالات تأخذ التحديات أشكال غارات على ما في يد الخصوم، وغزوات متتالية تقض مضاجع الأعداء. كما وقع ذلك مع أياد عندما نزلت بسنداد ونواحيها وأقامت بها دهرا، ثم امتدوا إلى كاظمة وبارق والخورنق واستطالوا على الفرات حتى خالطوا أرض الجزيرة ولم يزالوا يغيرون على أهاليهم من أرض السواد، ويغزون ملوك آل نصر[٢٥]. وكما وقع مع حصن بن حذيفة ابن بدر وزبان بن سيار (الفزاريين) اللذين كانا يغيران مرارا على ما كان في يد غسان من مملكة الروم. وكانا يغيران من تلقاء وادي القرى ودومه الجندل وما يلي الشام فيأخذون ما قدروا عليه. فلما ألحا عليهم في الغزو جمعت لهم غسان جموعا كثيرة، وأرادوا أن يغيروا على حصن، فجاءهم النابغة فحذر حصنا وزبان بن سيار، فقال حصن للنابغة: فما الرأي في هذا؟ فقال النابغة: الرأي أن ترحل من بلادك هذه حتى تلزق بالحرة، حرة بني سليم، وقال لزبّان مثل ذلك. فقال حصن: لو ظفروا بنا ما زادونا على الذي أراكم تأمروننا به[٢٦]. لا أبرح العرصة أبدا حتى تكون لي أو لهم[٢٧] وقد ذكر ذلك النابغة في قصيدته:

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار

ولم تكن هذه الغارات إلا صورة التحدي الذي كان يعتمل في النفوس، ونموذجا من نماذج التعبير الإيجابي الذي كانت آثاره تثير النقمة على أولئك المحتلين الذين أخذوا مواقعهم في الدولتين الكبيرتين، وبدأت مطامعهم تمتد إلى كل أرض، ونفوذهم إلى كل مكان، وكان الشعراء وغيرهم ينظرون إليهم نظرة الاستهجان، ويخاطبونهم وفق الأشكال التي ينهجونها، لأنهم يجدون في وجودهم صورة من صور التدخل، وفي التعايش معهم وجها من وجوه المساومة. وقد حملهم هذا الشعور على أن تكون مخاطبة

(٢٥) الاصفهاني ، **الاغاني** ، ج ٢٠ ، ص٢٣ (ساسي) .
(٢٦) الذبياني ، **ديوان الذبياني** ، ص ٨٠ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

الشعراء لهم مخاطبة تهديد. ولم تكن قصيدة عمرو بن كلثوم بعيدة عنا وهو يتهدد عمرو بن هند ويوعده، ويحاول أن يؤكد له بأن قناتَهُ وعوده وأصله قد أجهد الكثيرين، وأن الذين حاولوا منازعته، وأرادوا مغالبته قد خابوا وانتهت بظفر قومه. وهي قصيدة يمكن اعتبارها من الأناشيد القومية، وصرخة من صرخات الحس القومي، ودعوة من أجل استنهاض الهمم، ونداء من نداءات التجمع التي ظلت أصداؤها تطوف الجزيرة وتطوي ودیانها وهضابها من أجل لم الشمل وتوحيد الجهد، واستجماع العزائم، وإن تحليلا لأبياتها، وتفسيرا لما انطوت عليه يحدد لنا طبيعة التحدي التي كانت تتمثل في المعاني والدلالات، وتعطي التوجيهات التي كانت صورها تتعالى في نفوس كل الناس الراغبين في رفع السيطرة عن الأرض، وإنهاء كل أشكال الإستغلال التي كانت تمارس وتحقيق الوجود الذاتي الذي كان يمثل صورة التآلف(٢٨):

بـأي مشيئـة عمـرو بن هنـد ... تـطيـع بنـا الـوشـاة وتـزدرينـا
تـهـددنـا وأوعـدنـا رويـدا ... مـتى كـنـا لأمـك مقـتـوينـا
فـإن قنـاتنـا يـا عـمـرو أعيت ... عـلى الأعـداء قبـلك إن تـلينـا
ونـحـن غـداة أوقـد فـي خُـزاز ... رفـدنـا فـوق رفـد الـرافـدينـا
ونحن الحـابسـون بـذي أراطى ... تـسف الجلة الخـور الـدرينـا
ونحن الحـاكمـون إذا اطـعنـا ... ونـحـن العـازمـون إذا عصينـا
ونحن التـاركـون لمـا سخـطنـا ... ونـحـن الآخـذون لمـا رضيـنـا

* * *

وقـد عـلم القبـائـل من معـد ... إذا قـبـب بـأبـطحـهـا بـنـيـنـا
بـأنـا العـاصمـون بكـل كحـل ... وإنـا البـاذلـون لمـجـتـديـنـا
وإنـا الـمـانـعـون إذا قـدرنـا ... وإنـا الـمـهـلكـون إذا أتـيـنـا
وإنـا الشـاربـون المـاء صفـوا ... ويشـرب غيـرنـا كـدرا وطينـا

وهي أبيات تشهد لهذا الشاعر بالجرأة، وتؤكد نوازع المجابهة التي حملها وما ترتب عليها، وقد ظلت نشيدا خالدا من أناشيد البطولة، ورمزا شامخا من رموز التحدي، وقدرة هائلة من قدرات التألق القومي الذي تسربت معانيه في كل بيت، وارتسمت ملامحه عند كل معنى، وتسابقت خفقاته في كل صورة من الصور، وقد استطاع هذا

---

(٢٨) ابو بكر محمد بن القاسم الانباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣) ، ص ٤٠٢ وما بعدها .

الشاعر أن يحول المشاعر إلى واقع، وينقل الفكر إلى حيز التطبيق عندما أقدم على قتل عمرو بن هند الذي عرف بيأسه وكبريائه وبطشه، وبذلك يكون الشاعر واحدا من أولئك الذين أخذوا على أنفسهم أن يكونوا في الطليعة، ليوقفوا غطرسة الكبرياء التي كانت تمارس من خلال الحكم، وجبروت التسلط الذي حاول أن يستهين بمقدرات الأمة. ومثل قصيدة عمرو بن كلثوم قصيدة قيس بن جروة الطائي التي توعد فيها عمرو بن هند[٢٩]. وأبيات عارق الطائي التي سخر فيها من وعيد عمرو بن هند والتي يقول فيها[٣٠]:

من مبلغ عمــرو بن هنــد رســالــة ... إذا استحقبتها العيس تنضى من العبد
أيــوعــدني والــرمــل بيني وبينــه ... تــأمــل رويــدا مــا إمــامــة من هنــد
ومــن أجــا حــولي رعــان كــأنها ... قنــابــل خيــل من كميت ومن ورد
غــدرت بــأمــر كنت أنت دعــوتنــا ... إليــه وبئس الشيمــة الغــدر بــالعهــد
وقــد يتــرك الغــر الفتي وطعــامــه ... إذا هــو أمسى جله من دم الفصــد

وتأخذ صور الوعيد جانبا أشد عند يزيد بن الخذاق، عندما أرسل النعمان ابن المنذر كتيبته التي يقال لها (دوسر)، فاستباحت قبيلته، لأنه كان يوجه القول إليه مهددا وموعدا، ويتحدث إليه حديث الثقة وهو يستخف به، وقد حاول أن يؤكد من خلال هجائه، منعة قومه وعزتهم، وقدرة مجابهة من يحاول أن ينعتهم بالذل ويسومهم الخسف، ويجبرهم على الخضوع. وهي أبيات تحمل نوازع المقاومة الحادة، وتجسد الدفاع والغليان النفسي الذي كانت جذوته تطغى على ملامح القصيدة فيقول[٣١]:

نــعــمــان إنــك خــائــن خــدع ... يخفي ضميــرك غيــر مــا يبــدي
فــإذا بــدا لــك نــحــت اثــلتــنــا ... فــعــليــكــمــا إن كــنــت ذا حــرد
يــأبى لــنــا إنــا ذوو أنــف ... وأصــولــنــا من محــتــد الــمــجــد
إن تــغــز بــالــخــرقــاء أســرتــنــا ... تــلــق الــكــتــائــب دونــنــا تــردى
أحــسبــتــنــا لــحــمــا عــلى وضــم ... أم خلتنــا فــي اليــأس لا نــجــدى
وهــززت سيفــك كــي تحــاربــنــا ... فــانــظــر بسيفــك من بــه تــودى

---

(٢٩) أبو عبيدة، النقائض، ج ٢، ص ١٠٨١ ـ ١٠٨٢.
(٣٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٨٣.
(٣١) المفضل الضبي، ديوان المفضليات، ج ٢، ص ٩٦.

وفي قطعة أخرى يثور على النعمان، ويعلن إنذاره لبيت الملك ويدعوهم إلى أن يقسطوا في الحكم كي لا يعرضوا أنفسهم للشر، ويخاطب (ابن المعلى) أحد المكلفين بجمع الجباية في أمر المكوس التي يراد أن تؤخذ منهم، ونوه باستعداد قومه وتحفزهم.

ويشير إلى أنه قد هيأ نفسه للقتال، وأعد سلاحه وفرسه(٣٢):

اقيموا بني النعمانِ عنا صدوركم ... والا تقيموا كارهين الرُّؤوسا
أكل لئيم منكم ومُعَلهج ... يعد علينا غارة فخُبُوسا
ألا ابنَ المعلّى خلتنا وحسبتنا ... صراريّ نعطي الماكسين مُكُوسا
فإن تبعثوا عينا تمنّى لقاءنا ... تجد حول أبياتي الجميع جلوسا

أما المرقش الأكبر فكانت صرخته بوجه المنذر وقد أبدى له من الجرأة والقدرة ما يثبت قوته، وبينَّ له أنه لا يكترث بظلمه، وأشاد بإبائه وشجاعته وعدم استسلامه فقال(٣٣):

أبلغا المنذر المُنقّب عني ... غير مستعتب ولا مستعين
لات هنا وليتني طرف الزُّج ... وأهلي بالشام ذات القرون
بامرىء ما فعلت عفٍ يؤوس ... صدقته المنى لعوض الحين
غير مستسلم إذا اعتصر الحا ... جز بالسكت في ظلال الهُون
يُعملُ البازل المجدّة بالرَّحلِ ... تشكى النجاد بعد الحُزون
بفتى ناحف وأمرٍ احذ ... وحسامٍ كالملح طوع اليمين

وتشكل ظاهرة قتل الملوك صورة من صور التحدي البارزة، ومحاولة من محاولات إزالة معالم السيطرة، أو إنهاء شكل التسلط المتمثل في أعلى سلطة، أو أرفع مكان، ويذهب بعض الباحثين إلى ربط هذه الظاهرة بمعتقدات موروثة تتصل بعجز أرواح هؤلاء الملوك على دفع الأذى عن شعوبهم، فيقتل روحه في أوج قوتها إلى روح من هو أشد بأسا منه. أما قتل بعضهم وهو شاب فمرده إلى طقوسهم القاضية بتحديد فترة لكل ملك إذا جاوزها ضعف تأثيره وإن كان قوي البدن(٣٤). ثم يؤكد صعوبة تعليل أحداث القتل النازلة بملوك الجزيرة في معزل عما ذكره من الطقوس الملكية العنيفة.

---

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨.

(٣٤) تنظر: «مجموعة المفضل الضبي»، في: كلية الآداب (١٩٧٢)، العدد ١٥، ص ٣٨٦ وما بعدها.

وتستثار في نفس جابر بن حني التغلبي ما كان عليه أهله وقومه من تفرق، وما صاروا إلى قبول الديات عن رجال منهم قتلوا، وكان أولى بهم أن يدركوا بثأرهم، ويبدو أنهم كانوا يقعون تحت طائلة الضرائب المرهقة والإتاوات الباهظة والاستغلال الثقيل من قبل الملوك الحاكمين من خلال رجالهم وصنائعهم. وكانت تجبى هذه الضرائب بالقوة، وتؤخذ بالقسوة والجور، وهذا ما دفع الشاعر إلى أن يعلن ثورته الصاخبة، ويعلو صوته القومي الحاد من أجل الانتفاض على هذا الواقع وتغييره وإنهاء حالة البؤس المفروضة، ويهدد القائمين على ذلك ويوجه خطابه إلى الملوك فيقول(٣٥):

لتغلب أبكي إذا اثارت رماحهم غوائل شر بينها متثلم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم ومن لا يشد بنيانه يتهدم

ثم يقول:

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تستحي منا ملوك تتقي محارمنا لا يبرؤ الدم بالدم
نعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرم

ولم تكن صرخة المتلمس الضبعي أقل هديرا من أصوات الشعراء الآخرين الذين أعلنوا محاربتهم لكل جبار يصعر خده حتى يتقوم فقال(٣٦):

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

وقد ظل الشعراء يتداولون هذا المعنى فأصبح شعارا لكل صوت يرتفع من أجل إيقاف سورة الكبرياء،، وإزالة معالم التجبر فوقف عنده الفرزدق(٣٧) وبشار(٣٨) ولا يمكن الإشارة إلى هذا الموضوع دون الرجوع إلى الآية الكريمة ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾(٣٩).

---

(٣٥) المفضل الضبي، ديوان المفضليات، ج ٢، ص ١١، ٢٠.

(٣٦) المتلمس، ديوان المتلمس، ص ٢٥.

(٣٧) ابو فراس همام بن غالب الفرزدق، ديوان الفرزدق (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ١، ص ٤٢٠.

(٣٨) بشار بن برد، ديوان بشار بن برد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠-١٩٥٧)، ج١، ص ٣١٧.

(٣٩) النمل (٣٤).

إن هذه المجموعة من الشعراء وغيرهم ممن وقفوا عند هذه الظواهر تمثل الصوت الرافض، والتعبير الحي لصوت المجتمع الذي كان يمارس الظاهرة بأشكال يومية، وأعمال بطولية وتحديات مستمرة، تنبثق من إرادة التحول الطامحة نحو التحرر والتوحيد، والداعية إلى رفض كل أشكال التبعية والسيطرة، وتتولد من عملية التصاعد المؤمنة بقوة المجابهة، والواثقة بتحقيق الإنتصار، والقادرة على إيقاف كل التجاوزات التي تتولاها مجاميع الصنائع والسائرين في ركاب الأعداء، وهي أصوات لا تكتفي بالموقف السلبي الناتج من قدرة الرفض، ولا تجد في التعبير الشكلي صورتها النضالية الحقة، ولا تقف عند التهيؤ المحدود من أجل إيقاف رده، أو الحد من تجاوزه، وإنما تتعالى وبصورة إيجابية حادة، وترتفع وبشكل مجابهة حازمة، تتجاوز الأبعاد البسيطة، وتتخطى الحواجز المقررة إلى مرحلة تصبح فيها الظاهرة متفاعلة ومنتجة ومؤثرة في وقت واحد، لأنها أخذت شكل التحدي من جانب هذه الأصوات وتصاحب أصداءها الواسعة. فالحارث بن ظالم المري يسجل في إحدى قصائده مصرع ابن النعمان، ويخاطب النعمان بعنف[٤٠]. ولم تكن هذه القصيدة هي الوحيدة التي سجل فيها هذا التحدي، الذي رسم شخصية هذا الفارس وهو يحدد مواقفه البطولية من أشكال التدخل الروماني الفارسي في الجزيرة العربية، وقد دلت حياته، الحافلة بمظاهر هذا التحدي وقدرته التي جابه بها كل الخصوم وأقواله، التي كان يبشر بها في كل محفل، على شدة بأسه وصرامة قلبه ونزعته الأصيلة إلى الإباء والاستخفاف بكل الأشكال التي كانت تفرض عليه وعلى أتباعه من العرب.

إن هذه المجموعة من الشعراء وغيرهم الذين لم استشهد بهم، أمثال طرفة بن العبد وضمرة بن ضمرة النهشلي والشعراء الآخرين، توسع إطار حركة الرفض، وتمنحها المعطيات الجديدة وتضيف إليها من العطاء ما يغنيها ويجعلها اتجاها واضحا يأخذ أسلوبه المتميز في حركة الشعر العربي القديم، ويحقق لها من السمات البارزة ما يجعلها قادرة على إدراك مهمتها التي أداها الشعر بصورة إيجابية. وإنه ليصلح أن يكون ميدانا فسيحا لعمل علمي كبير، وبداية منطلق دراسي لوضع أسس التوجه القومي الذي عرفته الجزيرة العربية وتوضح أبعاد الحس القومي الذي كان يثير نوازع التوحد لمجابهة قوى التحدي من خلال السلوك الإجتماعي والنفسي والتوجه الثقافي والفكري الذي توفرت عناصره لغة موحدة، وكتابة عربية موغلة في القدم، وإحساسا قوميا أخذ أبعاده الكبيرة على

---

(٤٠) عادل البياتي، «الحارث بن ظلم المري»، كلية الآداب (١٩٧٢)، العدد ١٥، ص ٣٧٤.

المساحة البيئية الواسعة لتحقيق انبثاق الوحدة البشرية التي ظلت حلما يراود كل نفس على الرغم من كل أصناف التعسف التي كانت تمارس من قبل القوى الطامعة، والتي كانت تحاول مدّ نفوذها إلى الأرض العربية، واستعباد الإنسان وتسخير بعض أصناف البشر وتحويلهم إلى أدوات مسخرة.

وقد ظل الشعر العربي يحمل لواء المقاومة والمجابهة وبقيت أعمال الشعراء وقصائدهم وممارساتهم صورة من صور الرفض وصوتا من أصوات التجمع والتوحيد، لتحويل الطاقات المتناثرة قوة واحدة، ولم كل الإمكانات المتباعدة لدفعها في اتجاه الإحساس القومي الذي حملته تلك الأصوات واندفعت من أجل تحقيقها تلك النفوس. وقد هيأ ذلك تهيئة كاملة للدعوة الإسلامية التي حملت لواءها قوافل القادة المؤمنين فانطلقت في رحاب الأرض تصنع القدر الجديد لهذه الأمة العظيمة، وفي ظل قيادة الرسول الكريم صلوات الله عليه ووفق المنهج الموحد الذي دعا إليه الدين القويم، فتفجرت ثورة أصيلة استطاعت أن تحول المجرى التاريخي لهذه الأمة لتصبح أمة تحرير، أوكلت إليها حمل الرسالة الإنسانية، وتعهدت بتحرير الإنسان الذي ظل آماداً طويلة يعيش في ظل عبودية قاهرة، وقد كان لهذه الدعوة دورها الذي حمله العرب بأمانة، ونقلوا الرسالة بإخلاص.

المنـاقشـات

الدكتور زكي الجابر: استطاع الباحث أن يخلصنا من ضياع المنهج الذي عانيناه صباح هذا اليوم. فلم يقل أنه سيتحدث عن العروبة في الشعر العباسي وإنما تحدث عن ملامح العروبة. ومثلما نستطيع أن نتحدث عن ملامح العروبة نستطيع أن نتحدث عن ملامح الشعوبية. ومن هنا أستطيع أن أسجل نقطة إيجابية إلى جانب هذا البحث. لكن الذي أقلقني فيه هو أنه في كثير من المواقع كان يعتبر الشعر رائدا وموجها. في حين أن الشعر هو ظاهرة إجتماعية وهو وليد فكر معين واتجاه معين وليس هو الموجه والقائد والرائد. وإنني أسجل عليه نقطة سلبية أخرى هي أن القوة المحركة الأساسية لقوة الشعر العربي وهي الجماهير العربية كانت ضائعة، وأخشى أن تضيع في المستقبل من الأبحاث حينما تحدث الباحث عن عمورية تحدث عن شاعر أجاد ملحمة البطولة وتناسى أن الخليفة الذي خاطبه هذا الشاعر كان بين كأس الطلا وضاب الخرد العرب، ومن هنا فقد فقدت الجماهير دورها الأساسي وأصبحنا نتحدث عن شاعر وعن خليفة وضاعت القضية الأساسية، قضية الشعب العربي التي هي محور الحديث، والجماهير هي صانعة الوحدة كما نؤمن بها ونعتقد. هذه هي جملة ملاحظات موجزة أعتقد أن الباحث قد أغفلها، وأعتقد أنه يؤمن بها إيمانا عميقا، وأعتقد أنها لا تقدم كثيرا إلى الحديث، ولكن لا بد أنها تعطي نوعا من الإضافة البسيطة إلى هذا البحث القيم.

الأستاذ كمال الحديثي: أولا إن موضوع الندوة هو، موضوع حديث الدكتور عصام عن الشعر وليس عن كل المكونات والمقومات الأخرى التي أدت دورها متفاعلة في الحياة العربية إبان هذه الفترة، لذلك مطلوب من المتحدث، في تقديري، أن يصب جهده ـ لا أقول كاملا بل جل جهده ـ على هذه الناحية.

الشيء الثاني هو أن أذكّر الأستاذ زكي الجابر ببيت واحد من ملحمة عمورية :

صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

العرب ليس الخليفة. العرب كل العرب.. هذه نقطة مهمة في تقديري. ربما الوقت لم يكن كافيا لكي يتفضل المتحدث ويفصل في القصيدة.

هناك مسألة أخرى. أنا لا أعتقد أن الشعر هو مجرد موقف تسجيلي. الشاعر غير مسجل للأحداث. وإلا لتخلف مكانه، ولما كان يستحق هذه الندوة أو غيرها. الشاعر كان رائدا، الشعر العربي بشكل خاص لعب دورا أساسيا، بيت واحد من الشعر قاله أحد المناهضين للحكم العربي لبني أمية غير موقف أبي العباس وقتل على إثر هذا البيت من الشعر. رغم أن هذا الموقف سلبي من الشاعر، قتل كل الحاضرين. فالشعر كان له دور، ودور ريادي. والشاعر كان صاحب قضية. لم يكن شخصا بعيدا عن القضية التي يتحدث فيها.

ناصيف عواد : نود الإهتداء إلى هذا السر الذي نتكلم عنه، ونقف مشدوهين بأن الشعر الجاهلي، كما يسمى، أو شعر ما قبل الإسلام جاء متكاملا، علينا أن نبحث ولا ننتظر أن يأتينا الجواب من المستشرقين أو غيرهم. وهذا أيضا واجب وزارة التعليم العالي ووزارات التعليم والأساتذة والطلبة، أن يكون العمل في الدراسات العليا عملا موجها ليس القصد منه أن يحصل الدارس على الشهادة، وإنما عليه واجب قبل ذلك أن يقوم بعمل يفيد به وطنه وأمته وأدبه. هذه بعض النقاط التي أرجو أن تكون مثار اهتمام، لأن الموضوع لهذه الندوة موضوعة مهمة وجديرة بأن تحفزنا للبحث بأنفسنا عن ما هو ضائع من تراثنا، علّنا نستفيد ونهتدي من خلاله إلى رسم طريقنا.

الدكتور زكي الجابر : إذا كان فهمي لموضوع الوحدة بأنه نقل الولاء من القطرية إلى مركز ولاء قومي آخر، وإذ كان فهمي للشعر أنه توق إلى أشياء نود تحقيقها فإنني أعتقد أن البحث عن الوحدة بالشعر الجاهلي أمر مفتعل، لأن الشاعر العربي في تلك الفترة لم يكن يحتاج إلى نضال الوحدة لأنه كان يعيش الوحدة. إنك تبحث عن الشيء الذي تفقده. ولما كان الشاعر العربي آنذاك لا يفكر في أقطار متباعدة ـ وأن شعره يتجاوز الحدود، فإنني أعتقد أن البحث في حواشي الكتب وبطونها عن بيت هنا وبيت هناك سيكون متعبا جدا، وسيكون الباب مفتوحا كما أتوقع أمام الشعراء الذين يفتقدون الوحدة، حين نصل إلى الشعر الحديث، وآنذاك سنجد من يتغنى بالوحدة. وأضف إلى

ذلك أننا إزاء هذا الموقف نتغافل أحيانا كثيرة أمام شعورنا القومي ونتساءل كم من الشعر الجاهلي كان قبليا قبل أن يكون وحدويا، وأتساءل بعد ذلك عن مكانة المعلقات التي أغفلها الباحث إغفالا تاما. في موضوع الوحدة لست في موضع الهجوم، ولكنني أعود إلى المقولة التي بدأت منها إن الشاعر لم يكن يحتاج لأن يتغنى بالوحدة، لأنه يعيش الوحدة، تسير في أعراقه. ولا يمكن أن نتصور أن امرأ القيس، وهو يتجول عبر البلاد العربية، ومن بعده بأجيال المتنبي، كان يتصور أنه يكتب للقطر العراقي أو يكتب للقطر السوري. هذا ما أود أن أقوله وسأعود إلى مداخلة أخرى حين تسنح الفرصة.

كمال الحديثي : أشكر كافة الجهات التي أعدت لهذا اللقاء لأن مجرد هذا اللقاء في اعتقادي هو كسب كبير باتجاه نضالنا القومي الذي ركيزته الأساسية هي الوحدة. فبدون الوحدة تبقى جميع الأهداف لا معنى لها على الإطلاق ومعذرة إذا ملت للإختصار أو اتخذت موقفا نقابيا كما يعبر عنه. في الواقع أريد أن أشير إلى جملة أشياء بشكل سريع، لأن الوقت لا يسمح، ولأن طبيعة أي بحث تقتضي أن يدرس وتقتضي أيضا أن تكون الإجابات على شاكلة الدراسة، وعلى شاكلة الاستنتاجات وفقا للزمن المتاح. في اعتقادي أن مجرد بحث من هذا القبيل مفيد جدا، ولكن علينا أن ننبه إلى جملة أشياء. إذا أردنا أن نجد في الشعر العربي قبل الإسلام شيئا يتحدث عن الوحدة بمفهومنا الحديث، الوحدة والشعر العربي في آن واحد، شئنا أو لم نشأ. إذا علينا (وقد أشار بعض الزملاء إلى هذه الناحية ربما بشكل غير مباشر) أن نبحث عن الخصائص التي شكلت الأمة. نحن لا نستطيع أن نفهم على الإطلاق أن الأمة العربية هبت من رقادها مرة واحدة ودفعة واحدة سنة ٦١٠هـ حينما نزلت أول آية من سورة القلم. هذا الشيء لا يمكن أن نقتنع نحن ولا يمكن أن يقتنع به أي إنسان يستطيع أن يتصل بتاريخ أمته بشكل صحيح على تاريخ الأمم الأخرى.

فالواقع في تقديري أن النهضة الكبرى التي شهدتها الأمة العربية والثورة العربية، في أول صيغة من صيغ التعبير عنها في حياة الرسول، لا تعدو أن تكون مهرجانا أرهصت له وهيأت له مئات السنين، وأشير إلى نص أعتز به قد لا أكون أحفظه بشكل دقيق، أعتز به لأهميته وأعتز به لأن قائله أستاذ فاضل. ومفيد أن نذكر في هذه المرحلة بشكل خاص أنه من شعبنا في مصر. إنه الأستاذ الدكتور نجيب يهرمشي البهيتي. يقول إن معركة ذي قار أو إن الأهازيج التي تمخضت عن معركة ذي قار هي الأهازيج التي حدت البعث الأكبر الذي جاء به الإسلام. يجب أن ننتبه إلى هذه الناحية بشكل دقيق، الشيء الآخر الذي أريد أن أقوله، عرف عن الأمة العربية بأنها أمة مقاتلة والقومية العربية في

الحقيقة هي المزاج الأصيل لصفتين أساسيتين في الأمة العربية، الأمة العربية ليست أمة مقاتلة فحسب، بل أمة شاعرة وأمة مقاتلة في آن واحد. ومن هنا كانت القومية هي الصياغة الطبيعية لهذه الحالة. لا نستطيع أن نجد في أي شاهد من الشواهد مهما كان مع افتراض ما انتحله الرواة، مع افتراض أن ما وصلنا هو العدد القليل، لا نستطيع إلا أن نجد شخصية الأمة العربية موحدة. نقطة مهمة أريد أن أشير إليها أيضا، لا نستطيع أن نفهم أن أمة من الأمم في مراحل تكوينها الأولى تتحدث بشكل واع وبشكل واضح. الكائن الحي لا يمكن أن يعبر عن نفسه بشكل واضح ولا بشكل حيّ، وفي كثير من الحالات يتصرف بردود بدائية إلى أن ينمو ويكبر فيتصرف بردود واعية، وبعد ذلك ينتقل إلى موقف إيجابي بشكل كامل. لماذا نظلم أمتنا ونريد منها أن تتحدث عن الوحدة العربية على صيغة الوحدة والحرية والاشتراكية، ولم تصل إلى هذه الصيغة إلا بعد مخاضات مئات من السنين، وبعد تجارب عميقة وصلت إلى حد جعلت هذه الأمة أمام خيار، كما وضعتها أمام نفس الخيار قبل ١٤ قرنا. وهذا يجب أن ينبهنا إلى ناحية أخرى: علينا أن لا نتخذ من حالة الجزيرة العربية في فترة ما، الفترة التي دفعت لظهور ثورة الإسلام، لا نجعل منها أيضا شاهدا نقيضا، وإلا في هذه الحالة لا يمكن أن نصل إلا إلى أن الأمة العربية كانت مجموعة من القبائل التي تتنازع على شيء وتتنازع على اللاشيء في آن واحد. إن ظهور الإسلام كان في الحقيقة يعبر عن رغبة أساسية هي إعادة اتصال الأمة بجوهرها الأساسي. والموقف الذي اتخذه الرسول ﷺ في محاججة اليهود هو أننا نريد أن نبعث دين إبراهيم الخليل، ومعنى هذا أننا نريد أن نزيل كل القيم الخاطئة، القيم غير الأصلية في حياة الأمة العربية. في تقديري أن التحديات هي التي تدفع إلى التنبه والحفاظ على النفس. والإنسان عندما يريد أن يحافظ على نفسه يبتدع كل الصيغ الموضوعية والذاتية في آن واحد لكي يحافظ على نفسه. هذا هو الذي فعلته الأمة العربية. هذا هو الذي فعله الشعراء. فعله النابغة الذبياني وفعله غير النابغة الذبياني، امرؤ القيس كان شاعرا، ولكنه كان فارسا في آن واحد. طرفة بن العبد كان شاعرا ولكنه كان قائدا وهو في العشرين، كان قائدا لمجموعة من بكر إبان حرب البسوس والحروب الأخرى. أعتقد أنني أطلت كثيرا، إلا أنني أريد أن أقول إن علينا أن نلتقط الجوهر الأساسي، الجوهر الأساسي هو أن الأمة في حالة تطور. وإذا أردنا من الأمة أن تكون قد شخصت أهدافها قبل ألف سنة فعلينا أن نلغي النظرة القومية الإشتراكية الحديثة لأنه في هذه الحالة كمن نقول أن الأشياء تتشكل على سطح مستو، ولا أعتقد أن حياة الإنسانية تتشكل على سطح مستو، وإنما تأتي ضمن فعاليات كثيرة تتداخل فيها صور عديدة وجملة

أمور لكي تكون شخصية الأمة. أستطيع أن أجد الوحدة في غزل عمر بن أبي ربيعة، وأستطيع أن أجد وحدوية الأمة في انتفاضة عمر بن كلثوم عندما شعر المأساة في محاولة لإذلال أمة. هذه القيم العربية المتشكلة والمتجانسة عبر مئات السنين هي الوحدة، أما الصياغات الحديثة في التعبير عن الوحدة فهي تأكيد لماض وتأكيد بأن الماضين بحثوا ضمن وسائلهم وضمن ظروفهم للتعبير عن الحقيقة الأساسية، وهي أنهم أمة واحدة، وأبرز تعبير هو في الحقيقة ضمن التحديات. في التحديات تكون هذه الصيغة بارزة واضحة.

شفيق الكمالي: الواقع أنا أحب أن أنبه أن الندوة في بحثها الأدب الجاهلي لا تقصد مفهوم القومية أو مفهوم الوحدة الذي نعرفه الآن.. وجود شعر قبلي لا ينفي الإحساس بالأمة. بعد مئة سنة قد يأتي من يقول إن العرب لم يكونوا أمة فهل هذا حقيقة؟ غير أننا نبحث الإحساس بالأمة والشعور بكينونة الأمة، الإحساس بالقومية بمفهومها العادي، وهي التعصب للشعب، هل هذا كان موجودا أم لا؟ كل ما يقال عن الأدب الجاهلي بأن العرب كانوا أناسا لايستحقون الحياة، أناس تأكل أناسا، والعرب كانوا متخلفين وكانوا همجا، وكانوا متفتتين إلى آخره، نريد أن نقول أنهم لم يكونوا بهذا الشكل، إنني أؤمن بأن العرب كانوا يدركون الإحساس بالأمة وبالطريق الخاص حتى الذي نحن نتكلم به الآن أيضا كان موجودا عندهم. المسيحية كدين كانت موجودة قبل الإسلام بحوالي سبعة قرون واليهودية قبلها بعشرة قرون.

الفَصْـل الثّـالِث

الشعر وَنِضَال الوحْـدَة في صَدر الإسْلام

الدكتور عادل جاسم البياتي

الإطار العام

ينهض هذا البحث على عدة محاور فكرية، اتخذت أساساً لمنطلقاته العامة نحو تجسيد واقع الشعر في نطاق المجال العربي ضمن المرحلة المبحوثة، والتي تبدأ ببداية القرن السابع الميلادي، فإن جاوزته إلى الثامن فليس أكثر من عقد واحد.

وأول ما اعتمدته هذه الدرسة، في محاورها، هو تأكيدها لقضية جذرية، كانت انحسرت إلى الظل في كتابات المعنيين من القدماء والمحدثين، مؤدّاها أن نضال الشعر في وحدة المصير والهدف والثقافة، يمتد بأصوله إلى عصر ما قبل الإسلام، وأن إرهاصات هذه الثورة العربية تحت لواء الإسلام كانت تمتد إلى العصر الجاهلي، تؤكّدها نماذج منتخبة من استقراءات النصوص ومجريات الأحداث وملاحم البطولة وسير الفرسان. وقد حاولت ذلك أيضاً طائفة من البحوث كتبت في هذا الحقل، فوفّقت في إبراز الدور الخطير الذي كان المجتمع العربي يضطلع به وسط العالم القديم، مما خلق استعداداً فطرياً في الأمة لقبول الصيغة العربية الجديدة المتبلورة بالإسلام وتعاليمه. ويكفينا دليلاً، أن تنهض اللغة العربية أداة، والعرب جنساً، وشبه الجزيرة أرضاً، وتاريخها تراثاً وثقافة لهذه الصيغة العقائدية المتطورة التي أوحى بها الله تعالى إلى رسوله لتكون منهاج عمل، طويل المدى، للتحرر من واقع اجتذبته ظروف وضغوط عديدة من عوامل القهر والاستلاب، سواء في داخل النفس العربية أم من تسلط خارجي.

كان ذلك هو التمهيد لمحور فكري لاحق، هو في حقيقته أول محاور البحث في دراسة الشعر العربي المجسد لواقع الصراع من أجل (الوحدة) القومية و(التوحيد) العقائدي. أما الوحدة القومية فقد تجلت في صيغ الرفض المتعددة وفي البدائل الفكرية

الجديدة للحالة العصبية والمظهر القبلي، اللذين كان شعر القبائل يعكسهما في كثير من رموزه ومعطياته. ووجدنا الرسول القائد يضرب مثلاً بثوريته بإقدامه على مناجزة أهله وقومه مستعيناً بأهل وبقوم سواهم من العرب، حتى بلغت المناجزة حد الصدام المسلح، دون أن يأبه لنعرة أو عصبية. ووجدنا الشعر العربي يتجاوز كل أشكال التنوع والتعدد ليقع على صيغة من الوحدة أو التوحد.

أما على صعيد (التوحيد العقائدي) فقد تجلت وحدتهم الفكرية في نبذ الفكر الوثني المبنى على التجزئة وهو ما كانت القبائل تدين به من تعدد في الآهة، فبلغت وجهات القبائل ثلاثمائة وستين وجهة وهدفاً على عدد الآلهة المنصوبة في البيت الحرام وحوله. فعمل الإسلام على تنكيسها وتحطيمها ليذيبها في صيغة واحدة وإله واحد أحد هو خالق الأكوان كلها. لذلك كان شعار المسلمين الأول هو: لا إله إلاّ الله، ثم كان شعارهم في معركة (أُحُد) هو: أَحَدٌ أَحَد، بينما كان أبو سفيان ـ مثلاً ـ ينادي بإله القبيلة فقط، متجاوزاً حتى آلهة القبائل الحليفة، فيقول[1]:

إعـلُ هُبَـلْ... إعـلُ هُبَـلْ

فيأتيه جواب الرسول (ص) بصوت عمر بن الخطاب:

الله أعــلى وأجــلّ..

فيقول أبو سفيان:

لنـا العـزّى ولا عـزّى لكم

فيأمر الرسول (ص) أن يجاب:

الله مولانا ولا مولى لكم.

هذا الحوار بطريقة الرجزية، يعكس بوضوح صيغتين، صيغة تجزئة، وصيغة وحدة. أما الأولى فانطلاقة قبلية ضيقة تدعو إلى نصر إله قريش دون آلهة القبائل، وكان ذلك أساس الصراع القبلي في بلاد العرب وكان يحاربه (الأحناف التوحيديون) الذين

---

(١) ابو محمد عبد الملك ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا ، إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . الطبعة ٢ (القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٥) ، ج ٣ : ص ٩٩ . (نسخة مصورة بالاوفسيت) .
ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ .

كانوا يومئذ المناضلين الحقيقيين في الساحة العربية، ويتجلى في عدة لقاءات، نضرب لها مثلاً من يوم يقال له: (يوم الزويرين) يوم كانت تميم تقاتل لتفرض عبادة إلهها على بعض القبائل، بينما كانت القبائل الأخرى تدعو لآلهتها وتعمل لنصرها وفرض عبادتها. و(الزوير) إله ـ ولعل له علاقة بالزيارة التقديسية لبيوت الآلهة أو المواضع المقدسة أو القصور المعظّمة ـ وهو إله كانت تميم تعظمه، فنقلته معها الى المعركة تيمّناً به واستجلاباً للفأل الحسن، ونقل البكريون إلههم أيضاً، وهو شيخ مسن يقال له: (الأصم) وهي عبادة معروفة لدى بعض القبائل بتقديس المعمّرين، فكانت معركة آلهة، أشبه بما تقرأ مثلها في الملاحم الكونية، السامية واليونانية، مثل جلجامش وأنومالش والإلياذة والأديسة، فصوّر ذلك شاعرهم يومئذ حين قال[٢]:

كـانتْ تميم مَعْشَـراً ذوي كَـرَمٍ غَلْصَمـةٌ مِن الغَـلاَصِمِ العُـظَمِ
جـاؤا بِـزوريْهم وجِئْنَـا بِـالأَصَمِّ شيـخٌ لَنَـا مِن عهـدِ عَـادٍ وإرم
شيـخٌ لَنَـا مُعَـاودُ ضَـربَ البهم

فكانت أول خطوة للشعر أن يحرر ذاته من نطاق الأسطورة المتمكنة كواقع، وإن كانت تبدو أحياناً بوجه مقنع، لتصبح فيا بعد رمزاً فنياً محبباً، ومن هذا التعدد إلى التوحد، ليتمكن الشعر من دوره في معركة التحرير.

وكان لنا في المحور الثالث من الدراسة عودة إلى انتكاسة الوحدة التي حققها العرب تحت القيادة الثورية الجديدة وفق منظور الصيغة العربية الإسلامية، وهي انتكاسة قادها نفر من رؤوس العرب، تبعهم ناس، بعضهم عن غفلة وبعضهم عن عصبية، فكانت البطولة العربية صامدة لضرب جبهة الانفصال والرد والتجزئة، وإعادة بناء الصرح العربي المتكامل الذي بدأ زحفه نحو تحرير الأجزاء المقتطعة والمحتلة والمغتصبة من يد الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين. وقد صوّر شاعر إسلامي بوضوح ظلم الحكام الكسرويين والقيصريين، مشيراً إلى ذلك بشعره[٣]:

فـإنْ تَسْـأَلِينَـا فِيمَ نحنُ فـإنَّنـا عَصَـافيرُ مِنْ هَـذَا الأنـامِ المُسحَّرِ
عَبيـدٌ لـحيٍّ حِمْيَـر إنْ تَـمْلكـوا وَتَـظْلِمُنَـا عُمَّـالُ كِسـرَى وَقَيْصَـرِ

---

(٢) محمد أحمد جاد المولى، علي الجباوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، أيام العرب في الجاهلية (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٢)، ص٢١٤.

(٣) لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد، ص٥٦، مع هامش رقم ٢٢١، نقلاً عن: شمس العلوم.

وَنَحْنُ وَهُمْ ملكٌ لحمْيرٍ عُنْوةً وَمَا إنْ لَنَا مِنْ سادَةٍ غيرِ حِمْيرِ

ويعطي خبر استقبال عمر بن الخطاب لحادثة استشهاد أخيه زيد بن الخطاب في معارك التحرير مدلولاً ذا معنى غزير لمقدار الاستعداد النفسي للفداء والتضحية، وذلك عندما رأى عمر ابنه يعود من المعركة سالماً وحده ليس معه عمه زيد، فقال عمر لابنه: ألا هلكت قبل زيد، هلك زيد وأنت حي؟، فقال ابنه: قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكن نفسي تأخرت، فأكرمه الله بالشهادة.

وانتقلت الدراسة بعد ذلك إلى تفادي القادة لأمر هام ليعمل مع بقية العوامل في تمتين بنيان الوحدة، فانتدب عثمان بن عفان من ينجز جمع القرآن، ليكون الأساس في توحيد العقيدة واللغة العربية في جميع أقطار البلاد، لأن اللغة قاعدة أساسية في هذا البناء الكبير، فكان للشعر دور بارز في إشاعة لغة القرآن وتثبيت ركن الفصحى أو الفصيحة على أقل تقدير، بحيث بقي هذا المظهر يؤدي دوره الفاعل في شدّ العرب شرقاً وغرباً بعضهم مع تباعد أقطارهم وتناقض أنظمتهم وتنافر قياداتهم على مدى العصور، فكانت هذه اللغة هي النواة لمن يناضل من أجل الغاء هذه التجزئة، وكان الشعر هو المعبّر عن كل مظاهر الشعور المشترك.

وقد كان المحور الأخير الذي ارتكزت عليه الدراسة، هو دور الشعر في دروب التحرير، وما اصطلح العرب على تسميته بالفتوح، وهي معارك تحريرية اتجهت شرقاً وغرباً، هدّت عروش الأمبراطوريات القديمة في فترة قصيرة من الزمن، فكانت مبادىء الوحدة القومية والتوحيد العقائدي تجتاح الأمصار قبل أن تجتاحها السيوف وتدوسها سنابك الخيل، فكانت الثقافة العربية بأطرها الإسلامية الجديدة تمثل المتغيرات الاجتماعية لتلك البلدان، والبدائل الفكرية لجميع منطلقاتهم وكان ـ كما عبر أحد المستشرقين(٤) ـ أن ترك العرب حيث حلّوا أعظم مأثرتين في تاريخ ذلك العصر، القرآن والشعر، يعملان بقوة وفاعلية لتثبيت أقدام التوحيد العقائدي والوحدة القومية في إطار اللغة العربية وآدابها والتفقة بعلوم الدين الجديد والتزود بالثقافة العربية، والأخذ بأسباب العلم والحضارة.

محاور النضال الشعري ومتغيراته وبدائله

ظل الشعر، منذ ظهوره على صفحة التاريخ العربي، مواكباً لحركة الأمة

---

(٤) جوستاف خون غرينباوم، في الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية.

العربية عبر مسارها النضالي الطويل في مقاومة أشكال التجزئة، والعمل من أجل التحرير ووحدة المصير، فكان الشعر هو العنصر الفاعل دائماً، والعائم على وجه الأحداث بصورة مستمرة، يعبر بصدق عما تختلج به الضمائر، ويعتلج في داخل النفوس. وكان الشعراء يقفون ممثلين لأكبر رموز الثقافة في عصرهم من أرباب الفن والفكر والمعرفة، يتجولون في بلاد العرب الكبرى، مخترقين حدوداً وهمية لإمارات متنافرة، دون أن يلقوا صداً أو حرجاً من ملك من ملوكها أو أمير من أمرائها أو قائد من قوادها. وكانت أداة الشاعر التعبيرية ومصادره الثقافية ومنابعه الالهامية، هي الأسباب الوحيدة والمتينة في آن معاً، تشدّ هذه الامارات وتنظّمها في خيط يربط حاضر الأمة بماضيها، فيجعلونها متقاربة من بعضها برغم تراكم الأحقاد، متجاوبة بعقولها مع تنافر الأهواء السياسية، مما يرقق الأفئدة ويهذّب الطباع. وذلك أن الشاعر يتكلّم بلغة توحد قلوب الجميع، وهي لغة الشعر التي خصها الله عز وجل بتنزيله العزيز، ويستعيد ماضي الأمة وأمجادها ووحدة تاريخها، وهو ماضي العرب جميعاً، ويستعين بالتراب الواحد والمصير والدم الواحد، وهو تراب الوطن الكبير ومصيره في وحدته وحريته، ودمه المقدّس الذي يجري في عروق جنسه الواحد. فكان أمراء غسان والحيرة وكندة في شبه الجزيرة والعراق والشام وفلسطين إلى مصر، يجدون في شعرائهم صدى لما في داخل نفوسهم، فكانت القصيدة العربية ما إن تنطلق من ركن بعيد من أركان بلاد العرب حتى تجد صداها في الركن الآخر، قاهرة الصحارى الموحشة، مجتازة الجبال الشامخة، عابرة المياه الواسعة، مخترقة أسوار المدن العالية في أسرع من مروق السهم، أو بتعبير هذا العصر، إطلاقة البندقية، كما قال الأول(٥):

فلأهْدِيَنَّ مَعَ الرِّيَاحِ قَصِيدةً ... مِنّي مُغَلغلةً إلى القَعْقَاعِ
تَرِدُ المياهَ فَلا تَزَالُ غَرِيبَةً ... فِي القومِ بينَ تَمثُّلٍ وَسَمَاعِ

وكما جسد عميرة بن جعل هذه السرعة في انتقال الشعر وروايته وعدم القدرة في السيطرة عليه، حين قال(٦):

نَدِمْتُ عَلَى شَتْمِ العشيرةِ بَعْدَمَا ... مَضَتْ وَاستَتَبَّتْ لِلرُّواةِ مَذَاهِبُه

---

(٥) المفضل بن محمد بن يعلي الضبي الكوفي، المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٣)، القصيدة ١١.

(٦) ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٦)، ج ٢، ص ٦٣٢.

فَأَصْبَحتُ لا أستطيعُ دَفْعاً لِمَا مَضَى ... كَمَا لا يَرُدُّ الدرَّ في الضَّرعِ حَالِبُه

ولعلّ أوضح من هذا قول الفرزدق، وهو يرسم صورة الشعر متنقلاً في الأقطار العربية والأصقاع البعيدة[7]:

تَغَنَّى يَا جَرِيرُ لِغَيرِ شَيءٍ ... وَقَدْ ذَهَبَ القَصَائِدُ لِلرُّواةِ
فَكَيفَ تَرِدُ مَا بِعُمَانَ مِنْهَا ... وَمَا بِجِبَالِ مِصْرَ مُشَهَّرَاتِ

وكانت لهذه الخصوصية التي يتفرد بها الشعر أهمية تذكر في تاريخ العرب الأدبي، فقد جعلته يولد في قلب الأحداث، وينبثق من أعماق الصراع، ليؤدي دوراً أساسياً في توثيب الجماهير العربية وتثويرها ضد أنواع القهر والسلب التي كانت تتوجه به أمم تحتل أرض العروبة عنوة أو قسرا. والأمثلة على ذلك كثيرة، والأشعار مطردة، والروايات متواترة. فعلى صعيد القصة العربية قبل الإسلام، ذات الدلالات النضالية، تتمثّل لنا بطولة المرأة العربية ومقاومتها لألوان التسلط ومحاولة النيل من كرامتها، عندما كانت جيوش الفرس تتجول في أرضنا المقدسة. فهذه ليلى بنت لكيز من بني بكر، يحاول اغتصابها ملك أو أمير فارسي، فترسل من محبسها قصيدة تتحول إلى أنشودة في فم الركبان، فتكون سبباً في جمع القبائل العربية وإذكاء روح الثورة فيها لأنها اتخذت من تجسيد صورة الهوان والضعف وابراز وجه الذل والخضوع وسيلة استفزاز لمشاعر الرجولة والبطولة في أعماق العربي، ليهبّ في النجدات وينذر بالويل والثبور[8]:

لَيْتَ لِلبَرَّاقِ عَيْناً فَتَرى ... مَا أُلاقِي مِنْ بَلاءٍ وَعَنَا
عُذِّبَتْ أُخْتُكُم يَا وَيْلَكُمْ ... مِنْ عَذَابِ النُّكْرِ صُبْحاً وَمَسَا
قَيَّدُونِي غَلَّلُونِي ضَرَبُوا ... مَلْمَسَ العِفَّةِ مِنِّي بِالعَصَا

وليلى التي عرفت بالعفيفة، تخاطب بهذا الشعر ابن عمها البراق بن روحان البكري الشاعر الفارسي، وقد دخلت ليلى الأدب العربي رمزاً لبطولة المرأة العربية وكانت سبباً مباشراً في تجميع عدد كبير من القبائل العربية قبل الإسلام والنهوض في وجه الاحتلال الفارسي[9]، وهناك العشرات من هذه الأمثلة، كقصيدة لقيط بن يعمر

---

(٧) نقائض جرير والفرزدق، المنسوب لأبي عبيدة، رواية السكري (ليدن: بريل، ١٩٠٧).

(٨) شاعرات العرب في الجاهلية، ص٣٢.

(٩) جاد المولى، الجباوي وإبراهيم، أيام العرب في الجاهلية، ص ٦.

الأيادي في مقدمات يوم «ذي قار»[10]، وأشعار الغطفانيين وأحلافهم ضد الروم وخطب سيف بنِ ذي يزن في طرد الأحباش من اليمن[11]، وهكذا فقد كان للشعر العربي أشرف دور وأعز موقع في نضال الوحدة العربية الذي لم يهدأ لحظة واحدة من لحظات التاريخ العربي. إلا أن وحدة العرب الكبرى تجلّت فيما بعد عندما اختمر الفكر العربي ونضج كفاحه في صيغة سماوية جديدة، كان المختار لقيادتها هو معلّم البشرية وقائد العرب في ثورتهم الجديدة، محمد بن عبد الله، رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد ربطت الصيغة العربية الجديدة التي أُوحي بها من السماء، جذورها بالأرض العربية وبالتراث وبالمعلمين الأوائل من أجداد العرب. فقد أكدت هذه الصيغة انتماءها إلى الأمة العربية باتخاذها اللغة العربية لساناً وآية وبياناً، وحاججت الخصوم من مفكري الوثنية في إطار التراث واللغة ومعطيات التوحيد المتوارث في الأرض العربية. وقد أوردت كتب السير والمغازي والتاريخ والأدب والثقافة طائفة من الجدال ساهم فيه الملأ الوثني من مكة، معهم الطائف واليمامة يستعينون أحياناً بمفكري الديانات السماوية بيثرب وغيرها. فكانت حججهم تتهاوى أمام إعجاز القرآن الكريم، وأطره الجديدة التي اعتبرت أبناء الأمة العربية مادة لها ووعاء لفكرها، لأنها الأمة المرشحة لهذه المهمة التاريخية الكبرى، ولم تكن يومئذ أمة أفضل منها لهذه المهمة. فالعربية لسانهم، والتوحيد دين جدهم إبراهيم الخليل، والعرب أمتهم، وهي خير أمة أخرجت للناس، والأرض العربية مهبط الرسالات، هي أرضهم، والكعبة وبيت المقدس فيها. وقد أختير تراثهم الممتد في «الحنيفية» الخليلية أساساً للصيغة العربية الإسلامية الجديدة فجاء تعبيراً ثقافياً لتراث العرب وتعبيراً جغرافياً لمكونات بيئته، موحى به من الخالق للمصطفى، فخرجت إلى الوجود البدائل الجديدة، محدثة تلك المتغيرات الاجتماعية والثقافية، ليس على امتداد رقعة الوطن العربي، وإنما على طول المساحات والدروب الممتدة إلى سمرقند والصين شرقاً، واسبانيا وكل أوروبا غرباً، تلك الصيغة العربية التي أطلق الله تعالى عليها اسم: الإسلام. وهو مصطلح عربي معناه إظهار الخضوع والقبول لما أتى به قائد الثورة رسول الله (ص) وبه يحقن الدم. فكان (الإسلام) باللسان مقبولاً، إلاّ أن (الإيمان) صار من اختصاص القلب، وهو مرحلة أبعد إيغالاً وعمقاً[12].

---

(١٠) الشعر في حرب داحس والغبراء، ص ٦٣ ـ ٧١.

(١١) عادل جاسم البياتي، «الموثبات في الأدب العربي،» الموقف الأدبي (دمشق)، العدد ١٠٤ ـ ١٠٥، (كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠)، ص ١١٨.

(١٢) أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦)، مادة «سلم».

ومن ملاحظة المادة الأساسية، أو الخامات الأولية للإسلام، نستشف جانباً قومياً للدعوة الدينية، وواقعية الشعار الذي رفعته في وجه الخصوم، وهو شعار (الوحدة) في كل شيء. ألم يكن هدف الصيغة الجديدة التي جاء بها الرسول، أن يتحرر العرب من واقعهم المفتعل غير الأصيل أولاً، المتمثل في الوثنية ومعطياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم التحرر من واقع غيرهم عليهم ثانياً، المتمثل في احتلال الغير لأرضهم وفرض الواقع المنتصر، بما فيه من مظاهر مرفوضة حتى في داخل الامبراطوريات الغازية نفسها؟ عندئذٍ يأتي الانطلاق بالرسالة نحو عالم ضائع متخبط، ليهتدي بها. فكانت الرسالة للعرب قدراً، وللعالم اختياراً. وجعل الإسلام (الوحدة) أساساً لميدانه. فالله عزّ وجل واحد أحد، فنفى الوثنية لأنها تجزئة وتعدد، واللغة العربية لغة كتابة، واحدة موحدة لا دخيل فيها ولا اختلاف في تراكيبها، ومن هنا ورد تأكيد ابن عباس - كما رواه أبو عبيدة - على عروبة الألفاظ القرآنية وانتفاء أية لفظة أعجمية. والعرب أمة واحدة، فنفى كل مظاهر العصبية والقبلية والفردية في أكثر من آية واحدة[13]، وأرض العرب واحدة لا يساوم عليها ولا يتهاون في استردادها إن اغتصبت، ولا يقعد عن القتال في سبيل تحريرها، فكان الجهاد وحروب التحرير والفتوح فرضاً من فروض الإسلام[14].

إن هذا المظهر الوحدوي في الفكر الإسلامي، سيشاهد عياناً في سيرة الرسول منذ نعومة أظفاره، وسيعكس طوابعه على الشعر العربي فيما بعد. فقد نشأ الرسول على عقيدة الوحدة العربية (الدينية والاجتماعية) وبرز هذا السلوك في أول مراحل حياته، عندما عزمت القبائل على تجديد بناء الكعبة، وحاولت كل قبيلة أن تحوز لنفسها شرف الخدمة للبيت الحرام، وأن تستأثر وحدها بنقل الحجر الأسود وإعادته إلى موضعه، ليكون هذا العمل مادة يفخر به شعراؤها ونشيداً تردده على مدى الزمن، فاختصمت القبائل وكادت تكون فتنة، لولا أن انتهى الملأ من قريش إلى فكرة، هي أن يحكّموا في الخلاف أول داخل عليهم، فشاءت مصادفات التاريخ الفريدة، أن يكون الداخل في هذه المرة محمد ابن عبد الله، الشاب الصادق الأمين، رمز الأمة وقدرها في الوحدة، فأمر أن يمثل كل قبيلة رجل، ليأخذ بطرف الثوب الذي حمل الحجر عليه، فتكون القبائل قد ساهمت بهذا الشرف دون تمييز، وتكون أول بادرة نحو تحقيق الوحدة العربية[15]. وكان

---

(١٣) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٠٩.
(١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٢.
(١٥) تراجع: عادل جاسم البياتي، «شعر التوحيد في العهد المكي الأول».

محمد (ص) قد نشأ على مثل هذا الشعور القومي وترعرع في أثناء ما يطرح على مسامعه من تراث قومه في محاولات جادة لجمع القبائل، فيروى عن جده (قصيّ) مثلاً أنه أوجد (دار الندوة)، أقدم مظهر ديمقراطي عرفه العرب في شبه الجزيرة، وجمع القبائل في وحدة متينة مبنية على أسس وشرائع متوارثة مستحدثة، فسمي بذلك: مجمّعاً. فقال فيه شاعرهم، وهو حذافة بن جمح[١٦]:

قَصيٌّ لَعَمْـرِي كـانَ يُدعَى مُجَمِّعـا   بِـه جَمَـع اللهُ القبـائِلَ مِنْ فِهْـرِ

ولو تتبعنا سير أجداد الرسول إلى إبراهيم عليه السلام، لبرزت أمام عيوننا صورة مشرقة من النضال المرير في سبيل وحدة الدين والقبائل والأرض واللغة، توجت بالنصر الكبير المؤزر على يد محمد (ص)[١٧]، فكان اختياره رسولاً عن حكمة، والاعتزاز به قائداً عن أصالة. وكانت الخطوة الثانية في طريق الوحدة أن جمع القبائل المتقاتلة في يثرب، فأصلح بينها، وأنهى خلاف الأوس والخزرج موقظاً فيهم صوت الأمة العربية قوياً، فكان طريقها المضيء إلى الإسلام.

ولكي يرى اليثربيون بأعينهم واقعية هذا المبدأ، مبدأ العربية، والتخلص من جذور القبلية ومخلفات العصبية والأسرية، جرد من القبائل المنضوية تحت لواء الإسلام ومن حلفائه اليثربيين، ليقاتل التجزئة المتمثلة في الوثنية البالية، بما فيهم قومه المكيون، أي أنه قاتل قومه بالعرب، موجهاً بذلك أشد ضربة إلى النعرات الضيقة التي كانت تلتهم القبائل بلهيبها المستعر. لكنه في الوقت نفسه أعطى لقضية العرب وجهاً عالمياً تجاه الأمم، ليؤكد إنسانية القضية من جهة، وليضع قادة الامبراطورية الرومانية ومثيلتها الفارسية ذات النفوذ المباشر في المنطقة العربية يومئذ، أمام ضغوط سياسية، ترغمهم على الاعتراف بالقوة العربية الطالعة. فهم بذلك لم يباغتوا بالطرد فحسب، وإنما بالغزو في عقر دارهم أيضاً. وكان الغزو ثقافياً، فقد كان القرآن الكريم وسنة الرسول وتراث العرب سباقاً إلى المناطق المحررة قبل أن يصل إليها السيف. فيقال عن القسطنطينية، وقد تعذر فتحها مبدئياً، إنها فتحت ثقافياً قبل أن تفتح عسكرياً، وأنها عندما حاصرتها جيوش العرب كانت الطلائع العربية تستبسل في داخلها مع جيوش التحرير، فكان في حملة القسطنطينية ابن عباس وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ثم عبد العزيز بن زرارة

---

(١٦) الشعر السياسي، ص ٣٩٧، الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٢١٩.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٥.

الكلابي الذي كان يعرّض نفسه للاستشهاد فلم يوفق، فأنشأ يقول[١٨]:

قَدْ عِشْتُ فِي النَّاس أَطْوَاراً عَلى طُرُفٍ شَتَّى وَقَاسَيتُ فِيهَا اللينَ وَالبَشَعَا
كـلاً بَلَوتُ فَـلا النَّعْمَـاءُ تُبـطِرُني وَلاَ تَخَشَّعت مِـنْ لأوَائِهـا جَـزَعَـا
لاَ يَمْلأُ الهَوْلُ صَـدْرِي قَبْلَ مَـوْقِعِهِ وَلاَ أَضِيـقُ بِـهِ ذَرعـاً إِذَا وَقَـعَـا

ويفيد أحد المستشرقين بقوله: إن فتح العرب لبلاد فارس كان بسرعة كبيرة وإن ما قدمه الفاتحون في هذه المرحلة هو الدين الجديد في صورة ليس فيها تعقد الحياة الحضرية، ثم الشعر الذي انعكست فيه ظروف الجاهلية قائماً في حالة البداوة «وما خلا بعض الاشارات الغامضة في المصادر السورية والأرمنية لم نعثر في البلاد التي فتحها المسلمون على وثائق تصور مجرى الفتوحات، بينما نجد الروايات العربية التي دونت بعد هذا العصر بزمن طويل، مقتصرة على وصف المظهر الخارجي». ولعلّ المستشرق يريد أن يقرر بأن المدونات والمصادر الشرقية الأجنبية صمتت إزاء هذه الأحداث. إن ذلك لا يعني شيئاً ولا يمهد إلى جحودها، لأن الوقائع التاريخية المستمرة تثبتها، وإن صمت المصادر دليل على ضخامة العملية وليس على أسطوريتها. وإنه لأمر طبيعي أن تسكت الأمم المقهورة عن هزيمتها، فإن كان نوع القهر الذي سلطته الأمة الغالبة تخلفاً ووحشية، نكلت به الأمة المغلوبة وذكرته غير آبهة بالهزيمة، ولدينا مثال للعرب وما تعرضوا له من غزو عنصري مغولي أو تتري ثم صهيوني. والمصادر والمدونات العربية تذكره، لكن ما الذي يستطيع أن يقوله الساسانيون في هزائمهم بذي قار والقادسية مثلاً وهي حروب تحرير بالنسبة للعرب، وحروب عدوانية صادرة من جانب الفرس، إلا أن فتح العرب للبلاد الشرقية والغربية كان من أجل تحقيق قفزة نوعية لشعوبها في المتغيرات الاجتماعية (ظلم الأكاسرة والأباطرة) والثقافية (ضيق الأفق العقائدي) ولم تزل اعلام الثقافة والحضارة والدين في تلك الأراضي، فما الذي تركه المغول والتتر في أرضنا؟ إن أوضح مثل يضيء المسالك التاريخية، قصة العرب في اسبانيا وحضارتهم الأندلسية، وحديث العرب والاسبان معا في مواردهم الكلاسيكية ومدوناتهم الأثرية عن ذلك التاريخ المشرّف. ولأجل التمثيل فقط نجتزيء شيئاً مما ذكره (فون غرنباوم) في بحثه (الإسلام دين ومدنية) متعرضاً لبعض الاضافات القيمية الجديدة التي حققها العرب ضمن تصورهم الإسلامي الجديد[١٩].

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٧٠. وأشار الكاتب إلى مصدره: أبو العباس أحمد بن يحيى =

أ: جعل التصور الديني الجديد للحياة غاية أخروية. فالحياة لم تعد غاية لذاتها. وإنما أصبحت واسطة إلى الآخرة للفوز بالسعادة الأبدية، وعلى ذلك فالمطامح الجاهلية كالغنى والسلطان وشيوع الذكر، تظل أغراضاً مقبولة إلى الحد الذي يسمح باندماجها في التركيب العضوي للحياة الجديدة، (وسيتضح هذا تماما في شعر الفتوح).

ب: إن الدين الجديد جعل الفرد مسؤولاً عن مصيره في الدار الآخرة (وسيتّضح ذلك في شعر النضال الديني).

جـ: إن الإسلام بتأكيده أن لا غنى عن الجماعة للقيام ببعض الفرائض الاساسية المطلوبة من الفرد المسلم، أكد ضرورة التنظيم السياسي (وهذا تأكيد آخر للتفكير الوحدوي لدى الرسول). وبينما كان العربي في الجاهلية يفكر بمفاهيم العشيرة والقبلية فإن المسلم أصبح يفكر بمفاهيم المجتمع السياسي النابع من منطقة الايمان. ولهذا كان مقدراً له أن يسيطر على العالم، فلم يعد البشر منقسمين إلى قبائل مختلفة، بل إلى مؤمنين وكفار، وكان لهذا التقسيم أن يستمر حتى بعد الموت. وإن إدخال هذه القيم الجديدة قد استدعى قيام ثلاثة أسئلة أساسية في أقل تقدير: كيف يحيا المسلم حياة صحيحة؟، وكيف يفكر تفكيراً صحيحاً؟، وكيف ينظم تنظيماً صحيحاً؟ .

وعلى مستوى المتغيرات الثقافية الإسلامية، يقرر غرنباوم[٢٠]:

أ: توسيع المشاعر الانسانية وتنقيتها.

ب: توسيع نطاق العالم الفكري، والوسائل التي تمكن الانسان من السيطرة عليه.

جـ: إبداع نظام سياسي لم يسبق إليه في محل نشأته، مقبول من الوجهة الخلقية، وفعّال في الوقت نفسه.

د: تصوير أسلوب جديد، مقرر، للحياة. ومعنى ذلك إيجاد مثل أعلى جديد للبشر، ونموذج مفصل لتحقيقه في حياة نموذجية، تمتد من الحمل إلى ما بعد يوم القيامة.

هذه لمحة من البدائل والمتغيرات التي تركها الإسلام في أعماق العربي والأجنبي في آن معا. فكان استقبال العربي لمعطياته على مستوى الحدث فعرف بذلك أهمية أن

= البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق ومراجعة دي غويه (ليدن : بريل ، ١٨٦٦) ، ص ٢١٤ ، مع حديث عن فتنة وقعت في مدينة قم ، وحركات تمرد وعصيان ضد السيادة العباسية .

(٢٠) كان حسان وكعب يهاجيان قريشاً بالانساب بينما كان ابن رواحة ينعتهم بالكفر وعبادة الاصنام ، فكان يصعب على قريش كلام حسان وكعب ولا تأبه لابن رواحه ، فلما فقهت قريش واسلمت ، هان عليها كلام حسان وكعب ، وصعب عليها كلام ابن رواحة .

يستوعب كل هذا العطاء، وينطلق في تحقيق الأهداف الكبيرة، والتي بنيت كلها على قاعدة (الوحدة في كل شيء) داخل علاقة جدلية مستمرة (وحدة خالق ووحدة مخلوق) ووحدة أرض ووحدة فكر ووحدة هدف ووحدة مصير (دنيوي وأخروي). وكان استقبال الأجنبي من منطلق واحد هو منظور المنقذ أو المخلِّص، يتفاوت من قوم إلى قوم ومن أرض إلى أرض مع اتفاق، قليل أو كثير، على أن الايرانيين (الفرس) لم يعتنقوا الإسلام بالاكراه، وإن لم يكن معنى ذلك أن العرب لم يلاقوا مقاومة تذكر[٢١]. وسيؤكد لنا الشعر المواكب للأحداث العربية على طول الدروب إلى خراسان، أن الصورة للحرب كانت قاتمة جداً.

وكان من تأثير هذا (التطهير) الثقافي، أن تحققت في صفوف المقاتلين العرب طائفة من الشعراء يتحسسون أبعاد القضية العربية، ويدركون عمق أغوارها ثم عرفوا ـ وبزمن قصير جدا ملفت للنظر ـ أن هذا الإعداد الثقافي يعقبه عمل شاق، فبرزت ملامح مقت شديد لكل لون من ألوان التجزئة في الفكر والعمل. فالشاعر مع الجماعة يصلي، ومع الجيوش يقاتل، ومع الفقهاء يساهم في الثورة الثقافية. فظهر أثر ذلك في شعر التحرير، وشعر الحس الديني التوحيدي، وشعر المجتمع الذي كان بداية حقيقية لوضع القانون غير المكتوب بين دفتي الدواوين، وبالأخص في عهد الخليفة عمر. وهذا التفكير الجماعي في كل شيء ركز لدى الشاعر مقومات الوحدة، فكان حرباً على أكبر رموز التجزئة، وهي الوثنية، محققا لذاته حسا وحدويا ضمن أطر الاسلام الجديدة. وعلى هذا كان عليه أن يستقبل مصطلحات جديدة، يمحو بها من ذاكرة الشعر مصطلحات معجمه الجاهلي الكبير. ولم يكن ذلك سهلا لكنه مع طول المران والممارسة وطول الأناة التي عرف بها الرسول الملهم، كانت المعجزات تتحقق في طريق الوحدة.

إن الوثنية تجزئة، والإسلام وحدة، لأن الوثنية تعدد في كل شيء. والإسلام توحيد لكل شيء. هذا ما فهمه عبد الله بن رواحة الشاعر، فكان يعيرّ قريشاً بوثنيتها ويفخر عليهم بإسلامه، لكن المسألة عند الشاعر حسان بن ثابت والشاعر كعب بن مالك تختلف، وهما إسلاميان أيضاً، فكانا يجيبان قريشاً لدى مهاجاتها للرسول بما تفتتح بـه قريش قصائدها من الفخر القبلي وأمجاد الأسر الجاهلية، لذلك صعب على قريش بعد أن فقهت أن تتقبل شعر ابن رواحة، وهان عليها نعرات حسان وكعب[٢٢]. ولما

---

(٢١) ابو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ٢٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩.

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٢٤٨. =

استأذن عبد الله بن رواحة من الرسول ليهاجي شعراء مكة دفاعاً عن قائده، قال له: أأنت الذي تقول «فثبت الله» قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

فَثَبَّتَ اللّهُ مَا أَعْطَاكَ مِنْ حُسْنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصراً كالذي نَصَرُوا

فدعا الرسول بالخير والثبات، فوثب كعب بن مالك وقال: ائذن لي. فقال: أنت الذي تقول: همت؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

هَمَّتْ سخِينَةُ أَنْ تُغَالِبَ رَبَّهَا وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

فقال له الرسول: (أتظن أن الله نسي لك ذلك[٢٣]؟) لأنه أحس بشعره نفساً قبلياً جاهلياً، فعيرّ قريشاً بما كانوا يتنابذون به قبل الإسلام من الألقاب وكانت قريش تدعى: سخينة. بينما كان عبد الله بن رواحة قد تحرر من هذه الظاهرة المتخلفة، وأصبح يعير قريشاً بجهلها ووثنيتها وتجزئتها. وقد كان الرسول (ص) قد وجه كعباً في موقف آخر عندما أحس بنزوعه نحو الفخر الجاهلي الفردي، فوجهه توجيهاً عربياً موحداً[٢٤].

وكان الشعر يسير حثيثاً نحو تحقيق هدف التوحيد الديني، وذلك بالاتجاه نحو خالق واحد وقائد واحد وهدف واحد وجنس واحد. وكان الشعراء يجدون في توجيهات الرسول وتعاليمه نقاطاً مضيئة لتثبيت ذلك في نفوسهم. ولم يقف هذا عند حدود الخالق الواحد، بل وصلوه بما يلزمه من تأكيد لقيم التوحيد في العقيدة الثابتة والمثل الاخلاقية المتينة التي كان بعضها يستمد جذوره من التراث العربي نفسه، قبل الإسلام، والبعض الآخر مما أقره الله تعالى لنبيّه في تنزيله وألهمه إياه في حديثه وسنّته. وهكذا هجر الأوسيون والخزرجيون والمكيون واليثربيون مهاجاتهم فيما بينهم، وحولوها نحو خصوم دعوة التوحيد العربية الإسلامية، فاختفت لهجة الهجاء والمديح والفخر الجاهلية، وبدأ ظهور الصيغ الشعرية العربية الجديدة، وفق إطار فكري موحد. وكرد فعل لجبهة التحدي التي حققها الرسول في وجه خصومه، توحدت صفوف الوثنية الموزعة في أطراف

= ابو عمر احمد بن محمد ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٥، ٢٧٦.

(٢٣) ابن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، ج ٥، ص ٤٣.

ابن رشيق، **العمدة**، ص ٢٥.

محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٥٥.

وجاء في: ابن هشام، **السيرة النبوية لابن هشام**، ج ٣، ص ٥٨ - ٦١، أن الرسول (ص) امر بقتل طائفة من شعراء اليهود ممن شببوا بنساء المسلمين وهجروا الإسلام.

(٢٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ١، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

البلاد، والداعية إلى التجزئة في كل شيء. وكان هذا التوحد في صفوف الوثنية قد عاد على العرب بالنفع فيما بعد، لأن التنظيمات والتحالفات الوثنية بعد أن انهارت قياداتها وقلاعها، وبالأخص حصنها الحصين في مكة، إنضمت مرة واحدة بجميع صفوفها المنظمة المرصوصة إلى تنظيمات المدينة تحت قيادة الرسول السياسية والإدارية، موحدة تحت رايته الهادفة، لاغية جميع الرايات المتعددة قبل الإسلام، محولة شعراء الوثنية إلى جبهة التحرير والتوحيد، بعد أن صفيت الفصائل المنحرفة تماماً لتعذر إصلاحها ولأنها استمرت في أذى الرسول، مثل عبد الله بن خطل الذي كان يأمر قينتين له بأن تغنيا بهجاء رسول الله (ص) فأهدر دمه بعد أن أرتد مشركاً، فقتله أبو برزة الأسلمي يوم تحرير مكة، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومثل مقيس بن حبابه وقد قتله نميلة بن عبدالله يوم التحرير أيضاً لأنه قتل رجلاً من المسلمين وأرتد مشركاً ومثل أبي عزة الجُمَحِي وكان قد عفا الرسول عنه ببدر فعاد إلى هجائه فأمسك به في أُحُد فقتله وقال: لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين، ولا يلسع المؤمن من جحر مرتين. أما الشعراء الذين تم إصلاحهم ودخولهم في إطار التحرير والتوحيد فهم: ضرار بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكعب بن زهير. وبعضهم اعتذر وأحسن الاعتذار مثل ابن الزبعري، وبعضهم لم يستطع التخلص من منحاه الفكري ومكوناته الثقافية، فجاء اعتذاره متذبذباً بين التجزئة والتوحيد. أما من لم يستطع ذلك فمثاله أبو سفيان بن الحارث، ابن عم النبي، وقف يعتذر عما تقدم من يديه في أذى الرسول والمسلمين:

لَعَمْرِكَ إنّي يَوْمَ أَحْمِلُ رايةً ... لِتَغْلِبَ خيلُ اللاَّت خَيلَ مُحَمَّدِ
لَكَا لمُدْلِجِ الحَيْرانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهذَا أَوانِي حِينَ أُهْدِي وَأَهْتَدِي
هَدَانِي هَادٍ غيرُ نَفْسِي وَقادَنِي ... إلى اللّهِ مَنْ طَردت كُلَّ مُطَرَّدِ
أَصُدُّ وَأَنْأَى جَاهِداً عَنْ مُحَمَّدٍ ... وأُدْعَى وإنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدِ
هُمْ مَا هُم مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَواهُم ... وإنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ يُلَمْ وَيُفَنَّدِ
فَقُلْ لِثَقِيفٍ لاَ أُرِيدُ قِتَالَهَا ... وَقُلْ لثقيفِ تِلكَ غَيري أَوْ عَدِي
فَمَا كنتُ فِي الجيشِ الَّذِي نَالَ عَامِراً ... وَمَا كَانَ عَنْ جَرّا لِسَانِي وَلاَ يَدِي
قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بعيدةٍ ... نَزَائِعِ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وسَرْدَد

فلما سمعه الرسول غضب وقال: أنت طردتني كل مطرد؟. وقد فعل مثل هذا التذبذب الشاعر كعب بن زهير، وسيأتي الاستشهاد بشعره. أما ابن الزبعري فقد كان اعتذاره أقرب إلى الفكر الجديد:

يَـا رسُـولَ الإلَـهِ إنّ لِـسَـانِـي رَائـق مَـا فـتـقـت إذْ أنَـا بُـورُ
إذْ أُبـاري الشَّـيـطانَ فِـي سنَـن الـغـيِّ ومـن مـالَ مَـيْـلَه مثْـبُـورُ
امـنَ الـلَّحْـمُ والـعِـظَامُ لـربِّـي ثُـمَّ قَلْبي الشَّـهِيـدُ أنْتَ النَّـذِيـرُ
إنـني عَـنْـكَ زَاجِـرٌ ثَـمَّ حَيّـاً مَـنْ لُـؤَيٍ وكُـلُّهـم مَـغْـرُورُ

ولـه قـصيـدة ميمية أخرى تحمل نفس الأطر الجديدة في رفض القبلية والذاتية والتجزئة العقائدية[٢٥]. وهذا ينطبق على قريش كما ينطبق على القبائل المتحالفة معها، فقد كانت طائفة من القبائل تعمل مع مشركي مكة في جبهة واحدة، بينما ذهب البعض الآخر ينسق مع الرسول. فبالإضافة إلى شعراء المدينة انضمت ميمونة بنت عبد الله البلوية إلى الرسول، وكذلك الأعشى التميمي والحجاج بن علاط السلمي وبالمقابل كان أمية بن أبي الصلت وكعب بن الأشرف وأوس القرظي والربيع بن أبي الحقيق (والثلاثة الأخيرون من شعراء اليهود) مع المشركين، يؤازرهم شواعر كثيرات يصرخن بنعرات قبلية ضيقة ويرفعن أصواتهن في هذه المعركة الكبيرة مثل هند بنت عتبة وصفية بنت مسافر وهند بنت اثابة وقتيلة بنت الحارث التي دوّى صوتها عالياً تذكر الرسول بوشائج الرحم والعمومة عندما أمر بالحكم بإعدام أخيها النضر، وكان يؤذي رسول الله ويحرّض على قتله، واشترك ببدر، وكان له بلاء على المسلمين، فأنطلقت اخته قتيلة ترثيه، وكان علي ابن أبي طالب (رض) هو الذي ضرب عنقه[٢٦]:

يَـا راكـبـاً إنَّ الأثَـيْـلَ مَـظَـنَّـةٌ مِنْ صُبْـحِ خَـامِسَـةٍ وأنْتَ مُـوَفّقُ
أبْـلِغْ بـهَـا مَـيْـتـاً بـأنَّ تَـحـيَّـةً مـا إنْ تَـزَالُ بها الـرَّكَـائِبُ تخفِقُ
مِنّي عَـلـيـكَ وعَبْـرَةً مَـسْـفُـوحَـةً جَـادَتْ بـواكِفِهـا وأخـرى تَخْنَقُ
هَـلْ يَسْمَعَنّي النَّـضْـرُ إنْ نَـادَيْتُـه أمْ كَيْفَ يسمَـعُ مَيّتٌ. لا يَـنْـطِقُ
أمحمـدٌ يَـا خَيْـرَ ضِنءٍ كَـريمـةٍ في قَـوْمِها والفَحْـلُ فَحْلٌ مُعْـرقُ
مَـا كَـانَ ضَـرَّكَ لـو مَنَنْتَ ورُبَّمـا مَنَّ الفَتى وهـو المَغيظ المُحْنَقُ
فـالنَّضْـرُ أقـربُ من أسَـرْتَ قَـرابَـةً وأحَـقُّـهـم إنْ كـانَ عِـتْقٌ يُعْـتَـقُ
ظَلَّتْ سيـوفُ بَنِي أبيـه تَنُـوشُـهُ لِـلَّهِ أرْحَـامٌ هـنـاكَ تُـمَـزَّقُ
صَبْـراً يُقَـادُ إلى المَـنيَّـةِ مُتْعـبـاً رَسْفَ المقيَّـدِ وهـو عَـانٍ مُـوثَقُ

---

(٢٥) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٢٦) المصـدر نفسه، ج ٤، ص٢٠٦. الطبـري، تاريخ الطبـري، ج ٣، ص ١١٥.

ويقال إن الرسول رقّ لنواحها. وأما صفية بنت عبد المطلب ونعم امرأة شماس بن عثمان فقد كانتا مع المسلمين[٢٧].

على أن أبرز مواقف الشعر الإسلامي الوحدوية، هو صده لتيار القبائل المفعم بالروح العصبية. وكان هذا التيار قد أخذ يتدفق على يثرب (المدينة) مستخدماً أسلوب التأثير الأدبي ليغلب تيار الوحدة القومية والتوحيد العقائدي كوسيلة للتمويه بالمقولة الذائعة عن ضعف الشعر لدى المسلمين، وبالأخص كون قائد المسيرة ليس بشاعر، إلاّ أن الشعراء ومن ورائهم قوة الدعوة التوحيدية ومتانة الفكرة الرافضة للقبلية والعنصرية والداعية إلى وحدة العرب، وقفوا في وجه تيار القبائل، فسجل لنا التاريخ عدة أحداث من هذا الإمتحان العسير، لعل أبرزها ما قامت به بنو تميم حين أقبلت بوفد عظيم من شعرائها وخطبائها واقتحمت المدينة بهم لتفاجيء الرسول دون أن يؤذن لهم بذلك فجعلوا يصيحون من وراء الحجرات أن أخرج إلينا يا محمد فآذاه صياحهم فخرج إليهم فقالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: نعم، أذنت لخطيبكم فليقل. فقام إليه عطارد بن حاجب، فافتخر بقبيلته دون العرب، فندب الرسول له ثابت بن قيس بن شماس خطيب الرسول، فأمره أن يجيبه، فحمد الله وفخر بالرسول وبالمسلمين جميعاً الذين هم من قبائل العرب، ثم قالوا: يا محمد إئذن لشاعرنا. فقال: نعم. فقام الزبرقان بن بدر، فقال:

نَحْنُ الكِرامُ فَلا حَيٌّ يُعَادِلُنا ... مِنَّا المُلوكُ وفِينا تُنْصَبُ البِيَعُ
وكَمْ قَسَرْنَا من الأحياءِ كُلِّهِمُ ... عِنْدَ النِّهاب وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ
فَلا تَرَانا إلى حَيٍّ نُفَاخِرُهُم ... إلاّ اسْتَقَادوا وكادَ الرَّأْسُ يُقْتَطَعُ
إنَّا أَبَيْنَا ولَنْ يَأْبى لَنَا أَحَدٌ ... إنَّا كَذلِكَ عِنْدَ الفَخْرِ نَرْتَفِعُ

وكان حسان بن ثابت غائباً فبعث إليه رسول الله، فأمره أن يجيبه، فقال:

إنَّ الذَّوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بها كلُّ مَنْ كانَتْ سَرِيرَتُه ... تَقْوَى الإلهِ وكُلُّ الخَيْرِ يُصْطَنَعُ
قَومٌ إذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أوْ حَاوَلوا النَّفْعَ في أشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
أكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إذَا تَفَرَّقَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ

فلما فرغ حسان من قصيدته، وهي في أبيات، قال الأقرع بن حارس: وأبي إن

---

(٢٧) المصدر نفسه .

هذا الرجل لمؤتي له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. ويلاحظ في هذه الرواية التي أوجزنا وقائعها، أن شعر التميميين فخر بأنفسهم وقبيلتهم، بينما لم يفخر حسان بن ثابت بقومه، مع أنه عندما بعث الرسول في طلبه، سولت له نفسه أن يفعل ذلك وأن يمدح قومه الخزرجيين. قال حسان(٢٨): فلما جاءني رسوله (أي رسول الرسول (ص)) فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، خرجت وأنا أقول:

مَنَعْنَا رسولَ اللهِ إذْ حَلَّ وَسْطَنَا ... عَلى كُلِّ بَاغٍ مِن مَعدّ وَرَاغِمِ
مَنَعْنَاهُ لمَّا حَلَّ بينَ بُيوتِنَا ... بأسْيَافِنَا من كُلِّ عَادٍ وظَالِمِ
بِبَيْتٍ جَرِيرٍ عِزُّهُ وَثَرَاؤُه ... بِجَابِيةِ الجُولاَنِ وَسْطَ الأعَاجِمِ
هَل المجدُ إلاّ السُّؤدَدُ العودُ والنَّدَى ... وَجَاهُ المُلوكِ واحْتِمَالُ العَظَائِمِ

لكن حسانا أعرض عن هذا الفخر القبلي، ولو فيه مدح للرسول، وسلك طريق المدح الإسلامي، واتخذ الفهريين رمزاً للعرب ووحدتهم ودعوتهم إلى توحيد القيادة واتخاذ هدف واحد عند التوجه في الصلاة والآذان والكعبة.

إن شعر الوفود يمثل الجانب القبلي الفردي من الشعر العربي، بالرغم من جمال صياغته وفنيته العالية، إلا أن ردود المسلمين عليه تعد تصحيحاً لمسيرته وإرغاماً له ليلتزم في معطياته. ويمثّل في جادة الصواب وطريق الوحدة. فكان النصر لشعراء الدعوة العربية الموحدة، والهزيمة لدعاة القبلية والعنصرية والتجزئة.

ولا يخفى أن حركة الرسول التوحيدية ديناً، والوحدوية جنساً، كان الهدف من ورائها أن تنضم القبائل كلها تحت لواء الأمة العربية باعتبارها جنساً واحداً. إلا أن بعض الشعراء كانوا يمثلون قمة التذبذب العقائدي بين التجزئة القبلية والوحدة القومية، يتجلى ذلك في موقف الشاعر الوثني المهزوم أبي سفيان بن الحارث الذي ذكرنا له موقفاً قبل قليل، وموقف حليفه من نجد، الشاعر الوثني المهزوم أيضاً كعب بن زهير(٢٩)، حين أذهلته هجرة الرسول وأصحابه وبطولاتهم، وفكرة التوحيد الدينية والوحدة القومية، وانهيار حصون الوثنية، أقبل لائذاً بمسجد الرسول وبشخصه الكريم يطلب الحماية من

---

(٢٨) انظر الخبر في: ابن رشيق، العمدة، ص ٢٤.
(٢٩) كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، ص ٦.

سيوف المسلمين[٣٠]، فوقف ينشده قصيدته اللامية المعروفة[٣١]:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليومَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

إلى أن يقول في مدح الرسول والمهاجرين[٣٢]:

إنَّ الرَّسولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ   مُهَنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مَسْلُولُ
في عُصْبَةٍ من قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ   بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ ولاَ كُشُفٌ   عِنْدَ اللقاءِ وَلا مِيلٌ مَعَازِيلُ

فلما سمعت الأنصار هذه القصيدة شق عليهم حيث لم يذكرهم مع أخوانهم من المهاجرين، فقال كعب يمدحهم[٣٣]:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلا يَزَلْ   في مقنبٍ من صَالِحِي الأَنْصَارِ
تَزِنُ الجِبَالَ رَزَانَةً أَحْلاَمُهُمْ   وأَكُفُّهُمْ خَلَفٌ مِنَ الأَمْطَارِ

ولم تتحقق للعرب هذه التوحيدية الدينية بالغاء التجزئة الوثنية والوحدة السياسية بالغاء التكتلات القبلية بلمسة سحرية، كما يتوهم البعض، وإنما بقيت بدوات منها في أشعارهم وتصرفاتهم، حتى كانت الانتكاسة الكبرى في أيام الردة، فانفرط عقد الوحدة مرة أخرى، وعادت القبائل إلى عزلتها الفردية مسترجعة ذكريات الغزو والسلب والتمزق الجاهلي، فتوقفت حركة التحرير، ووثب العدو المتربص وراء الحدود من روم وفرس وحبش على أجزاء من الوطن فاحتلها، وأُلبت عناصر أخرى في داخل الوطن على التمرد. وهذا دأب التاريخ العربي عند كل تمزق. فالخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية جعل الروم يكرون على سواحل الشام وشمال أفريقيا بحراً وعلى حدود بلاد الشام والأناضول براً ليستردوا البلاد التي كان لهم عليها سلطان، فلما عادت الوحدة كر عليهم معاوية فاسترجع الأجزاء المفقودة حتى دق أبواب القسطنطينية، فلما نشبت الفتن بعد مقتل الحسين، عاد الروم إلى عدوانهم، لكن عبد الملك بن مروان جال تحت راية الدولة العربية فأعاد الأمور إلى طبيعتها ولم يتوقفوا حتى دخلوا الأندلس. فلما ناوأ الهاشميون

---

(٣٠) ديوانه، ص ٢٣، ٢٥.

(٣١) إبراهيم البساطي، وحدة العرب، ص ٦ وما بعدها، نقلاً عن: محمد عزة دروزة، الوحدة العربية (بيروت: المكتب التجاري، [١٩٥٧])، باختصار وتصرف.

(٣٢) شعر الفتوح الإسلامية، ص ٢٨٣. نقلناها بإيجاز.

(٣٣) الاصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ١٥٧.

الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ٢٤٦.

الأمويين سارع الروم إلى العدوان، وكادت الوحدة تنهار، لكن العباسيين أعادوا العرب إلى وضعهم، وهنا ظهر العصر الذهبي، ثم لم تلبث الدولة أن أنقسمت فعاد الروم يهددون، لكن سيف الدولة الحمداني كان لهم بالمرصاد فأوقفهم حتى دب التفرق فكانت الحروب الصليبية سنة (٤٩١هـ) لأن السلاجقة كانوا في نزاع، والشام مجزأة إلى إمارات، والدولة الفاطمية ضعيفة واهية، وأمراء المغرب والحجاز واليمن في شغل شاغل بأنفسهم. وزحف الصليبيون، وبسطوا سلطانهم على فلسطين وهددوا بغزو المدينة حتى بدأ الأيوبيون الجهاد واستطاع صلاح الدين (٥٦٩ هـ) أن يجعل هذه البلاد من مصر والشام وليبية والحجاز أمة واحدة. وهذه الظاهرة تتكرر في الأندلس والمغرب العربي[٣٤].

واقترنت معركة الشعر الوحدوية بعملية أشد خطورة وبعداً في حياة الأمة العربية، كان لها أكبر الأثر في حفظ المجال العربي مشدوداً برباط واحد من المحيط إلى الخليج، ألا وهي عملية توحيد النسخ القرآنية في مصحف عثماني واحد، حيث تم جمعه وتوحيده وتوزيعه على الأقطار العربية في عهد الخليفة عثمان. وهكذا تيسر للاتجاه العربي الوحدوي دستوره الذي يضمن سيرورة لغته وشرائعه على تعاقب الأجيال والعصور دون تعدد ولا تحريف. وبدأ الشعراء يقتربون أكثر نحو بعضهم في لغة الشعر الموحد ومصطلحاته وأخيلته ومعانيه بفضل توحيد القرآن لاتجاهاتهم وطموحاتهم ووسائل تعبيرهم. ولا أريد أن أكثر من الاستطراد بالأمثلة، فهي موفورة أبرزت لنا بوضوح أثر القرآن وتوحيد نسخه في اتجاهات الشعراء الوحدوية، وإنما سأضرب مثلا واضحا في قصيدة النابغة الجعدي[٣٥]: التي تدخل في نطاق حروب التحرير:

الحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ   مَنْ لمْ يَقُلْها فَنَفْسَه ظَلَمَا

كأن البيت ينظر إلى قوله تعالى: «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم». (لقمان آية ١٣).

المُولِجُ الليلَ في النَّهارِ وفِي   اللَّيْلِ نَهاراً يُفَرِّجُ الظُّلَما

نظر في قوله تعالى: «ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر» (سورة لقمان آية ٢٩).

الخَافِضُ الرَّافِعُ السَّماءَ عَلى   الأرضِ ولَمْ يَبْنِ تَحْتَها دَعَما

---

(٣٤) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٤٧.

(٣٥) ديوانه، ص ٦٠.

وهو معنى قوله سبحانه: «خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم».

الخَـالِق البَـاري المُصـوِّر في ... الأرْحَـام مَـاء حَتَّى يَصيـرَ دَمَـا
مِـنْ نُـطْفَـةٍ قَـدَّرَهَـا مُقَـدِّرُهَـا ... يَخْلِقُ مِنْهـا الأبْشَـارَ والنَّسَمَـا
ثُـمَّ عِـظامـاً أقَـامَـهـا عَـصَـبٌ ... ثمت لَـحْمـاً كَسَـاهُ فـالْتـأمَـا
ثُـمَّ كَسَـا الـرِّيشَ والـعَـقَـائِـق ... أبْـشـاراً وجِـلْداً تَـخَـالُـه أدَمَـا

وهكذا نلاحظ هذه الأبيات والتي تليها قد تأثرت بآي الذكر الحكيم، ثم ينتهي ليذكر الفاتحين بالمعجزة التي أجراها الله على أيديهم في إزالتهم ملك فارس[٣٦]:

يَـا أيُّها النَّـاسُ هَـلْ تَـرَوْنَ إلى ... فـارسٍ بَـادَتْ وَجـدّهـا رغَـمَـا
أمْسَـوا عَبِـيـداً يَـرْعَـون شـاءكُمْ ... كـأنَّـمـا كـانَ مُلْكُـهـم حُـلُمَـا

وإذا كانت حروب التحرير قد جسدت الموقف القومي الحقيقي للشعر العربي، فإن بدايات التحرير كانت منذ أيام الردة القبلية وعلى وجه الخصوص بعد وفاة الرسول (ص) عندما انطلق صوت الشعر القبلي من عقاله بعد أن أسكتته النجاحات العظيمة التي حققها شعر الالتزام القومي. فهذا هو الحطيئة جرول بن أوس الشاعر المرتد، يؤلب الناس على القيادة العربية، بعد أن حققت معجزة بعثهم وتوحيدهم:

أطعْنَـا رسـولَ الله مـا كـان بيننـا ... فَـيَـا لِـعِـبـاد الله مـا لأبـي بَـكْـر
أيُـورِثُها بكـراً إذا مـاتَ، بَعـدَهُ ... وَتِلْكَ لعَمْـرِ الله قَـاصِمـةُ الظَّهْـر
فَـهَـلا رَدَدْتُـمْ وَفـدَنَـا بـزمَـانِـه ... وهَـلاّ خَشيتُمْ حِسّ رَاغيـةِ البكْـر
وإنَّ الـتـي سَـامُـوكُـمْ فَـمَـنَـعْـتُـمُ ... لَكـالتَّمْرِ أوْ أحْلَى إليَّ من التَّمْـرِ

ولما هاجم الذبيانيون العاصمة، مدينة الرسول، ارتفع صوت الردة مرة أخرى، يبارك لهم خطوتهم، فقال الخطيل بن أوس أخو الحطيئة:

فِـدىً لِبَني ذُبيـان رَحْـلي ونَـاقَتِي ... عَشيَّةَ يُحْـذَى بـالـرِّماحِ أبـو بَكْـر
ولكنْ يُدَهْـدِي بـالـرجـال مهينَـه ... إلى قَـدَر مـا إنْ يَـزيـد وَلا يَجْـري
ولـلّهِ أجْـنـادٌ تُـذَاقُ مَـذَاقَـه ... لتُحْسَبَ فيمـا عُدَّ من عَجَبِ الـدَّهْرِ

وقد صور الحطيئة تحالف عبس وذبيان ضد المسلمين أيام الردة بعد حربها الطويلة

---

(٣٦) الفاروق عمر، ص ١٦٨.

التي دامت أربعين عاماً وعرفت بأيام داحس والغبراء(٣٧):

ألـم تـرَ أنَّ ذُبْيَـانـاً وَعَـبْـسـاً ... لِبَـاغِي الحرب قَـدْ نَـزلا بَـراحَـا
يُـقَـالُ الأحـرَبَـان ونحـنُ حـيٌّ ... بَنُـو عـمٍّ تـجـمَّـعـنـا صَـلَاحـا
مـنعـنَـا مَـذْفَـعَ الثلبُـوت حَتـى ... الـرماحَـا تَرَكْنَـا راكزينَ بـهِ الرِّمـاحَا
نُقَـاتـلُ عَنْ قُـرى غَـطفَـانَ لمَّـا ... خَشيـنـا أنْ تُـذَلَّ وأنْ تُـبَـاحـا

وكان أبو بكر قد أقسم ليقاتل المرتدين أشد قتال، ثأراً لمن قتلوا من المسلمين، فانطلق زياد ابن حنظلة التميمي بصوته العربي المعبر عن جميع القبائل المتوحدة تحت راية الإسلام(٣٨):

أَقَمْنـا لهمْ عَـرْضَ الشِّمـال فَكَبْكَبُـوا ... كَكَبْكَبَـة الغُزّى أنـاخُوا على الـوَفْـر
فَمَـا صَبَـروا للحـرب عنـدَ قيـامِهـا ... صبيحـة يَسْمُوا بـالـرِّجـال أبـو بَكْـر
طَـرَقْنـا بَنِي عَبْسٍ بـأدْنَى نِبـاجِهـا ... وذُبْيَـانَ نَهْنَهْنَـا بقـاصمـةِ الـظَّهْـرَ

ولا نتوغل في شعر الردة، فهو مؤشر واضح لانتكاسة الشعر الملتزم، وإن كان تأثيره العاطفي على الناس قوياً، لأنه يستثير ذكريات الماضي القريب، وفيه كان الإنسان خلواً من كل التزام وواجب، حتى أن بعض المسلمين ممن لم يرتدوا، اندفعوا وراء عواطفهم الذاتية يبكون إخوانهم وأهلهم ممن نالتهم سيوف العرب من جيوش التحرير، فكان لشعرهم أسوأ الأثر في نفوس الناس. وتعد بكائيات الشاعر متمم بن نويرة في أخيه مالك بن نويرة المرتد، صورة ناطقة لحالة شعرية فريدة. فقد كانت أسمى الأوساط الثقافية، حتى الرؤوس الكبيرة من مفاصل الدولة، تنصت بحزن إلى ما كانت تفعله سيوف الموحدين بأجساد المرتدين، فرويت عن هذا الواقع القاتم أخبار كثيرة.

وتدفع الردة المقاتلين العرب لاتمام معركة التحرير، وكانت الراية العربية الموحدة قد نكست أمامها كل رايات القبائل التي تكتلت في كيانات معادية للثورة على عادتهم في الجاهلية، فكانت كل قبيلة أو كتلة سياسية ترفع راية، بينما كان المسلمون يرفعون راية واحدة. لقد ظهر للعرب الموحدين أن العناصر الأجنبية الدخيلة التي تضررت بالثورة بدأت تمارس أدوارا تخريبية بين القبائل، وتحرض على القادة العرب في المعسكرات والمدن، بل بلغت أحقادها حداً أن هيأت لاغتيال رئيس الدولة العربية الجديدة، حتى أن

(٣٧) شعر الفتوح الإسلامية، ص ٨٢.
(٣٨) اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٨٢.

الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، سأل عن قاتله، فلما أخبروه باسمه قال: «ما كانت العرب لتقتلني». فارتفع صوت الشعر مرة أخرى نابذاً كل سلبياته وتمزقاته العصبية، متجهاً نحو التخوم الشرقية مقاتلا إلى جانب السلاح الحربي حتى أصبح صوت الشعر يسمع على طول الدروب إلى أقصى المدن الايرانية حتى سواحل البحار النائية، فعادت الحناجر التي فقدت أصواتها الحقيقية إلى حالتها الشعرية بعد فترة من الانقطاع والنضوب والضياع، عاد الحطيئة المرتد إلى الساحة العربية وعاد عمرو بن معد يكرب إلى الصفوف العربية الموحدة، وعاد غيرهما ممن فتنتهم ذكريات الماضي القريب المتسيب اللاملتزم. وكان سعد بن أبي وقاص قد أمر الشعراء من أمثال الشماخ بن ضرار وعبدة بن الطيب والمغيرة بن شعبة وعاصم بن عمرو والحطيئة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم ليقوموا بما عليهم من تحريض الناس على القتال، فانطلقوا يلهبون سماء المعركة بأشعارهم ومضى الرجّاز يشعلون أوار الحماس. وكان الجنوب العربي مطمح الفرس، وكان المثنى بن حارثة الشيباني قد أعد نفسه لتحرير هذا الجزء المهم من أيديهم، وهو الأمر الذي لفت انتباه أبي بكر، حيث ترامت الأنباء بأن المثنى ـ بمبادرة شخصية منه ودون عون من أحد ـ قد سار بقواته شمالا من البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر، وبلغ مصب دجلة والفرات، وقضى في مسيرته هذه على الفرس وعمالهم. ولو شئنا الدقة في بداية حروب التحرير العربية في الإسلام لوجدنا أن الرسول (ص) أول من فتح صفحة هذه الحروب ضد الروم مثلا، عندما حرك بعض الألوية العسكرية باتجاه المواقع الشمالية القريبة من بلاد العرب للثأر من أمير (بصري) الذي قتل شرحبيل بن عمر، وكان النبي قد أرسله إليه ليبشره بالإسلام ويهديه إلى طريق العروبة والدين[39]. ثم كان للحملة هدف آخر هو تأمين التخوم العربية ضد الروم الذين تأثروا بتحريض اليهود بعد إجلائهم عن المدينة وتيماء وفدك إلى فلسطين، وكان وراء ذلك هدف آخر هو الوصول إلى (مآب). وقد واكب الشعر ذلك حيث قال عبد الله بن رواحة[40]:

فَلا وأبي، (مُآبٍ) لآتِيَنَّها وإنْ كَانَتْ بِها عُرْبٌ ورُومُ

فكانت وقعة (مؤتة)، ثم كانت بعض المناورات الحربية للرسول (ص) عند

---

(٣٩) الاصفهاني، الأغاني، ج ١١، ص ٢٧٨.

(٤٠) شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤،

الحدود العربية التي يعسكر الروم وراءها، ومن ثم كان انطلاق الشعر يسبق الأحداث إلى آخر نقطة من أرض العرب، ثم إلى آخر حصن شيده المحتلون على الحدود وما بعدها. فكان الشعر يحث الناس لكي يعبروا البحار ويغزوا العدو في عقر داره لكي يعرف مقدار قوتهم فلا يطمع في الاستمرار على الاحتلال ولا يفكر به[٤١]:

امْضوا فإنَّ البَحْرَ بَحْرٌ مأمورْ والأوَّلُ القاطِعُ مِنْكُم مَأْجُورْ
قد خابَ كِسرى وأبوهُ سابورْ ما تَصْنَعُونَ والحديثُ مأثُورْ

ونستطيع أن نستخرج من شعر التحرير والفتوح بعض السمات الفنية التي تعد من أوضح مؤشرات الالتزام في الشعر. لقد خلقت حركة التحرير أو النزوح بعيداً عن الأوطان معاناة جديدة في الشعر، كان من نتائجها ذلك الحس القومي الملتهب والحب العميق للأرض العربية وقوة الارتباط بها. فكان بعض الشعراء تستثيره مشاهد الطبيعة الخلابة في الغربة فتهز إحساسه نحو أرضه وقومه، وربما كان مشهد البرق الملتمع من جهات الشام أو نجد أو اليمن، مدعاة لشعور شجي وإحساس حزين إلى تلك الأوطان التي أصبحت بعيدة لا يزورها الشاعر إلا في طيف الخيال أو على أجنحة الأحلام. كقول كثير بن الغريز النهشلي، وقد ألهب البرق خياله[٤٢]:

سَقَى مُزْنُ السَّحابِ إذا اسْتَقَلَّتْ مَصَارِعَ فِتْيةٍ بالجُوزجانِ
إلى القَصْرَيْنِ من رُسْتاقَ خُوطٍ أقادَهُمُ هناكَ الأقْرَعانِ
وما بي أنْ أكونَ جَزِعْتُ إلاّ حنينَ القلبِ للبَرْقِ اليَمَاني
ومَحْبُورٌ برؤيتِنا يُرَجِّي اللقاءَ ولَنْ أراهُ ولَنْ يَراني

ومثله قول رفيقه في القتال يحن إلى نجد وقد لمح خيالها يلوح من بين لمعان البروق[٤٣]:

أتَبْكِي على نجدٍ وريًّا ولنْ تَرى بعينيكَ رَيَّا ما حييتَ ولا نَجْدَا
ولا مُشْرِفاً ما عشتَ أقْفارَ وَجْرَةٍ ولا وَاطِئاً في تُرْبِهِنَّ ثَرَى جَعْدا
ولا واجداً ريحَ الخُزامَى تسوقُها رياحُ الصَّبا تعلو دَكَادِكَ أوْ وَهْدَا
تَبَدَّلْتُ من رَيّا وجارات بَيْتِها قُرَى نَبَطِيّاتٍ يُسَمِّينَني مَرْدا

---

(٤١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٤٧.
(٤٢) انظر: العصر الاسلامي.
كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية، ص ١١٥، «شعر الفتوحات».
(٤٣) الشعر السياسي، ص ٢٩٦.

ألا أيُّها البرقُ الذي باتَ يَرْتَقي ... ويجلو دُجَى الظلماء ذَكّرْتَني نَجْدا
ألَمْ تَرَ أنَّ الليل يَقْصُرُ طُولُه ... بنجدٍ وتزدادُ الرِّياحُ بهِ بَرْدا

وقول مقاتل ثالث(٤٤):

أحنُّ إلى رَوْض الحِجاز وحَاجَتي ... خيامٌ بنَجْدٍ دُونها الطُّرقُ تَقْصُرُ
وَمَا نظري من نحو نَجْدٍ بنافِعٍ ... أجلْ لا، ولكنّي إلى ذاك أنْظُرُ
أفي كُلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عَبْرةٌ ... لعينيكَ مَجْرَى مائها يَتَحَدّرُ
مَتى يستريحُ القلبُ إمّا مُجاوِرٌ ... بِحَرْبٍ وإمّا نازحٌ يَتَذَكّرُ

لقد كانت هذه الأناشيد الشجية تملأ فضاء المعركة دوياً قوميا وتنتقل من أرض الغربة إلى أرض العروبة، فتكون غذاء الناس الروحي ومعينهم الذي لا ينضب في التربية الوطنية، حتى أننا لنجد الأدباء فيما بعد يصنفون الكتب والرسائل في أشعار الغربة والحنين إلى الوطن كما فعل الجاحظ وأصحاب الحماسات والاختيارات في العصر العباسي.

ولو شئنا أن نستوفي كل جوانب شعر التحرير في الأرض العربية حتى نهاية العصر الإسلامي، عندما توقفت الفتوح، لاستوجبت منا دراسة مطولة، وإن كان بعض الباحثين قد أعدوا مثل هذه الدراسات الوافية(٤٥). وقد حمل هذا الشعر إلينا أسماء البلاد النائية التي دخلها العرب والأراضي التي حرروها، فورد ذكر الترك والصغد والبربر والروم والوندال، ثم ورد وصف لمشاهد فارسية خراسانية، أو صينية أو إسبانية أو أناضولية حتى بلاد الثغور. وأورد الشعر ذكر طائفة من معاهدات الصلح ووثائق الخراج، وضمّن الشعراء شعرهم بعض شعارات العرب التحررية وشعائرهم الدينية التوحيدية، ولم يغفل الشعر همومه، فطرح عوامل التجزئة وانهيارات البناء الجديد وانحلال الدولة العربية الواحدة، كما في قول نصر بن سيار عند زوال الدولة الأموية وظهور قوة العباسيين(٤٦):

كُنّا نُرَقِّعُها فَقَد مُزِّقَتْ ... واتّسعَ الخَرْقُ على الرّاقِعِ

(٤٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٤٧٨.
ويراجع: ابي حنيفة الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٣٥٦.
(٤٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٧٧.
(٤٦) الشعر السياسي، ص ٢٢٨.

وكان نصر بن سيار قد أطلق علة صيحات قومية من وراء خراسان ينبه قومه العرب على ما تبيته الشعوبية للأمة العربية، من مثل قوله:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ لَهيبَ نَارٍ فَيُوشِكُ أنْ يكونَ لَها ضِرامُ
فإنَّ النَّار بالعُودَيْن تُذْكى وإنَّ الحربَ أوَّلها الكَلاَمُ
فإنْ لم تُطْفِئُوها تَجْن حَرْباً مُشَمِّرةً يَشيبُ لها الغُلامُ
فقلتُ من التَّعجُّب لَيتَ شِعْري أأيقاظٌ أمَيَّةُ أمْ نيامُ
فإنْ يَكُ قَوْمُنا أضْحَوا نِياماً فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ القِيامُ
فَفِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قُولي عَلى الإسلامِ والعَرَبِ السَّلامُ

وقال نصر أيضاً يخاطب المضرية واليمانية دون تفريق يحذرهم هذا العدو الداخل عليهم:

أبْلِغْ رَبيعةَ في مَرْوٍ واخْوتِهم فَلْيَغْضَبُوا قَبْلَ ألاَّ يَنْفَعَ الغَضبُ
ولينصبُوا الحرْبَ إنَّ القومَ قد نَصَبُوا حَرْباً يُحَرَّقُ في حَافَاتِها الحَطَبُ
مَا بَالُكم تُلْقِحُونَ الحربَ بينَكُمْ كأنَّ أهْلَ الحِجَا عن فِعْلِكم غُيبُ
وَتَتْرُكونَ عدوّاً قَدْ أضَلَّكُمْ مِمَّا تَأشَّبَ لاَ دِينٌ ولا حَسَبُ
قَوماً يَدِينُون ديناً مَا سَمِعْتُ به عَن الرَّسولِ ولَمْ تَنْزِلْ بهِ الكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سائلاً عَنْ أصْلِ دينِهُمُ فَإنَّ دينَهُم أنْ تُقْتَلَ العَرَبُ

وكان إحساس نصر بن سيار صادقاً، فكان يوقد للعرب من وراء التكتل الشعوبي الفارسي، الضوء الأحمر، فلم يسمح لصوته أن يصل إلى مسامع القادة في العاصمة العربية يومئذ، لسبب ذكره ابن عبد ربه، وأوضحته أشعار المناوئين لحركة الثورة العربية يومئذ من أمثال إسماعيل بن يسار وهو يفخر بكسرويته بشكل صريح ويهجو العرب(٤٧):

رُبَّ خَالٍ مُتَوَّجٍ لِي وعَمٍّ مَاجِدٍ مُجْتَدَى كريمِ النِّصابِ
إنَّما سُمِّيَ الفوارسُ بالفُرْ سِ مُضَاهَاةَ رُفْقَةِ الأنْسَابِ
فاتْرُكي الفخرَ يا أمَامَ عَلَيْنا واتْرُكي الجَوْرَ وانْطِقي بالصَّوابِ
واسألِي إنْ جَهِلْتِ عَنَّا وعَنْكُم كيفَ كُنَّا في سَالِفِ الأحْقَابِ

---

(٤٧) الاصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ٤٠٩، وهي قصيدة طويلة، ويرمز للأمة العربية باسماء فتيات مثل: امامة وهند وغيرهما.

إذْ نُـرَبّـي بَـنَـاتِـنـا وتَـدُسُّـونَ سَـفَـاهـاً بَنـاتِكُـمْ في الـتـرَابِ

وكان الشعراء الموالون للشعوبية قد توزعوا بين الكتل السياسية، يؤدون دوراً خطيراً في خلق جو من النزاعات القبلية، ينجر وراءهم الشعراء العرب ممن لم تتحقق في نفوسهم نوازع الوحدة، فأدى ذلك إلى وقوع نكسات معروفة في تاريخ الأمة العربية. فكان بين الخوارج مثلاً عمرو بن الحصين وبين الشيعة الشاعر ابن المولى، ومع الزبيريين إسماعيل بن يسار، بينما كان يزيد بن ضبة والحسين بن مُطير ونصيب قد اندسوا بين الأمويين فعملوا على هدم الأركان المتعددة من الكيان العربي يومئذ، دون أن يتورعوا عن أن يخلقوا فكراً للتجزئة من خلال الأدب والشعر العربي. ففي خبر شعوبي يعزى إلى امرأة عربية أنها استعرضت القبائل كلها بالذم والشتم شعراً عندما تقدم لخطبتها رجل كان في كل لحظة ينتسب لقبيلة، فلما انتسب إلى بني هاشم قالت:

بَنِي هَـاشِمٍ عُـودُوا إلى نَخَـلاَتِكُمْ فَقَدْ صَارَ هَذَا التَّمْرُ صَـاعاً بِـدِرْهَمِ
فَـإن قُلْتُمُـو رَهْطَ الـنَّبيِّ مُحَمَّـدٍ فإنَّ النَّصارَى رَهْطُ عِيسَى بنِ مَرْيَمِ

وهكذا نال هذا الخبر المدسوس من العرب والإسلام، ولا أساس له من الواقع.
ومع ذلك فقد كانت الأشعار القومية المدوية في أرجاء البلاد وساحات القتال هي الرد العملي لمثل هذه المظاهر المرفوضة

المناقشات

أحد المشتركين: البحث السابق لم يشر إلى الأسس التي تقوم عليها الفكرة الوحدوية. إن الأسس التي تقوم عليها القومية العربية في عصرنا هذا تختلف تماما عما كانت عليه في عصر الإسلام على الأقل. والذي أذهب إليه أن ما نقوله الآن عن القومية العربية وأسسها يختلف كثيرا عما كان يشعر به العرب والعرب المسلمون آنذاك.

هنا أشير إلى جملة حقائق أبدأها بفرحة الرسول العربي العظيم في انتصار العرب في ذي قار. ونحن نعلم أن المنتصر في ذي قار والمنهزم لم يكونا مسلمين. العرب الذين انتصروا في ذي قار لم يكونوا مسلمين. فما هو سر فرحته؟ وأشير إلى نقطة أخرى. وهنا يوضح لنا الرسول العربي العظيم نظرتنا إلى القومية العربية عندما قال قولته المشهورة: ما عربية أحدكم من أب وأم وإنما هي اللسان. وهل اللسان إلا الثقافة، إنها اللغة التي تجمع في ثناياها كل ثقافة الأمة.

النقطة الثانية التي تؤكد هذا الاتجاه، قول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حين نص واكد على أن الإسلام لا يكون إلا بالعرب، قال: العرب مادة الإسلام. . . ولو تتبعنا هذه الفكرة في الشعر الذي جاء به الإسلام، أو الشعر الذي جاء بعد ذاك حتى العصر العباسي وأواخر العصر العباسي، ولو تتبعنا ما كتب من كتب جمعت الأدب نثره وشعره، لوجدنا أن هذا الإتجاه هو الذي كان يسود، وأن الشعوبية عندما حاولت أن تنال من العرب وضعت نصب عينيها هذه المسألة، وهي أن تطعنهم في سر سيادتهم؛ أو في الأساس الذي تقوم عليه سيادتهم، وهو الدين ومن ثم اللغة. الذي يقرأ كتب الجاحظ مثلا يجد شرحا لقول الرسول ولقول عمر، شرحا واضحا حتى أن الجاحظ يقول ما معناه إن العرب لا يؤمنون بالعصبية ولا يؤمنون بما نقوله بألفاظنا الحديثة بأنهم فوق الأمم

الأخرى، ولا يؤمنون بالقومية العرقية، وإنما يؤمنون بانتمائهم انتماء إنسانيا، لذلك هم لا يعدون العلاقة بينهم إلا علاقة الثقافة واللغة التي هي تمثل الدين.

أحمد صالح عرب: الحقيقة أن البحوث التي قدِّمت، بحوث قيمة وممتازة لكن يوجد جانبان صغيران جدا رأيت أنهما مهملان في البحث: أولا الشعر العربي ودوره الأساسي في الوحدة العربية باعتباره أهم وسيلة اتصال جماهيري. وهذه النقطة كانت شبه مغفلة. الشيء الثاني أن الشعر العربي بهذا الشكل كان له مؤسسة واضحة ومحددة قبل الإسلام أو قبل الوحدة العربية باعتبار أنه كان عامل توحيد. سوق عكاظ مثلا. بعد قيام الدولة العربية نرى الشعر كمؤسسة رائدة تحاول أن تسبق الأحداث ينتهي ويبدأ ثانية، يتحول إلى الدور الذي هو كمؤسسة اتصال جماهيري.

حميد الهيتي: الذي لفت نظري في الخلاصة التي قدمها الدكتور عادل هي أن المحاور الثلاثة تكاد تكون مقدمة البحث وليست في صلبه. وكان يمكن أن يكون المحور الرابع مع مس جانب الشعر الملتزم الذي رافق صدر الإسلام؛ مع هذا يمكن أن يكون الصيغة الكاملة لخطة البحث. إن نضال الشعر العربي في صدر الدولة العربية الإسلامية تمثل في نشاطين. الأول، هو الجانب المقبول من قبل الثورة العربية التي حملت الإسلام، وهو ما يمكن أن يسمى بالشعر الملتزم بفكر الثورة. وهذا الشعر هو ما تمثل في آثار السابقين في الإسلام من أمثال حسان بن ثابت وكعب. هؤلاء وظفوا أشعارهم في الرد على الخصوم فكريا وفي شرح بعض جوانب الفلسفة التي حملها الدين الجديد.

أما الجانب الثاني والأهم في إطار نضال الشعر العربي من أجل الوحدة العربية فيكاد يتميز بأشعار التحرير أو ما اصطلح عليه بأشعار الفتوح. وقد ورد عن طريق الرواية الكثير من أشعار الفتوح التي رافقت عمليات التحرير التي قادها العرب شرقا وغربا لنشر رسالة وقيم السماء. ويبدو لي أن التأكيد على الجانب الأول وهو جانب الشعر الإسلامي المبكر، هو الأهم والأكثر التصاقا بالموضوع، لأن هناك فارقا كبيرا بين من يبدأون وفي ساعات العسر والموجة الحارة، وبين من يتحدثون من خلال قيام الدولة وثباتها واستقرارها ونضجها.

الفَصْل الرَّابِع

من ملامح العُرُوبَة في شِعر العَصْر العبَّاسِيْ

الدكتور عصام عبد علي

ليس من أهداف هذا البحث أن يجري مسحا شاملا لمعاني العروبة وعناصرها في شعر العصر العباسي، فلقد كان هذا الشعر عربيا شكلا ومحتوى، حتى على لسان من تهجم على العروبة في بعض معانيه. ولكننا نحاول محاولة متواضعة أن نتتبع بعض ملامح العروبة في معنى التعبير عن الوجود العربي والذات العربية على صعيد الشعر. وقد يبدو البحث ذا طابع انتقائي في بعض جوانبه، وهو أمر قد يقود إلى ذاتية في الأحكام والتحليل والنتائج.

ومحاولتنا، بعد ذلك، لا تعتمد مفهوم العروبة بأبعاده الفكرية والسياسية المطروحة في فكر القرن العشرين، أو في تصورات النظرية العربية الثورية التي نؤمن بها، ولعلنا إذا سلكنا هذا المسلك حمّلنا النص فوق ما يحتمل، وقادنا التفسير والتحليل إلى تطبيق أحكام منقولة من هذا العصر، متجاوزين عوامل التراث وطبيعة المجتمع ونسبية الزمان والمكان والظروف الموضوعية الأخرى.

والحقبة العباسية، التي نحاول أن نتابع ملامح العروبة في شعر شعرائها، قيل فيها الشيء الكثير عن سماتها وطبيعتها السياسية والاجتماعية، وتطرف المؤرخون في تحليل اتجاهاتها السياسية وبداياتها، وحاول بعض هؤلاء أن يصور الأمر بعد انتهاء عهد بني أمية، وما يحمل من سمات عربية أصيلة، بأن الانقلاب العباسي بداية عهد للأجناس غير العربية ونهاية عهد العرب. ويحاول هؤلاء المتطرفون في تفسير التاريخ أن يصوروا الانقلاب العباسي وكأنه ثورة الموالي من الفرس ضد الحكام العرب وأمة العرب.

ولعل الدكتور فاروق عمر فوزي أكثر المؤرخين المحدثين نجاحا في إلقاء أضواء جديدة على الدعوة العباسية، معتمدا نصوصا ومصادر موثقة تؤكد دور العرب في هذه

الدعوة. فقد كانت القبائل العربية المستوطنة في خراسان عاملا مهما من عوامل النصر. والنقباء الإثنا عشر كان أكثرهم عربا، كما تشير ألقابهم. كما كان انتظام عدد كبير من قبائل العرب في الحركة العباسية من أسباب الانتشار والصمود والنصر[1]. ويبدو للباحث أن الدور الاسطوري لأبي مسلم الخراساني الذي احتوى على مبالغات مقصودة قد دفعت بعض المؤرخين القدامى والمحدثين إلى الاعتقاد بخراسانية الدعوة، كما اعتمد هؤلاء على نصوص ومكاتبات مفسرين مضمونها بمعزل عن واقع الظروف وطبيعة الدعوة وتوفير أسباب النجاح لها.

وهذا التفسير الذي نحاول فيه تنفي الهيمنة الخراسانية على الدعوة العباسية، أو نؤكد عدم وجودها بالشكل الذي وضعت فيه مع مبالغة وقصد وسوء تفسير، يجب أن لا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الفرس لا دور لهم في الانقلاب العباسي. وقد بدا هذا الدور أكثر وضوحا بعد النجاح واستقرار الحكم، فالعناصر الفارسية، المسلمة وغير المسلمة، وجدت الفرص واسعة في التعبير عن أحقادها وكراهيتها للحكم العربي، وقد عبر الشعر عن هذه الأحقاد والكراهية منذ بدء انتصار بني العباس.

ويبدو لنا أن الشاعر والأمير العربي نصر بن سيار كان يستشرف المستقبل وهو يحذر العرب من الدعوة العباسية ورجالها. ومع ذلك يجب أن لا يغفل الباحث أن شعر نصر بن سيار لا يخلو من مبالغة ودعاوى سياسية ضد الحركة العباسية كما في قوله:

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها	أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم	كأنَّ أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم	ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم	ولا صميم الموالي إن هم نسبوا
قوما يدينون دينا ما سمعت به	عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تقتل العرب[2]

والأمير العربي نصر بن سيار يستنهض الهمم العربية والمشاعر الإنسانية، ويوجه

(١) فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي (بيروت: ١٩٧٧)، ص ٣٥، ٤٣، ٤٥، ٤٨.

(٢) نصر بن سيار، ديوان نصر بن سيار، تحقيق عبد الله الخطيب (بغداد: ١٩٧٢)، ص ٢٨، وانظر: ص ٣٠ وما بعدها.

دعوته إلى القبائل العربية، ومنها من تعاون مع الدعوة العباسية، لذلك فهو يشوه فكر الدعوة ورجالها وينسب إليها كل قبيح بحكم كونه رجل سياسة ينتمي إلى عهد ارتبط به إيمانا ومصيرا. إلا أن هذه المشاعر تعبر عن قلق عميق وحزن ومرارة وإيمان بالمجد العربي الذي يتصوره الأمير العربي معرضا للانهيار.

والحقيقة التي يجب أن لا تغيب عنا أن الحكم العباسي لم يكن حكما عربيا خالصا، فهو يختلف عن حكم بني أمية ونظريته السياسية لها مبررات جديدة ذات طابع إسلامي. والحكم في رجاله ومؤسساته منذ بدايته اعتمد عناصر أخرى مع العرب، وهذا يعني أن الصوت غير العربي أصبح مسموعا، له صداه في الشعر والأدب والثقافة عموما. إلا أن هذا الأمر ليس جديدا. فصوت الشعوبية كان موجودا في عصر بني أمية والشاعر الشعوبي إسماعيل بن يسار وصف بأنه شديد التعصب على العرب، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم، أنشد بعضه في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك، وعوقب على ذلك عقابا شديدا[٣].

وشهد العصر العباسي بعد ذلك مظاهر الصراع في المجتمع العربي الإسلامي، وخاصة في القرنين الثالث والرابع. فكانت المعركة بين العرب والشعوبية وبين الإسلام، الذي هو روح العروبة وأساس بنائها، وبين الزندقة والحركات الملحدة الأخرى التي قادتها الشعوب غير العربية، وعلى رأسها الفرس، كالحركات الخرمية والمزدكية وما إلى ذلك، وقد تطورت الحركات المناهضة للعروبة والإسلام لتأخذ مظاهر اجتماعية وعسكرية هدفها تحطيم المجتمع العربي الإسلامي ووجود الأمة العربية[٤].

وقد وجد شعراء الشعوبية الفرصة سانحة للتحريض والانتقام من رجال بني أمية، مثيرين مشاعر قادة بني العباس، مستغلين الدوافع الدينية والسياسية، فالشاعر المولى سديف يدخل على الخليفة أبي العباس السفاح، وبنو أمية أو بقاياهم في مجلسه ويتحول شعر التهنئة إلى تحريض على قتلهم. وكانت أبياته تنبض بالحقد واللؤم، فهو يقول:

---

(٣) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري (القاهرة: ١٩٧٠)، أنظر ص ٤٠٤ وما بعدها.

(٤) انظر مقالة الدكتور عبد العزيز الدوري عن «الجذور التاريخية للاشتراكية العربية»، في دور الأدب في معركة التحرير والبناء، القسم الثاني: وقائع مؤتمر الأدباء العرب الخامس (بغداد مطبعة العاني: ، ١٩٦٥) ص ٢٣٧ ـ ٢٤٦.

لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس
إقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس

وتتطاير رؤوس القادة العرب أبناء عمومة بني العباس على يد الجنود الخراسانية، وتقع مذابح أخرى، كما يروي التاريخ، يشارك في التحريض عليها شعراء شعوبيون استغلوا بداية الانتصار العباسي ومظاهر مشاركة الفرس في ترصينه(٥).

ويدخل شعراء الشعوبية الحاقدون على أمة العرب ومجدها ووجودها ميادين أخرى للتطاول على العرب ودولتهم، تبدأ بشعوبية الشاعر الماجن بشار بن برد ودعوته الفرس إلى نبذ الولاء للعرب، ثم أبي نواس وتهتكه وسخريته من العرب وتقاليدهم. وتتسع دائرة الحقد لتشمل الافتخار بالمجد الفارسي القديم، كما في شعر الخريمي وإبراهيم بن اسحاق وأبي القاسم الزعفراني. ثم يشهد القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس للهجرة شاعرا شعوبيا استغل الدين والتشيع في الهجوم على العرب وأمجادهم مفتخرا بآل ساسان حالما بعودة دولتهم(٦).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا العرض السريع من مظاهر شعر الشعوبية يجب أن لا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ملامح العروبة في شعر العصر العباسي كانت رد فعل لهذه الأصوات المنكرة التي ارتفعت هنا وهناك تعبر عن أحقادها ولؤمها. وهؤلاء الشعراء الشعوبيون، ابتداء ببشار، قد كتبوا شعرهم بلغة العرب، واستلهموا التراث الفني للقصيدة العربية شكلا ومحتوى، وهم بعد ذلك ـ في ظل دولة خلفاؤها من صميم العروبة وكثير من قادتها الأبطال من قبائل عربية عريقة ـ يعتزون بنسبهم وتاريخهم وشمائلهم ودفاعهم عن قيم العروبة والإسلام، وبشار الشاعر الشعوبي لا يستطيع أن يمدح القائد العربي إلا بما يرضيه ويؤكد عروبته. ومطيع بن أياس لا بد أن يدعو القائد معن بن زائدة بسيد العرب وفتى نزار وأبي العفاة الذي يلوذ به الناس(٧). وكذلك يفعل أبو نواس وغيره في مدح الخلفاء والقادة العرب.

---

(٥) محمد نبيه حجاب. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦١) ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

(٦) عصام عبد علي، مهيار الديلمي حياته وشعره (بغداد: ١٩٧٦)، فصل الشعوبية في شعر مهيار ص ٢٧٣ ـ ٢٩٤.

(٧) حسين علوان، الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية (بيروت: ١٩٧٤)، ص ١١٨، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٧ وما بعدها.

وقصيدة المديح في العصر العباسي بشكلها ومحتواها تعطي صورة واضحة لمظاهر العروبة ومعانيها في الشعر. ولم يستطع شعراء العصر العباسي، رغم مظاهر الحياة الجديدة ومكوناتها المتعددة، أن يمسوا التقاليد المتوارثة لها، برغم ادعاء أبي نواس ونورته غير الجادة على التقاليد الفنية لقصيدة المديح، وسخريته من الرحلة والبكاء على الأطلال. فهي منذ بدء العصر العباسي ترسم الصورة المثالية للإنسان العربي البطل والقائد والحاكم، على نحو ما اعتقد به العرب منذ جاهليتهم، ووفق ما ألهمهم الدين الإسلامي من قيم ومثل تهذب النفس وتبني الذات العربية بناء خلقيا واجتماعيا. وبقيت معاني المروءة والسماحة والصبر والعفة والكرم والشجاعة ونكران الذات، وما إلى ذلك من الخصال والشيم الرفيعة التي يعتز بها العرب ويتداولها الشعراء. فكأن المديح يحمل للأمة العربية وأفرادها تربية خلقية قوية وإطاراً لبناء الإنسان من خلال قيم العروبة وروح الدين ومبادئه[8].

ولم تقف قصيدة المديح والرثاء والفخر عند الجوانب التقليدية، وإنما كانت سجلا حافلا لأمجاد الخلفاء والقادة العرب وهم يخوضون المعارك مع أعداء العروبة من بيزنطيين وترك ومتمردين آخرين على الخلافة، في شرقي الدولة العربية وغربها. فالشاعر العربي وهو يرسم صورة البطل والقائد للخليفة وغيره، يعبر عن تعلق عميق بقيم العروبة وبدولة العروبة والإسلام وبأرضها وشرفها.

والصورة التي يرسمها الشعراء الأوائل في بدء العصر العباسي يبدو فيها الخليفة الأنموذج الذي تلتقي وتتوضح في شخصه السجايا العربية من كرم وشجاعة وبأس وعفة، وتتداخل معاني العروبة والإسلام، وتتسع بعد ذلك لتشمل حماية الأمة والدفاع عن كرامتها وأرضها. أما تأكيد النسب العربي للخليفة فهو ظاهرة قائمة تستحق الإهتمام ، فهو ليس صورة ترضي الخليفة بالمعنى القبلي أو ترضي الشعراء فحسب، وإنما ترضي وجدان الأمة التي يقودها بطل عربي له أمجاده ونسبه العربي العريق[9]. فأبو جعفر المنصور عند الشعراء ابن البيت العربي المؤثل، والخليفة الهادي من قريش يعوذ به المسلمون أيام الخوف والرجاء، والخليفة الرشيد له مكانة الانتماء المجيد إلى بيت من أبنائه النبي العربي الكريم، وفيه يقول الشاعر:

---

(٨) شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١) ، ص ٥٩ ـ ٦٠ وما بعدها .

(٩) تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم (القاهرة : ١٩٧٦) ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

ذلك الفارس الكريم الذي يلوذ به الناس في أيام السلم، ولا يقترب من الترف والحياة اللاهية، فحياته في السلم والحرب حياة الجندي العربي المتأهب للقتال:

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده ... يرمي الفوارس والأبطال بالشعل
موف على مهج واليوم ذو وهج ... كأنه أجلٌ يسعى إلى أمل
لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ... كالبيت يفضي إليه ملتقى السبل
تراه في الأمن في درع مضاعفة ... لا يأمن الدهر أن يدعي على عجل
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ... ولا يمسح عينيه من الكحل[١٦]

والشاعر العربي قادر على وضع الإطار القومي لأية فضيلة عربية أو أمجاد حربية بدأت بالقبيلة. وعندما يجد في مدح قائد عربي من حمير ما يحقق ذلك يتحول المجد إلى مكارم عربية ذات بعد قومي. وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد في مدح قائد عربي من حمير.

كانوا الملوك بني الملوك وراثة ... وجبى اليهم خرجه سابور[١٧]

ويأتي الجيل الثاني من شعراء العصر العباسي وفي مقدمتهم أبو تمام والبحتري، والعصر عصر المعتصم الخليفة العربي الفارس، والقادة العرب يحققون الانتصارات على حدود الدولة العربية الإسلامية ويتعاملون مع فتن واضطرابات مخربة تستهدف الدين الإسلامي والعروبة والوجود العربي، وعلى رأس هذه الفتن فتنة بابك الحرمي التي امتدت عشرين عاماً، وكانت أخطر حركة دينية في المظهر سياسية في الغاية والأهداف، وهي استمرار للحركات التي تهدف إلى ضرب السلطان العربي. ويبدو أن هذه الحركة كانت على صلة بالروم لتحطيم سلطة الدولة العربية. وكانت هناك أخرى فارسية يقودها المازيار ترمي إلى التخلص من سلطان العرب، كما شهدت هذه الحقبة تحرش البيزنطيين الدائم بالثغور العربية[١٨].

وأبو تمام، مؤرخ هذه المرحلة، يعبر في شعره عن إحساس عربي أصيل وايمان عميق بالدين الإسلامي وتتداخل وتتكامل في قصائده معاني العروبة والفرسان العرب في

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٧-١١.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.
(١٨) عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول** (بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، ١٩٤٥)، ص ٢٣٠ - ٢٣٩ وص ٢٤١، ٢٤٢ وما بعدها.

هذه المعارك وأمجادهم، وقائدهم الخليفة المعتصم. والشاعر علي بن الجهم يشارك أبا تمام في هذه المشاعر، فهو في مدائحه للخليفة المعتصم يعبر عن تقدير الأمة العربية لبطولة القائد وعظمته وحفاظه على حرمة الأرض العربية وسحق الغادرين الذين يريدون بها شراً. كما يشير إلى أمجاده في معركة عمورية والقضاء على الفتنة الفارسية التي قادها بابك الحرمي، ولا ينسى الإشارة إلى شمائل وخصال الخليفة العربي ونسبه العريق لتكتمل صورة البطولة العربية[١٩].

وفتح عمورية في قصيدة أبي تمام ملحمة من ملاحم البطولة العربية. فالتاريخ فيها شعر والشعر تاريخ بصياغة فنية عالية، وصورة المعركة تستوعب دنيا المعتصم وحياته، وهو يلبي صوت المرأة العربية التي تصرخ (وامعتصماه) فتهز أرض العرب وتهدر جيوش وتسقط تنبؤات أهل التنجيم، «والسيف أصدق أنباء من الكتب». والقائد العربي على رأس الجيش المحرر للأرض، والفتح العظيم حقيقة كما يقول أبو تمام ويعجز الشعر أن يحتوي عظمته:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب[٢٠]

وتأتي صور المعركة متتالية متلاحقة وشجاعة العرب ومنعة الحصون وقدرة وصمود المدافعين وفروسية وبأس وشجاعة العرب صور النخوة العربية، وتختلط المشاعر الإسلامية الصادقة بصور العروبة وأمجادها والبطولة النادرة للقائد العربي:

أبقيت جِد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودور الشرك في صبب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب
لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب

والخليفة المعتصم لم يسع من أجل الخلافة فحسب، وإنما من أجل الدين والشرف والعروبة:

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جسر من التعب

---

(١٩) ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم (بيروت: لجنة التراث العربي، د. ت)، ص ٢٢٣ وانظر القصيدة كاملة ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

(٢٠) انظر القصيدة في: ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام (القاهرة: ١٩٧٢)، ج ١، ص ٤٠ ـ ٧٤.

ملك أبوه وأمه من نبعة فيها سراج الأمة الوهاج
شربا بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج[10]

وتأخذ صورة البطولة العربية، من خلال الخليفة والقائد، أبعاداً أخرى ترتبط بالأرض والدفاع عنها وحماية ثغور العروبة والإسلام، ويبدو أثر المعارك الأولى التي خاضها العرب مع الروم واضحاً، ولا يخفي ملك الروم ذلك في رسالته إلى هارون الرشيد، فالمعركة ذات بعد قومي وهارون الرشيد ملك العرب أولاً، وعندما يحقق الخليفة إنتصاراً كبيراً على الأعداء يحتفل الشعراء به إحتفالاً كبيراً، ويأخذ الحدث مكانه مؤرخاً بالشعر. فهارون الرشيد في نظر الأمة، وكما يصوره الشعر، إمام شغل بالدين والدنيا والغزو والحج. وعندما يتحقق تحرير الأرض وبتوغل سرايا الجيش فى أرض الروم تبدو صورة الخليفة في الشعر رجل إيمان وجهاد ·

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور[11]

وتصبح قضية حماية الثغور من الأمجاد القومية التي تسجل للخليفة ، كما يقول مروان بن أبي حفصة في احد مدائحه لهارون الرشيد :

وسدت بهارون الثغور واحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لواؤه له عَسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قصراً عن يد وهو صاغر
حصون بني العباس في كل مأزق صدور العوالي والسيوف البواتر[12]

وكان آل مزيد من الأسر العربية الكريمة التي خلدها التاريخ والشعر من خلال أبطالها. وهؤلاء من القبيلة العربية (بنو شيبان) التي لها التاريخ العريق في الشجاعة والدفاع عن أرض العرب. وقد وجد الشعر في القادة من بني شيبان صوراً من صور البطولة العربية وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة،فيهم الشمم والبأس والندى والروح العربية العالية. وأكد الشعراء عروبتهم نسباً وفعلاً فكانت المدائح التي قيلت فيهم وثائق دامغة تفصح عن دور القادة العرب ودور العرب أمة وقادة وجنوداً، في حماية الدولة العربية الإسلامية والوقوف بوجه المتربصين بأرضها وثغورها.

---

(١٠) قحطان رشيد التميمي ، مروان بن ابي حفصة وشعره (النجف : ١٩٦٦) ، ص ١٠١ وما بعدها .

(١١) تاريخ الطبري ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ .

(١٢) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٤٨ .

وتبدو صورة البطل من خلال المدائح التي قيلت في هؤلاء القادة عربية ناصعة فالشاعر يعتمد الصورة المثالية التي يعتز بها العربي، وهي تعتمد عناصر عربية، تمتد إلى الصحراء وحياة البادية وعصر الجاهلية مهذبة معطرة بروح الإسلام وقيمه. وحين تتداخل في الصورة عناصر غريبة فأن هذه العناصر تبدو في مجرى التراث العربي العريق للاخلاق والبطولة. فالقائد الميمون والذائد عن الحمى معن بن زائدة، أحد قادة الرشيد، يصوره الشاعر مروان بن أبي حفصة في قوله: ـ

له راحتان الحتف والغيث فيهما ... أبى الله إلا أن تضر وتنفعا
لقد دوخ الأعداء معن فاصبحوا ... وامنعهم لا يدفع الذل مدفعا
نجيب منا جيب وسيد سادة ... ذرى المجد من فرعي نزار تفرعاً(١٣)

ومن السيوف العربية التي سلها الخلفاء العباسيون الأوائل البطل العربي يزيد بن مزيد الشيباني، الذي كان له دوره في الدفاع عن أرض العروبة وسحق أعدائها، وقد خلده الشعر وأشاد بشجاعته وعروبته وشمائله الكريمة، فهو أكرم الناس من عجم ومن عرب وهو ضرغامة العرب، مثل في حياته صورة الفارس العربي الكريم، وفيه يقول الشاعر مسلم بن الوليد: ـ

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب ... بعد الخليفة يا ضرغامة العرب
افنيت مالك تعطيه وتنهبه ... يا آفة الفضة البيضاء والذهب
إن السنان وحد السيف أن نطقا ... لا خبرا عنك في الهيجاء بالعجب(١٤)

ومسلم بن الوليد لا يكتفي باضفاء هذه الامجاد على القائد العربي يزيد بن مزيد، فهذا السيف العربي بيد الخليفة العربي هو عز الخلافة، فهو يقول:

إذا الخلافة عدت كنت أنت لها ... عزا وكان بنو العباس حكاما(١٥)

والقائد العربي على أهبة الاستعداد للحرب والدفاع عن أرض العرب، فهو ينتظر إشارة الخليفة لقيادة الجيوش.وإنتصاراته على الروم تاريخ من المفاخر مجيد، وهو في حياته

(١٣) رشيد مروان بن ابي حفصة، ص ٢٤٦ .
(١٤) ديوان مسلم بن الوليد، تحقيق الدكتور سامي الدهان، الطبعة ٢ (القاهرة: ١٩٧٠)، ص ٣٠٢ .
(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٢ .

وتأخذ المعركة بعداً قومياً عبر التاريخ العربي لترتبط بأيام انتصار العرب الذين أعزهم الإسلام في معركة بدر، ثم ينتقل الشاعر ليسجل طبيعة الصراع القومي بين العرب والروم ويصف هذه المعركة يوم انتصار حاسم للعروبة والإسلام على أعدائها فيقول:

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقيت بني الأصفر الممراض كأسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

والشاعر أبو تمام الذي يسع قلبه أرض العرب حباً وحنيناً كما يقول:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقتين وبالفسطاط إخواني

هذا الشاعر العربي عاشق للبطولات العربية يرى فيها عز العرب ومجدهم القديم والجديد، ويتعامل مع التاريخ تعامل العربي الصميم في صياغة البعد التاريخي للأمجاد العربية. فالخليفة المعتصم لا تكتمل هالة المجد التي تحيطه وهو فتى بني العباس، إلا إذا أحاطت به أنجم يعرب ونزار المعروفة بشرفها وسيادتها ونسبها الكريم عمومة وخؤولة[21]. وأبو دلف العجلي وانتصاراته على بابك الخرمي يسجلها الشاعر في وثائق من الشعر ذات فن جمالي عال[22]. وأمجاد هذا القائد الحربية وكرمه وفروسيته خلدها أبو تمام في قصائده، ورأى في صياغة أمجاد قبيلة الممدوح شعراً أمجاد العروبة كلها:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب[23]

فأبو تمام يرى أمجاد القبائل العربية ومفاخرها وشجاعتها متكاملة، فهي أمجاد العرب في مقاومة الأجنبي والدفاع عن كرامة العرب وعزهم، وتتكرر صور الانتصارات العربية القديمة لترتبط بالأمجاد الحربية للقادة العرب. وفي مدح أبي تمام للقائد العربي خالد بن يزيد بن مزيد يرسم الشاعر صورة البطل العربي بفروسيته وشجاعته وهو يقاتل الروم، وينتقل إلى المجد التاريخي للقائد وقبيلته ليخرجه من الإطار القبلي إلى الإطار القومي. فهو يقول في مدح بني شيبان قبيلة القائد:

---

(٢١) ديوان ابي تمام ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .
(٢٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .
(٢٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٩٨ .

فمـا دب إلا في جيوشهم النـدى ... ولم تربُ إلا في حجورهم الحرب
أولاك بنو الأحساب لـولا فعالهم ... درجن فلم يـوجـد لمكـرم عـقب
لهم يوم ذي قار مضى وهـو مفـرد ... وحيد من الأشبـاه ليس لـه صحب
بـه عـرفت صهب الأعـاجم أنـه ... به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفصل الذي مـا نجابه ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب(٢٤)

وقائمة القادة العرب الأبطال في شعر أبي تمام طويلة، فيها صورة رائعة للبطولة والشمائل العربية، فقائد الثغور والمدافع عنها أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري من القادة الأماجد الذين خلدهم أبو تمام في شعره. وقد أغفل التاريخ دور هذا القائد الذي قاد غزوة إلى القسطنطينية وبلغ أسوارها. ووصف أبو تمام هذا الانتصار في قوله:

لـولا جـلاد أبي سعيـد لم يـزل ... للثغـر صـدر مـا عليـه صـدار
قـدت الجيـاد كـأنهـن أجـادل ... بـقـرى درولـيـة لـهـا أوكـار
حتى التوى من نقع قسطلها على ... حيـطان قسـطنـطيـنـة الأعـصـار
أوقـدت من دون الخليـج لأهلهـا ... نـارا لهـا خلف الـخليـج شـرار
الا تكن حصـرت فقـد أضحى لهـا ... من خـوف قـارعـة الـطريق حصـار
لـو طاوعتـك الخيـل لم تقفـل بهـا ... والقفـل فيـه شبـاولا مسمـار(٢٥)

ويحتفل أبو تمام بقائد عربي آخر يوحد جهود العرب المقاتلين في معارك الدفاع عن الدولة العربية الإسلامية، وهذا القائد هو أبو عبد الله حفص بن عمر الازدي، إذ يسجل الشاعر أمجاده ويشير إلى فتنة خراسان التي استهدفت الإسلام والخلافة ورام الأعداء فيها دم الإسلام، ثم يذكر دور القائد العربي في توحيد القوى العربية لدحر الأعداء فيقول:

ضممت إلى قحـطان عـدنـان كلهـا ... ولم يجـدوا أذ ذاك من ذاك من بد
فـاضحت بـك الأحيـاء أجمـع الفـة ... كما أحكمت في النظم واسطة العقد
ولمـا امـاتت أنجم العـرب الـدجى ... سرت وهي أتباع لكوكبك السعد(٢٦)

---

(٢٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٧٧ ـ ١٩٧.
(٢٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٧١، ١٧٢؛ وانظر: الدكتور زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٧)، ص ١٦٤، ١٧٢.
(٢٦) ديوان ابي تمام، ج٢، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

ويأتي دور الشاعر البحتري قبل بدء التدهور السياسي، وينهج الشاعر نهج أستاذه أبو تمام في الدفاع عن العروبة ومعانيها وقيمها ورجالها، ويبحث عن نماذجها في القادة والرجال، معبراً عن مشاعره الأصيلة الصادقة. ويؤكد الشاعر عروبته في فخره معرفاً بنفسه وقومه فهو يقول:

أن قومي قوم الشريف قديما ... وحديثا أبوة وجدودا
نحن أبناء يعرب أعرب الناس ... لسانا وانضر الناس عودا
وكأن الاله قال لنا في ... الحرب كونوا حجارة أو حديدا(٢٧)

ويتابع الشاعر البحتري انتصارات القائد أبي سعيد الثغري، ويرى فيها مجداً عربياً شامخاً كما يسجل أمجاد القبائل العربية التي شاركت في الدفاع عن أرض العروبة، ويرسم صورة رائعة للبطل العربي فيقول في مدح الثغري:

بذ الملوك تكرما وتفضلا ... وأحان من نجم الصباح طلوعا
مستيقظ الأحشاء أصبح للعدى ... حتفا يبيد وللعفاة ربيعا
متتابع السراء والضراء لم ... يخلق هيوبا للخطوب هلوعا
تلقاه يقطر سيفه وسنانه ... وبنان راحته ندى ونجيعا

وينتقل الشاعر إلى أمجاد قبيلة القائد ويشير إلى انتصاراته فيقول:

لله درك يوم بابك فارسا ... بطلا لأبواب الحتوف قروعا
لما أتاك يقود جيشاً أرعنا ... يمشي إليه كثافة وجموعا
وزعتهم بين الأسنة والضبا ... حتى أبذت جموعهم توزيعا

ويشير إلى انتصاراته على الروم في قوله:

لما رميت الروم منه بقمرٍ ... تعطي الفوارس جريها المرفوعا
كنت السبيل إلى الردى إن كنت في ... قبض النفوس إلى الحمام شفيعا(٢٨)

وفي مديح البحتري للمتوكل يشير إلى نسبه العريق كجزء من الصورة التي يجب أن ترتسم للخليفة، فهو يقول:

---

(٢٧) ديوان البحتري (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٢) ، ج٢ ، ص٦٣ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩١ - ٢٩٤ .

يا ابن الاباطح من أرض أباطحها   في ذروة المجد أعلى من روابيها
ما ضيع الله من بدو ومن حضر   رعية أنت بالإحسان راعيها[٢٩]

وتبدو عواطف البحتري العربية وهو يسجل مفخرة من مفاخر الخليفة المتوكل، وهي عفوه عن القبائل العربية المتمردة، ويحاول أن يثير لدى الخليفة حميته وروحه العربية ويذكره بأن أبناء هذه القبائل هم رجاله نسباً ونصيراً، فهو يقول:

جاءتك أسرى في الحديد أذلة   مجموعة الأيدي إلى الأذقان
فافكك جوامعهم بمنك أنها   سمرت على أيدي ندى وطعان
لك في بني غنم بن تغلب نعمة   فهلم أخرى في بني شيبان
أعمام فتلة وهي امكم التي   شرفت وأخوة عامر الضحيان[٣٠]

والبحتري يشعر بالحزن والأسى للصراع بين القبائل العربية ويشكر الوزير الفتح بن خاقان، ويشيد بدوره في الصلح بين هذه القبائل وعفو المتوكل عنهم بوساطته، ويشكره باسم العرب على حسن صنيعه، ويقول في ذلك:

إن العرب انقادت إليك قلوبها   فقد جئت احساناً إلى كل يعرب
شكرتك عن قومي وقومك إنني   لسانهما في كل شرق ومغرب[٣١]

والبحتري باحساسه العربي يشعر بالحزن والقلق عندما يغادر قائد عربي كبير موقعه العربي ويحذر من مغبة ذلك ويذكر بامجاده والفراغ الذي يتركه، فالظلام بعد رحيله يخيم على الجزيرة والشام، ويجف الفرات بعد أن كان بحراً زاهراً ويستعيد أمجاده في حرب بابك وحروب الروم، وينسب إلى القائد مكرمة القضاء على بابك وجلبه أسيراً إلى سامراء[٣٢] ويرتفع صوت الشاعر عالياً معلناً حزنه على القائد العربي الذي سلم إلى أحد كتاب المتوكل لتعذيبه، فهو يقول:

يا ضيعة الدنيا وضيعه أهلها   والمسلمين وضيعة الإسلام
نامت بنو العباس عنه ولم   تكن عنه أمية لوعت بنيام[٣٣]

(٢٩) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٦.
(٣٠) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٠.
(٣١) المصدر نفسه، ج١، ص ٨٩.
(٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٨٣.
(٣٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨١.

ويقتل المتوكل الذي ضاق باستفحال أمر الحكام الأجانب من الأتراك، وحاول أن ينقل مقر حكمه إلى محل آخر يخلص فيه من نفوذهم ويكون فيه عنصر يؤيده هو العنصر العربي، ويتوجه إلى دمشق ولكن الأتراك أجبروه على الرجوع. ويعود الخليفة إلى بغداد ليلاقي حتفه في مدينة الجعفرية على يد الأتراك، ويقتل معه وزيره الفتح بن خاقان، وتبدأ مرحلة بلاء على الخلافة وأعلان زوال حرمتها[٣٤].

ويحزن الشاعر البحتري على الخليفة المتوكل ويتمنى لو كان قادراً على الدفاع عن رمز الأمة وخليفة المسلمين ويعرض بالجنود الذين لم يقاتلوا دفاعاً عن قائدهم، ويدين من عمل على ذلك، ويشعر بالألم العميق لأن القائد العربي طاهر بن عبد الله بعيد في خراسان ليكون إلى جنب الخليفة في أيام محنته ويصد عدوان الأتراك[٣٥]. ويحزن الشاعر علي بن الجهم وهو يرى هذا التجاوز على الخلافة فيقول:

فيا لجنود ضيعتها ملوكها	وبالملوك ضيعتها جنودها
أيقتل في دار الخلافة جعفر	على فرقه صبرا وأنتم شهودها
فلا طالب للثأر من بعد موته	ولا دافع عن نفسه من يريدها[٣٦]

ويمتد جور الأتراك، ويصبح الخليفة لعبة بأيدي رجالهم فيتجاوزون عليه سملا وخلعاً وقتلاً، فهو ضعيف طارىء يغادر وقت يريدون ذلك كما يقول الشاعر:

لله در عصابة تركية	ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد	وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسماً	وامامنا فيه شبيه السيف[٣٧]

ويحزن الشعراء للفوضى الضاربة ويتمنون زوال حكم الغرباء:

أصبح الترك مالكي الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع
ونرى الله فيهم مالك الأمر سيجزيهم بقتل ذريع

---

(٣٤) عبد العزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : مطبعة السريان ، ١٩٤٥) ، ص ٤٦ وما بعدها .

(٣٥) ديوان البحتري ، ج١ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(٣٦) ديوان علي بن الجهم ، ص ٦١ .

(٣٧) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، المجلد الأول ، الطبعة ٣ (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٤) ص ٢١ .

ويقول آخر:

أيها الترك ما تلقون للدهر سيوفاً لا تستل الجريحا
فاستعدوا للسيف عاقبة الأمر فقد جئتم فعالاً قبيحاً(٣٨)

وتبدأ مرحلة الحكم البويهي والدولة العربية تشهد الانقسام والتمزق والانحسار على صعيد الخلافة، التي فقدت قدرتها في التعبير عن وحدة الأمة العربية وسيادتها. حيث سيطرت العناصر الأعجمية عليها. وكان بدء التسلط البويهي على بغداد صورة من صور وحشية الأجنبي المنتصر، إذ امتدت وحشيته وشمل عدوانه الخلافة ومؤسساتها وأبناء البلد وكرامتهم. ويعبر الشاعر ابن نباته بألم وسخرية عن سوء الحال وهو يصور وحشية الجنود الديالمة ينهبون ويعبثون، فيقول:

أأعذر قومي والرماح تلوم ... وذاك خطب في الزمان عظيم
دعوت بني ساسان غير مدافع ... إلى نهب مالي والكريم كريم
وما ذاك من حب لهم غير أنني ... أريهم على البغضاء كيف أقيم(٣٩)

وابن نباته لا ينسى، وهو في لحظات الحزن والغضب، أن يذكّر بأيام الذل التي نزلت بالفرس أيام انتصارات العرب عليهم، ثم يحلم بأبطال من فرسان العرب لمحو العار وإزالة الغمة التي أرهقت أهل بغداد والأمة العربية.

ولا بد أن نؤكد هنا أن هذه الموجه العاتية الوافدة على الأرض العربية لم تستطع اكتساح الوجود العربي وتهديم معاقل العروبة، فالتاريخ يحدثنا عن الحصون والمعاقل العربية الشامخة المتمثلة بالامارات العربية على أرض العراق والشام والجزيرة، حيث القادة العرب بشممهم وعزهم وقيمهم البدوية وثقلهم السياسي، كإمارة سيف الدولة وبني عقيل وبني مزيد وقبائل شعبان وخفاجة. وكان سيف الدولة في هذه الحقبة صورة للبطل العربي المنقذ والأمل الذي يلجأ إليه العرب، ويرون فيه حمى العروبة والمجد كما يصوره الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي فارس الميدان الشعري في التعبير عن العروبة والوجود العربي وتحدي الغزاة الأجانب من روم وفرس وديالمة يشاركه شاعران آخران هما ابن نباته السعدي والشريف الرضي.

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٣٩) انظر ديوان ابن نباته السعدي، تحقيق عبد الامير مهدي الطائي (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٧)، ج١، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

وأبو الطيب المتنبي عبر في شعره عن احساس عميق وحزين بتدهور العصر وسقوط القيم، وانتهى إلى أدانة البنية الإجتماعية والسياسية للمجتمع، وانتقل يبحث عن بطل عربي منقذ تتحقق على يديه الآمال وتلجأ إليه العروبة في محنتها. ووجد سيف الدولة فارس بني حمدان يحقق الغاية وينعش الأمل. وكان شعر المتنبي يتدفق عروبة وشمما وحزناً وثورة في غزله ورثائه ومدحه وفخره، ويؤكد الشاعر عروبته وهو فخور معتز بهذا الانتماء رغم تفرده وتميزه واعتزازه بشخصيته فيقول:

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

وترتبط قضية الأحساس بالغربة باحساسه بالعروبة كما في قوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوز الجاني وغوث الطريد
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود(٤٠)

وادانة الشاعر المتنبي المجتمع وحكامه تنطلق من إحساس عربي أصيل وإيمان بالعروبة، فهو يقرر بإحساسه السياسي أن الأمة العربية لن تجد الفلاح والخير وأمرها بيد الأجنبي وحكامها أجانب من أتراك وديالمة وفرس، فهو يقول:

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا آداب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم(٤١)

ويقرر الشاعر الانفصال عن هذا الواقع الأليم والتمرد عليه ورفض القيم التي تسود حياته. فهؤلاء الملوك الذين يحكمون لا يمتلكون صفات الفروسية والمجد فهم ليسوا عرباً، ويدينهم مرة أخرى فيقول:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

---

(٤٠) انظر : ديوان المتنبي ، شرح البرقوقي ، الطبعة ٢ (القاهرة : مطبعة الاستقامة ، ١٩٣٨) ، ج٢ ، ص٥٢ - ٥٤ .
(٤١) ديوان المتنبي ، ج٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

بـأجســام يـحّــر القتــل فيـهــا   ومــا أقــرانـهــا إلا الــطعــام[٤٢]

وحزن الشاعر عميق على ما أصاب عصره من تناقض في القيم وضياع لمعاني الرجولة والأخلاق، فهو يعيش تناقض الإنسان العربي وصراعه بين مبدئية عالية وشمم وإباء وبين ظروف قائمة تنال من هذا الإيمان بالمبادىء وتحاول أن تتجاوز على شممه وصلابته وتدفعه إلى درك النفاق في ظلم حكم الأجنبي فهو يقول:

أذم إلــى هــذا الــزمــان أهـيلـه   فـأعلمهـم فـدم وأحـزمهـم وغـد
وأكــرمهـم كـلب وأبصــرهــم عــم   وأسهــر هم فـهـد وأشجعهم قــرد
ومن نكد الدنيـا على الحرأن يـرى   عـدواً لـه مـا من صـداقتـه بـد[٤٣]

وهذا الرفض للواقع والمجتمع وقادته وبنيته يقود الشاعر إلى البحث عن مهرب وخلاص، فالمدينة مدانة، والصحراء والبادية فيهما الملجأ والأمل والرجال، ويجد الخلاص هناك حلماً أو حقيقة حيث النبع والأصالة والرجال، كما يقوده الرفض إلى البحث عن القائد الأمثل فيجده في سيف الدولة ويعبر الشاعر عن تمرده وعزمه على الثورة في قوله:

ســأطلب حقي بــالقنــا ومشــايـخ   كـأنهم من طـول مـا التثمـوا مــرد
ثقــال إذا لاقـوا خفــاف إذا دعـوا   كثيـر إذا شدوا قليـل إذا عـدوا[٤٤]

فرجاله من الفرسان العرب محنكون شجعان لا يعرفون التردد، والموت في فمهم شهد كما يقول الشاعر:

إذا شئت حفت بي على كل سابـح   رجـال كأن المـوت في فمهم شهد

وعلاقة المتنبي بالبطل العربي سيف الدولة علاقة حب واعجاب بمثل نادر للبطولة العربية في حقبة افتقدت فيها معاني البطولة ورجالها فيجد الشاعر في انتصاراته نصراً للأمة كما تجد الأمة في ظله شيئاً من العز والأمن والكرامة كما يقول الشاعر:

لـيس ألاك يـا عـلي هـمـام   سـيفـه دون عـرضـه مـسـلول
كيف لا يـأمن الـعـراق ومصـر   وسـرايـاك دونـهـا والـخـيـول

---

(٤٢) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٤٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٩ .
(٤٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٠٢ .

لـو تحـرفت عن طـريق الاعـادي ربط الســدر خيلهم والنـخيـل
ودرى مــن اعــزه الـدفـع عنـه فيهمـا أنـه الحـقيـر الـذليـل
أنـت طـول الحيـاة لـلروم غـاز فمتى الـوعـد أن يكـون القفـول
وســوى الـروم خلف ظهـرك روم فـعلى أي جـانبيـك تـميـل(٤٥)

والشاعر أبو الطيب يعبر عن مشاعر حب صادق للأمير الحمداني ويشفق ويقلق عليه لما يحتمل من عبء، كما يدرك باحساسه السياسي وشعوره العربي أن الأرض العربية معرضة للانتهاك، فليس هناك من يحميها غير سيف الدولة، أما الحكام الأجانب فهم غير حريصين وغير قادرين. ويشعر المتنبي بالخطر المحدق الذي يستهدف القائد العربي الذي لولاه لتقدمت جيوش الغزاة متوغلة في أرض العرب، ويشير إلى صعوبة الحال ويلح على القائد العربي بالعودة ويذكره بأن أعداءه ليسوا الروم فقط وإنما هناك روم آخرون خلف ظهر القائد، مشيراً إلى الأعاجم ودسائسهم وحقدهم على أمة العرب.
ويعبر المتنبي عن حرصه وقلقه على هذا القائد العربي الشجاع كما يبدو في قوله:

أمـا لـلخـلافـة مــن مـشـفـق على سيـف دولـتهـا الـفـاصـل
يـقـد عـداهـا بـلا ضـارب ويـســرى اليهم بـلا حـامـل(٤٦)

فسيف الدولة ليس بطلاً من بني حمدان ولا حامياً للثغور من غزوات الروم، فهو أيضاً سيف العرب بيد الخليفة يجد فيه النصرة والعون عندما يشعر بالضيق ويأخذ بخناقه حكام بن بويه.

ولقد كانت معارك سيف الدولة مع الروم ملاحم بطولية تمثل الشجاعة العربية والفروسية كما خلدها الشاعر المتنبي في قصائده، محتفلاً بانتصارات القائد، واصفاً جيوشه المتقدمة مؤكداً عروبته:

وفي صـورة الرومي ذي التـاج ذلـة لأبـلج لا تيـجـان إلا عمـائمهُ(٤٧)

وتتداخل وتتكامل معاني العروبة والإسلام في مدح سيف الدولة كما في قول أبي الطيب:

---

(٤٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
(٤٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٩٦ .
(٤٧) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٦٩ .

ولست مليكاً هازماً لنظيره | ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة | وتفتخر الدنيا به لا العواصم(٤٨)

وأبو الطيب المتنبي باحساسه العربي حريص على قبائل العرب، يرى فيهم رجالاً للقائد العربي وقوة قائمة أيام المحن والشدائد، ويرى في التفافها حول البطل ترصيناً للنصر والصمود، وهو فخور بها وبثقتها بسيف بني حمدان:

فتى لا يرى احسانه وهو كامل | له كاملاً حتى يرى وهو شامل
إذا العرب العرباء رازت نفوسها | فأنت فتاها والمليك الحلاحل
أطاعتك في أرواحها وتصرفت | بأمرك والتفت عليك القبائل(٤٩)

ويعبر الشاعر العربي مرة أخرى عن هذا الحرص، وهو يقدر دور القبائل العربية كمعاقل وحصون في وجه الهجمة الشعوبية، ويدعو سيف الدولة إلى الرأفة بهم إذا ما تمردوا عليه، فهم العشائر والصحاب والنسب يجمعهم تحت خيمة العروبة:

فقاتل عن حريمهم وفروا | ندى كفيك والنسب العراب
وحفظك فيهم سلفى معد | وإنهم العشائر والصحاب(٥٠)

ويدعو الشاعر ممدوحه الأمير مرة أخرى إلى أن يعامل القبائل العربية المتمردة عليه معاملة الأخوة والرحمة فهم رجاله وفرسانه:

لهم حق بشركك في نزار | وأدنى الشرك في أصل جوار
لعل بنيهم لبنيك جند | فأول قرح الخيل المهار(٥١)

وأبو الطيب يريد من القائد العربي أن يترفع عن الحقد والعصبية والثأر فهو ابن العروبة وبطل من أبطالها، فيه تتمثل معاني الفروسية وصفات الرجولة الحقة، وهو سيف الأمة في وجه أعدائها كما وصفه في قوله:

إذا الدولة استكفت به في ملمة | كفاها فكان السيف والكف والقلبا
تهاب سيوف الهند وهي حدائد | فكيف إذا كانت نزاريه عربا

(٤٨) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٣٩.
(٤٩) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٩٩.
(٥٠) المصدر نفسه، ج١، ص ٨٩.
(٥١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٩.

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وانك حزب الله صرت لهم حزبا
لأمر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضبا[٥٢]

والشاعر ابن نباته السعدي ليس بعيداً عن سيف الدولة وحروبه وامجاده، وفي ديوانه قصائد تسجل معارك البطولة التي خاضها سيف الدولة، منها معارك الأحيدب ومرعش[٥٣].

وقد رأينا كيف رفع ابن نباته صوت الاحتجاج عالياً عندما وطئت أقدام الديالمة بغداد، وقد عبر الشاعر عن إحساسه بالعروبة وتحديه للموجة الغريبة العاتية، وهدد بالرجال الفرسان القادرين على إزالة الأجنبي، وهو يرمز إلى بغداد التي يحكمها الأجنبي ببابل فيقول:

أن لم تصبّح بابلا جرد تبارى في الأعنة
تذر الاعاجم كلهم وقلوبهم غلق الأسنة[٥٤]

ويفتخر الشاعر بقومه ويتوعد فيقول:

ولا بد من يوم على الشرق هائل تصادم بيض الهند فيه الجماجم
هوت هممي إن لم أزر أرض بابل بيوم تزور الأسد فيه القشاعم[٥٥]

وابن نباته في شعره يستلهم روح البداوة وقيم حياة الصحراء، ويفتخر بنسبه ولا ينسى العصبية القبلية، ويرى في القادة العرب نماذج للبطولة العربية التي حررت أرض العروبة يوم تقدم الزحف العربي تحت راية الإسلام لينهي اسطورة الأكاسرة والقياصرة[٥٦].

وشاعرنا الشريف الرضي ثالث الشعراء من ذوي الأصوات العربية الأصيلة المتحدية والمدافعة عن الوجود العربي، فقد أحس إحساساً عميقاً بالعروبة وقيمها وتراثها، وهذا الإحساس العربي له أبعاد وجذور عميقة في حياته الشخصية وتربيته وثقافته وطمُوحه الذي امتد ليأخذ بعداً قومياً، ورأى في نفسه حقيقة أو خيالاً بطلاً منقذاً

---

(٥٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٧٥ وما بعدها.
(٥٣) ديوان ابن نباته السعدي، ج٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.
(٥٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٢٦.
(٥٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٧٠.
(٥٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨٥، ٤٥١، ٥٦٩.

للعرب من الذل والهوان. وقد فجرت هذا الإحساس في نفسه عوامل عدة تبدأ بنسبة العريق، فهو عربي هاشمي أجداده لأبيه وأمه من آل البيت، وهو فخور بهذا الانتماء معتز به:

المجـد يعلم أن المجـد من أربي ولـو تمـاديت في جـد وفي لعب
إني لمن معشـر إن جمعـوا لعلى تفـرقـوا عن نبي أو وصي نـبي(٥٧)

والإحساس بالغربة في شعر الشريف الرضي يذكرنا بحالة المتنبي التي تعبر عن رفضه للمدينة وإدانته للحياة، فالرضي يشعر بالغربة في مجتمع تضيع فيه القيم ويحكمه الأجنبي، وهو يشعر بضرورة الانسلاخ عن هذا المجتمع لأن الناس فيه أعداء الفاضلين:

ولقـد عجبت ولا عـجيـب أنـه كـل الـورى لـلفـاضلين أعـادي

ثم يقول:

نحن في عصبة ترى الجور عـدلا وتـسـمـي الـضـلال دار رشـاد
في رجـال تهزأ بـوفـد المعـالي وديـار تـسـطو عـلى الـوراد(٥٨)

وينتهي الموقف بالشريف الرضي إلى رفض حياة المدينة اللاهية والفاسدة مع قيمتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية، ويجد نفسه مضطراً إلى أن يرى في حياة عرب الجاهلية بديلاً يبعده عن الذل والهوان لولا الحرج الديني فهو يقول:

مـقـام يـدنس عـرض الأبي ويـلعب بـالـقـلب الـحـول
ولـو كـنـت ذا هـمـة حـرة لـرحلني الضيم عن مـنـزلي
تـرى الجـاهليـة أحمى لنـا وأنـأى عن المـوقـف الأرذل
فـلولا الإلـه وتـخـوافـه رجعنـا إلى الـطابـع الأول(٥٩)

ويكشف رثاء الشريف الرضي عن إحساس واضح بالعروبة وشعوره بالخسارة عند فقدان القادة العرب من بني حمدان وعقيل. ويبدو أن الشاعر أدرك بتجربته السياسية

---

(٥٧) انظر للكاتب: الاحساس بالعروبة في شعر الشريف الرضي (بحث معد للنشر في مجلة آداب الجامعة المستنصرية).

(٥٨) ديوان الشريف الرضي، (بيروت: دار صادر، ١٩٦١)، ج١، ص٢٩٨.

(٥٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

أن هؤلاء القادة مواقع أمل وتحد لمواجهة الغزو الأجنبي، كما يرى في شخوصهم مجمل الشمائل العربية من كرم وشجاعة وثبات، ويؤكد الشاعر على العروبة وكونها من عناوين المجد في أهله، فهذا الانتماء ذروة المجد والفتى العربي هو القائد والفارس والبطل:

ومن شيم الفتى العربي فينا وصال البيض بالخيل العراب
له كذب الوعيد من الأعادي ومن عاداته صدق الضراب[٦٠]

ويتجاوز الشريف الرضي حدود النزعة القبلية في مفهوم القوم عندما يبدأ بالفخر بقريش (أنوف بني معد في الذرى)، ويرى في مجد قومه مجد العروبة والاسلام، وتتوسع دائرة الفخر ليرى عز قومه بعز الإسلام ومجدهم برفعة العرب، والشاعر عندما يصف قومه بالملاجىء والحمى والملاذ يشير إلى دورهم المجيد في بناء دولة العروبة وقد شرفهم الله بالرسول العربي[٦١]، ولا ينسى البعد التاريخي لقضية العروبة وهو قادر أن يكتب قصيدة إلى أمير فارسي اسمه بهاء الدولة يفخر بها ويشيد بانتصار العرب في معركة ذي قار ويقول متحدثاً باسم قومه:

نذكركم بذي قار طعان وما جر القنا يوم الكلاب
عليها كل ابلج من قريش لصيق بالطعان وبالضراب[٦٢]

وولع الشاعر بالتاريخ ليس ولع مؤرخ، فهو عند حديثه عن الأمجاد العربية يضفي عليها كثيراً من عواطفه وهمومه وأحزانه وروحه العربية، وعندما يتحدث عن معركة ذي قار يشير إلى تعسف الفرس وغرورهم لينتهي إلى مجد العرب الذين أعزهم الإسلام وأمدهم بالعزم والإيمان ليحرروا الأرض والإنسان ويشعر بالأسى لضياع المجد وفتور الحمية العربية[٦٣].

وصورة البطل في شعر الشريف الرضي تمثل النموذج العربي للبطولة، يحاول الشاعر أن يرسمها من خلال المثال الرائع للإنسان العربي القائد الذي يراه في نفسه وفي أبيه ورجاله الفرسان الذين يحلم بهم، واستعادة المجد المضاع وأصالة النسب قضية

---

(٦٠) المصدر نفسه، ج١، ص ١١٤.
(٦١) المصدر نفسه، ج١، ص ٦١٥ - ٦٢٠.
(٦٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩١ - ١٩٢.
(٦٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٨٣ - ٤٨٦.

أساسية في شخصية البطل، فهو أبلج من قريش والرجال الذين يتوسم فيهم سمات البطولة والفروسية لهم أخلاقهم وكرمهم وترفعهم عن الدنايا، وهو لا يريدهم ملوثين بأدران الحياة الجديدة ومفاسدها، فهم من صفاء ونقاء الصحراء وحياة البادية وأصالتها(٦٤).

وإذ نودع الشريف الرضي، ونبدأ رحلة الشعر العربي في القرن الخامس للهجرة نرى مرحلة الانتكاسة في الحياة وفي الشعر شكلاً ومحتوى، ويدخل الشعر مرحلة تقليدية واضحة في المعاني والصور إلا أنه لا يقطع صلته بمعاني البادية الصحراء والتراث العلمي العريق. وقد تضفي عليه مسحة صوفية أحياناً بها ضعف وهروب من الحياة، وفيها شيء كثير من الحزن، ومع ذلك لا يفتقد الشعر العربي شاعراً لامعاً يقف على قدميه ويرتفع صوته عربياً عالياً هو الشاعر الأبيوردي الذي يذكرنا شعره بالمتنبي وابن نباته والشريف الرضي. والشاعر عربي من بني أمية ومعتز بهذا النسب كما يقول:

واقرع أبواب الملوك بوالد ... حوى بأبي سفيان أشرف منتمى(٦٥)

ويفخر الشاعر بعروبته على طريقة المتنبي والشريف الرضي، يقول:

وللفخر أعني به لا الغنى ... فعن كسر بيتي جيب العرب
وقد علم الله والناسبون ... أن لنا صفو هذا النسب(٦٦)

وتنتاب الشاعر أحزان الغربة في ظل الحكام الأجانب وسيطرتهم، وهو يرى ضياع القيم وسيطرة العبيد والأعاجم:

أروح بأشجان على مثلها أغدو ... فحتى متى يزري بي الزمن الوغد
أفي كل يوم دولة مستجدة ... يذل بها حر ويسمو بها عبد(٦٧)

والأبيوردي يعارض السياسة الأعجمية ويشيد ببني العباس مؤكداً عروبتهم، فخليفة بني العباس بنى الله مجده لتستظل به العرب، كما يؤكد اعتماد العرب في تحقيق

---

(٦٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٩٤، ٣٢٥، ٤٦٦، ٥٦٨، ج٢ ص ١٩.
(٦٥) ديوان الابيوردي، تحقيق الدكتور عمر الاسعد (دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٧٤)، ج١، ص٤٥٦.
(٦٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٦.
(٦٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٠٢.

النصر والخلاص من الأجانب الذين يتطاولون على هذا المجد ويثور الشاعر وينتظر الرجال القادمين من فرسان العرب لسحق الغزاة والأجانب الذين بيدهم زمام الأمر المتطاولين على الخليفة العربي:

متى أرى مشرفيات يضرجها   دم رست فيه أيدي الخيل والإبل
فقد نزت بطن ما تحتها فطن   بالعاجز الوغد والهيابة الوكل
وطبق الأرض خسف لا يزحزحه   ذو ضجعة لاث بردية على فشل
وخالفت هاشماً في ملكها عصب   صاروا ملوكاً وكانوا أرذل الخول(٦٨)

والشاعر الأبيوردي يعيش مأساة الأمة العربية وهو يشهد المخاطر تحيق بالأمة، والروم يتجاوزون حدودها وينتهكون مقدساتها، ويكتب قصيدة حزينة يرثي فيها حالة الأمة، ويشير إلى أن الدموع سلاح الضعفاء، ويحذر بني الإسلام من مخاطر الهجوم الأجنبي ويدعو إلى نجدة أهل الشام عند استيلاء الإفرنج على بيت المقدس:

وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم   ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

والقصيدة ذات روح إسلامي فيها حرارة الإيمان ودعوة إلى نصرة الدين، فهو يقول:

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا   رماحهم والدين واهي الدعائم

ولكن الشاعر لا يعتمد بغير العرب في تحرير الأرض ونصرة الدين، فهو يستنهض الأمة العربية وابطالها لرد العدوان:

دعوناكم والحرب ترنو ملحة   إلينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية   يطيل عليها الروم عض الأباهم(٦٩)

والأبيوردي يؤكد في مدائحه للخليفة والقادة العرب أهمية الخصال العربية ورسم الصورة البطولية لهم نسباً وجهاداً وكرماً وشجاعة فهو حريص في مدحه للخلفاء على تأكيد نسبهم العريق في هاشم، كما يؤكد النسب العريق للقائد العربي صدقة بن منصور الأسدي، الذي وجد فيه بقية من بقايا البطولة العربية، كما وجد في بني أسد معقلاً عربياً

---

(٦٨) المصدر نفسه، ج١، ص ٢١٦.
(٦٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

في حقبة أعجمية حالكة، فهو يشيد بأمجادهم في الجاهلية والإسلام، وإن كانت الإشادة ذات طابع قبلي واضح(٧٠).

ويقترب القرن الخامس من نهايته ويبدأ القرن السادس للهجرة والشعر العربي يمر بمرحلة من مراحل التقليد والاجترار والتكرار لمعاني الأقدمين، ويبقى الشعر ذا نكهة بدوية وإن كانت تقليدية وقائمة على الصنعة والتكلف، كما تبقى الصور العربية المتوارثة في المديح قائمة ومكررة، تجدها في شعر الطغرائي والارجاني وسبط ابن التعاويذي والشاعر الأمير شهاب الدين ابن الفوارس سعد بن محمد التميمي وغيرهم من الشعراء الذين ترجم لهم وروى شعرهم العماد الأصبهاني في خريدة القصر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الشعراء حاولوا أن يعبروا عن إحساسهم بالعروبة وبالأحداث التي مرت بالأمة العربية الإسلامية وحروبها، وكرروا وأعادوا الصورة العربية للقائد العربي، وإن كانت على سبيل المحاكاة والتقليد.

فالشاعر الطغرائي، الذي شهد عصر السلاجقة وضياع سلطة الخلافة وبقاء الرمز الديني لها، يسجل حروب العرب مع الروم ويمجد ويحتفل بالانتصارات وخذلان المهاجمين، كما أن مديحه لرجال الدولة يتناول دفاع القائد عن الإسلام والوقوف بوجه الطامعين الذي يعده الشاعر دفاعاً من أجل الدين والأمة(٧١).

أما الأرجاني فديوانه لا يخلو من قصائد إعجاب بالقادة العرب وإشادة بالسجايا العربية، وهو في مدحه العرب يتناول أمجادهم التاريخية وانتصاراتهم على الفرس ويفخر بأمجاد القبائل التي دافعت عن كرامة الأمة العربية(٧٢)، والشاعر الأرجاني يؤكد عروبة الخلفاء العباسيين وشرف انتمائهم إلى قريش مشيراً إلى أمجادهم ومكارمهم(٧٣).

والشاعر شهاب الدين أبو الفوارس يبحث عن القادة العرب وأمجادهم، وهو يفعل ذلك أيضاً في مدحه الخليفة العباسي في تأكيد نسبه الكريم ودوره في الدفاع عن الحمى والدين. ومدائح هذا الشاعر لأحد القادة العرب من بني أسد تكشف إحساسه بالعروبة

---

(٧٠) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥١، ١٥٨، ١٦١.

(٧١) انظر: ديوان الطغرائي، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيي الجبوري (بغداد: دار الحرية)، ص ٩٤ ـ ٩٥ وص ١٨٤.

(٧٢) ديوان الارجاني (بيروت: مطبعة جريدة بيروت، ١٣٠٧ هـ)، ص ٧٧.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١.

ومعانيها في عصر الضياع والخذلان، حيث يحتفل الشاعر بأمجاد هذا القائد وقدرته في رد عدوان الأتراك وتحرير أرض العرب[٧٤].

ويشهد القرن السادس للهجرة، وحشية الجيوش والحكام الأجانب من ترك وروم وفرس والبلاد عرضة لأطماعهم والخلافة ضعيفة لا حول ولا قوة لها. ويصور الشاعر سبط ابن التعاويذي هذه الحال، ويرى صورة البطل المنقذ في صلاح الدين الأيوبي، حيث أصبح الأمل والرجاء، إذ تم على يديه استعادة بيت المقدس. ويضفي الشاعر على هذا البطل معاني البطولة العربية والفروسية والإيمان بالدين، فهو سيف أمير المؤمنين وحامي ثغور الإسلام[٧٥]، ويشارك شعراء مصر والشام في تمجيد الصورة البطولية الجديدة، وتأخذ معاني العروبة بعداً دينياً واضحاً، فالمعركة بين الإسلام وبين الشرك والحق والضلال، ونجد مثل هذه الصور ذات الروح الإسلامية في شعر شعراء هذه الحقبة، وتبدو معاني العروبة وروح الإسلام في هذه القصائد مع شعور ديني عميق وإيمان بالنصر لأمة العرب والإسلام[٧٦].

وإذ يقترب الشعر العربي من نهاية العصر العباسي تناله موجة التدهور والضعف ويتحول إلى هياكل لفظية ويعبر في ضعفه وفقدان الروح الشعري عن حالة الأمة في أيام التداعي والانكسار، فالأمة مقبلة على انهيار سريع والأجنبي المتوحش يجتاح بغداد لتبدأ مرجلة انحسار وركود حاول فيها الذين يستهدفون أمة العرب أن ينالوا من وجودها وبقيت الأمة العربية وبقي الشعر معبراً عن حياتها في أيام النهوض والبناء والصمود والانكسار والازدهار .

---

(٧٤) ديوان حيص بيص ، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر (بغداد : دار الحرية ، ١٩٧٤) ، ج٢ ، ص ١٦٥ ، ٣٥٧ وج٣ ، ص ١٤ ـ ٢٠ .

(٧٥) ديوان سبط بن التعاويذي ، تحقيق مرجليوث (القاهرة : مطبعة المقتطف ، ١٩٠٣) ، ص ١٩ ، ٢٥ ، ١١١ .

(٧٦) محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصرالايوبيين(القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٤) ، ص ٨٧ وما بعدها .

المنَاقشَات

الدكتور مسارع الراوي: عندما ذكرنا أن الأدب يتناول أو يشمل النثر والشعر، كنا نؤكد على عنوان الندوة. والندوة فعلا هي عن دور الأدب في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية. وباعتقادي أن اكثر البحوث إن لم تكن كلها تناولت فقط الشعر. فهذا هو الاعتراض الذي وجهته إلى الأستاذ نوري القيسي والذي ينسحب على الأخوة الباحثين.

أعجبني في بحث الدكتور عصام عنوان البحث المتواضع وهو من ملامح العروبة في الشعر العباسي، وقد انسجم فعلا العنوان مع المحتوى والمضمون. كما أن الباحث اعترف بأن بحثه ذو طابع انتقائي.

الدكتور زكي الجابر: باعتقادي إن الباحث كان موفقا في استعراض ملامح العروبة في الشعر العباسي، الذي كان يتمشى مع الحياة الاجتماعية والحياة السياسية. وبتصوري أن رقيّ الحياة الاجتماعية والحياة السياسية ينسحب أو ينعكس على رقي الشعر أو انحطاطه. وقد كان الأستاذ عصام موفقا في هذه الناحية. كان بودي أن يتناول أكثر من باحث هذه الفترة الطويلة الواسعة، وكان بودي أن يتناول الأدب طالما أن عنوان الندوة هو بحث دور الأدب في التوعية القومية والوحدة العربية.

الدكتور كامل البصير: أريد أن أؤكد أننا نتكلم عن القومية العربية والوحدة العربية في الشعر، غير أن هذا الكلام يتمزق على حدود سياسية وزمنية مصطنعة لا نؤمن بها، مما لا ريب فيه أن الذي يتحكم في البحث هو عنصر الوقت المحدد للباحث والمساحة الموضوعية، ولكن هذا لا يبرر أبدا إغفال النظرة الشاملة إلى الفكر العربي في

أية فترة. فلماذا لا يلم الباحث بالشعر العربي وملامحه في الأندلس والمغرب في منهج متوازن حتى تتكامل الصورة؟ كذلك لماذا الشعر وحده ولماذا لا نلتفت إلى فنون الأدب الأخرى أيضا في نفس الاتجاه؟ هذه ملاحظة تسجيلية من الواقع أريد أن أؤكدها لكي أرى الفكر العربي مجسدا وألمس القومية العربية مجسدة واضحة أيضا في تجاوب ما بين البيئات العربية كلها.

الدكتور رشيد العبيدي: أعتقد أنه من الملامح التي لم يأت عليها الباحث موضوع الارتباط بالنسب، خصوصا في الفترة المتأخرة من العصر العباسي. الأبيوردي والواثقي والمأمون وشعراء آخرون كانوا ينتمون إلى الخلفاء العباسيين أو إلى الخلفاء الأمويين، راجعين بنسبهم إلى أصول عربية، فهذا ملمح من الملامح التي لم يأت بها الباحث.

الدكتور وميض عمر نظمي : توجد لدي ملاحظة سياسية أكثر منها أدبية عن العنوان الموفق الذي اختاره الأستاذ عصام عبد علي، وعن المناقشات التي جرت، ويبدو أنه هناك تصوراً، هو إما أن تكون الأمة العربية وبالتالي الوعي القومي والقومية العربية موجودة في مساحة معينة غير موجودة في شهر معين وفي مرحلة معينة أو غير موجودة وهذا طبعا خروج عن الفهم الحقيقي والتاريخي لعملية التكون في الأمم وتكون القومية. في اعتقادي أنه لو اتفقنا على أن الأمم ومنها الأمة العربية هي في حالة صيرورة تاريخية مستمرة فيها عوامل اقتصادية اجتماعية ولغوية وحضارية لا يحل مثل هذا اللغز الذي يواجهنا في دراسة الوعي العربي وصعوده وهبوطه عبر التاريخ العربي. ففي تقديري إن عملية الصيرورة التاريخية للأمة العربية قد بدأت قبل الإسلام، وسهل الإسلام في تعريب المناطق التي هاجرت إليها القبائل العربية. ولكن عملية الصيرورة لا زالت مستمرة إلى هذا الوقت، ومما يساعدنا على فهم تاريخنا السياسي أكثر، أن الصيرورة التاريخية للقومية العربية لم تكن صيرورة متقدمة باستمرار، بل تعرضت إلى الكثير من النكسات، أي أنني أريد أن أثير نظرية الثورات الحضارية في التاريخ فنجد أن الأمة العربية أكثر وعياً قومياً أيام ذي قار منها ما قبل ذي قار وما بعد ذي قار. ونجد أن الإسلام فترة توعية في حركة القومية العربية، ولكن بعد فترة تعرض العرب إلى نوع من قوانين التجزئة التي تتحكم فيهم، كذلك نشطت العروبة أو القومية العربية أيام المحاولات الشعوبية للانتقاص من العرب، مرة ثانية أيام الغزو الصليبي، نشطت بشكل فعال في الخمسينات أيام الثورتين الجزائرية والمصرية وقيام الجمهورية العربية المتحدة. ولكن في كل مرحلة كانت تمر بها حل انحسار تبع هذه المرحلة بالنسبة لنا كمناضلين قوميين مهمة الوعي في

عملية الصيرورة التاريخية للأمة العربية ليست عملية موضوعية تتم بمعزل عن إرادة الناس، بل إنها عملية نضالية. لذلك فإنني أعتقد أن الدكتور عصام عبد علي كان موفقا جدا في حديثه عن ملامح العروبة في الشعر العباسي، وذلك لأن هناك ملامح من فترة إلى فترة أخرى، وأعتقد أنه كان يود أن يقول أن هناك وعيا جنينيا عربياً ليس بالضرورة وعيا قوميا ناجزا كاملا. الوعي القومي والدولة القومية لا تتكون إلا عند استكمال وحدتها السياسية العامة، ولكن عملية حس العربي، عملية الوعي بالأمة العربية، كانت موجودة منذ قديم الزمان وعززت في الإسلام، ومشت بعد ذلك ولكنها تعرضت إلى نكسات.

إن الجاحظ رد على الشعوبية في جوانب كثيرة خصوصا في كتاب البيان والتبيين وكتبه الأخرى ولكنه في البخلاء يؤكد على هذه المسألة تأكيدا واضحا. إن ملامح العروبة واضحة في الشعر العباسي وتشمل في هذا المجال أبواب الفخر كثيرة، فكان بودي أن نسمع من الدكتور عصام بالإضافة إلى الفروسية والشجاعة والإقدام، إلى غير ذلك، أن نسمع منه قول الشعراء في هذا الصدد.

الدكتور عناد غزوان: إن موضوع هذا البحث، ملامح العروبة في الشعر العباسي ليس بحثا في الشعوبية. ولكنني وجدت من خلال استعراض الدكتور عصام عبد علي لهذا الموضوع أنه تناول العروبة مضمونا ولم يتناول العروبة قضية، وبين المضمون والقضية فرق كبير بدليل أنه اعتمد على شعر المدح دون أن يحاول النفاذ إلى الجذور السياسية والتاريخية والاجتماعية بعمق في فهمه لملامح العروبة قضية كما قلت وليس مضمونا. فنحن لا نتحدث عن العروبة مضمونا من أجل المديح أو الشجاعة أو الفروسية، بل يجب أن نتحدث عنها كقضية سياسية. كيف استطاع الشعر العباسي بهذه الحقبة الزمنية الطويلة أن يبلورها وأن يستمد منها مقومات القومية التي ما تزال قائمة إلى اليوم.

حميد الهيتي: من المواجهة الحادة في طرح الموضوع يبدو لي أن الدكتور عصام قد تخلص من ذلك أصلا لأنه طرح الموضوع بشكل واقعي ومتواضع حين سماه (ملامح العروبة في الشعرَ العباسي) وهذه الملامح حقيقة موجودة ذكر منها أشياء وتوجد لها متممات كثيرة من الملامح. كان بودي أن يتناول الدكتور عصام هذه الملامح حتى عند أصحابها من جانبين ليس من جانب واحد هو قصيدة المدح، وهو ما اعتدنا أن نسميه بالشعر الرسمي. كان يمكن أن يتناولها أيضا عند هؤلاء ومن باب شعرهم في الشكوى

والغضب ولو اتكأ على الشريف الرضي وحده في هذا الجانب أو على المتنبي وحده لوجد عندهم الكثير. إن الشريف الرضي في اعتقادي، وحده يمثل قضية في هذا الجانب لأن المغريات المتاحة له في أن يتبوأ أعلى المناصب في ظل السلطة البويهية كانت موجودة. إن هذه الظروف المتاحة تجاوزها جميعا لأنه كان يتشبث بقضية ومضمون، بل وأقول حتى تعصبا إلى القضية العربية. كذلك شعر الشكوى شعر التمرد عند هؤلاء. ويمكن أن يشكل ابن نباته، الذي جاء ذكره أيضا كواحد من الأعلام، الملامح العربية في الشعر العباسي، لأن هذا الرجل لم يكن من الشعراء المقربين إلى السلطة في أكثر حياته.

المحور الآخر الذي كان يمكن أن يتمم البحث ويربط بين الشكل والمضمون أو بين القومية العربية كحقيقة وبينها كقضية كان يمكن أن يأتي عن طريق الميل إلى الحديث عن بعض الشعراء المغمورين الذين لم تسلط عليهم الأضواء. وهم الشعراء الذين تحدثوا بلسان العامة في ذلك الوقت ممن عاصروا المتنبي وعاصروا الشريف الرضي وعاصروا ابن نباته وعاصروا الكثيرين. هؤلاء الشعراء تحدثوا عن الحكم البويهي كعرب ولكنهم تناولوا القضية من ظاهر اجتماعي لأنهم ليسوا بقادرين على مواجهة السلطة فهربوا عن المواجهة السرية ورمزوا أحيانا بالشكوى من الزمان والشكوى من الدهر، وسخروا أحيانا وضحكوا من الألم أحيانا، ومدحوا المعوزين والمكدين أحيانا، ومدحوا حتى بعض الخلفاء الذين طردوا وساروا في جملتهم فيما بعد. وطبعا يتمم هذا الجانب بقدر واسع ومساحة كبيرة بعض الألوان النثرية التي سادت في العصر، وبخاصة أولئك الذين تحدثوا عن بلاغة العرب، ويأتي الجاحظ في مقدمة هؤلاء في الدفاع عن العرب كأمة وكعبقرية وكصراع مع الآخرين ومع الشعوبية.

الدكتور عصام عبد علي: في البداية أود أن أشكر الأخوة الزملاء الأعزاء على تثمينهم، ولقد رأيت بحثي المتواضع أكبر من خلال ملاحظات التثمين. الأخ الدكتور زكي أشار إلى موضوع القائد والأمة. إنني لا أرى القائد منفصلا عن الأمة، فهو ظاهرة من ظواهرها الأساسية. موضوع اعتبار الشعر موجها، في الواقع أنا لم يكن في ذهني أن أرى الشعر موجها فقط، وإنما معبرا أيضا، أشار الأخ الدكتور مسارع الراوي إلى موضوع الاقتصار على الشعر. وهذه نقطة جديرة بالاهتمام، فلو تناولنا النثر لكانت الصورة أوسع وأوضح وأكبر.

الأخ الدكتور كامل البصير أشار إلى الأدب الأندلسي، والأدب الأندلسي ظاهرة قائمة بذاتها، وحديثنا هو عن الشعر العباسي. أما موضوع النسب ففي الحقيقة أنا تناولت

النسب بالمفهوم القومي، واعتبرت في البحث القضية قضية عربية وليس قضية عرقية، ولم أشر إلى شعراء وإنما أشرت إلى ما قاله الشعراء في موضوع النسب بالنسبة إلى الخليفة وهو الرمز وبالنسبة إلى القائد أيضا.

أما بالنسبة إلى الأخ الدكتور وميض نظمي ليس لديّ إلا الشكر فقد أوضح خطة البحث التي كتبتها أكثر مما أستطيع. إنني لم أقتصر على موضوع الكرم والشجاعة، وإنما هناك قضايا أخرى يبدو لي أن البحث التفصيلي قد وضحها.

الأخ الدكتور عناد غزوان : أشار إلى موضوع العروبة كقضية . إني رأيت العروبة كقضية في القرن الرابع وعندما رأيتها كذلك أشرت إليها. الأخ الأستاذ حميد الهيتي أشار إلى أنني تناولت قصيدة المديح فقط، في الواقع أنني تناولت أغراض الشعر، وقد أشرت ضمنيا إلى الغزل أيضا، واعتبرت فيه شيئا من ملامح العروبة في البحث المفصل، أما موضوع شعر العطاء وشعر الشعراء الفقراء، فالواقع أنا لم أتناوله لأنني رأيته ظاهرة إجتماعية منفصلة عن البعد القومي.

الفصل الخامس

دور الشعر في المغرب الأقصى في مقاومة الاستعمار

هلال ناجي

جسّدت معركة وادي المخازن التي وقعت في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة هجرية الموافقة لآب سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة ميلادية، قمة البسالة المغربية في مواجهة غزو المستعمرين البرتغال الذين قادهم الملك سبستيان في جيش برتغالي عرمرم تدعمه آلاف من جيوش الأسبان والألمان والطليان، كان هدف جيش الغزاة إعادة الملك المخلوع محمد السعدي إلى عرشه نظير تملك الغزاة سواحل المغرب وثغوره.

وكان جيش الغزاة أكثر عدداً يدعمه أسطول ضخم، لكن الدائرة دارت على المستعمرين فمزقت جيوشهم شر ممزق، وقتل ملكهم سبستيان، كما مات الملك السعدي المخلوع، الذي سمي بعدها بمحمد المسلوخ ،غرقا اثناء هربه فاستخرجه الغواصون وسُلخ وَحُشِيَ جلدُهُ تبناً، وطيف به في مراكش وغيرها من بلدان المغرب. كما توفي ملك المغاربة وقائدهم السلطان عبد الملك أثناء المعركة، فكتم أخوه أحمد خبر موته، حتى إذا أذن الله بالنصر على الغزاة، بايع الناس أحمد المنصور بالله،سلطاناً على المغرب، وهو الذي لقب فيما بعد بالمنصور الذهبي[1].

إن هذه المعركة التي أذنت بانطفاء شعلة الاستعمار البرتغالي، كانت مصدر وحي للعديد من شعراء المغرب قديماً وحديثاً باعتبارها من الوقائع الفاصلة في التاريخ القومي.

---

(١) انظر : ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (الدار البيضاء : دار الكتاب ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) ، ج ٥ ، ص ٦٩ ـ ٨٦ .

ولقد رسم الشيخ داود بن عبد المنعم الدفوصي، وهو ممن عاصر المعركة صورة أصيلة لها في قصيدته الرائدة[٢].

جنى النصر ما بين الظبا والكنائن
على سابقات المذكيات الصوافن
فبين المعالي والمآثير في الوغى
يجول الذي يبغى اقتحام المدائن
هي السور من يجتزه حل بساحها
فحل له منها امتلاك الخزائن
ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى
لحوزته دون العدا خير صائن
ومن لم يخضها بالثبات فرأيه
يقيل ويمسي حظه جد خائن
وماذا يفيد الجيش إن كان ربّه
كسيبستيان عند وادي المخازن
يقود لها ما يحجب الشمس نقعه
مياسره لا تلتقي بميامن
اتى سادرا يختال في غلوائه
وفي صدره للدين غلي الضغائن
يسرّب نحو المغربين جنوده
كمثل الدبا عن ماخرات السفائن
وما قصده إلا انتهاك حريمه
ودكّ صياصيه وبعث الدفائن
وقود أسارى المسلمين لأرضه
يقدمهم للصلب مثل القرائن
ولهوٍ بأبكار الخدور بناتنا
فيصبحن من خدامه والسوادن
فذا مكره، والله يمكر مكره
به، إذ حداه نحو تلك الأماكن
فخيم في تلك الجهات وعينه
لمراكش الحمراء لا لتطاون
ولكنه مع حفله بمدافع
وبيض وسمر وامتلاء الكنائن
تخلف ربط الجأش عنه فردّه
على خزيه صفرا ولو من فراسن
تجمع جند الله من كل وجهةٍ
وقد غض من مدينة كل دائن
من الملك المقدام فالعلماء فالـ
شيوخ أولى التقوى وأهل البواطن
وتلوهم الأجناد والناس كلهم
تضل بهم أبصار كل معاين
فشبّت لظى الهيجاء ليس وقودها
سوى أنفس الشجعان وسط الميادن
إذا أرعدت تلك المدافع ابرقت
صقيلات بيض الهند فوق اليمائن
فلولا البروق الخاطفات من الظبا
لما أبصرت عينٌ خلال المداخن
قد أنقضت الفرسان منا عليهم
انقضاض صقور الجو فوق الوراشن
وصابر كل قرنه فمجندل الثـ
ـرى وجريح ساحب للمصارن
وهامهم مثل الكرين وقد غدت
سنابك خيل الله مثل المحاجن

(٢) انظر النص في كتاب عبد الله كنون، خل وبقل (تطوان : المطبعة المهدية، د. ت)، ص ١٠٦ ـ ١٠٨.

وسيبستيان كفنته مياهه هزيماً، وماء النهر افظع كافن
فحين قضى البتّار في الكفر ما قضى وأشلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت ألوفاً من رؤوس تجمعت ويا ليتها أيضاً جدار المآذن
هنالك نصر المؤمنين مؤزرا على كل ذي كفر تهجم ضاغن
فذلك يوم مثل بدر وصنوه حنين بأيدي المؤمنين الميامن
لقد ذاق فيه (البردقيز) بنا الردى جزاء مناحيس خزايا ملاعن
بغوا فجنوا جني البغاة فأصبحوا سماد الفيافي لاسماد الفدادن
فللثكل ما كان الهزيم لارضه وللصقر من ذاقوا الردى والشواهن
فنحمد رب العرش إن كان ديننا لأهل الوغى والبأس خير المعادن

وإلى هذا الانتصار القومي الضخم أشار عبد العزيز الغشتالي شاعر المنصور الذهبي في قوله من قصيدة[٣] :

صببن على أرض العداة صواعقاً أسلن عليهم بجسر خسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى لصدَّعَتْ صفاهُ الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل اروع معلم وكل كمّي بالرديني طعَّان
إذا جنّ ليل الحرب عنهم طلى العدا هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان
من اللاءِ جرعن العدا غصص الردى وعفرن في وجه الثرى وجه (بستان)[٣]

واتخذ الشاعر المغربي المعاصر عبد الكريم الطبال من وادي المخازن حافزاً ومثيراً للهمم في ابناء شعبه فهو يقول [٤] :

وادي المخازن أخطب في مرابعنا عزّ الخطيب هنا بالسيف والأسل
لا يحمد الكلم المنضود في بلد يسود فيه عجول الرأي بالخلل
الساح عامرة بكل مرتعد يصول كالريح في جمع من الخمل
تبكي وتسأل عن صيد جهابذةٌ في الطعن والضرب، عشاقين للأجل
اين الخيول عزيزات بما حملت من فتية عشقوا العلياء في الأزل

حتى يقول:

وادي البطولة خضب كل رابية بماء مجدك وانشر رائع الحلل

---

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) عبد الكريم الطبال ، ديوان الاشياء المنكسرة (الدار البيضاء : ١٩٧٤) ، ص ٩٥ - ٩٦ .

حدث على لهوات الطير عن شهب   زانت بها الأرض عصراً غير مكتهل
عانق بساتين لم يصدح بها وتر   من بعد هجرك في حزن وفي جذل
طال الخريف هنا فالأرض ضارعة   والناس جاثية مشبوبة المقل

إن بعض الشعراء المغاربة اتخذ من هذه المعركة وسيلة وسبباً لتقريع المغاربة المعاصرين وحثهم للارتفاع بمستوى تضحياتهم الوطنية والقومية إلى مستوى تضحيات أجدادهم العظام في تلك المعركة، ومنهم الشاعر محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين حين قال [٥] :

خليلي مرا بي بوادي المخازن   نجدد شكراً بين تلك المواطن
مواطن كانت للجهاد مشاهدا   بهن مياه العز غير أواسن
به وقعة ما زال يسري نسيمها   على بعد عصر وابتعاد الأماكن
بايدي رجال شيدوا الدين وارتدوا   رداء من العلياء ضافي المحاسن
فلم تثنهم عن راحة العز راحة   ولا حسو كأس بين شاد وشادن
رجال من أبناء المغاربة الالى   هم الناس إن عدّت كرام المعادن
فنشمخ أنفا ثم نطرق بعدها   حياء لفوت بيننا وتباين
اولاك حَمَوا اقصى البلاد وانتم   مساكين محميون وسط المساكن
وما ذاك إلا من نتيجة سعيكم   ونبذ لدين المصطفى والتهاون
ألم يأن للنوام أن يتيقظوا   وإن يألموا من حر خدش البراثن

وهو يثير في مواطنيه الحمية للثورة على المستعمرين فيقول:

تظنون سورا من حديد امامكم   وما هو إلا من ركام الدواخن
الا عرق للمجد المؤثل نابض   فينهض منا قاطن اثر ظاعن
نجدد رسم الدين بعد اندثاره   ونسمك من بنيانه المتطامن
فان انتم راجعتم نهج دينكم   اثرتم دفين العز من كل كامن
واحرزتم من ارثكم كل غابر   وحركتم من مجدكم كل ساكن
وإن أنتم استحليتم الذل مرتعا   وآلفتم شرب المياه الاواجن
وقلتم مقال العجز: في اليأس راحة   فتصليم آذان وجدع موارن

وأخيراً وليس آخراً، فقد استوحاها الشاعر المغربي المعاصر حسن محمد طريبق

(٥) كنون، خل وبقل، ص ١٠٥ .

حين كتب مسرحية شعرية بعنوان «وادي المخازن»[٦]. وقد ذكر في مقدمتها أنه حضر الحفل الذي اقامه حزب الاستقلال بزعامة علال الفاسي في وادي المخازن، واستمع لخطاب المرحوم الزعيم «علال» فولدت في ذهنه كتابة مسرحية شعرية عن هذه المعركة التاريخية.

تلك إلمامة بالاصداء التي تركتها معركة فاصلة من معارك تاريخنا القومي خاضها المغاربة ضد قوات البرتغاليين وحلفائهم على أرض مغربية، وكان ذلك قبل عصر النهضة الصناعية الأوروبية وفي عام ١٥٧٨م على وجه التحديد.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين مرت البلاد المغربية بفترات ضعف أحياناً وفترات قوة أحياناً أخرى، وكان مصدر الضعف التنازع على السلطة والعرش بين الامراء، كالذي حدث بعد وفاة المنصور الذهبيعام ١٠١٢هـ، إذا ساعد ذلك النزاع الأسبان على احتلال العرائش والمهدية.

وبعد قيام دولة العلويين بالمغرب سنة ١٠٧٥هـ، استطاع المولى إسماعيل، وكانت أيامه أيام قوة ومنعة، استرداد بعض الشواطىء المغربية من الأسبان، كما قاتل الأتراك في محاولة لتحرير المغرب الأوسط (الجزائر). ووصل بفتوحاته إلى السودان والصحراء. وبعد وفاة إسماعيل عام ١١٣٩هـ ضعفت البلاد بسبب الصراع الداخلي بين ابنائه، ثم لما تولى الحكم محمد بن عبد الله بن إسماعيل عام ١١٧١هـ، استرجع للمغرب مجده، وكان محبوباً من شعبه لشجاعته وعلمه. فبنى للمغرب أسطولاً حربياً وتجارياً ضخماً، وحصّن الثغور الساحلية وطرد البرتغاليين منها، وكان تحرير مدينة (الجديد) عام (١٧٦٨م -١١٨٢هـ) حدثا بارزاً من أحداث تطهير الأرض من الغزاة.

فحتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ظل للمغرب هيبته عند دول الغرب الاستعمارية بسبب قوة أساطيله. ولأن معدات الحرب كانت متماثلة عند الطرفين، ولم يكن الغرب الاستعماري آنذاك قد حقق تفوقاً على غيره في هذا الصدد. لكن الموازين انقلبت حين حل القرن التاسع عشر الميلادي وحققت النهضة الصناعية الأوروبية ثمارها، باستخدام البخار والكهرباء وظهور الاختراعات الكثيرة، مما جعل الغرب الاستعماري في موضع المتفوق تقنياً وصناعياً وحضارياً وعسكرياً على غيره.

وحين أحجم المغرب عن اقتباس هذه الحضارة الجديدة، وانغلق على نفسه، كان

---

(٦) مسرحية وادي المخازن (د. م.: د. ن.، د. ت.).

هذا بداية لفترة الانحدار والتدني، التي انتهت بفرض الحماية الفرنسية عليه في ٣٠ آذار / مارس عام ١٩١٢ م .

كان الأسطول المغربي واحداً من أسباب هيبة المغرب ومنعته، حتى أن دولاً بحرية أوروبية معروفة كالسويد والدنمارك كانت تؤدي للمغرب ضريبة سنوية حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، ليدوم الصلح بينها وبين المغرب بحراً.

وبلغ من قوة هذا الاسطول أنه أستطاع أن يدمر الأسطول الامريكي عام ١٨٠٣ حين قام الاخير بحصار طرابلس، وهب المغرب لنصرة إخوانه عرب طرابلس، ودارت الدائرة على الأسطول الامريكي وابتلعته الأمواج. فارسلت امريكا قطعاً أخرى أستطاع الأسطول المغربي تبديدها هي الأخرى.

لكن تكاثف دول الغرب الاستعمارية لمحاربة ما سمته آنذاك بقراصنة البحر، وممارسة هذه الدول ضغطها على سلطان المغرب المولى سليمان الذي قام عام (١٢٣٣هـ - ١٨١٧م) بحل الأسطول المغربي الباسل، وذلك بمنع رؤساء هذا الأسطول من الجهاد في البحر، وتوزيع قطعه على آيالات الجزائر وطرابلس وإنزال المدافع وآلات الحرب مما تبقى منه. وحين وقعت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام (١٨٣٠م - ١٢٤٦هـ)، وتدخل المغاربة لنصرة إخوانهم عرب الجزائر تدخلاً عسكرياً، هزم المغرب في وقعة إيسلي عام (١٨٤٤م - ١٢٦٠هـ) واستطاع الفرنسيون دخول طنجة والعرائش والصويرة ، وكان التخلف العلمي والتقني والصناعي وراء هذه الهزيمة. وتحت ضغط الاستعمار الفرنسي أمر سلطان المغرب المولى عبد الرحمن باغراق الأسطول المغربي سراً، وهكذا فقد المغرب قوته البحرية العظيمة.

وفي عام ١٨٦٠م -١٢٧٦هـ احتل الأسبان تطوان، ثم رجعوا عنها. وحين استطاعت فرنسا بسط الحماية الفرنسية على تونس عام ١٨٨١م، كان هذا بداية النهاية لتحقيق الحلم الاستعماري الفرنسي في مد جذوره عبر البحر المتوسط للسيطرة على المغرب العربي الكبير كله، واتخاذه مزرعة لفرنسا. لم يبق أمام تحقيق هذا الحلم سوى المغرب وبرغم مظاهر اليقظة التي دبّت في المغرب الحديث في شتى شؤون الحياة، إلا أن هذه النهضة لم تكن تتساوق أو تتوازى مع تعاظم القوى الاستعمارية.

وبرغم مؤتمر الجزيرة الخضراء ،الدولي الذي عقد سنة (١٩٠٦م - ١٣٢٢هـ)، والذي أكدت فيه سيادة المغرب، إلا أن الفرنسيين استغلوا حادثة مقتل طبيب فرنسي في

مراكش فاحتلوا (وجدة) عام ١٩٠٧م، وكذلك الدار البيضاء. وفي مواجهة ضغط شعبي، أضطر السلطان عبد العزيز إلى التنازل عن عرشه لأخيه عبد الحفيظ، لكن الغزاة الفرنسيين والأسبان واصلوا إحتلال الأراضي المغربية، واغتنم الأسبان الفرصة فاحتلوا تطوان العرائش والقصر الكبير. واجبر الفرنسيون السلطان الجديد على توقيع معاهدة الحماية في ٣٠ آذار/مارس ١٩١٢م، وتنازل هذا عن عرشه للمولى يوسف بن الحسن. وفي العام نفسه وقعت فرنسا اتفاقاً مع اسبانيا اقطعتها بموجبه القسم الذي احتلته من شمال المغرب.

يخطيء من يظن أن شعر المقاومة المغربي إنما بدأ حين بسطت الحماية على المغرب عام ١٩١٢م. لقد بدأ هذا الشعر في وقت مبكر تماماً، وكانت هذه البدايات إرهاصاً بما سيتعرض له المغرب مستقبلاً.

ففي شعر محمد بن محمد بن ادريس العمروي الفاسي المتوفى سنة ١٨٤٧م نماذج مبكرة لشعر المقاومة. فلقد نظم هذا الشاعر المجيد، والذي كان وزيراً في حينه، عدة قصائد يدعو بها إلى الجهاد استنقاذاً للجزائر، وكان يحذر إخوانه المغاربة من السكوت على وجود الغزاة الفرنسيين على حدودهم. فمن ذلك قوله[(٧)]:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم	إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الإسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه في نمط
وأنتم القصد لا تبقن في دعة	إن السكون إلى الأعدا من السقط
(من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سفط)[(٨)]
قد يغبط الحر في عز يخلده	وليس حيّ على ذل بمغتبط

وله أيضاً مطولة نونية بعنوان «سرية النصر لأهل هذا العصر» عدتها مئتان وعشرون بيتاً وأولها:

فرض على كل مسكين وسلطان	حمل السلاح على عباد أوثان[(٩)]

---

(٧) الناصري، الاستقصا لاخبار . . .، ج٩، ص ٥٠.

(٨) البيت لابن العسال ضمنه الشاعر.

(٩) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (الرباط: مطبعة الامنية، ١٩٧٣)، ج١، ص ٢٠.

وحين استولت فرنسا على مدينة تلمسان قال من قصيدة[10] :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد ... فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب اشراكه ... مستعبداً بكيده للعباد
ويا حماة الدين ما صبركم ... والمشركون يطلبون البداد
ما هذه الغفلة عن ضدكم ... وأنتم في الحرب أسد الجلاد
إن بني الأصفر اعداؤكم ... أطمعهم نومكم في السواد
ويا أباة الضيم هل نهضة ... تسربل الكفر ثياب الحداد
اين بنو العرب الذين لهم ... أقدام صدق في جهاد الأعاد
وأين أهل البر من بربر ... ومن لهم في الدين بيض الأياد
وأين من حار النهى والتقى ... ومن له في الله حسن اعتقاد
كم وقعة تتلى لاسلافكم ... بالسن المدح لنا اذ تعاد
فاين ما اعددتم نحوهم ... من قوة الرمي وسبق الجياد

إلى أن يقول:

واسطة المغرب قد حازها ... والأمر جدّ والبلا في ازدياد
مصائب صبت على معشر ... يبكي من الإشفاق منها الجماد
يكاد يقضي المرء من حرها ... على حشاه وتذوب الصلاد
إخوانكم ديناً وجيرانكم ... أضحوا رعايا الشرك بين الأعاد
ساموهم هوناً وازروا بهم ... في الدين حتى ركنوا لارتداد
وطمعوا فيكم فكونوا يدا ... فإن تثاقلتم فأنتم مراد
قد ملكوا الأحرار من غدرهم ... وذللوا بالكره صعب القياد
(من حلقت لحية جار له) ... فلتكنن لحيته في اعتداد

ومنها:

تذكروا وقعة اندلس ... وابصروا منها سبيل الرشاد
لتعلموا غدر العدو وما ... رمى به من كل خطب وآد
إن الخداع عنده سنة ... والنكث دينه متى ما أراد
سلوا الجزائر وما قد لقوا ... من غدره بعد عهود شداد
لاقرّب الرحمن دار امرىء ... مال إلى الاشراك يوماً وماد

---

(10) المصدر نفسه، ص ٢١ ـ ٢٢ .

ويمضي متفجعاً على ما أصاب الدين ومساجده وصوامعه والمدارس والمكاتب والنساء والحرمات من ويلات الاستعمار، وختم قصيدته بقوله:

آه على ثغور عزّ غدت بعد ابتسام قد كساها الحداد
يا أيها الناس اتقوا ربكم وجاهدوا في الله حق الجهاد

وزير شاعر آخر اسمه محمد بن محمد بن عبدالله بن غريط المكناسي المتوفي سنة ١٨٦٣ م ، هزته واقعة احتلال تلمسان فقال [١١] :

مالي أرى جفن أهل الغرب وسنانا من بعد ما أخذ الرومي تلمسانا
كأنهم ما دروا ماذا يريد بهم عدو دينهم، لا نال إمكاناً
ولا على فعله في دفتر وقفوا بأهل أندلس يا بئس ما كانا
لا عذر للمسلمين في التكاسل عن جهاده حسبة منهم وإيمانا
أين الكماة الحماة ما لهم رقدوا والكفر في أخذهم ما زال يقظانا؟
أين الأباة لمسّ الضيم ما لهم إليه لم ينفروا رجلا وركبانا
كأن أهل جزائر وغيرهم ليسوا لنا باعتبار الدين إخواناً
كأن ما هم به من الهوان على من قد عداهم من أهل الدين قد هانا
يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا من العدا حذركم سرا وإعلانا
فليس يؤمن غدرهم وإن بعدوا فكيف إذ أصبحوا للحدّ جيرانا
إن لم يفاجئه من تلقائكم مدد يمدّ نحوكم للكيد أشطانا
فجددوا عزمكم على قتالهم واستخلصوا منهم قرى وبلدانا
تلك الجهات بها الإسلام يندبكم لتهدموا بيعا فيها وأوثانا
وتنقذوا أهلها من العدو فقد أراهم من شنيع المكر ألوانا
والدين أوجب أن نسعى لنصرتهم بالنفس والمال أشياخاً وشبانا
والله منا أشترى نفوسنا كرما بجنة جمعت حورا وولدانا
وكم وكم آية في حضنا وردت على الجهاد فما أقل جدوانا
وكم وكم من حديث في فضائله يصير الجبنا النكاص شجعانا
موتوا كراماً فإن الحر يأنف من معيشة تدع الحليم حيرانا
لا موت أفضل من موت الجهاد لمن يرجو من الله رحمات ورضوانا
إن تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا ولتخلعوا في ابتغاء القوم ارسانا

---

(١١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٢ - ٢٤ .

حتى قال:

بيعوا نفوسكم واغزوا عدوكم ... كفى بصفقة من لم يغز خسرانا
وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى ... جلاده أخوة كونوا واعوانا
ما قصر العمر إقدام على خطر ... ولا أنال الخلود الجبن إنسانا

وأثار إحتلال تطوان من قبل الغزاة الأسبان الشاعر المفضل أفيلال (المتوفي سنة ١٣٠٤هـ) فقال من قصيدة[١٢] :

يا دهر قل لي علامه ... كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهي ... ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام ... للرفع كان علامه
ملكته لأعادٍ ... ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع ... يحكيه صوب الغمامه
على مساجد أضحت ... تباع فيها المدامه

ولقد دعا الشاعر المغربي طاهر الا يغراني إلى نصرة الدين بإعلان الجهاد في سبيل الله، منبهاً قومه إلى شرور المستعمر وما يبيته للدين الحنيف[١٣] :

لقد أنشب الكفر المداهن نابه ... ومدّ إلى سرح الهدى كف مفسد
وكاد بأنواع المكائد أهله ... فصار ينادي خامري وتبلدي
أسرّ إحتساء في أرتغاء وماله ... سوى الدين من مرمى يرام ومقصد
وقد بلغ السيل الزبى بظهوره ... وإن لم يداو العِرُّ بالكي يزدد
فقد طبق الصحراء بالنحس شؤمه ... واعدى نواحي التل بالخبث الردي
وجاس على هاذي السواحل كلها ... ببحر سفين بالقوارب مزبد
وغصّ به الدين الحنيفي فاكتسى ... لما يشتكي من بثه ثوب مكمد
شجاه الأسى من فقد حر يهمه ... فكاك ذماه من يد المتمرد
يقود إليه كل أصيد قارم ... للحم العدا مخشوشن متعمدد
يجاهد في الله العظيم عدوه ... بإقدام ليث في الكريهة محرد
يشب لظى الهيجا بقلب مشبع ... وكف بصير بالطعان معود

---

(١٢) عبد الله كنون، احاديث عن الأدب المغربي الحديث (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٤)، ص ٢٦ .
(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

وأطـراق ثـعبـان وكـيـد ثـعـالـة وتصميم فهـد في الجراءة فـرهـد
ويختـال مـا بين الصفـوف كـأنـه عـروس تهـادى بين خـرد وخرّد
على كـل طـرف سـابح ومـطهم قوى القرى عبـل كصرح ممـرد
ببيض سيـوف أو بسمـر مـدافـع مزلـزلـة إن يبرق السيف تـرعـد
يـلاعب أطـراف الـرمـاح كـأنـه صبي مع الولـدان بـالجوز مسنـد
يخال مجال الحرب وجه صحيفة تسـطرهـا خيـل اللقـا بـالتـطود
فينقط مـدفـاع ويشكـل صـارم ويكتـب رمـح الخط خط مجـود

هذا الارهاص الثوري الداعي للتهيؤ لمقارعة المد الإستعماري دفاعاً عن مقومات الأمة: لغتها ودينها وأرضها، دفع الشاعر المغربي محمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي، المتوفي سنة ١٨٦٧م، إلى كتابة مطولة تجاوز المئة بيت يستنهض فيها قومه للدفاع عن مقوماتهم ومما نقتطفه من هذه المطولة قوله(١٤):

تـرانـا عـاكـفين على الـمغـاني لفـرط الشـوق نـندبهـا حيـارى
أسـارى لـوعـة وأسـى نـنـادي ومـا يغني النـداء عن الأسـارى
ولـو في المسلمين اليـوم حـر يفـك الأسـر أو يحمي الـذمـارا
لفكـوا دينـهـم وحمـوه لـمـا أراد الـكـافـرون بـه الـصـغـارا
فـإن بـادرتـمـوه تـداركـوه وإلا يـسـبـق الـسـيـف الـبـدارا
بـأن تستنصـروا مـولى نصيـرا لـمن وإلى ومـن طـلب إنـتصـارا
مجيبـاً دعـوة الـداعي مجيـرا من الأسـواء كـل من استـجـارا
وإن تـسـتنفـروا جـمـتـاً لـهـامـا تغص بـه السبـاسب والصحـارى

حتى يقول:

فمن يـك هكـذا يحيى حميـدا ويستحلي بمـوطنـه الـقـرارا
ومـن لا فـالممـات بـه جـديـر ولـو للنـار بعـد المـوت صـارا

حتى يقول:

وروم عـاينـوا في الـدين ضعفـا فـرامـوا كلمـا رامـوا اختبـارا
فـإن أنـتم سعيـتم وانـتـدبـتم بـرغـم منـهم ازدجـروا أزدجـارا

---

(١٤) انظر النص كاملاً في: احمد بن الامين الشنقيطي، الوسيط في أدب شنقيط (القاهرة: ١٩١٣)، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٤.

وإن أنتم تكاسلتم وخمتم   برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فالفوكم -كما يبغون - فوضى   حيارى لا انتداب ولا ائتمارا

إلى أن يقول:

فيا للمسلمين لما دهاكم   إلى كم لا تردون الحوارا
أجيبوا داعي المولى تعالى   أو اعتذروا ولن تجدوا اعتذارا
أجيبوه بدنياكم تعزوا   وتدّخروا من الأجْرِ ادّخارا

وقد يلاحظ ملاحظ طغيان الشعور الديني على الحس الوطني أو القومي في هذه القصائد، والجواب أن ذلك كان منسجماً مع واقع الاستعمار الفرنسي الذي جعل من أهدافه في المغرب محاربة الدين الإسلامي واللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعمل جاهداً على دعم حركات التبشير في المناطق البربرية. ونكتفي هنا بالإشارة إلى ما قاله «كود فرادومنين» في أطروحة الدكتوراه التي قدمها عن جهود فرنسا في ميدان التعليم بالمغرب سنة ١٩٢٨، وترجمته [إن المدارس البربرية تمتاز بطابع سياسي وأدبي بارز جداً فقد جعلت تحت إشراف مصلحة الإستعلامات لتعينها في مهمتها وتوجه هذه المدارس البربرية إتجاها فرنسيا لذلك وقع اقصاء اللغة العربية والقرآن اقصاء كلياً منها. إن اللغة الفرنسية - لا اللغة البربرية - هي التي يجب أن تسد مسد اللغة العربية كلغة متداولة وكلغة حضارة][١٥] .

إن الوجه الصليبي الكالح للاستعمار الفرنسي تجلى من خلال إجابة (بيدو) وزير الخارجية الفرنسي لمن توسط لديه من المسيحيين بإسم مصلحة فرنسا، عساه أن يرجع عن قراره في إعتقال السلطان محمد الخامس ونفيه، إذ قال ما ترجمته:

«إن الحرب القائمة في المغرب هي حرب بين الصليب وبين الهلال، ولا يمكنني أن أترك الهلال ينتصر على الصليب»[١٦] .

طغيان الشعور الديني على شعر المقاومة الذي مثلنا له كان انعكاساً لسلوك المستعمر بالذات، وهو شعور كان يرى الاستعمار الأوروبي امتداداً للحروب الصليبية. إن بعض الوقائع التاريخية قد عززت صدق هذا الإحساس.

---

(١٥) كتاب المغرب الاقصى، نشره حزب الاستقلال .

(١٦) علال الفاسي، محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٥)، ص ١٣١ .

فالجنرال غورو لما إحتل دمشق بعد واقعة ميسلون، وقف على قبر البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي وقال: صلاح الدين (نحن هنا «ونحن» هذه ترمز للغزاة الصليبيين قطعاً).

مثل هذا قاله اللورد (اللنبي) حين إحتل القدس في الحرب العالمية الأولى إذ صرح: (الآن انتهت الحرب الصليبية)(١٧).

إننا لا يمكن أن نلوم شعراء المغرب على غيرتهم الدينية، ونحن نقرأ صوراً من التعصب الديني الكالح لأقطاب السياسة والجيش في الغرب المستعمر آنذاك.

تلك نماذج من شعر المقاومة المغربي، بل شعر الدعوة إلى الكفاح ضد الاستعمار، انسربت إلينا عبر الزمن لتؤكد قدرة الشاعر المغربي على أستشفاف الأحداث والتنبؤ بها، وربط المقدمات بالنتائج، وتوقع الغزو الاستعماري للمغرب، والدعوة للتهيؤ والتصدي له.

إن إحتلال المغرب الأقصى وفرض الحماية عليه تم بعد سلسلة من المعاهدات السرية، مكنت فرنسا وأسبانيا من الإنفراد به واقتسامه. ففي عام ١٩٠٠ وقع انفاق سري بين فرنسا وأسبانيا على تقسيم أقصى جنوب المغرب فاعطيت موريتانيا لفرنسا وخصصت الساقية الحمراء لاسبانيا. وفي عام ١٩٠٢ رضيت إيطاليا باحتلال فرنسا لمراكش، نظير اعتراف فرنسا لها بحق إحتلال طرابلس الغرب وفي عام ١٩٠٤ اتفق الأنكليز والفرنسيون على أن تطلق يد إنكلترا في مصر وطمأنة مصالحها الإستراتيجية في المغرب نظير إطلاق يد فرنسافي المغرب الأقصى وانضمت اسبانيا لهذاالاتفاق،مقابل الإعتراف لها بمناطق نفوذها في شمال المغرب وجنوبه. وبقيت المانيا حجر العثرة الوحيد أمام نوايا فرنسا الإستعمارية ـ آنذاك ـ فتنازلت فرنسا لها عن منطقة التوغو وجزء من الكاميرون في أفريقيا الإستوائية، كما منحتها امتيازات إقتصادية في مراكش، نظير موافقتها على احتلال فرنسا للمغرب وهكذا كان(١٨)، وسقط المغرب في اشراك الإستعمار وبدأت في ٣٠ آذار/مارس ١٩١٢ فترة الحماية الرهيبة.

جمّة هي الأحداث التي حفل بها تاريخ المغرب السياسي والعسكري خلال فترة

---

(١٧) كنون، احاديث عن الأدب المغربي الحديث، ص ٢٧.

(١٨) الفاسي، محاضرات في المغرب ....، ص ٦ ـ ٧؛ وانظر: محمد خير فارس، المسألة المغربية (١٩٠٠ ـ ١٩١٢) (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١)، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٩.

الحماية (١٩١٢ ـ ١٩٥٦). وليس من شأن هذا البحث المركز أن يوغل في تفاصيل تاريخية ليس هنا موضعها، يكفينا أن نركز على الخطوط الرئيسة من هذا التاريخ، والتي يمكن بالوقوف عندها إستجلاء جوانب من تاريخه الأدبي. وإذا كانت القوات الفرنسية الغازية قد إستطاعت أن تقهر تمرد الجيش المغربي على إتفاقية الحماية بعد معارك دموية جرت في فاس، فإن الشعب العربي في المغرب تحصّن في جباله وصحرائهوواصل الكفاح المسلح ربع قرن وزيادة.

وجاءت الحرب العالمية الأولى والمغرب على فوّهة بركان والثورة تعصف في أغلب أركانه باستثناء المدن الساحلية وضواحيها، وحين اضطرت فرنسا إلى سحب بعض قواتها الموجودة في المغرب وإرسالها إلى فرنسا، والإقتصار على مخطط جربي يتلخص بربط المغرب الشرقي بالمغرب الغربي لحماية خطوط مواصلاته إلى البحر، والعمل على ابقاء الطريق بين فاس ومراكش مفتوحاً وحماية جوانبه بمهاجمة القبائل الثائرة حول قصبة تادلة[١٩]، فإن هذا المخطط أصطدم ببسالة المجاهدين (الزيانيين) وقادتهم البواسل موحا وحمو، وموحا وسعيد وسيدي حما موش، الذين أوقعوا بالغزاة الفرنسين خسائر فادحة وهزموهم هزائم شنعاء. وسأروي لكم هنا خبر موقعة واحدة هي موقعة دوار (موحا وحمو) التي قادها الجنرال الفرنسي هنري، في حملة تضم ثلاثة وأربعين ضابطاً والفا ومائتين وثلاثين جندياً. وقد فاجأ خروجهم من (خنيفرة) مجاهدي (زايان) فتقهقروا، ولكن سرعان ما عاودوا الهجوم على الفرنسيين والسنغاليين وجرت معارك ضارية انهزم فيها المستعمرون، فوصلتهم إمدادات بقيادة الكولونيل لوكا، فانهزم هو الآخر مع القوة التي قادها الكولونيل لافير دور. وكانت حصيلة المعركة فقدان الفرنسيين لثلاثة وثلاثين ضابطاً وخمسمائة وتسعين جندياً قتلوا في المعركة. واستشهد من مجاهدي المغاربة الزيانيين عدد كبير.

وقد جرت معارك مماثلة في كل من بني مطير وتادلة وخنيفرة وازرو وميدلت وتافيلالت خلال الحرب العالمية الأولى.

هذا بعض ما جرى في المغرب من مقاومة شعبية مسلحة للغزو الإستعماري، ظلت متأججة حتى استشهد قائدها العظيم موحا وحمو الزياني عام ١٩٢٠.

في أقصى الجنوب من المغرب قامت ثورة أخرى في قلب الصحراء قادها الشاعر

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.

الثائر (أحمد الهيبة) بن الشيخ ماء العينين الصحراوي، الذي تولى زعامة الصحراء المغربية سنة ١٣٢٨هـ بعد وفاة أبيه فواجه عدوان فرنسا على المغرب وتدهور الأوضاع السياسية بإعلان نفسه أميراً، فبايعته قبائل كثيرة وحرر الصحراء كما حرر مراكش. وتضافرت عدة عوامل على دحره فنكص عن مراكش وآب إلى تاوردانت، وظل يواصل الجهاد ضد المستعمرين إلى أن توفي سنة ١٩١٩ فواصل أخوه قتال المستعمرين حتى غلب على أمره سنة ١٩٣٤.

إلى جانب ثورات الوسط والجنوب فقد ثار الشمال أيضاً. ففي عام ١٩٢٢ ثار محمد بن عبد الكريم الخطابي في شمال المغرب وفي منطقة الريف بالذات، وأوقع خسائر فادحة بالقوات الأسبانية، واستعصى أمر الثورة على الأسبان فاستعانوا بالفرنسيين، فلم يستطيعوا معاً التغلب على هذه الثورة العظيمة إلا بعد خمس سنوات من معارك ضارية.

هذا على الصعيد العسكري، وكانت فرنسا قد أوغلت في تنفيذ مخططاتها الرامية إلى دمج المغرب العربي وجعله جزءاً من فرنسا، عن طريق محو شخصيته الوطنية وفرنسة البلاد. ففي نطاق السيطرة الاقتصادية واصلت نزع الأراضي ومنحها للمعمرين الفرنسيين، وجعلت من المغرب سوقاً للبضائع الفرنسية، وعملت على افقار الشعب العربي في المغرب والسيطرة على مرافق البلاد الإقتصادية، وجعلت الإقتصاد المغربي متمما للإقتصاد الفرنسي. وفي نطاق السيطرة الثقافية عملت فرنسا على محاربة التعليم القومي واللغة العربية والعلوم الإسلامية، وأعلنت حرباً مكشوفة على المنظمات الثقافية المغربية، وفي مقدمتها جامعة القرويين وفروعها، واضعفت إلى حد بعيد نسبة التعليم الرسمي المخصص لأطفال المغاربة، وواصلت دعم السياسة التبشيرية واضطهدت المسلمين في مساجدهم واوقافهم.

وتجلت السيطرة الإجتماعية في حرمان المغاربة من الحريات العامة، كحرية إنشاء الأحزاب والجمعيات والصحف. وكانت حريات الإنسان مصادرة في ظل الإستعمار الفرنسي، ثم أرادت فرنسا أن تدق أسفيناً تمزق به وحدة الشعب المغربي المسلم بتجزئته إلى عرب وبربر، والحاق البربر بالمحاكم الفرنسية وبالإدارة الفرنسية، وذلك بإصدارها الظهير البربري في ١٦ أيار/مايو ١٩٣٠. فثارت ثائرة الشعب المغربي وعمت المظاهرات واندفعت القبائل البربرية إلى العاصمة تطالب بحماية الدين ولغة القرآن الكريم، وانعكس هذا كله على الصحف الفرنسية والعربية في شمال المغرب وفي الوطن العربي، وكان من نتائج هذا الغليان الشعبي أن عقد مؤتمر وطني في فاس، اتخذت فيه قرارات أرسلت مع وفد للسلطان في الرباط طالبت بالآتي:

١ ـ الغاء الظهير البربري
٢ ـ وحدة التشريع والإدارة في جميع المغرب
٣ ـ تركيز جميع الموظفين في يد السلطان وحكومته.

وعلى الرغم من الإجراءات العنيفة التي اتخذتها فرنسا ضد الوفد وأعضاء اللجان التي انبثقت عنه في شتى أرجاء المغرب لتنسيق حركة المعارضة، إلا أن الشعب المغربي بصموده الرائع وتمسكه بوحدته نجح في ضرب الظهير البربري وقبره في مهده. في ظل هذا الصراع أنبثقت التنظيمات السياسية الشعبية في تاريخ المغرب الحديث، ففي عام ١٩٣٤ أسست (كتلة العمل الوطني) بزعامة علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، ثم أسس الوزاني بعد انفصاله عن الكتلة حزب (الحركة القومية). وفي شمال المغرب أسس عبد الخالق الطريس حزب (الإصلاح الوطني).

إن كتلة العمل الوطني جسدت العمل الوطني في شكل تنظيم شعبي وصحافة وطنية تدافع عن المغرب، داخل الوطن وخارجه، بالعربية وبالفرنسية. كما أسست في أغلب المدن والقرى المغربية مدارس قرآنية مجددة يرجع لها الفضل في حماية الثقافة العربية وخلق الوعي القومي لدى الشباب. وقابل الإستعمار المطالب الوطنية الجديدة بالحديد والنار والسجون، فغصت المعتقلات بعشرات الآلاف من المناضلين وجرت معارك دموية في مكناس في ١٨ آذار/مارس ١٩٣٧، ومعارك الخميسات في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر من السنة ذاتها. وحين عمدت السلطة الإستعمارية إلى تعطيل الصحف الوطنية قررت الكتلة توجيه الحركة نحو المعارضة المطلقة لسياسة الحماية، إلى أن يعترف للشعب المغربي بحقوقه المغصوبة، فأمر الجنرال الفرنسي (نوجيس) باعتقال اعضاء اللجنة التنفيذية ونفيهم إلى مراكز مختلفة في الصحراء، وإبعاد المرحوم علال الفاسي زعيم الكتلة إلى الغابون في قلب أفريقيا الإستوائية. وثار المغرب ثورة عارمة، ووقعت إصطدامات دامية بين الجيش الفرنسي والوطنيين في فاس والرباط والقنيطرة والدار البيضاء.

وحين جاءت الحرب العالمية الثانية دخل العمل الوطني دور الخفاء. وأيد سلطان المغرب الحلفاء ضد دول المحور أملاً في التحرر بعد الحرب، لكن وعود روزفلت وسواه ذهبت أدراج الرياح. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٤ قدمت الأحزاب الوطنية في المغرب وعلى رأسها كتلة العمل الوطني، التي أصبح اسمها حزب الإستقلال، وثيقة الإستقلال إلى سلطان المغرب. وقابلت السلطة الفرنسية إعلان هذه الوثيقة بقمع وحشي لا نظير له.

وتفاقمت المظاهرات فاضطرت فرنسا لتغيير المقيم العام الفرنسي، وأعادت عدداً من الزعماء من منافيهم في محاولة لتهدئة الوضع. وواصل الاستقلاليون نشاطهم في فتح المدارس والمعاهد لتدريس العربية وتعميق الوعي القومي وتنظيم الجماهير المغربية، وفي ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٧ ارتكب الفرنسيون مذابح وحشية في الدار البيضاء. لقد كان قيام الأمم المتحدة ونشوء الجامعة العربية من الحوافز الدافعة للمغرب إلى قطع الشوط إلى نهايته في سبيل التحرير.

إن تأييد السلطان المرحوم محمد الخامس لمطالب الحركة الوطنية جعل الصراع بين القصر الملكي والمقيم الفرنسي حتمياً. ولم تفلح الزيارة الرسمية التي أداها السلطان لباريس في زحزحته عن موقفه الوطني وإزداد التفاف الشعب المغربي حوله في تصميم على نيل الإستقلال.

وفي ٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٢ نفذ بونيفاس جلاد الدار البيضاء مذبحة شنيعة في المدينة ذهب ضحيتها آلاف المغاربة ، وواصلت فرنسا سياسة القمع والقتل والتشريد . ثم أقدمت على اعتقال سلطان المغرب يوم ٢٠ آب / أغسطس ١٩٥٣ ونفته مع أسرته إلى مدغشقر . فتجددت الثورة في أرجاء المغرب في شكل أعمال فدائية رائعة ، كان من بينها محاولة الفدائي (علال بن عبد الله) إغتيال الخليفة المزيف الذي نصبه الإستعمار خلفاً للسلطان المنفي . وتشكل جيش شعبي للتحرير قاد الثورة ثلاث سنوات ثم صادف أن تعاورت المحن على فرنسا ، فقد كانت آنذاك تعاني من تدهور أوضاعها العسكرية في الهند الصينية : وبدأ انبثاق الثورة الجزائرية يقض مضاجع دهاقين الإستعمار الفرنسي . وفي مواجهة هذه التحديات تم توقيع إتفاقية الإستقلال مع المغرب في ٢ آذار / مارس ١٩٥٦ ، وكذلك فعلوا مع تونس ليستطيعوا التفرغ للثورة الجزائرية العملاقة . وفي ٧ نيسان / أبريل ١٩٥٦ أعلنت أسبانيا إعترافها بإستقلال المغرب ، لكنها ظلت محتلة لسبتة ومليلية والصحراء (ريودورو) .

وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٥ أستطاع المغاربة بالمسيرة الخضراء تحرير أقليم الصحراء من الحماية الأسبانية وإعادته إلى الوطن الأم .

والسؤال ماذا كان دور الشعر المغربي في مقاومة الإستعمار في عهد الحماية ؟

إبتداء سنستبعد لونا مهماً من ألوان الشعر الوطني هو الشعر الإصلاحي الذي كان يهدف إلى إعادة بناء الأمة عن طريق نشر العلم والتعليم والتمسك بالدين الصحيح وبالوحدة الوطنية . لأن الخوض في هذا اللون يخرج عن الإطار الذي رسمناه لهذا

البحث ، لذا سنقتصر في بحثنا هذا على شعر الجهاد والمقاومة الذي جعل الكفاح المسلح وسيلته الرئيسة في تخليص البلاد من براثن الإستعمار .

ونلاحظ هنا أن شعر المقاومة هذا قد أتسم بالروح الإسلامية ، ومرد ذلك طبيعة تكوين الشعب المغربي من عرب وبربر وحدهم الإسلام وصهرهم عبر القرون .

وثمة ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة هي أن رجال الدين في المغرب وقفوا إلى جانب الثورات التحررية فيه ، كالشيخ ماء العينين وأبنه الشاعر الثائر أحمد الهيبة ، وكالشاعر الثائر أحمد سكيرج ، الذي كان زعيماً من زعماء الطريقة التيجانية ، والشيخ علي الوكيلي من أبرز رجال الدين في ثورة الريف . وظاهرة ثالثة تبرز في الشعر المغربي بشكل يستدعي الإعجاب والأكبار معاً ، هي شيوع ظاهرة الشاعر المكافح حليف المنافي والسجون ، وهي ظاهرة ترتفع ببعضهم إلى حد الإستشهاد ، كالشاعر (محمد القرى) الذي أستشهد في المنفى بالصحراء من أثر التعذيب عام ١٩٣٧ م . وكالشاعر أحمد الهيبة الذي توفي في عام ١٣٣٧هـ وهو يقود ثورة عارمة ضد الإستعمار في الصحراء المغربية . أما الشعراء المغاربة الذين سجنوا سنوات طويلة أيام الإستعمار ، وعانوا ألواناً من العذاب في المنافي ، فهم كثر ، ومنهم على سبيل التمثيل لا الحصر: أحمد بن شقرون ـ المهدي زربوح ـ محمد المختار السويسي ـ أدريس العلمي ـ محمد بن هاشم العلوي ـ الطيب العلوي ـ الزعيم المرحوم علال الفاسي ـ عبد القادر حسن المراكشي ـ محمد العربي الأسفي ـ قدور الورطاسي ـ محمد بن علي الدكالي ـ محمد الحبيب ـ محمد الريفي ـ عبد السلام الولي ـ محمد البلغيثي .

وثمة ظاهرة رابعة بدت في هذا الشعر الوطني هي أنه لم يكن في مواجهة إستعمار يفرض إحتلالاً عسكرياً وإستغلالاً إقتصادياً فحسب ، بل كان في مواجهة إستعمار إستيطاني دهم الفكر واللغة والدين . وهذا يعلل التصلب الشديد الذي أبدته الحركة الوطنية والشعراء الوطنيون في التمسك بمقومات الأمة الأساسية وفي مقدمتها « الإسلام »[٢٠] .

وظاهرة خامسة تتناول أسلوب هذا الشعر ، فشعراء المقاومة أستخدموا القصيدة العمودية ، كما أستخدموا الموشح والنشيد والمسرحية في نظم أشعارهم .

---

(٢٠) ابراهيم السولامي ؛ الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية (الدار البيضاء : د . ت .) ، ص ٢٠٩ .

وظاهرة سادسة اتخذت من وجود ملك وطني على رأس البلاد منفذا وسبباً لكتابة عدد جم من القصائد سميت مجازاً بالعرشيات ، وهي قصائد كانت تكتب وتلقى في عيد العرش أو عيد المولد النبوي ، وتتخذ من هذه المناسبات وسيلة للتعبير عن المطالب الوطنية في التحرر والإستقلال ومقارعة المستعمر ، كما كانت تسجل مراحل النضال الوطني من خلال نضال الملك الوطني المرحوم محمد الخامس ، بعد التحالف بينه وبين الحركة الوطنية .

لم يكن الشاعر المغربي مسجلاً للأحداث الوطنية مواكباً لها كالمخبر الصحفي مثلاً . بل كان في بعض ما كتبه رائداً ومتنبئاً بما سيحدث ، وهذا هو الأرهاص الثوري الذي عرضنا نماذج منه فيما تقدم . وكان في بعضها الآخر متحدياً مستثيراً للهمم مستنهضاً العزائم مجسداً لما نسميه بالرفض في زمننا هذا .

وعلى وجه العموم كان الشعر المغربي ديوان الأمة المعبر عن آمالها في التحرر والإستقلال والوحدة الوطنية ، والمترجم بالحرف المموسق آلامها وأشجانها .

شعر الثورات المسلحة

مما يبعث الحزن في نفس الباحث أن ثورة عظيمة قامت في جبال الأطلس ضد الإستعمار الفرنسي ، قادها بنو زايان وقائدهم الباسل موحاو حمو الزياني الذي أستشهد عام ١٩٢٠ بعد معارك ضارية ونضال مسلح طويل الأمد ، لم نجد لها أيّ صدى في الشعر المغربي ، ولم نظفر رغم طول التنقيب بقصيدة واحدة تجسد تجارب الشعراء مع هذه الثورة .

أما ثورة الريف ، التي قادها الأمير الخطابي ، فقد ضاع - فيما يبدو - معظم ما قيل فيها من شعر ، فمن ذلك مطلع قصيدة للشاعر محمد السليماني هو[٢١] :

دع الفتيـات تمـرح في القصـور ويمّـم مسعـفـا وادي الـذكـور

وذكر المرحوم علال الفاسي مساجلة دارت بينه وبين الشاعر المغربي محمد المختار السوسي مكتفياً بمطلعها، وهي مساجلة جرت بعد إنطفاء ثورة الريف ونص المطلع.

---

(٢١) علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٨) ، ص ١٤٦ وما بعدها .

قضي القضاء وحقق الأمر   وعرا الذي ما خلته يعرو(٢٢)

ومن أناشيد هذه الثورة النشيد الذي نظمه أبو بكر بناني، وكان يتردد على لسان الجماهير آنذاك تتغنى فيه بأمجاد الثورة وبطولة قائدها ٢٣ .

يا بني المغرب ما هذا الرقاد   ما لكم صرتم كأمثال الجماد
فدعوا النوم وقوموا للجهاد   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب ما هذا الفتور   أو لستم ذلك الشعب الغيور
طهروا الأوطان من كل كفور   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب أن الوطنا   يرتجي من جمعكم طرح الونا
فأحملوا الصمصام مع سمر القنا   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب سيروا للأمام   وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم ابن الكرام   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب هيا للقتال   واستعدوا للوغى قبل النزال
أنتم والله شجعان الرجال   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب هبوا هبة   واضربوا وجه فرنسا ضربة
ذكرها يبقى عليها سبة   واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب موتوا شهدا   لا تعيشوا تحت أذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى   واسألوا الله انتصار المسلمين.

وللشاعر المغربي محمد بن اليمني الناصري قصيدة طويلة تحدث فيها عن انتصارات بطل الريف على الجيوش الفرنسية والأسبانية، اقتطف منها قوله(٢٤) :

أنظر لما تلقى فرنسا منه إذ   قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها   فاستنزفته رجاله استنزافاً
وأدال دولتها بفرط دهائه   وتمزقت أحزابها أطرافا
حتى أثار بمجلسيها ثورة   شعواء ترجو الهدنة استعطافا
وإذا (ليوطي) قد تردى ساقطا   متحملاً مما جناه أكافا

(٢٢) المصدر نفسه .
(٢٣) كنون ، احاديث . . . ، ص ٦٨ .
(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

وحليفه (دي ريفيرا) فرّ لا | يلوي على شيء به يتلافى
وتنافرت آراء دولته بما | أضحت رؤوس مجنديه قطافا
سل عنهم باب المروج وتازة | وسلاسُ البيبان والاجرافا
وسل البرانس والتسول وجاية | والسبت والكيفان والأكنافا
تلك المواقع روعت أبطالهم | وجلت لنا عن روعهم أسجافا

ويحس الباحث بالأسى مرة أخرى حين يؤرخ لثورة الصحراء المغربية ضد الإستعمار الفرنسي، التي قادها الشاعر الثائر أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين العلامة والمجاهد الكبير.

فشعر هذا الشاعر لم يبق منه غير ديوان صغير طبع في ذيل كتاب أبيه المعنون: **نعت البدايات وتوصيف النهايات** المطبوع في فاس سنة ١٩٠٤، وقصائده لا صلة لها بالثورة. شعر أحمد الهيبة الثوري ضاع فيما يبدو، والأنكى من ذلك أن الطاهر الايفراني، وهو شاعر مغربي مجود رافق أحمد الهيبة وأخاه من عام ١٣٣٠ الى ١٣٥٢، مادحاً أياهما واصفاً معاركهما راثياً الأول بعد وفاته، هذا الشاعر الذي كان شاعر الثورة المغربية الصحراوية ضد الإستعمار جمع ديوانه صديقه العربي السارموكي، وأضاف إليه ابن الشاعر محمد الايفراني قصائد أخرى، والديوان في مجلدين، لكنه ما زال مخطوطاً لم يطبع[٢٥]، وهو عرضة للضياع، وبضياعه تضيع صحيفة ناصعة من صحائف شعر المقاومة المغربي. وأنني من موقفي هذا أدعو أتحاد كتاب المغرب والجهات الثقافية في المغرب إلى تبني طبع هذا الديوان، حفظاً لأدب المقاومة الصحراوي من الضياع.

في عام ١٩١٤ قدم الايفراني من (سوس) مهنئاً الثائر أحمد الهيبة بأمامته وقيادته للثورة، فقال[٢٦]:

يا أمير المؤمنينا | ومبيد الكافرينا
يا إماماً قام لله | بأمر الله فينا
يا هماما كلما هم | رأى الحق اليقينا
قام في الناس رشيدا | وسديدا وامينا
وغدا للناس أو دين الـ | ـهدى حصنا حصينا

---

(٢٥) السولامي، الشعر الوطني ...، ص ٢١٧، ٢٦٤.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

كـنـت لـلـصـديـان وردا شبـمـا عـذبـا معـيـنـا
ولـديـن الله سـيـفـا صـادف الكف المعينـا
فـإذا مـا قمت تلقى النـ ـصـر والـفـتـح الـمـبـيـنـا
أو مـا أنت ابن مـا الـعـيـ ـنين من يمـلأ الـعـيـونـا
أو مـا أخـدمـك الـلـ ـه بـحـورا وسـفـيـنـا
أو مـا شـتـت بـالـتـد بيـر جمع الـكـافـرينـا
فـغـدا بـعـضـهـم فـي بعضهم بضع سنينا
فـاستـعـذ بـالله وانـصـر دين خـيـر الـعـالـمـيـنـا
واسـتـعـن بـالله حـقـا فـجـديـر أن يـعـيـنـا
وأصبـر النفس على الـنـا س فقـد يجفـون حيـنـا
واضـرب الكفر بجند الـ ـلـه ضـرب الـصـادقـيـنـا
واسـأل الـصـارم واقـطـعـ ـهم شـمـالا ويـمـيـنـا
فثـمـار الـنـصـر تـجـنـي بسيـوف الـمـصـلـتـيـنـا
فـاغـنـم الـفـتـح هـنـيـئـا شـربـك الـمـاء المعينـا
فـلقـد عـودك الـرحـمـ ـان خـزي الـمـارقـيـنـا
فـلك الله بـأن يـنـ ـصـر مـن يـنـصـر دينـا
ولـك الله بـأن يـكـ ـفي مكـر الـمـاكـرينـا
فـارفـع الـرايـة تـخـفـق بـيـن جـنـبـي جـبـرئـيـنـا
ويـنـادي قـد فـتـحـنـا لـكـم فـتـحـا مـبـيـنـا

وحين استطاع المجاهد الثائر أحمد الهيبة تحرير مدينة مراكش هنأه الايفراني بهذا النصر وحفزه إلى تحرير فاس وبقاع أخرى، بقوله من قصيدة[٢٧] :

لمّـا رأى دين الهدى سـامـتـه أيـ ـدى الكفـر بـالإذلال والإضـلال
ورأى الخلافة ضعضعت أركـانها نـوب الـردى وتـتـابـع الـزلـزال
نهضت عـزيمته فـدارك ما وهى منـهـا بـعـزمـة مـاجـد صـوال
وسـرى إلى (الحمـراء) لا متهيبـا وكـلا ولـيس بـعـاجـز مكـسـال
فـتـزيـنـت بقـدومـه وتـيـمـنـت بـوروده الـمـوفي عـلى الآمـال

(٢٧) محمد المختار السوسي ، المعسول (الدار البيضاء : ١٩٦١) ، ج٤ ، ص ١٣٨ .

حتى قال:

هـتـتـهـا مـراكش وحـلولـهـا متـفـيئـا منـهـا بـخـيـر ظـلال
فـامدد يمينـك نحـو فـاس وبعـدهـا نـصـر وسـعـدك كـافـل بـمـنـال

وتشاء الأقدار إنتكاسة الثورة وتراجع «الهيبة» إلى قلب الصحراء بعد معارك مع الجيوش الفرنسية، ثم اخترمه القدر عام ١٣٣٧هـ فرثاه الطاهر الايفراني افجع رثاء، وظل يواصل دعوة ذويه للجهاد ضد المستعمر:

مضى سيـد الأمـلاك والعلمـاء والـ هـداة فخـل العين تبـك لـه دمـا
فمن لـذمـار المسلمين يحـوطـه ومن لـدفـاع الكفـر أن فغـر الفمـا
فصبـرا بني أبيـه صبـرا لمـا جرى فمـا فـاز إلا من إلـى الله سلّمـا
فـأنتم بـحمـد الله أفـلاك سؤدد إذا مـا توارى النجم اطلعن أنجمـا
فـلا يعـوزنكم من يـسـد مسـده ويحمي حمى الإسلام· أصيد أحـزما
يـدبـر أمـر الملك بـالبـأس والنـدى ويلقي العدا في حومة الحرب ضيغما
فقـل للعـداة الشـامتين تيقـنـوا بيـوم وغى ينسيـكـم مـا تقـدمـا
فسوف ترون الخيل خيل الهدى على كـواهلهـا العقبـان محفـوفـة دما
ويقـدمهـا من «آل مـا العين» سيـد إذا كعت الأبطال في الحرب أقـدما
ويجمـع أمـر الـدين بعـد شتـاتـه إلى أن يـرى عقدا ثمينـا منظما[٢٨]

إن هذا الثائر العظيم لم يسلم من افتراءات مؤرخي عصره، فعباس بن إبراهيم المراكشي مصنف كتاب «الإعلام بمن حلّ مراكش واغمات من الأعلام» أفرد لأحمد الهيبة ترجمة مطولة في كتابه المذكور[٢٩]. وقد تحامل على صاحبنا الثائر ما شاء له قلمه، وأثنى ثناء عطراً على الجنود الفرنساوية التي أنقذت البلاد من فساد الثورة!! إن هذا المؤرخ هو نموذج لمرتزقة المؤرخين الذين عاشوا على فتات موائد المستعمرين، فحاولوا تزييف التاريخ الوطني لصالح الإستعمار وهيهات.

بعد وفاة أحمد الهيبة تولى أخوه (مربيّة ربه) زمام القيادة، فامتدحه الأيفراني بأبيات يحضه فيها على مقارعة المستعمرين الغزاة:

وقـدهـا إلى أرض العـدو كـتـائبـا ترى الموت حلواً في العلاو العنا سهلا

(٢٨) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٤٤ .
(٢٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٩ ـ ٣٠٣ .

ولب نــداء الـدين بـالسيف تجتني
جنا النصر إن السيف أصدق أن سلا

وأبشـر بنصـر يمـلأ الكـون فتحـه
كمـا تشتهي فـالحق يعلو ولا يعلى

فحولـك من أهـل البصائـر أمة
ترى الحرب نارا ثم تقصدها تصلى

وزندك لم يصله ورأيك لم يفل
وعـزمك لم ينكص وسيفـك مافـلا

وخوفك قد أصمى عداك ولم يدع
لابطالهم فكرا يجـول ولا عقلا[30]

ويموت (مربيه ربه) عام ١٣٥٣هـ، ولكن الطاهر الايفراني يظل داعية الكفاح المسلح في سبيل تحرير الوطن من مستعمريه.

في الطريق ذاته سار أخ آخر للهيبة هو محمد الإمام الذي كان شاعراً مجيداً آزر ثورة أخيه الوطنية وجاش صدره بنفثات قومية منها قوله[31] :

بني وطني قـوموا على أسـوق الجد
فـبالجـد نحـظى بـالسعـادة والجـد

وإن مسكـم قـرح فقـد مس مثله
عـداكم وفزتم بـالجميـل وبـالحمـد

ويـوم بيـوم عـادة الـدهـر هكـذا
يـداول بين الناس بـالنحس والسعد

فـلا تخضعـوا مهمـا أديـل عليكم
ولا تفرحوا أن تثلموا مرهف الحد

لئن ساءنا ما قـد لقينا من العـدا
لقـد سرّنـا أنـا على منهـج قصـد

فـلا تبتغوا عن منهـج الحق منهجـا
ولا ترجعوا عـودا لبدء عن القصـد

ولا تجزعوا إن شبت الحرب والتظت
فكم بين سيـدان المعـامـع والأسـد

ومـا دام شبـر تحت سيـطرة العـدا
فـلا تجمعـوا بين الصـوارم والغمـد

فبـرق العـدا مهمـا أستطار فخلب
ومـا تحته غيـر السراب أو الـرعـد

فـلا تسأمـوا من ضـرهم وضـرارهم
وحـربهم في الهـزل كنتم أو الجِـدّ

وخوضوا لهم بحر الخطوب وإن طما
ولا تعبئـوا في الجزر كـان أو المدّ

شعر النضال السياسي

كانت سنة ١٩٢٥ بداية للحركة الوطنية في المغرب التي نشأت في أوساط الطلاب المثقفين، في وقت كان اليأس فيه قد ران على نفوس المغاربة نتيجة إندحار الثورة الوطنية في الريف وفي الصحراء وتساقط مراكز المقاومة الثورية في جبال الأطلس مركزاً بعد الآخر. فجاءت الحركة الوطنية لتمتص هذا اليأس، ولتحل العمل السياسي محل العمل

---

(٣٠) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٥٣ .

(٣١) المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٢٨٩ .

العسكري، الذي لم يكلل بالنجاح بسبب التفوق التكنولوجي والفني والعلمي لقوات الإستعمار على قوات الثورة الوطنية[٣٢]. فشعر هذه المرحلة التي توجت بالإستقلال، واكب الأحداث والمظاهرات والإضرابات، واستنفر القوى وتحدى المستعمر وشحذ العزائم وأرخ لكل الأحداث البارزة في تاريخ النضال السياسي، بما في ذلك رثاء الشهداء من رفاق الطريق، كما تميز الشعر المغربي في هذه المرحلة ببروز لون جديد من ألوان شعر النضال، هو شعر السجون والمنافي.

صحيح أن شعر السجون عرفه العرب من أقدم العصور، ولكنه برز في الشعر المغربي الحديث بشكل حاد ومركز بسبب كثرة عدد الشعراء الذين سجنهم الإستعمار أو نفاهم.

لقد استطاع شعر هذه الفترة تصعيد النضال السياسي وإثارة الإعتزاز في نفوس الشعب بماضيه المجيد وأمجاده التاريخية، محرضاً على البذل والفداء مؤبنا ومقدساً الإستشهاد والشهداء.

لقد بدأ العمل السياسي بما سميّ بالحركة السلفية ـ وهي حركة تقدمية ـ لأنها كانت تهدف إلى تحرير العقل المغربي من التخلف الفكري المؤمن بالخرافة والتواكل. وهي حركة تزعمها رائدان عظيمان هما: محمد بن العربي العلوي، وأبو شعيب الدكالي.

هذه السلفية كانت مناهضة للرجعية وللإستعمار، ذلك أن الإستعمار نشر فكرة خطيرة مؤداها أن الإسلام هو سبب التخلف الفكري والتقني والعلمي والإقتصادي، والمغرب متخلف لأنه بلد إسلامي، فكانت السلفية رداً على هذه الفكرة بإظهار الإسلام بوجهه الصحيح، وإن التخلف ليس ناتجاً عنه، وإنما هو ناتج عن تخلف المسلمين بالذات[٣٣]. وقد وقف عدد من الشعراء المغاربة يدعمون هذه الحركة السلفية التقدمية باشعارهم ومنهم محمد الجزولي ومحمد الأمين الصحراوي ومحمد الحجوي، وللأخير أبيات تجسد هذا الأتجاه أقتطف منها قوله:

أوثقوا رابطة الدين ولا   تتقطع بكم فيه السبيل
طهروه من خرافات تنا   في صحيح الدين والشرع النبيل

---

(٣٢) عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية الى اعلان الاستقلال (الدار البيضاء : ١٩٧٦) ص ٤٨ ، ٥١ ، ٥٧ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ ـ ٦٥ .

حـاربـوا مـن سنّ فـيكـم بـدعـا ... إنهـا في كـاهـل الـديـن فـلـول
حـاربـوهـم بـسـلاح الـعـلـم لا ... تـتـقـوهـم حـاربـوا كـل جـهـول
وأنـبـذوا مـن بـدلـوا في ديـنـكـم ... وتـخـطـوهـم إلى الأصـل الأصـيـل
واجـعـلـوا العلم أسـاسـا فـيـه ... يـدرك المـرء المعـالي ويصول[٣٤]

إن دهاقنة الإستعمار الفرنسي اهتدوا إلى طريقة لتحطيم وحدة المغرب الأقصى عن طريق التفريق بين العرب والبربر عرقاً ولغة وتشريعاً وتعليماً وربما ديناً[٣٥]، فأصدروا الظهير[٣٦] البربري في ١٦ أيار/مايو ١٩٣٠. ففجر إعلان هذا الظهير، الحركة الوطنية، وإنطلقت المظاهرات من المساجد في فاس والرباط وسلاوتطوان وغيرها من المدن المغربية. وطلب حاكم مدينة فاس من المتظاهرين تعيين وفد منهم للمفاوضة، فلما جاءه الوفد أعتقله وجلده وعذب أفراده وسجنهم، فأثار هذا الشاعر المغربي عبد الملك البلغيثي فقال من قصيدة:

إن سـجـنـتـم عـن دفـاع ... رتـبـا نـلـتـم سـنـيـه
أو مـنـعـتـم مـن حـقـوق ... هـي بـالمـجـد حـريـه
أو ضـربـتـم في سـبـيـل ... هـي أنـهـاض الـبـريـه
فـلأنـتـم خـيـر نشء ... حـركـتـهـم وطـنـيـه
لـيس حبس المـرء عـارا ... فـي شـعـوب مـدنـيـه
كـل عـيـش دون عـز ... هـو والله مـنـيـه[٣٧]

ولمحمد العثماني قصيدة مؤثرة كتبها من منفاه في قرية تافراوت حين رأى العلم المغربي يرفع من البنايات الرسمية في المناطق البربرية تمهيداً لفصلها عن المغرب الأم[٣٨].

ويبدو لي أن الشعر كان مقصراً تقصيراً كبيراً عن مواكبة هذه الثورة الشعبية العارمة، التي أستمرت زهاء الثلاثة شهور وحققت أهدافها في تمتين التلاحم الجماهيري بين أبناء المدن وأبناء الجبال، وفي تعميق الوعي بالوحدة الوطنية ونشر الحركة بين أفراد الشعب. كما نجحت الحركة الوطنية في بث نشاطها داخل فرنسا وفي المشرق العربي،

---

(٣٤) محمد القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى (الرباط: ١٩٢٩)، ج٢، ص١٤.
(٣٥) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية...، ص ٦٨.
(٣٦) الظهير تعني المرسوم.
(٣٧) السولامي، الشعر الوطني...، ١٠٧.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

وصدرت صحف تدافع عن وجهة نظرها في داخل المغرب وخارجه. كما عملت للوقوف في وجه المعمرين ومحاولاتهم الدائبة لسلخ أراضي الفلاحين المغاربة، ونشرت الدروس العلنية للتكوين الوطني، واستمرت في تأسيس وتعزيز المدارس الوطنية الابتدائية التي تستخدم اللغة العربية للتعليم.

ولقد دعت الحركة الوطنية في تلك الفترة إلى مقاطعة الصناعة الفرنسية ومنتجات الشركات الفرنسية التي تعمل في المغرب، وهو لون من التفكير كان متأثراً بأفكار غاندي، التي شاعت في كثير من أصقاع العالم آنذاك، والتي تسلك المقاومة السلبية سبيلاً للنضال.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نفهم سرّ إعجاب الشاعر المغربي عبد القادر المقدم بشخصية المهاتما غاندي وأساليبه النضالية، وإفراده ثلاث قصائد في ديوانه للزعيم الهندي الراحل[٣٩] .

وحين زار الملك المرحوم محمد الخامس مدينة فاس وذهب لإداء صلاة الجمعة في مسجد القرويين يوم ٨ أيار/مايو ١٩٣٤ نظمت الحركة الوطنية مظاهرة أحاطت بالملك وعزلته عن الموكب الرسمي. وإن المتظاهرين طافوا به شوارع المدينة وهم ينشدون الأناشيد الوطنية ويهتفون بحياته حتى أعادوه إلى قصره في فاس، فكان ذلك بداية التعاطف بين الملك والحركة الوطنية حتى تحول هذا التعاطف سنة ١٩٤٣ إلى تحالف.

لا بد هنا من الإشارة إلى أن المقاومة المسلحة للإستعمار الفرنسي لم تتوقف تماماً إلا في حدود عام ١٩٣٣. فقد كان الثوار المغاربة بقيادة أبو القاسم النقادي الذي خلف المجاهد موحا وحمو يقاتل الفرنسيين في آيت عطا.

وما تزال فلول المقاومة في الساقية الحمراء تواجه المستعمرين رغم إندحار الثائر أحمد الهيبة. وفلول أخرى تقاتل في جبال الأطلس المتوسط[٤٠] .

لكن النضال السياسي في المغرب كان قد تصاعد عن طريق كتلة العمل الوطني التي تقدمت بكتاب مفصل في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٣٤ إلى الملك والسلطات الفرنسية تتضمن جملة من المطالب الإصلاحية المدروسة في شتى القطاعات، في شكل

---

(٣٩) عبد القادر المقدم، ديوان لمحات الأول (تطوان: ١٩٤٨)، ص ١٢٣، ١٢٦، ١٣٥.

(٤٠) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية ...، ص ١٤٨.

برنامج محكم متكامل لإصلاح الوضع السياسي والإقتصادي والإجتماعي في المغرب. وكان من أهداف الكتلة إحراج الحكومة الفرنسية وكشف تجاوزها على معاهدة الحماية بالذات، وإبطال حجة الإدارة الفرنسية الزاعمة أن الوطنيين ليس لهم هدف. وكذلك طرح برنامج عمل يلتف حوله الوطنيون في تلك المرحلة ويجعلونه محوراً لنضالهم. وضمن هذه المطالب كانت ثلاثة مبادىء جديدة تظهر لأول مرة هي:

(١): الدعوة لانتخاب مجلس وطني بطريق ديموقراطي[٤١] (٢) المطالبه بالقضاء على الإستعمار الفلاحي (٣) الدعوة لحرية تنقيب العمال.

ويمكن اعتبار هذا الكتاب بداية المقاومة السياسية المنظمة للإستعمار الفرنسي. ومرّ عاما ١٩٣٥ و١٩٣٦ والكتلة تعمل على توعية المواطنين بمضمون المطالب. وحين عين «نوجيس» في أيلول/سبتمبر ١٩٣٦ مقيماً عاماً في المغرب تقدمت الكتلة بوثيقة جديدة سميت بالمطالب المستعجلة[٤٢]. وحدث أن منعت السلطات الإستعمارية إجتماعاً جماهيرياً كان مقرراً عقده في الدار البيضاء في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ شعاره ـ حرية الصحافة ـ واعتقلت ثلاثة من زعماء الكتلة: هم علال الفاسي ومحمد اليزيدي والوزاني، فنشبت معارك المواجهة بين أنصار الكتلة والإستعمار من خلال مظاهرات أنطلقت في مختلف المدن المغربية من مساجدها، وقد قاوم الإستعمار تلك المظاهرات بالعنف، فسقط جرحى كثيرون وأكتظت السجون بالوطنيين الأحرار الذين صدرت أحكام بإدانتهم. ثم تراجع المستعمرون قليلاً فأفرجوا عن زعماء الكتلة وعمن صدرت ضدهم أحكام من الوطنيين نتيجة تعليمات جديدة جاءت من باريس. إن هذا الإنفراج الجزئي دفع كتلة العمل الوطني إلى إعلان نفسها حزباً سياسياً علنياً دون إذن من السلطة الفرنسية.

إن السجون التي فتحت أبوابها للوطنيين المغاربة، أوجدت وعمقت لونا جديداً من ألوان شعر المقاومة المغربي ولد في السجون والمنافي. إن الشعراء المغاربة الذين عانوا مرارة السجن والمنفى استطاعوا أن يرسموا صوراً إنسانية مؤثرة لمشاعرهم عبر سجونهم ومنافيهم واختلطت مشاعرهم الخاصة بمشاعرهم العامة إختلاطاً مؤثراً. قال المرحوم الزعيم علال الفاسي وهو في منفاه:

حمامة الـروض قد هيجت أشجـاني لمـا شـدوت بلحن منـك أبكـاني

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٦٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٧٢؛ وانظر هذه المطالب في المصدر ذاته ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

هل أنت مثلي في وجد وفي شجن نأيت قبلي عن أهل وجيران
نبت بك الدار حتى لا أنيس ولا خل يواتيك في سر وإعلان
هل تسعفين بالحان مرجعة من صوتك العذب ما قيست بميزان
أم تبخلين على هذا الغريب بها من بعدما هجت فيه كل وجدان
نعم لأنك في الدنيا محررة تمشين من فنن عال لأفنان
أما أنا فطريد الدار مبعدها بالرغم مني أن أرمي بهجران
ثقي بلادي أني ما أزال على ما كان عندي من عزم وإيمان
أنا الوفي لشعبي والمدافع عن قومي بكل يد عندي وعرفان
لا يحسب القوم أن النفي يرجعني عن مبدأ حلّ في روحي وجسماني[٤٣]

وهذه القصيدة تعيد إلى الذهن بعض روميات أبي فراس الحمداني التي كتبها في الأسر. وفي مقطع من قصيدة أخرى بعنوان «رجع نواح»[٤٤] يقول المرحوم علال الفاسي متحسراً على وطنه وهو في منفاه البعيد:

ويح نفسي
مما يكابد جنسي
وفؤادي
مما تعاني بلادي
من جوع
يعم كل الربوع
ومصائب
محفوفة بمتاعب

أيذبل في الكون روض بلادي وما كان إلا حليف اخضرار؟
وماذا أصاب الغصون الزواهي فلم تغد في يانع الازدهار؟

وأين بهاها؟
وأين جناها؟
وماذا دهاها؟
وماذا عراها؟

---

(٤٣) مجلة السلام (القاهرة)، (تشرين أول / اكتوبر ١٩٣٣).
(٤٤) كتبها في المنفى في نوفمبر ١٩٤٣، انظر النص في: عبد الكريم غلاب، مع الأدب والأدباء (الدار البيضاء: ١٩٧٤)، ص ١٧.

وأين مزارعها اليانعة وأين زياتينها الفارعة؟
أمرّ عليها الجراد الذريع فلم يبق منها سوى الفاجعة؟

فجف الربيع
ومات القطيع
وبح الرضيع
وأن الجميع

دعوني أبكي خطوب بلادي فلا يجمل اليوم أيّ اصطبار
وهل يطفىء الدمع حرّ فؤادي وفيه اللهيب شديد الإوار؟!

إن المعادلة الطويلة التي قاساها الزعيم علال الفاسي في السجون والمنافي جعلته يتخذ من الحرية عقيدة تجري على لسانه وتسري في أعراقه وتحيا في وجدانه، فهو يهيم بذكرها عاشقا متبولا، فيقول مخاطبا إياها:(٤٥)

أهيم باسمك عند الصباح كما هيم الذاكر الزاهد
وأرنو لوجهك عند البطاح كما واجه القبلة العابد
وأرنو إليك بكل صفاتي كأن الجوارح مني عيون
وأصدر عنك بغير التفات وكلي فنون وكلي فتون
وددت لو أني حللت الورى لأشعر فيك بكون اتحاد
أعانق حسنك مستكبرا مع الكل في شفق وامتداد
وددت لو أني هذا التراب وتلك الجبال وهاتي الربى
تجمع هاتي كمثل السحاب وتشمخ فيك بشكل احتبا
وأن لها فيك صمت المصلي يدب صداه بليل الوصال
تحسك ناموسها المتجلي بفيض الجلال وسحر الجمال
وددت لو أني نخل الفلاة وكل النبات وكل الشجر
أحس شموخي وسرّ ثباتي وأزهو بعمقي البعيد الأثر
وددت لو أني زهر الربى يشق الطريق لكي يلمسك
يعانق روحك مستعذبا ويعصر مني طلى خمرتك
وددت لو أني تلك الطيور تهيم بكونك في مرح
وهذا الفراش (حليف) الزهور يراقص لحنك في فرح

---

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٦ .

وددت لو أني هذي البحار | وكل الجداول والأودية
أحس مع الماء صوت انفجار | وأسرح في التربة (المصبية)
وددت لو أني هذا المنير | وتلك السماء وعالمها
وددت لو أني نفس الأثير | وهاتي الرياح وأنغامها
وددت لو أني كل الرجال | وكل الصبايا وأحلامها
أحس برغبتهم للوصال | وآمال نفسي وآلامها
وددت لو أني شهيد المثل | يمدّ إليك اقاحي الجراح
وددت لو أني نفس البطل | وقد فاز بالنصر بعد الكفاح

. . . . . .

أهيم باسمك عند الصباح | كما هيَّم الذاكر الزاهد
وأرنو لوجهك عند البطاح | كما واجه القبلة العابد

المنفى أيضا أوحى للشاعر محمد المختار السوسي قصائد عدة سماها «زفرات المنفى» ضمنها كتابه الألفيات . من هذه الزفرات قوله متحديا من منفاه قوى المستعمر الغاصب[٤٦] :

رويدا أيها الدهر الخؤون | فأنا من يموت ولا يخون
وبأسا من مغامزنا فإنا | لنا عود صليب لا يلين
فربما يهددنا قوى | ولكن ليس فينا من يدين
لنا عزم رصين هل يبالي | بريح قاصف طود رصين؟
فنكل ما تشاء فسوف يأتي | إليك غدا بنا الخبر اليقين
فذلك ما نزيد به مضاء | فلولا الشحذ لم يمض السِّنين

ومما زاد أحزان السوسي أنه نفي من مستقره في مراكش الحمراء إلى قرية «الغ» السوسية في صحراء المغرب، فكان يحز في نفسه أن يرى موطنه الأصلي منفى[٤٧] :

يعزّ عليّ أن أرى موطني منفى | وألا أرى فيه أنسيا ولا ألفا
تغربت عنه منذ عشرين حجة | فكيف تراني فيه من بعدها كيفا
خرجت وإني في التعالي تشامخا | وأرجع والإذلال يرغمني أنفا
أروح وأغدو في ملاقاة أهله | كما يعتل السجان مسجونه عنفا

---

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٨ .
(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

ويضيق السوسي بجواسيس السلطة وعيونهم التي يخشاها الزوار فيخافونه مكرهين فيقول:

يـومـي هـمـوم كـلـه فـإذا أتـى ... لـيـل فـحـزن مـقـلـق وسـهـاد
مـا أن أزور ولا أزار كـأنـنـي ... ذو عـاهـة عـنـه الخليط يـذاد
يـا رب لافـطـر يـسـر لـديـهـم ... كـلا ولا أضـحـى ولا مـيـلاد[48]

وقد صور محمد الحلوى قساوة الحياة التي عاناها ورفاقه الأحرار في سجون المستعمرين وما لاقوه من تعذيب جسدي ونفسي بقوله مخاطبا رفيقا كان سجينا معه[49]:

(أعابد) لولا السجن ما ضمنا الأسى ... ولولا عوادي الدهر لم نغترب معا
كـلانـا بعيـد عن بلاد نمـا بهـا ... فتيا وفي أحضانها قد ترعرعـا
فـإن أنسى لن أنسى عشية حلقت ... علينا عصي لم تدع قط مـوضعا
(أعابـد) دع ذكرى (لـواتـة) إنهـا ... تثير بقلبي لـوعـة وتـفـجـعـا
فقـد كنت فيهـا طـائـرا متـرنمـا ... وإن كنت مقصوص الجناح مروعا
سقى الله فاسا بعدنا كـل صيب ... فـإن الأسى لم يبق في العين أدمعا
أأحبابنا في (الدوح) والدوح جنة ... إذا لم تكن للحسن والغيد مرتعا
ذكـرنـاكم بين الأخاديد والـربى ... وبين سياط البغي تـوهي الأضالعا
وبين فؤوس هـدّنـا حمـل ثقلهـا ... وآلامهـا قـد أفقـدتـنـا الأصـابعـا
رعى الله أيـامـا هنـاك قضيتهـا ... وصـان بها رغم الحـوادث أربعا
سهـرنـا ليـاليهـا وللدهـر هجعـة ... وما كان صرف الدهر يوما ليهجعا
فلما أفاقت مقلتا الدهر طوحت ... يـداه بقلبينـا فـذبنـا تلوعـا
سنصبـر حتى يعلم الصبـر أننـا ... بنوه إذا المفجوع يوما تضعضعا

ثم يشمخ الشاعر بأنفه رغم سجنه ـ متحديا الدولة المستعمرة:

فقل لفرنسـا أنه الشعب زاحفـا ... ليسترجع المجد السليب الموزعا
سيبني على أشلائه صـرح مجده ... ويجلي عن الأرض العـدو المقنعا
فـلا تـرهبيـه إنـه غيـر خـائف ... ولا تطمعيه بالأماني فقـد وعـى

---

(٤٨) السولامي ، الشعر الوطني . . . ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٤٩) محمد الحلوي ، ديوان انغام واصداء (الدار البيضاء : دار السلمى ، ١٩٦٥) ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .

ويرسم الشاعر المرحوم الطيب العلوي (والذي سجن في سبيل أفكاره ونضاله الوطني مرات عدة منذ سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٥٢) صورة واقعية لمآسي الحياة في زنزانات الاستعمار بقوله(٥٠) :

يـا ظلمـة جمعت قلبي بـوحشتها — واستنـزلت نفحات الصفـو للقلب
كـأنني بـك فـي رمس تسـاورني — ديـدانـه فهي تـملوني بـلا رهب
بـاب وبـاب وبـاب كـلهـا ظـلم — من ظلم ذي الجور لا من ظلمة الرب
أمسيت شبـه دفين لا يـقـاربني — حي ولست إلى الاحيـاء ذا قـرب
لا أعلم اليـوم من أمسي إذا اختلفا — إلا بسـاكنـة الضـوضـاء والـدب
رجلاي إن مدتـا يلدغ بنا نهمـا — سم الـرطـوبـة إذ يعلو إلى صلبي
أكف كفي عن قـوت يـحـل بـه — جيش من الحشرات زدن في كربي
ما إن رأيت شعاع الشمس منذ هوى — بي في قـرارتهـا حـراس ذا الجب
ويـل الطغـام أظنـوا السجن ذا أثـر — في عقيدة عقدت في مستوى القلب

وبأسلوب عاطفي دافيء يكتب عبد القادر حسن المراكشي من سجنه قصيدة يعد فيها زوجته باللقاء الموشك والنصر القريب(٥١) :

خلوا سبيـل الهوى يـأخـذ بـأيـدينـا — فقـد يئسنـا من النطس المـداوينـا
يا ليت شعري وكف الدهر قد بطشت — أي المصـائب لم تـنـزل بـوادينـا
سـجن ونـفي ولا رسـل ولا كـتب — كـأنمـا قـد وئـدنـا في فيـافينـا
نـأسى عليكم ولا نـأسى بحـادثـة — مهمـا انتشى سكـرة منهـا أعـادينـا
فقد رأيت صروف الدهر وهي تهي — فيبتني فـوقهـا الأحـرار تحصينـا
وإن ألـويـة الحريـة ارتـفـعـت — في جـو أوديـة كـانت كـوادينـا
خفـاقة تبعث البشرى بمن خطبوا — يـمينهـا وفنـوا فيهـا مغـاليـنـا
فلم يعد بيننا والنصر غيـر خطى — قليلة سـوى نخـطوهـا ميـامينـا
وسـوف ننـزع استقـلالنـا فتـرى — منـا شعوب الـورى نبلا كماضينا
فقـد نفـاجئكم إن طـارقين مسـا — أو مبكـرين، ونادى النصـر حـادينـا

ويقدم الشاعر المغربي محمد الحبيب لقصيدته «النداء الأصم»(٥٢)،وهي من وحي

---

(٥٠) السولامي ، الشعر الوطني . . . ، ص ١٢٦ .
(٥١) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
(٥٢) محمد الحبيب ، ديوان نجوم بين يدي (الدار البيضاء : ١٩٦٥) ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

سجنه، بقوله: «لولا الجدران السوداء تحتضن أولئك الذين استيقظت الإنسانية الكبرى في نفوسهم، لما عرفت الحرية طريقها إلى النور في حياة الإنسان. وكذلك هي قصة السجن وهو يلتقم جموع المؤمنين الأحرار عبر التاريخ».

بين المضانك أو دنى الأكدار — لبيك يا مستودع الأحرار
إني قبلت على الهناءة دعوة — أوليتنيها في الكفاح الساري
فمضيت لا وجلاً ولا متبرماً — أرضي جوارك إذ رضيت جواري
ولقد عرفت بأن ربعك منبع — لهدي النفوس وموئل الأبرار
ولئن حميت الظالمين وأرجفوا — بك نقمة وتقنعوا بستار
فلقد حميت الحق حين ترفعت — دنيا النبالة عن هوى الأشرار
وصهرتها بين المخانق حرة — وسكبتها طهرا من الأطهار
إيه رويدك إنها محمومة — أفكارنا من مازغ ونزار
أُنُفٌ على الضرّاء يسلق لفحها — غُيُرٌ على البأسا حماة ذمار
نهوى الحياة طليقة ونعافها — ذلا ونصفع مركب الأخطار
ونريدها دنيا الطلاقة غضة — نسمو بها في موكب الأحرار
وإذا تخوض من الحياة غمارها — فاشهر عزيمة صارم بتار
وتولّها جلداً وخض بعجاجها — ثقة وسر بصلابة وبدار
وارفع لواء الحق واحم كيانه — وابتت أصول تناكر وشجار
ما زلزل الدنيا وأقبل بالمنى — فيها الجبان ولا سما لفخار
لا يدرك العظمات ينشد مجدها — غر بأقدار الرجال يماري
فبدار يا جيل الكفاح إلى العلا — وإلى الصمود على الخطوب بدار

ومن سجنه في القنيطرة يكتب محمد العربي الآسفي قصيدته «صرخة ثائر» منادياً ربة الشعر أن تخط بدمائه شعراً يهز الوجود، وأن تصوغ شعوره ناراً تفك القيود، وبالصمود الثوري يقول(٥٣) :

لقني مبدأ النضال وبثي — بين قومي روحا تهدّ السدودا
واشعّي بين المغاور عزماً — عربياً يرد ذاك السعودا
وانسفي مظهرا عقيما وهدى — أسس الجور، حرري المصفودا

(٥٣) انظر النص الكامل في ملاحق كتاب السولامي، الشعر الوطني . . . ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

إن لـلظلم صـولـة ثـم يـجـثـو بـعـدهـا صـاغـراً ذليـلاً طـريـدا
ثـم لـلحـق سـقـطـة يـتـهـادى بـعـدهـا شـامخـاً أبيـاً صمـودا

تلك نماذج من شعر المنافي والسجون التي كتبها الشعراء المغاربة من وحي سجونهم ومعتقلاتهم ومنافيهم، والشواهد كثيرة فاجتزأنامنهابالقليل المعبر.

* * *

دأبت السلطات الاستعمارية في المغرب على تحويل مياه الأنهار الصغيرة الجارية في أطراف المدن تمدها بمياه الشرب وتسقي بساتين ضواحيها، أقول دأبت على تحويلها لصالح مزارع المعمرين الفرنسيين. وفي عام ١٩٣٧ وقعت حادثتان مهمتان مما يجري في هذا الإطار: أولا هما: في منطقة قبيلة «آيت أيمور» في ناحية مراكش حيث حاولت الإدارة الإستعمارية احتكار مياه السد لصالح المعمرين. فهاج الوطنيون هياجاً عظيماً وانتدبوا وفداً من (٧٠٠) فلاح ذهبوا إلى مراكش، وقد اعتقلت السلطة الاستعمارية الأعضاء الذين انتدبهم الوفد للتعبير عن وجهة نظره، فقامت مظاهرة انتهت باعتقال الوفد وسجنه[٥٤]. والثانية: هي حادثة وادي «بوفكران» بنواحي مكناس. فقد حاولت الإدارة الإستعمارية تحويله لصالح المعمرين، وثارت المدينة في الثاني من أيلول / سبتمبر ١٩٣٧، وقام الجيش الفرنسي بمحاصرة المتظاهرين وإطلاق النار عليهم فاستشهد احد عشر مواطناً وجرح عدد كبير[٥٥].

وقد صور الشاعر الطيب العلوي هذه المأساة الإستعمارية بقوله[٥٦]:

لله في أرض الـمـغـارب جـنـة سـحـرت قبـيـلا أنفس الشـعـراء
فتفـنـنت فـي مـائـهـا وهـوائـهـا نـظـمـا ونـثـرا جلة الـفـضـلاء
حتى بـدت فـوق البـلاد حمـايـة كُسِيَتْ بـالإسـتـعـمـار شـر رداء
بإسم من الإصلاح تهتك حرمـة وتـنـيـلـنـا بـالـجـور شـر شـقـاء
بدأوا (بتاكما) عين مولانـا التي هـي مـن مـعـين قصـوره الشـمـاء
خلسـوا بهـا أخت الثلوج بـرودة مـا قـد زرى بسبـائـك البيضـاء
يا ويح قومي كيف تصبح دارهم إن جـنـبـوا عـنـهـا نـمـيـر رواء
فـإذا البواسق في الحـدائق ذبـل جـرّ الـهـجـيـر بهـا ذيـول ذكـاء

(٥٤) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية . . .، ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٩٣.
(٥٦) السولامي، الشعر الوطني . . .، ص ١٠٨ - ١٠٩.

زكـوا دمـائكم بمنهـرق الـدمـا إن الـدمـاء تـطيب ريـح المـاء
إن الـحيـاة مـع الـمـذلـة ميتـة ودفـاع صـول خـطة الأحـيـاء
حب الحيـاة أقـامنـا في الـذل مـذ خفنـا الممـات فجـاء من تـلقـاء

* * *

في الشهور الأولى من عام ١٩٣٧، صعّدت صحف الكتلة الوطنية الحملة على الإدارة الإستعمارية، وفضحت التمييز العنصري في السياسة والاجتماع بين المواطنين المغاربة والمعمرين الفرنسيين. كما هاجمت خطة الإدارة في قمع الحريات الأساسية للمواطنين كحرية التجول والإقامة والتعليم والاحتفال وتأسيس الأحزاب والجمعيات فأقدمت (الإقامة العامة) على حل «كتلة العمل الوطني» فأعاد الوطنيون تنظيم أنفسهم باسم «الحزب الوطني لتحقيق المطالب» في ٢٢ تموز/يوليو ١٩٣٧. وهكذا تجلى التحدي واضحاً من الجانبين. وجاءت المظاهرات التي نظمها أنصار الحزب الوطني في «الخمسينات» يوم ٢٢ تشرين أول/أكتوبر ١٩٣٧، احتجاجاً على المظاهرة الصليبية التي نظمها المبشرون الأجانب في المدينة متظاهرين بالحج لكنيسة القديسة سانت تيريز. ولم تكن مظاهرة هؤلاء المبشرين سوى صورة من صور تشبثهم بالروح الصليبية الهادفة إلى نشر الكثلكة بين البربر، بزعم أنهم من عروق لاتينية.

وقام جيش الاحتلال بالاعتداء على المتظاهرين الوطنيين فجرح الكثيرين واعتقل أعضاء فرع الحزب الوطني[٥٧]. وجرى تصعيد المواجهة حين قدم وفد الحزب تقريراً إلى الحكومة الفرنسية في باريس، وكان فيه إدانة صريحة لسياسة المقيم العام (نوجيس). في هذه المرحلة بات واضحاً تصميم الإدارة الفرنسية الإستعمارية على تصفية الحركة الوطنية، ممثلة في حزبها الوطني، فأوغلت في اعتقالها المناضلين في كل أنحاء المغرب، فعقد الحزب الوطني يوم ١٣ تشرين الأول/أكتوبر مؤتمراً عاماً للقادة في مختلف فروعه لدراسة الموقف، فخرجوا من مؤتمرهم هذا بميثاق مهم[٥٨]. وقد جرى إبلاغ هذا الميثاق للإقامة العامة، وانفجر الموقف حين أقدم الإستعمار على اعتقال قادة الحركة الوطنية: علال الفا سي ومحمد اليزيدي وعمر بن عبد الجليل وأحمد مكوار يوم ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧. وتم نقل المرحوم زعيم التحرير علال الفاسي إلى منفاه في الغابون حيث قضى تسع سنوات فيه وأفرج عنه في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٤٦.

---

(٥٧) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية . . .، ص ٢٠٠.
(٥٨) انظر نص الميثاق في: الفاسي، الحركات الاستقلالية . . .، ص ٢٥٣.

وهكذا انفجر الموقف وتتابعت المظاهرات والاضطرابات في القنيطرة وفاس ووجده والرباط وسلا ومراكش والدار البيضاء أياماً عـدة . وأسفرت الحوادث عن اعتقال نحو خمسة آلاف مغربي، وعن قيام الإدارة الإستعمارية بحملة إرهاب وحشية لا نظير لها.
لقد مارس المستعمرون مع المعتقلين كل الأساليب الوحشية التي يندى لها جبين الإنسانية. وما حصل في معتقل (كوليما) للمعتقلين الوطنيين مما سجله المناضل محمد إبراهيم الكتاني في كتابه من ذكريات سجين مكافح يعكس صورة بشعة لأشنع أساليب التعذيب التي مارسها الإستعمار ضد المعتقلين الوطنيين. وسنقف هنا عند واقعة واحدة هي واقعة استشهاد الشاعر الثائر الخطيب المكافح «محمد القرى» الذي أصيب عموده الفقري خلال عمليات التعذيب، ثم أجبر على السير فعجز عن الوقوف، فتفننوا في التمثيل به مدعين أنه يتظاهر بالمرض رفساً ولكماً وضرباً، ثم تركوه في الهاجرة مبطوحاً على وجهه وحرموه الطعام والماء. ثم أمر آمر المعتقل أربعة من المعتقلين أن يحملوه من يديه ورجليه عند العودة. وعند وصولهم المعتقل وضعوه في مربط الدواب. كان ذلك يوم ٣ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٧، وفي الثامن منه انتقلت روحه الطاهرة إلى بارئها مسجلة صحيفة خزي أبدية في تاريخ الإستعمار الفرنسي للمغرب[٥٩] .

هذه الفاجعة الأليمة التي راح ضحيتها علم من أعلام الشعر والنضال في المغرب أوحت لرفيقه في السجن آنذاك عبد السلام بن أحمد الوالي بالقصيدة التالية[٦٠] :

ظلام السجن خيم في فؤادي ... وأيام تنغص لي مرادي
سيأتي اليسر بعد العسر حقا ... وحكم الله ينفذ في العباد
فلا نخش العذاب على حقوق ... تؤيدها الحواضر والبوادي
حقوق الشعب لا نرضى سواها ... ولا ندع التحكم للأعادي
لأنهم أذاقونا سموما ... وخسرانا مبينا في البلاد
أننسى (القرى) الغريد لما ... تجرع ما تجرع بالجلاد
إلى أن مات في الميدان حرا ... شهيدا ليس يعبأ بالعوادي
تركناه بمصرعه وجئنا ... نعزي القوم في ثوب الحداد
فهل لي من يعبر العين دمعاً ... لأبكيه إلى يوم المعاد

(٥٩) محمد ابراهيم الكتاني ، من ذكريات سجين مكافح في عهد الحماية الفرنسية (الرباط : ١٩٧٧) ، ص ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ .
(٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

وهـل ننسى العذاب وسم (كـوم) | وشـتـمـهـم بـالـسـنـة حـداد؟
أمـا والله لا أنـسـاه حـتـى | يصيـر الشعب مـرفـوع العمـاد
بـني وطـنـي تـآخـوا بـاتـحـاد | تنـالـوا النصـر إن النصـر بـاد
(حـذار مـن) التـنـازع إن فيـه | فـسـاداً في فـسـاد في نـكـاد
عـلامَ الاعـتـمـاد إذا اختـلفـتـم | وصـرتـم صيحـة في كـل واد؟
فكم مـن محنـة مـرت وصـارت | تـعلمنـا التـيقظ في المـبـادي
وكـل مـريـد إصـلاح لـشـعـب | بـلا عـلم تـعـرض لـلفـسـاد
بني شـعبي افيـقـوا مـن سبـات | فـإن الجـهـل طبعـاً كـالـرقـاد
وشـدوا حـالكم بـالصبـر كيمـا | تـنـالـوا النصـر مـن رب جـواد

ومع تصاعد المواجهة الوطنية مع المستعمر وحدوث الصدام الشامل الذي تحدثنا عنه ، ظهر وتعمق واتسع غرض جديد من أغراض الشعر المغربي ، هو : رثاء الشهداء . والشهداء الذين نقصدهم هم شهداء النضال الوطني ضد الإستعمار في سنوات الكفاح المريرة. وما من شك أن هذه المراثي كانت من أصدق الشعر، ولا سيما حين يكون الشاعر مناضلاً هو الآخر. وليس في طوق هذا البحث المحدود الصحائف أن يستقصي ما قيل في رثاء الشهداء المغاربة، لكننا نكتفي هنا بالتمثيل والإشارة لجلاء هذا الغرض الشعري .

أبو بكر بن عبد الوهاب شخصية وطنية كان يحرر جريدة «إظهار الحق» بطنجة، وكان الإستعمار قد سجنه وعذبه في سبيل دفاعه عن حرية وطنه. فلما مات سنة ١٩٣٠ ، رثاه الأستاذ عبد الله كنون مناضلاً وصحفياً وطنياً، فكان مما قاله(٦١) :

أبـا بـكـر أصـابـتـك المـنـايـا | كـذلـك سـهـمـهـا أبـدا مصيب
أبي الـنـفـس لـم تـسلس قـيـادا | لا يـعـاد ولا وعـد يـشـيـب
وكـنـت تـغـار حتـى كـدت تـردى | عـلى وطـن كـرامـتـه سـليـب
وقـد أوذيت فيـه فـمـا استـلانـت | قـنـاتـك مـثـل مـا فـعـل المـريب
وأبقى السجـن أثـراً فيـك يـبـدو | كـمـا غشـى محـيـاك الـشـحـوب
وذاك أحـق داء مُـت مـنـه | فـليس يـغـرنـا فـيـك الـطـبـيـب

وحين استشهد المناضل الوطني محمد حصار عام ١٩٣٦، بعد إصابته بالسل

(٦١) انظر النص كاملاً في : عبد الله كنون ، ديوان لـوحات شعـرية (تـطوان : دار كريماديس ، ١٩٦٦) ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

بسبب سجنه في زنزانة باردة، بعد مظاهرات الإحتجاج على الظهير البربري، وكان قد عانى من عنت المستعمرين وأذاهم ألواناً، أوصى قبل موته وصية وطنية مؤثرة تتلخص في أن يكفن في ثوب وطني لم تلمسه يد أجنبي، وأن يحمل في تابوت مغربي ليس به مسمار أجنبي، وأن يدفن في مقبرة عامة للمسلمين، حيث يستوي الغني والفقير. فأثارت تلك الوصية الوطنية قرائح معاصريه ممن أقاموا مأتماً كبيراً في (سلا) لتأبينه. فكان مما قاله المختار السوسي في رثائه(٦٢) :

فأعلنت أن لا نسج ترضاه حلة ... تلاقي بها الأملاك في الحلل الخضر
سوى مغربي النسج والنول والسدا ... جلته الأكف المغربية بالقصر
وأن لا يرى التابوت من غير سرحة ... نما جذرها في تربة المغرب الحر
وما لمست إلا يدا وطنية ... لدى النشر والتسمير والخرط والنجر
وأن يجعل التجهيز من جيب فتية ... دروا لك بين الناس مالك من قدر
وألا يكون الرمس إلا بمدفن ... تساوى لديه ذو الثراء وذو الفقر

عبد الوهاب الفاسي مناضل مغربي عرف بالعلم والوطنية سجنه الإستعمار ونفاه، فلم تلن قناته، فلما توفي رثاه عبد الكريم بن ثابت بقصيدة نقتطف منها قوله(٦٣) :

مثلاً للجهاد في ميدانه ... مات عبد الوهاب في عنفوانه
وحياة الكفاح أحوج دوماً ... لمثيل الشهيد في ريعانه
أسفاه قد كان شخصاً مثالاً ... للنضال المنيد في ابانه
كان لا يرهب العدو ولا يخشى ... سوى سطوة الإله وشانه
سجنوه فزاده السجن عزماً ... ومضاء وقوة في جنانه
ونفوه فكان كالطود ثقلا ... لا تهز الأحداث من بنيانه
مات عبد الوهاب أين نلاقي ... عنه صبرا وكان ملء مكانه

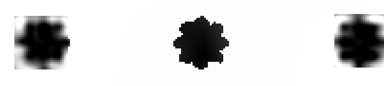
مكتب المغرب العربي في القاهرة كان صوتاً إعلامياً مدوياً يعكس نضال الشعب العربي في المغرب العربي الكبير، ولقد حدث أن ثلاثة من أعضاء هذا المكتب هم السادة: محمد بن عبود من المغرب الأقصى، وعلي الحمامي من الجزائر، والحبيب ثامر

---

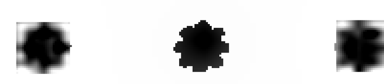
(٦٢) انظر النص كاملاً في : محمد حصّار ، ترجمة وانتاج (الرباط : ١٩٧١) ، ص ٧٣ .
(٦٣) عبد الكريم بن ثابت ، ديوان الحرية (١٩٦٨) ، (سلسلة كتاب العلم) ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

من تونس استشهدوا في كارثة طائرة في سماء الباكستان في كانون أول / ديسمبر عام ١٩٤٩. فكانت الفجيعة القومية بفقدهم كبيرة. ومن هذا المنطلق رثاهم زميلهم في المكتب عبد الكريم بن ثابت من قصيدة[٦٤] :

ألا خبروني ما دواء بكائيا ... وكيف ترى أسلو وأنسى مصابيا
لقد مات من كانوا مصابيح ليلنا ... وضم الثرى - واحسرتاه - الأمانيا
وما أنا أبكيهم رفاقا أضعتهم ... ولكنني أبكي الجهاد المثاليا
وما أنا أبكيهم ضحايا ثكلتهم ... وإن كان هذا متلف النفس قاسيا
ولكنني أبكي نجوما تألقت ... ومغربنا الدامي يخوض الدياجيا



سهرت وحيداً في مساء كأنما ... قضى الله أن لا يطول مسائيا
وبت أناجيهم وأذكر ما مضى ... غداة رمتنا المشكلات المراميا
نجرع من أجل (التحرر) علقما ... ونشرب صابا لا نبالي الدواهيا
ونركب دنيا من صعاب وغيرنا ... قنوع بدنياه رضي كما هيا
ونسعى وراء المجد مجد بلادنا ... وشعبا نفديه وإن كان لاهيا
ونشقى وراء الحق والحق لا يني ... يطالب منا تضحيات غواليا
ذكرت الذي قد كان بيني وبينهم ... فوا أسفا ماتوا وخلفت راثيا
سهدت وحيداً في سماء صحابيا ... وبت صريع الذكريات مناجيا
أناجيه وجهاً باسماً وجه ثامر ... وقد عبست كل الوجوه حواليا
وأصغي إلى عبود يضحك لاهيا ... من الألم المضني ويسخر زاهيا
وأضحك في وجه ألفت عبوسه ... وعين كعين الصقر ينقض راضيا
فذاك حمامي، وتلك عيونه ... وقد كان شهماً عبقرياً عصاميا
أناجيهم والليل أسود ما أرى ... وقد نوروا لي في المساء الدياجيا
مصابيح ليل حالك وكأنما ... أبى الله إلا أن يضيئوا ظلاميا



سلام عليهم أكرم الله موتهم ... رجالاً أرادوا للبلاد المعاليا
صقوراً تهادوا في السماء وكلهم ... ربيب جهاد قد تحدى الدواهيا

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٩٤ - ٩٩ .

جنوداً أضاعوا في سبيل بلادنا ومن أجلها روحاً عزيزاً وغاليا
بناة أقاموا للبلاد شوامخا من المجد تبقى شامخات عواليا

* * *

وبعد نفي المرحوم الملك محمد الخامس إلى مدغشقر وتصاعد حركة المقاومة المسلحة وظهور جيش التحرير، برز في ساحة النضال أبطال مغمورون من صميم أبناء الشعب، كانوا بتضحياتهم الفذة نماذج للفداء والاستبسال في سبيل حرية الوطن.

من هذه النماذج الرائعة ـ علال بن عبدالله ـ الذي هاجم السلطان المزيف الذي نصبه الإستعمار الفرنسي بخنجر في يوم جمعة محاولاً قتله، لكنه استشهد برصاص حرس العميل قبل أن يحقق غايته. إن هذه البطولة الخارقة دفعت (البلغيثي) إلى رثاء البطل علال في قصيدة منها[٦٥] :

ما كان لي قبل علال الفتى أمل في الشعب حتى حسبت الكل نعسانا
لكنه عندما دوى بخنجره يوم العروبة حتى هز أركانا
أيقنت أنا على أبواب معركة فيها ندك للإستعمار بنيانا
في ذمة الله يا علال أول من قد سل خنجره في وجه من خانا

ومن هذه النماذج الرائعة البطل محمد الزرقطوني، الذي كان له دور كبير في مد جذور المقاومة إلى أنحاء المغرب، ولقد استطاع هذا المناضل الرائع أن يفلت من أيدي زبانية الإستعمار غير ما مرة. وحين وقع في أيدي هؤلاء الزبانية فضل الإستشهاد بتناول قرص سم قاتل داخل زنزانته صبيحة يوم ١٨ حزيران/يونيو ١٩٥٤، على الإعتراف بأسرار المقاومة، حيث سبقه إلى نفس المصير إخوانه علي وسعيد ونجاة، أفراد خلية من خلاياه.

إن بطولة الزرقطوني دفعت الشاعر المغربي علي الصقلي إلى كتابة مسرحية شعرية من فصلين نشرها بعنوان «ميلاد ثورة»[٦٦]. وفي ختام الفصل الأخير من هذه المسرحية يخاطب الطبيب المعالج جدث الزرقطوني المسجى بصوت متأثر:

آه لو أنك تغدو أيها الراحل عبره

---

(٦٥) السولامي، الشعر الوطني . . . ، ص ١٣٠ .

(٦٦) انظر : علي الصقلي، الفصل الثاني من المسرحية في مجلة آفاق (المغرب) ، (١٩٦٧) ، العدد ١ ، ص ٨ ـ ١٦ .

أنت ما أنت بعيني (ميت) يلقى بحفرة
لا ولا أنت سوى ميـ ـت مشى النسيان إثره
أنت من عرفنا معـ ـنى الفدا أول مره
لم تزن يوماً لديه روحه مثقال ذره
في سبيل الله والأو طان قد أرخص عمره
أخلص الحب لهذيـ ـن، وعاد الحب غيره

* * *

وفي احتفال أقيم بمناسبة «يوم المقاومة» وذكرى استشهاد علال بن عبدالله ومحمد الزرقطوني ورفاقهما، قال الشاعر المغربي مصطفى المعداوي(٦٧) على لسان شهيد يناجي وطنه:

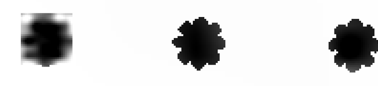
تعيش وروحي تناجي ثراك ويجثم لحني على مسمعك
تعيش بقلبي طوال السنين وتحضن قبري إلى مضجعك
تعيش كريماً عزيز الخطى واذكر فيك (رؤى) مربعك
لغيرك ما غرد الشاطئان ولا اللحن خفف من أدمعك
عهدتك حراً فقدمت روحي وعانق قلبي ثرى أربعك
وصنتك من عاديات الزمن
لأنك وحدك أنت الوطن
ألفتك يا وطني دار خصب فلونت من زهرها ناظريا
ففيك الجمال وأنت العزيز يشع سناه فخوراً بهيا
ورحت أذود بكفي السلاح وها أنا فوقك حراً أبيا
شهيد البطولة في شاطئيك ألبي نداءك يا مغربيا
وأحميك من عاديات الزمن
وأرعى ثراك العزيز المنن
وأدفع عنك ضروب المحن
لأنك وحدك أنت الوطن

كان المرحوم عبد العزيز بن ادريس من قادة الحركة الوطنية بفاس ومن كبار زعماء

(٦٧) ديوان مصطفى المعداوي (الدار البيضاء: دار الكتاب، د. ت.)، ص ١١٢ - ١١٣.

حزب الإستقلال، وقد عانى من سجون ومعتقلات ومنافي الإستعمار الشيء الكثير، وفي عام ١٩٦٠ حين كان في طريقه إلى تجمع وطني في الجنوب إغتالته يد أثيمة في (تحناوت)، فكان مصرعه مثيراً للشاعر محمد الحلوي الذي قال من قصيدة في رثائه[٦٨] :

باد أساك كتمت أم لم تكتم ... فعلام تخشى أن تبوح من الفم؟
أنكرتُ نعيك فاتهمتُ مسامعي ... ورأته عيني فاتهمت توهمي
حتى تزلزلت البلاد لهوله ... ورأيت حولي نائحات المأتم
ورأيت نعشك والملائك حوله ... والشعب يزحف كالأتيّ العارم
ولمحت روحك يزدهي في طلعة ... وضاءة وبرأسك المتعمم
ونظرت من حولي رؤساً خشعاً ... ومدامعاً نضبت ولما تحجم
وكآبةً في كل حلق غصّةً ... منها حرارتها كطعم العلقم
فلعنت قاتلك الأثيم ورهطه ... وأصابعا خلف الظلام المعتم



قتلوك! لم قتلوك يا مثل البطو ... له والشهامة في الرعيل المقدم
أفلست أول من أهاب بشعبه ... ومشيت تصرخ في عقول النوم
أفلست أول من تحدى عزمه ... بأس الطغاة بهمة لم تثلم
أفلست أول ساخر بالموت في ... حفر السجون وتحت سوط الظالم
تقضي حياتك في قناعة راهب ... والناس حولك في نعيم ناعم
أيكون حظك بعد هذا ميتة ... نكراء في الوطن الحبيب المسلم

في عام ١٩٦٣ توفي في مهجره في القاهرة الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الريف المغربي. وكان قد أوصى أن يدفن في أرض الكنانة. وفي ذكرى أربعينه قال الشاعر المغربي عبد الكبير العلمي راثياً بطل الكفاح المسلح[٦٩] :

اخترت قبرك، في الكنانة مرقدك
يا أيها البطل الهمام
بل يا أميراً لم يضام

---

(٦٨) انظر النص الكامل في : الحلوي ، ديوان انغام واصداء ، ص ٧٩ ـ ٨٥ ؛ وانظر قصيدة اخرى في رثائه في : كنون ، ديوان لوحات شعرية ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٦٩) عبد الكريم العلمي ، ديوان حور ونور (الدار البيضاء : ١٩٦٣) ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

من بعد ما حققت آمالاً عظام
وقهرت أعداء العروبة بالنضال
من ريفنا خلف الجبال
فتركت جيش إسبانيا في قيد الهزيمة
والبرتغال. . . ذاقوا المرارة في (أنوال)
كسرت شوكة جندهم
شردتهم ودحرتهم
وتركتهم في زوبعة
وسط الرمال خلف الجبال
بطل الشهامة والخلود
أوصيت قبل رحيلك المقدور
أن تبقى هناك
أحببت مصر وشعبها
شعب النضال
شعب المفاخر والجهاد
من بعد ظلم ذويك
في هذي الديار
تاريخك المسطور يوحي بالمعاني والأماني والكفاح
بالفخر بالأمجاد بالنصر المبين
بالثورة الكبرى لتحرير البلاد.

* * *

عبد الكريم الطبال شاعر مغربي آخر تحدث عن موت البطل عبد الكريم الخطابي من زاوية أخرى، يصح أن يقال أنها جديدة. فعبد الكريم، الفارس في الموت والحياة وعاشق الجبال والصلاة في الجبال، يحمل الشاعر اسمه ولكنه لا يشبهه. فالشاعر ليس فارساً ولا تعرفه الجبال فيهرب منه الإسم العظيم، فتنكره الجبال وتنكره الحمالة والسيف. والشاعر يواصل عقد المقارنة بينه وبين الفارس العظيم، فيجد أن عبد الكريم الفارس كان يحب أغنيات الخيل والرياح. وشاعرنا يحب أغنيات كوكب الشرق العجوز! والفارس كان يحب أن يحمل المسبحة إذا ما جاء الفجر رمزاً لاعتزازه بتقواه. أما الشاعر

فيجب أن تحمله الكأس إذا ما جاء الليل. لذا يهرب اسمه منه[٧٠] .

تلك إضمامة من رثاء الشهداء في الشعر المغربي الحديث.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن المغاربة كانوا طعاماً في حروب لا مصلحة لهم فيها. فالجنرال فرانكو، الذي قفز من شمال المغرب ليحارب حكومة الجمهورية الاسبانية في تموز/يوليو ١٩٣٦، جند جيشاً ضخماً من أبناء شمال المغرب ليحارب الحكومة الاسبانية وقد قتل من هذا الجيش أربعون ألف مغربي[٧١] في الحرب الأهلية الإسبانية. مثل هذا حصل في المغرب المحتل من فرنسا بعد إعلان الحرب العالمية الثانية فقد استغل المواطن المغربي طعاماً للحرب، بعد خطاب ألقاه الملك محمد الخامس في الثالث من أيلول/سبتمبر عام ١٩٣٩ جاء فيه: «من اليوم وإلى أن تتوج جهود فرنسا وحلفائها بالنصر، يجب أن نقدم لها كل عون دون تحفظ، لن نبخل بأي من مواردنا، ولن نتردد في بذل أية تضحية».

ورغم الحقد الذي كان يضمره المغاربة للإستعمار الفرنسي، ورغم الأمل الذي كان يراودهم في انتصار ألمانيا كطريق للتخلص من الإستعمار، فقد تمكنت فرنسا من تجنيد عشرين ألف مغربي، وإرسالهم لميدان القتال وارتفع العدد إلى ٣٠٠ ألف جندي مغربي خاضوا غمار الحرب العالمية في شتى أرجاء الدنيا في سبيل نصر فرنسا، وكان هذا التجنيد يجري بدافع الخوف أو الإغراء المادي[٧٢]. في حرب لم تكن للمغرب فيها منفعة.

إن سقوط فرنسا تحت أقدام النازيين عام ١٩٤٠، بعث شعور الشماتة عند الشاعر المغربي. وكما قرأنا لشاعر الشام في الموقف ذاته قوله من قصيدة شهيرة يشمت باندحار فرنسا:

ترنح السوط في يمنى معذبها سكران من دمها المسفوح نشوانا
إني لأشمت بالجبار يصرعه باغ ويوسعه ظلما وعدوانا

قرأنا للشاعر العلامة عبدالله كنون قصيدة يشمت فيها بإغراق الأسطول الفرنسي نفسه في ثغر طولون تنفيذاً لأوامر سادته من المحتلين الألمان[٧٣]:

---

(٧٠) الطبال، ديوان الاشياء المتكسرة، ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٧١) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية ... ، ص ٢٣٨ .
(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
(٧٣) كنون، ديوان لوحات شعرية، ص ٤٩ - ٥٠ .

لاقى الذي أنشىء من أجله ... وكَرَّةُ السوء على أهله
هوى إلى قعر الخضم بلا ... جهد كما يعهد من مثله
أسلمه أصحابه إنهم ... شعب تطامن لمحتله
وآثر السلم فمن يلحه ... يلح حمار الحيّ في ذله
بحسبه باريز أن أنقذت ... فليضع الجندي من ثقله
العيش في باريز خير له ... من شدة القتل ومن هوله
ما للفرنسي وما للوغى ... تقضي على أمله كله
وعنده الأهلي يغزو به ... ويطلب المنيم من ذحله
من كل شعب راكب رأسه ... لا يؤثر الحلم على جهله
حاشا فرنسا أنها أمة ... ترى وفاء المرء من فضله!
ولا تجيز الغدر أما يكن ... ذو الحول ما زال على حوله
بل تغرق الأسطول في حبه ... وتؤثر الموت على ختله
فليقس وليشتد في حكمه ... فإنها أذل من نعله
وصبرها أوسع من بطشه ... وقولها أضيق من فعله

* * *

كانت السنوات الأربع الأولى من الحرب العالمية الثانية امتداداً لأيام الجمود الذي مرت به الحركة الوطنية نتيجة الضربة الشديدة التي أصابتها عام ١٩٣٧، ونتيجة ظروف الحرب نفسها ـ ومنها فشل قادة النضال المغربي في الحصول على وعد من دول المحور باستقلال المغرب وحصول القناعة التامة لديهم بأن إيطاليا، بكل تاريخها الإستعماري المخزي، ستكون الوارثة لمستعمرات فرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وحين نزلت الجيوش الأمريكية في المغرب في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٢، ولم تكن الولايات المتحدة قد كشفت عن وجهها كدولة استعمارية آنذاك، ذر أمل جديد في أذهان قادة الحركة الوطنية أن يكون ذلك بداية لنهاية الحرب، ومن ثم تصفية مشكلة المستعمرات، فعلى الحركة الوطنية أن تقرر مصير بلادها في ظل المبادىء التي أعلنها ميثاق الأطلسي.

ثم أن الأحداث التي جرت في مناطق الانتداب الفرنسي في المشرق العربي ـ سورية ولبنان بالذات سنة ١٩٤٣ تركت بصماتها على تفكير قادة الحركة الوطنية في المغرب وطرحت الأنموذج الأمثل في المطالب وهو مطلب الإستقلال.

وبدأت الحركة الوطنية تعبىء الجماهير وراء المطلب الجديد كما استطاعت أن تحصل على مؤازرة الحركة القومية التي يرأسها الوزاني، ثم كان اللقاء السري بين قادة حزب الاستقلال والمرحوم محمد الخامس في أيار/مايو ١٩٤٣، وفيه تم التحالف بين الملك والقادة بعد أن أقسموا على المصحف الكريم على الإخلاص في العمل وكتمان السر وخدمة الوطن. واتفق الحزب مع الملك علي أن يستشيره في كل خطوة يخطوها في العمل السياسي، على أن يستشير الملك الحزب في كل عمل مهم يقوم به أو تقترحه الإقامة العامة الفرنسية. وكان هذا التحالف انتصاراً رائعاً للحركة الوطنية(٧٤).

وفي خلال الإتصالات السرية بين الملك وقادة الحزب تم الإتفاق على نص وثيقة الإستقلال التي ستقدم إليه ورسالة التقديم وموعد وطريقة التقديم وقد تم تقديم الوثيقة يوم ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٤٤(٧٥). وقد تضمنت ثلاثة مطالب: الإستقلال، ووحدة المغرب الترابية، والدستور. وقد كان هناك إجماع شعبي في شمال المغرب وجنوبه على تأييد مضمون الوثيقة، وشذ عن ذلك الحزب الشيوعي المغربي الذي تجرأ ووصف المطالبة بالاستقلال «بأنها استفزازات فاشيستية هتلرية»، ولكن هذا الحزب لم يكن له وجود فعلي يؤبه له آنذاك، كما لم يكن لأفكاره أي أثر في أوساط الشعب(٧٦).

وخشيت الإقامة العامة الفرنسية أن تكون المطالبة بالإستقلال معتمدة على تأييد أمريكي، فلما تأكد لها غير ذلك، بادرت بعد فشل المفاوضات مع قادة حزب الإستقلال إلى اعتقال قادته.

إن التحالف الذي قام بين الملك والحركة الوطنية عام ١٩٤٤، في سبيل تحرير المغرب واستقلاله ووحدته، هو الذي يفسر هذا الطوفان من القصائد التي اصطلح على تسميتها «بالعرشيات» والتي تطفح بها دواوين الشعراء المغاربة وجرائدهم ومجلاتهم. ورغم أن هذه القصائد كانت تلقى في عيد العرش وفحواها مدح الملك، إلا أنها في الواقع كانت تتضمن كل المطالب الوطنية التي عبرت عنها وثيقة الإستقلال، وقد تحول الممدوح فيها إلى رمز للأماني الوطنية، وقد حاول الشعراء من خلال هذه العرشيات تأريخ النضال المغربي من خلال نضال الملك بالذات.

---

(٧٤) غلاب، تاريخ الحركة الوطنية ...، ص ٢٧١.
(٧٥) انظر نص الوثيقة في المصدر نفسه، ص ٢٧٩ - ٢٨٤.
(٧٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

وهكذا أصبحت قصائد الشعراء دافعاً ومثيراً للملك الوطني على مواصلة السير في طريق الإستقلال، وتاريخاً أدبياً لمعارك الإستقلال والبناء الوطني.

وفي ذكرى عيد العرش سنة ١٩٤٧ يشير عبدالله كنون إلى موقف الملك محمد الخامس من الظهير البربري (الذي شرعه الإستعمار الفرنسي لتمزيق وحدة الشعب المغربي كما أوضحنا) بقوله[٧٧] :

دعا دعوة للجاهلية تنتمي ... عسى إن شمل المسلمين يبدد
وقال لكم شرع وللقوم غيره ... وما الشرع إلا ما أتى به أحمد
فأحبطت مسعاه وأبطلت كيده ... وكائن تحدى المشركين محمد

كما أشار إلى تأكيد الملك في خطاب له على اعتزازه بالوحدة العربية خلافاً لرغبات الطامعين بفرنسة المغرب:

رفعت لواء للعروبة خافقاً ... بفصل خطاب في المواقف يحمد
ووليت وجهاً يستضاء بنوره ... إلى الشرق أن العرب بالشرق أقعد
قضيت على آمال مؤتفك قضى ... بتقطيع أرحام وعهد يؤكد
وأعلنتها في عزة هاشمية ... بأنك للعرب المقاول تخلد
فما وحدة قدسية مثل وحدة ... فرنسية، كلا، ولا الخصم يجحد

كما أشاد بدعوة الملك لتحرير المرأة المغربية وتعليمها، فقال:

بعثت لهذا الجيل بالثورة التي ... تغير من أوضاعه وتجدد
فتنسخ عادات إلى الرق تنتمي ... وتحكم أخرى للتحرر تمهد
وليس كبعث البنت من مرقد البلى ... رسالة أحياء لقوم تجمدوا
أهبت بها للعلم والعمل الذي ... تتم به ما كان ابنٌ يشيد
فلبت نداء سامياً وتقدمت ... بكل حماس للعلا تتجند

في عيد العرش سنة ١٩٥٠ تناول الشاعر نفسه موضوعات جدَّ بها الصراع الدائر بين القوى الوطنية والملك من جهة وبين الاستعمار من جهة أخرى ملخصاً مطالب الحركة الوطنية في التحرر (الاستقلال) والتوحيد[٧٨] :

---

(٧٧) كنون ، ديوان لوحات شعرية ، ص ٥٧ ـ ٦١ .
(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٦٦ ـ ٦٨ .

علمت شعوب الأرض أنا أمة ليست من النجر الذي يستعبد
تاريخنا وجهادنا وطموحنا تأبى علينا أن تداولنا يد
تا الله لا نعطي الدنية عن يد أبداً ولو أنا نموت ونلحد
هدفان لا نرمي لغيرهما على كره الزمان: تحرر وتوحد
لما تنكر للمبادىء أهلها وهفا ضمير العالم المستنجد
والشرط أصبح عندهم أنشوطة بمدى مصالحهم تحل وتعقد
ومواعد الرؤساء صارت خدعة تنمي إلى ابريل أو هي أفند
لم يبق إلا عزمة ذرية يغشى العدا منها المقيم المقعد
والشعب إن يعزم على أمر جرى قدر الإله به على ما ينشد
والشعب إن يعضده عرش فالذي يسعى إليه ميسر وممهد

ثم مضى يشير إلى الدعوة التي لباها الملك لزيارة باريس والمذكرة التي قدمها مطالباً بإلغاء معاهدة الحماية:

أبديت رأيك في قضيتها بما جعل الشكوك حيالها تتبدد
وسفرت فيما بيننا وفرنسة من حيث غيرك للسياحة يقصد
فعرضت مشكلةً وحلاً عادلاً وأدلة كالشمس ليست تجحد
فاوضت أقطاب السياسة والحجا فبدهتهم بعزيمة تتوقد
وبدهتهم بلباقة ولياقة وبدهتهم بليونة تتشدد

لكن السلطات الفرنسية المتشبعة بالروح الإستعمارية أبت أن تتفهم مطامح الشعب المغربي المشروعة، وفعل الغرور بها فعله:

وكذاك حال مفاوضين تعجرفوا وتغافلوا عما به يأتي الغد

هذه الزيارة لباريس هي التي كتب عنها الشاعر المغربي محمد الحلوي قصيدته المعنونة «عودة وأمل»(٧٩) .

وفي بواكير عام ١٩٥١ حين تقدم الجنرال جوان ـ المقيم العام الفرنسي ـ إلى ملك المغرب بمطالب فرنسا وهي: التبرؤ من حزب الإستقلال وطرد أعضاء الديوان الملكي وبعض كبار الموظفين وتوقيع المراسيم الموقوفة، وإنه إذا لم تنفذ هذه الطلبات فعليه أن يتنازل عن العرش وإلا خلع بالقوة. وحين رفض ملك المغرب تلك المطالب حاصر

(٧٩) الحلوي ، ديوان انغام واصداء ، ص ١٠٥ .

قصره بقوات فرنسية حتى أجبر الملك على توقيع بروتوكول يعد فيه بدراسة تلك المطالب، في ظل هذه الأحداث كتب عبدالله كنون قصيدته في عيد العرش سنة ١٩٥١، نقتطف منها قوله(٨٠) :

من بلغ (الكاي دورسي) عن سياسته ... بأنها أصبحت تنحط في صبب
وأن نوابه فينا وإن عظموا ... فهم على شعبهم من أعظم النوب
بثوا له الكره في كل النفوس بما ... يدعون من دعوات الويل والحرب
وألبوا ضده الدنيا بما نقضوا ... من العهود وما داسوا من الكتب
وكان مجد فرنسا في مبادئها ... فخالفوها وأحيوا سنة الصلب
فإن يكن همه إنقاذ سمعته ... فليس بالنفط تطفا سورة اللهب
وليس بالقائد المغرور يعثه ... ليخلف القائد المغرور في الصخب
وليس بالكم للأفواه إن نطقت ... فإن أريدت على التصويت فلتجب
وإنما هو أنفاذ لسامية ... من الرغائب ما عزت على الطلب
المغرب الحر لا يبغي بها بدلا ... والعالم الحر فيها جد مرتغب
الإعتراف بالإستقلال يصحبه ... رد الأمور إلى أربابها النجب
هذا هو الحل لا إصلاح نقبله ... ولو حملنا عليه بالقنا السلب
ميثاق طنجة(٨١) ألغى كل تجربة ... ولم يجز عوض قرع النبع بالغرب
والشعب أصدق إيماناً بجبهته ... من أن يراوده خب على أرب
وصاحب العرش - صان الله مهجته ... غزا الحماية بالهندية القضب
فما البقاء لوضع لا نصير له ... إلا عبيد العصا الخدام للعتب

ثم هو يشكر الدول العربية التي هبت لنصرة المغرب إعلامياً وسياسياً وفي المجامع الدولية أيضاً:

إيه بني العرب جوزيتم بموقفكم ... منا كأفضل ما يجزى ذوو القرب
ولا عدمنا نصيراً من إخوتكم ... فنحن في الدين والفصحى بنو نسب
قضية بين أيديكم وإن لها ... منكم أبا حسن مستكمل الأهب
تدعوكم حرمة القربى لنصرتها ... ونجحها النجح للإسلام والعرب
وقد غدا المجمع الدولي منعقدا ... وفيه للحق أنصار على رتب

---

(٨٠) كنون، ديوان لوحات شعرية، ٧٥ - ٧٧.

(٨١) ميثاق طنجة هو ميثاق جبهة وطنية ابرمته سنة ١٩٥١ الأحزاب المغربية فيما بينها.

لكنمـا الحق يعلو دائمـاً وبكم متستقـر نصـال الحق في النصب

وقصائد محمد الحلوي المعنونة: العيد الأنور - تهنئة - إشراقة العيد - تحية عيد - الرائد الميمون مما يسلك في هذا السلك[٨٢].

«العرشيات» إذن قصائد واكبت أحداث المغرب السياسية واتخذت من عيد العرش مناسبة للتعبير عن عواطف شعرائها وآمالهم الوطنية.

* * *

كانت الدار البيضاء مسرحاً لمجزرتين ارتكبهما الفرنسيون. وقعت الأولى في ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٧ والثانية في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٢، وقد ذهب ضحية هاتين المجزرتين آلاف المغاربة. وقد تركت هاتان المجزرتان صدى عميقاً في الشعر المغربي، في مأساة عام ١٩٤٧ يقول الأستاذ عبدالله كنون من قصيدة[٨٣]:

يُحسن قـومنـا بـالـغـرب ظنـا وأحسبـه غـدا لـلشـرق ضـدا
وأحسبـه يـرانـا مـن وحـوش يـبـاكـرهـا مـنـاوشـة وطـردا
لـه فـيـنـا مـآس لـيس تـحصـى وسـل عن بعضها شـامـا وهنـدا
أروني فـضـلـه في غـيـر نـهـب لأمـوال كـلـص لـيس يـهـدا
أروني فـضـلـه في غـيـر حـرب لإزهـاق الـنـفـوس تـعـد عـدا
ضـواري الغاب حين تجـوع تعدو وهـذا حين يشبـع فهـو أعـدى

* * *

أمـا في حـادث الـبـيـضـاء وعظ لمن يـرجـو من الأغـراب رفـدا
أمـا في حـادث الـبـيـضـاء زجـر لـداعـيـة لـهـم مـا شـام رشـدا
ألـم يـبـلـغ صـداه كـل أرض فـمن منـهـم تـعـطف أو تـنـدى
ألـم تـنـظـر فـظائـعـه الجـوالي فـمـا صـدت عن الإجـرام صـدا
تـرى الأم الحـنـون على صـواب كـأن جـيـوشـهـا لـم تـأت أدا
كـأن عـبـيـدهـا لـم تـجـن شـيّـاً ولم تحصـد نفوس العـزل حصـدا
ولـم تـبـقـر بـطـونـاً من نـسـاء حـوامـل ثـم تقـتـل بعـد ولـدا

---

(٨٢) انظرها في: الحلوى، ديوان انغام واصداء، في الصحائف ٣٢، ٦٨، ١٤٧، ١٩٣، ٢٢٦.

(٨٣) كنون، ديوان لوحات شعرية، ص ٥٢ - ٥٣.

ولا جاءت بتمثيل فظيع تذوب له النفوس أسى ووجدا
مثات من ضعاف الخلق يجنى عليهم دون ما ذنب ويعدى
براءتهم لهم ذنب كبير فيا لله من ظلم تعدى
ومن متوحشين غروا بشعب ضعيف ليس يملك أن يردا
ومن متحضرين رأوا فأغضوا وما ردوا عن البؤساء زندا
أهذا عدلكم يا قوم فينا لظلم ولاتنا قد كان أجدى
أهذا من نظامكم فخير لنا الفوضى نرد إليها ردا
سبيلكم سبيل طغاة روما وإن مصيركم أخزى وأردى
بني قومي أفيقوا من سبات فإن الحادثات تجد جدا
وإن الله ناصركم عليه فشدوا يا بني الأحرار شدا



أحداث البيضاء الدامية عام ١٩٤٧ أوحت للشاعر محمد العربي الآسفي قوله:

توخ السلام وآخ الأنام وآس الكئيب وعاد الخصام
وسالم ضعافا تسوسهم فلا الحق يفنى ولا الظلم دام
وسدد خطاك بهذا الوجود وسو المشاكل بين الأنام
هو الدهر فاحذر عواقبه فإن المظالم موت زؤام
فآه على أمة نكبت على مسمع من حماة النظام
وآه على نسوة أجهضت شفاء لحقد طواه اللئام
وآه على صبية نحرت بأيد تهين عهود الفطام
وآه على فتية قد غدت بدين الهوى عرضة للسهام
وآه على أمة قد طغت عليها الكوارث سودا جسام
وآه على أمة أنقذت فرنسا من الموت تسقي الحمام
فكم من ضحايا دهاها الردى وكم من جسوم براها السقام
وكم من نساء أهينت وكم من الشيب ديست وكم من غلام
فآه على أمم تنتمي لدين المسيح ترى وتنام
لقد سئم الشعب من عيشة مجللة بالأسى والظلام
وأوشكت النفس أن ترتضي حياة الوحوش وهجر الأنام
فإن الوحوش أجل بمن نراهم وأعظم منهم مقام

فإن الوحوش الضواري ترى لغير الحياة الحروب حرام
وفي الوحش من يتحاشى الضعاف وفيه الذي يتوخى السلام
وإن الشجاع الأبيّ يرى محاربة العدل تردي العظام
وإن العظيم يرى أبداً قتال المجرد محض اجترام

وإذا كانت أسباب مجزرة عام ١٩٤٧ هي نشوب خلاف بين بعض أطفال وسيدات مغربيات وبين جنود سنغاليين، فإن أسباب مجزرة عام ١٩٥٢ في الدار البيضاء كانت الاضراب العام الذي أعلنه العمال المغاربة تضامناً مع التونسيين عند مصرع الزعيم العمالي التونسي فرحات حشاد. وقد ذهب ضحية هذه المجزرة نحو أربعة آلاف مغربي ومغربية(٨٤) :

وكان من أصداء المجزرة الثانية قصيدة «دمعة بعد الحريق»(٢) للشاعر مصطفى المعداوي وفيها يقول:

يا أيها الدرب الحبيب
ما زال منظرك الرهيب
حيا على مر العصور
يثير في قلبي الصغير
صور المآسي الداميات... وصورة الألم المرير
ما زال صوتاً سارياً عبر الفضاء
بإسم المحبة والعدالة والإخاء
ما زال ينشد في الكفاح قصائداً لا كالقصائد
يا كم حكت عنك الصبايا الناعمات
وحكي الشباب
قصصاً غراب
عن ذلك الجندي الدخيل

* * *

أواه يا دربي الحبيب

---

(٨٤) الفاسي ، محاضرات في المغرب . . . ، ص ١٢٩ .
(٨٥) ديوان مصطفى المعداوي ، ص٢٥ ـ ٢٨ .

غنتك آلهة الربيع قصائدا
وهدتك أيدي الناعمات قلائدا
وشدت حمامة
للبائسين بشاطئيك
شدت حمامة
يا أيها الدرب الحبيب
كم سايرتك حوادث الزمن العجيب
حتى أطاح بها المسير
وبقيت وحدك في الوجود. . . رمز الخلود
تنساب في حلم العذارى الحالمات
شلال حبّ سرمدي الأمسيات

أواه يا دربي الحبيب - يا أيها الجبار يا رمز البقاء - ما كنت أنتظر الفناء - ما كان ظني أن أرى غار الدخان - وأرى الحياة على شفاهك تختنق - كم كنت يا دربي الحبيب - أمل الشبيبة في معارك أخريات - ما زال ينسج خيطها الزمن العجيب.

ومصدر الأصالة في هذه التجربة هو صدق شعورها النابع من أن الشاعر هو من أبناء الدار البيضاء، فهو حين يتحدث عمن التهمتهم النيران في الدرب الجديد بالدار البيضاء، يتحدث عن تجربة عاناها.

وفي قصيدة «رسالة صغيرة إلى طفل من الدار البيضاء» يتحدث عبد الكريم الطبال ممجداً البطولة في الأطفال، أطفال الدار البيضاء[٨٦] :

مجد لأرضي أن تثور وأنت برعم زهرة والسجن فصل الثائر
لم ترتعد والساح مجزرة ونيران وأنت أشمّ فوق الجازر
تمشي إليها في سمو البرج في فمك النشيد يموج موج الطائر
في موكب الإرهاص بالفجر الذي سيطل من علياء ليل ساهر
كالنار كالطوفان تخترق السدود تدك أسوار الضباب العابر
كالسندباد تشق درب الغيب تكشف في تحدّ عن طلاء الحاضر
ولكم يمر بك الرصاص وأنت تهذي بالذي هو حلم شعب حائر

(٨٦) الطبال ، ديوان الاشياء المنكسرة ، ص ٧٥ - ٧٦ .

فكأنما في العرس أنت، وما صفير النار إلا زغردات السامر
ولكم ترى في الساح طفلاً في الدماء وأنت تهدر مثل بحر زاخر
فتصد عن عينيك دمعاً طيعاً وتذود عن قدميك جبن الخائر
ولكم ترى عيني أب تبكي وفي يده سلاح الغدر مثل الكافر
فيخال أنك طفله تثغو وفي عينيه في شفتيه نجوى الخاطر
فيهم أن يلقاك يفتح حضنه، فيصده عنك التقاء الناظر
عيناك جمر دونها في لفحها نار السلاح وفوق شزر الشازر
فيها صفاء الطهر فيها حمرة الحرية الثكلى ولمع الباتر

* * *

وتسير في الزحف المقدس ، في الدماء تخط أرضاً للربيع الناضر
يا طفل ثرت فكنت ابن الثائرين الماجدين وكنت ذكر الذاكر
ما كنت أحلم أن تكون كما أرى مجداً لأرضي وانطلاق الثائر

* * *

قلنا أن سلطات الإستعمار الفرنسي قابلت تقديم وثيقة الإستقلال بإرهاب وحشي لا نظير له، اعتقلت قادة الحزب وعذبتهم تعذيباً وحشياً. وقابلت المظاهرات والاعتصامات الشعبية في الرباط وسلا وفاس وازرو ووجدة بالرصاص، فقتل العشرات وجرح المئات، واعتقل الآلاف. وعانى المعتقلون في معتقلاتهم ألواناً رهيبة من الحرمان والتعذيب والأشغال الشاقة، يسجل كثيراً منها الأستاذ عبد الكريم غلاب في كتابه القيم **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**[٨٧] .

إن التضحيات الضخمة التي قدمتها الجماهير المغربية وفي مقدمتها الاستقلاليون أكدت تصميم المغاربة وعقدهم العزم على نيل الإستقلال وتحرير البلاد من براثن الإستعمار، كما أنها رسمت الطريق للمقاومة المسلحة التي قامت بعد ذلك بتسع سنوات لتزيل الوجود الإستعماري باللغة الوحيدة التي يفهمها الإستعمار: الدم والرصاص.

وإزاء تعاظم الحركة الوطنية عمدت فرنسا إلى تغيير مقيمها العام، وردت زعماء المقاومة المنفيين إلى بلادهم، وحاولت تطبيق الاصلاحات التي طبقت في تونس، ولكن

---

(٨٧) المصدر نفسه ، انظر الصحائف ٣١٤ ـ ٣٤٤ .

تطبيق التجربه التونسية قد فشل في المغرب، لمعارضة الحركة الوطنية لهذه الاصلاحات ورفض السلطان توقيع مشاريع الاصلاح.

وكان خطاب ملك المغرب في طنجة في ١٠ نيسان/إبريل ١٩٤٧، الذي أكد فيه وحدة المغرب شمالاً وجنوباً، ورغبته في الحصول على كامل حقوقه، وأن المغرب جزء من الوطن العربي فثار غضب فرنسا. وتعاظم الصراع بين السلطان ومن ورائه الحركة الوطنية وبين الحكومة الفرنسية. ونجحت دول الجامعة العربية في طرح مسألة مراكش على بساط البحث في الأمم المتحدة في دورتها المنعقدة في تشرين الأول/أكتوبر ـ كانون أول/ديسمبر ١٩٥٢ حيث قررت الجمعية العامة بأغلبية الأصوات اختصاص المنظمة الدولية في دراسة القضية.

واتخذ الإستعمار موقفاً جدياً خلاصته: نفي السلطان وتصفية الحركة الوطنية المتمثلة بحزب الإستقلال. وهكذا كان، فقد حلت حزب الإستقلال واعتقلت زعماءه وعشرات الألاف من أنصاره، ونفي العاهل المغربي وأسرته يوم ٢٠ آب (غشت) ١٩٥٣ إلى مدغشقر. ونصب محمد بن عرفة سلطاناً مزيفاً. وكانت حادثة النفي هذه منطلقاً للثورة المسلحة التي قام بها المغاربة والتي عمت أرجاء المغرب وانتهت بإعلان استقلاله وعودة سلطانه الشرعي من منفاه بعد حرب ضارية أعلنها جيش التحرير[٨٨] .

نفي الملك محمد الخامس إلى مدغشقر أثار قرائح العديد من شعراء المغرب، وأفرد له الشاعر أبو بكر اللمتوني مسرحيةِ شعرية نشرت بعنوان «بقيت وحدي»، جاءت في أربعة فصول. ولأن المسرحية وحدة فنية متكاملة فإن الاستشهاد بأبيات منها لا يعكس جودة هذا العمل المتكامل، ومع ذلك نرى من الضروري اقتطاف بعض مقاطعها المجسدة لصحائف من النضال المغربي.

ففي الفصل الأول تتحدث سلمى، وهي بنت السلطان بن عرفة عميل الإستعمار، عما سمعته من هتافات في المظاهرات المعادية لأبيها[٨٩] :

سلمى:

سـمـعـتُ يـا أبـي جـمـو عـا خـلـتـهـا رعـداً هـدرْ

(٨٨) اعلنت فرنسا استقلال المغرب في الثاني من آذار / مارس ١٩٥٦ ، وتبعتها اسبانيا في السابع من نيسان / ابريل من العام نفسه . وكانت عودة سلطانه من منفاه في ١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٥ .

(٨٩) مسرحية ابو بكر الملتوني ، بقيت وحدي (تطوان : ١٩٦٢) ، ص ١٤ ـ ١٥ .

كأنهم صاعقة ليس لها من مستقر
قد أقبلوا من الشعاب كالجراد المنتشر
من الجبال والسهول والبوادي والحضر
وهم يصيحون صياح الأسد حين تثأرُ
«الموت للخانة ليس لهم منا مفر
المسّ بابن يوسف جريمة لا تغتفر
هو المليك أن نأى وهو المليك إن حضر
سنقطع اليد التي مدّت إليه بالضرر
ثم يقولون - إلهي - ليت سمعي وقر

عرفة: ماذا يقولون انطقي!
سلمى: «عَرَفَةٌ إلى سَقَرْ»!

في مقطع آخر من الفصل ذاته يجري حديث بين أفراد من الجوقة الموسيقية يروي لهم فيها شاهد عيان محاولة اغتيال «بن عرفة» على يد الشهيد البطل علال بن عبدالله، فهو يصف بن عرفة على حصانه وحراب الحراس تحيط به وهو في طريقه إلى المسجد[٩٠]:

إدريس:

متلفتا يخشى بوادر أمة ثارت عليه نسوة ورجالا
تحكي حراب الجند حول حصانه شباك باب السجن والأقفالا
وإذا على بعد المدى سيارة شمطاء تنهج كبرة وكلالا
حتى دنت لا تستثير تطلعا لبلائها أو تستنجد سؤالا
وإذا العجوز تحث باقي عمرها في كرتين فتستحيل غزالا
تتطاير الأجناد حول مدارها مثل الجراد تسابق الآجالا
ثم استطار دخانها عن أغلب بذّ الرجال شجاعة ونضالا
انساق برقا واستقر قذيفة وانقض سهما واستوى رئبالا
ومضى إلى الملك المدلس حاملا قلبا أشمّ ومدية تتلالا
فارتاع سلطان الدمى وتخلخلت من تحته رجل الحصان فزالا

مطرب:

هل مات منتصباً وأهوى جثة أم دقّ منه سقوطه الأوصالا

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.

إدريس:

ما مات متصباً، وعاش ممرغا فوق التراب يوسّد الأوحالا

مطرب: وعن الفتى؟

إدريس:

دار الجنود على الفتى مثل الذباب أذلة أنذالا

مطرب:

خزيا لهم نسر هوى من علوه وسط الذئاب، فأصبحوا أبطالا!

مطرب:

أسروه أم قتلوه؟

إدريس:

بل حشدوا له خير الكماة وصالوه صيالا
سقط الشهيد ضحية وكأنه علم تهاوى أو هلال مالا

مطرب:

واسم المفدى، هل تعرفت اسمه؟ سمّاه لي أصحابه «علاّلا»

قلت أن نفي المرحوم محمد الخامس وكان قد غدا رمزاً للأماني القومية لوطنيته وتحالفه مع الحركة الوطنية أثار قرائح شعراء المغرب فقرأنا لمحمد الحلوي من قصيدة عنوانها «ملك ونصر»[٩١]:

نفوك وظنوا أنّ نفيك حادث سيسلوه هذا الشعب إذ قضي الأمرُ
وقفت وكان الناس حولك قعدا فهبّوا كأنّ الأرض روّعها الحشر
وهبّوا أسودا ضاريات كأنها صواعق تلقيها السماء لها زأر
لهم كلّ يوم في عدوك جولة وفي كل ركن مأتم خلفه سرّ
نفوك ولم يدروا بأنك ها هنا مليك أسود كان يمسكها الأسر
وأنك مولاها وإنسان عينها ومشعلها الهادي وقائدها البرّ

---

(٩١) الحلوي، ديوان انغام واصداء، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ .

فجاءوا بمأجـور تـوالت خـطوبه	وأيـامـه سـودا فـأنكـره القصـر
وهبّ بنوا الـريف الأشـاوس هبّة	تـزلزل منهـا الريف والأطلس الحـر
وثـارت براكين الجـزائـر فـاصطلى	بنيـرانها البـاغي وأوهنـه الـذعـر
وأصبـح بين الأسـد شـرّ فـريسـة	إذا عـضّـه نـاب تنـاوبـه ظـفـر
بـرغم أنـوف الغـاضبيـن تكـللت	مـطامحك الكبـرى وعانقك النصـر
ودارت على البـاغي دوائـر بغيـه	وأدرك أن الـظلم مـرتـعـه مـر

وتحت عنوان «٢٠ غشت»[1] قال إدريس الجابي:

عشرين أغسطس، قال الراوي: يا أحرار
يوم مشهود، تاريخ موعود، تاريخ أقدس، تاريخ أفلس فيه الإستعمار
عشرين أغسطس، تاريخ سناء الملك، إباء العرش، بهاء التاج
يوم مشهود موعود، كالإسراء والمعراج
براق العز سما، فيه شمما، لما طار
يطوي الآفاق إلى المنفى عبر الأقطار
وعليه محمد المغوار
قال: لا قام العرش بالإستعمار
بينا شعب، معروف بالإصرار
يبكيه دماً ويهمهم مختنقاً ألماً
لا تحزن يا بطل الأحرار: إنا أنصار
لا تيأس، لا تحزن فغدا، كالزوبعة الهوجاء وكالإعصار
سنهب لسحق الباغي، ويل الطاغي يوم الثار
إنا للعرش العلوي فدا
ولذا الوطن الغالي أبداً أسوار
قد تنهار الهملايا، لا ننهار
شعب غلاب كالأقدار
تندك حواليه الأبراج إذا ما ثار...

حتى قال:

وتعالى في الآفاق زئير.

---

(٩٢) غشت هو شهر آب / اغسطس. وانظر النص الكامل في: ادريس الجابيي، ديوان السوانح (الرباط: ١٩٧١)، ص ٦٢ - ٦٤.

تهليل الأمة والتكبير
للجند الظافر من جيش التحرير
من شعب منتقم غاضب... يتحدى الجلاد الغاصب
شعب كناس للأرجاس عن الأقداس
كم جندل هامات الدخلا وعليها داس
شعب قهار، طرد الغدار
عن عرش مقعد أسياد أحرار
شعب أشوس... في الريف وفي الأطلس
أعلى العلم الأحمر.. والنجم العلوي الأخضر
وأعاد إلى العرش العالي الملك الغالي
بطل التحرير وفادينا الأكبر
طوبى للشهداء الأحرار الأبرار
ما رفرف هذا العلم القاني
ما دام هنا شعب يرضى بالموت ولا يرضى بالعار

قد يقال ـ وهذا صواب ـ إن هذين النصين كتبا بعد النصر وعودة الملك من منفاه. فأين هي النصوص المستنكرة الثائرة لنفي الملك قبل عودته؟ إن هذا التساؤل وارد حقاً، ونصوص تلك الفترة نادرة جداً لا سيما أن الصحافة الوطنية كانت معطلة تماماً.

ومن هذه النصوص قصيدة العلامة عبدالله كنون المعنونة «ثورة الملك والشعب»[٩٣] ونقتطف منها قوله:

الشعب أسوة عرشه المتعالي ... لا يبتغي بدلا بالإستقلال
أيلام شعب ثار يطلب حقه ... والحق لا يؤتى بغير نضال
شعب تمرس بالحروب فلم يزل ... وشعاره عند الخطوب نزال
تعنوا الشعوب إلى مدى لكنها ... عند التمرد لا تلين بحال

* * *

زعمت فرنسا أننا تبع لها ... من أين يتبع أمس يوماً تال
جهلت فرنسا أننا شعب له ... (تاريخه) من عهد حنّيبال

(٩٣) كنون، ديوان لوحات شعرية، ص ٨٥ ـ ٨٩.

إن الـذي خلق الشعـوب رشيـدة لـم يتخـذ شعبـاً لـشعـب وآل
مـا أن أرانـا نـلتقـي إلاّ عـلى مـيعـاد مـعتـرك ودرب قـتـال
هي جـولـة وإذا الحقـائق أسفـرت وإذا النصـال تكسـرت بنصـال
والله لا نـثـني عنـان كـفـاحـنـا حـتـى نـحـطم سـائـر الأغـلال
ونعيـد مـفخـرة الملوك محـمـدا يـزهـو بتـاج النصـر والإقبـال
ملك على عرش القلوب قد استوى وجـميـعـنـا في حبـه مـتـغـال
من في الملوك الصيـد مثـل محمـد أو في الشعـوب كمغـرب الأبـطال

* * *

المعركة التي صعدها نفي الملك وضرب الحركة الوطنية، وضعت المغاربة في معركة بقاء أو فناء، وتجلت أصالة هذا الشعب العربي في معارك المقاومة المسلحة، والتي قتل فيها الكثير من المستعمرين وأعوانهم وعملائهم. إن هذه المعركة التي قادها جيش التحرير ارتفعت بالشعر المغربي إلى مدارج جديدة ورفيعة من التحدي لقوى الإستعمار والالتزام والمقاومة، وصار الشعر أهزوجة من أهازيج الكفاح، ونشيداً من أناشيد التحدي والمقاومة. فلم يكن بدعا أن نقرأ لمصطفى المعداوي قوله[٩٤] :

يا أيها الجلاد صوتك قد أثار المعجزات
شعبي تحفز للصمود أمامه سبل النجاة
الآه يرسلها عبيراً من صميم الذكريات
لا تنكرن شماتة شعبا تمزق في الفلاة
يا أيها الجلاد قف، فاليوم ميعاد الجباة
جاء الحساب فلا سماح ولا مفر ولا نجاة

ويبلغ التحدي قمة من قممه عند الشاعر نفسه حين يوجه رسالة شعرية إلى الجنرال ديغول، يذكره فيها بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء الحرب العالمية الثانية[٩٥]:

أنا أيها السيد الجنرال - أخاطب فيك صفاء الضمير - وأذكر فيك سمو الخصال - وما خضته من كفاح مرير - على ضفة السين يوم الوبال - ويوم تلوت على العالمين - بألا خنوع ألا استسلام - من أجل السلام.

---

(٩٤) ديوان مصطفى المعداوي، ص ١١١ .
(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٣٩ - ١٤٣ .

أنا أيها السيد الجنرال ـ أخاطب فيك نقاء الضمير ـ وما خضته من كفاح مرير ـ وأذكر يوم حملنا السلاح إلى جانبك ـ فيتمّ أطفالنا البائسون ـ وشرّد أخواننا الجائعون ـ لتنلو معك على العالمين ـ بألاّ خنوع ألاّ استسلام ـ من أجل السلام.

وإذ نحن عدنا إلى حقلنا ـ لظل النخيل ـ لننعم بالدفء والحرية. ونذكر أيامنا الطافحات بويل الدخيل ـ ونذكر ما قد وعدنا من الحرية ـ وأن فرنسا سترعى الجميل ـ نرى أيها السيد الجنرال ـ وعاء الصديد ـ على وجهنا يهرق ـ كأشلاء ناضبة لم تعد ـ لتصلح أصلا لطعم الحياة. وها أنت ذا أيها الجنرال ـ تقلدت في السين تاج الزعامة ـ وهلل باسمك حتى العبير ـ وقوس قزح ـ ورددت الألسن المعجبة ـ الدعاء الجميل ـ لصاحبها الجنرال ـ فرددت يا سيدي الجنرال.

ولكن طلعت علينا غداً ـ طلعت على العالم الحر بالتجربة ـ لتفتك بالأنفس الطيبة ـ نفوس الألى حرروا «سينك» ـ وردوا الوبال ـ وغنوا معك ـ إلى العالم الحر ـ بألاّ تعسف ألاّ احتلال ـ وألاّ خضوع وألاّ استسلام ـ من أجل السلام.

أتذكر يا سيدي الجنرال ـ تلك السواعد تلك الحياة ـ أتذكر تلك الوداعة ذاك الوفاء ـ أتذكر يوم رحلنا نلبي النداء ـ وما كنا غير أناس وفوا للصداقة ـ فأصبحنا منطقة التجربة ـ بلى إن أنفسنا الطيبة ـ ستدفع عنها لهيب الوبال ـ كما دفعته قديماً عن الجنرال.

أنا أيها السيد الجنرال ـ سأبتاع تذكرة للسفر ـ وآتي إليك ـ على ضفة السين حيث التقيت ـ بوالدي الهالك ـ وتوجت إخلاصه بوسام ـ سآتي غدا ـ لألقي أمامك ذاك الوسام ـ وسام الخيانة ـ وأنت ترى سيدي الجنرال.

* * *

وتقبل فرنسا على تفجير قنبلتها الذرية في صحراء الجزائر فيحتج العالم أجمع ويناديها أن تكف عن جريمتها، ولكنها لا تأبه لذلك كله، فيتحداها الشاعر المغربي بقوله(٩٦) :

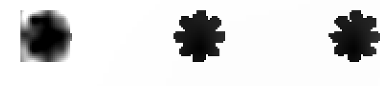
فجريها ـ ولتكن صفعَة إثم في جبين البشرية ـ واقذفيها ـ نحن لا نخشى المنية ـ جربي حظك فينا ـ يا شعار المدنية ـ يا فرنسا الهمجية.

ولنغنِ ـ يا قطيع الأسد في الغابة ساروا ـ يصنعون الإثم والليل انتصار ـ لرفاق النهب أهل المدنية ـ في فرنسا الهمجية.

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

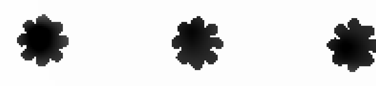
اقذفينا واجعلي من أرضنا ساح معارك ـ وانشري الرعب بأحياء الصبايا ـ يا فرنسا إنما أنت مرايا ـ تعكسين الشر يا أم الضغينة ـ يا شعار المدنية ـ يا فرنسا الهمجية.

فجريها فدمانا ـ لم تزل تغلي على طول الحدود ـ تتغنى بنشيد النصر في الرمل المديد ـ في الرمال المغربية ـ يا فرنسا الهمجية.



ومن شعر التحدي والصمود قول إدريس الجايي[97] من قصيدة:

أرضنا هذه سنورثها الأحـ ـرار منا على مدى الأجيال
أرضنا هذه سنطرد عنها الـ ـمعتدي في جنوبها والشمال
إنها أمنا الكريمة أمّ من بنيها الأحرار كم (علال)
نضحوا بالدم الزكيّ ثراها وسقوها بكل دمع غالي
أنبت المجد والكرامة والعز فحبّ الحصيد جمّ الغلال



في هذا الإطار والغرض جرت قصيدته «عيد الإنبعاث»[98] التي نقتطف منها الآتي:

هذه أمة أفاقت فهبت بعدما زحزحت لحود القبور
صاح فيها محمد: إنني يا أمتي ثائر لأجلك ثوري
لست أرضى تاجاً ولا صولجانا أن يكونا رمزاً لموت الضمير
قد أبى الله أن أكون أسيرا يتولى أمور شعب أسير
أيها الشعب قم بنا نتحدى من أباحوا الحمى بإفك وزور
أيها الشعب من جبالك فانقـ ـض عليهم مثل انقضاض النسور
ومن السهل والصحارى انطلق ليـ ـثا غضوبا وأي ليث هصور
فعزائي إذا نفوني زئير منك يأتي صداه عبر البحور
ويدوي في العالمين نذيرا بالقضاء المحتم المقدور
بانعتاق الشعب الأبيّ الذي ما رضي الذل منذ ماضي العصور

---

(٩٧) الجايبي، ديوان السوانح، ص ٥٨.
(٩٨) المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧.

ويجلو المستعمر الفرنسي عن أرض المغرب العربي، المغرب الذي حلم بفرنسته وجعله جزءاً من فرنسا. وحين تجلو جيوش المستعمر يكتب إدريس الجابي قصيدته «عرفونا جحافلا»[٩٩] .

وقد يكون من المناسب أن نختتم مرحلة الكفاح المسلح التي خاضتها الحركة الوطنية في المغرب في سبيل استقلال المغرب وإعادة سلطانه الشرعي والتي توجت بالنجاح بقول الزعيم المرحوم علال الفاسي مخاطباً المرحوم الملك محمد الخامس:

قد جعلنا الفدى وخضنا بجيوش التحرير كلّ طعان
ودخلنا مراحل العمل الحا سم في عزمة وفي اطمئنان
حملة بعد حملة بعد أخرى نحن عمالها وأنت الباني

إن الرغبة في تحرير أرض المغرب من كل أشكال الإحتلال كانت وراء ما كتبه شعراء المغرب عن إزالة قاعدة النواصر الجوية الأمريكية في المغرب، ومنها قصيدة مصطفى المعداوي المعنونة «رسالة إلى أيزنهاور»[١٠٠]. كما كانت وراء ما كتبه الشعراء المغاربة، وهو غير قليل، عن تحرير «ايفني» والصحراء، ومنه قصيدة «نشيد ايفني» لإبراهيم سولامي[١٠١] وقصيدة « آيت باعمران » لمحمد الحبيب[١٠٢] .

---

(٩٩) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(١٠٠) ديوان مصطفى المعداوي ، ص ٥٥ .

(١٠١) إبراهيم السولامي ، ديوان حب (تطوان : ١٩٦٧) ، ص ٥١ .

(١٠٢) الحبيب ، نجوم بين يدي ، ص ١٣٩ .

المنـاقشـات

عبد الستار جواد: كنت آمل أن نكون قد تجاوزنا مسألة العرب والبربر في الجزائر وفي المغرب عموماً. في الجلسة الصباحية ذهب أحدهم إلى أن البربر ليسوا عرباً، وإنما يشبهون العرب. كنت آمل أن نتجاوز هذا، إلا أن إشارة الأستاذ المحاضر هلال ناجي ونص عبارته (من عرب وبربر) تقتضينا التنبه إلى هذه الناحية. وهذا يذكرنا بتولستوي حين سئل هل إن الله موجود أم غير موجود، فقال مجرد السؤال عن وجوده من عدمه هو دليل على وجوده. إن مجرد البحث في هذه المسألة ينطوي على تفريط في المسألة القومية وفي المسألة الوطنية ، فحين ندرس الشعر العربي في المغرب ، هذا الشعر كتب بلغة عربية فصحى وبديباجة عربية وبعمود الشعر العربي، علينا أن ندرس ونستكشف ملامحه الفنية والقيم التي يطرحها الشعر. قادة البربر هم يقولون بأنهم عرب. لسنا بصدد الدخول بهذا المدخل، ولكنني أريد مرة أخرى أن أؤكد أن الغوص في هذا المجال من شأنه أن يؤدي بنا إلى مزالق لا نريدها، ولا نريدها لقضيتنا العربية والقومية في مثل هذا الظرف الحاسم.

الملاحظة الثانية تتعلق بالشعر في المغرب، أعتقد أن احد أساليب الشاعر المغربي عموماً الرد على الاستعمار الفرنسي هي تشبثه بديباجة الشعر العربي وعدم تأثره بالشعر الفرنسي، وإن كان الشعر والثقافة الفرنسية في تلك المرحلة قد قطعتا شوطاً بعيداً، وفرنسا كما هو معلوم معمل تفريخ للمذاهب والنظريات، وظل الشاعر المغربي يتشبث بعروبته. بل أن الشعر العربي المغربي في تلك الفترة هو نسخة طبق الأصل من إحساس المشرق. كثير من القصائد تتغنى بالمشرق، وهناك تشبث واضح بكل ما هو مشرقي تعبيراً عن انتماء الشاعر إلى الوطن العربي، وتعبيراً عن مناهضته لكل تيارات الفرنسة.

الدكتور سنان سعيد: أرى أن أنوه بالجهد الذي بذل من قبل الأستاذ هلال ناجي في إعداد هذا البحث. وهو ينطوي على الجديد في تناوله لموضوع دور الشعر في المغرب الأقصى في مقاومة الاستعمار. وهو موضوع لم يكتب فيه الكثير، وبالتالي فإن تناول الباحث لهذا الموضوع مفيد عموماً.

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين النضال ضد الاستعمار والوعي القومي وقضية الوحدة. الوعي القومي شعور، والنضال فعل، انعكاس لهذا الشعور. في غياب الوعي الوطني والقومي لا يمكن أن يدور أي حديث عن نضال وطني أو قومي ضد الاستعمار. لدي تحفظ فيما يتعلق بالبحث وأعترف أنني لم أقرأه. ذكر الأستاذ هلال ناجي مثالاً واحداً عن موضوع الوعي القومي، الحس القومي في الشعر المغربي كنت أود أن نطالع في هذا البحث نماذج كثيرة وأمثلة كثيرة في قضية الحس القومي أو الوعي القومي والوحدة العربية، وكان من المناسب أن يعتني الباحث بهذا الأمر، وأن يخصص له من الصفحات الخمس والسبعين جزءاً متواضعاً. كان في وسعه أن يفعل ذلك ليفيدنا ويقرب موضوع بحثه من موضوع هذه الندوة.

أزهر شريف: أشار الباحث إلى الظهير البربري. البربر يعتبرون أنفسهم عرباً سواء انحدروا من أصل عربي أم لم ينحدروا، والأستاذ علال الفاسي يرحمه الله في مدينة فاس، في يوم الخامس عشر من أيار ـ مايو قال بالحرف الواحد: كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو عربي. وكنت أرى أصحاب العمائم من البربر يقولون: أي نعم. أي نعم.

إنهم يؤمنون بذلك. والبربر أنفسهم نزلوا من الجبل وقاتلوا. فالقضية البربرية، إن لم تثرها قوى أجنبية تريد أن تحدث البلبلة في داخل بلاد المغرب العربي، لا وجود لها إطلاقاً. وهم يتكلمون العربية في أعالي الجبال. وعندما يذكر القرآن يحترمونه احتراماً كبيراً ويحترمون من يدرس القرآن الكريم إلى حد تقبيل اليد ويسمونه (الفقيه)، لأنه يدرس العربية ويدرس القرآن الكريم. فهذه الأمور كان الواجب الاهتمام بها من قبل الباحث. والأستاذ الباحث له حس لغوي دقيق لا أدري كيف فاته أن كلمة العربي كما ينطقونها بالمغرب العربي لا تعني ما نعنيه بالمشرق العربي معناه المسلم فالعروبة والإسلام عندهم واحد شيء واحد.

الفَصْل السَّادِسْ

الشعر بَين ثورَة العِشرين وَثورَة "مايس" التحرّريَّة

الدّكتور جلاَل الخيّاط

حين شهر القائد الفرنسي سيفه وتحدى الأموات بشجاعة، وأومأ إلى ضريح البطل: «ها قد عدنا يا صلاح الدين» أيقن العرب أنهم يدخلون عصراً من الكفاح المرير ضد مستعمر جديد لا تدفعه أطماعه وحدها إلى الاستغلال والاغتصاب، فهناك حقد تاريخي عميق، امتد قروناً وتأصل، يكمن في موقف هذا القائد واتباعه.

وانطوت بعد الحرب العالمية الأولى صفحات قديمة، وظهرت علاقات وأشكال من الصراع بين غرب منتصر لم يبايعه أحد على خلافة الاستعمار العثماني، وشرق عربي يحمل بصبر عجيب عذاب سنوات القهر وأحقاب الكبت وقرون الذل والتطويع والافقار والعبودية وعمليات تشويه للإنسان لا مثيل لها. ولم يدرك الغربيون أن للإنتصار مدىً، ولم يمتلكوا رؤية تكشف عن مستقبل قريب أو بعيد يتضح فيه نضال دائب للشعوب التي ترفض الواقع الاستعماري الجديد.

وظن الاستعمار القديم، وشايعه الإستعمار الجديد، أن جذوة الكفاح خبت، وأن التبعية أصبحت واقعاً، وأن العبودية تتطلع دوماً إلى أسياد، ومن أي صوب أتوا. ولم يصحّ هذا المنطق البائس، فحكايات الطغاة لم تعد تقنع أحداً والثورة كامنة، والوعي في أشد الأزمان ايغالاً في الجهل والتعتيم واضح حذر يترقب.

ولم يكن الدرس العثماني بنافع للوارث الوافد، فتبادل المواقع بين الاستعماريين أظهر نقمة أدت إلى ثورة دائمة، وأخطأ التوقع، فالطريق غير ممهدة لسيادة الأوروبي ونزعة التفوق عقدة مستعصية تعود به إلى تاريخ طويل من الانحدارِ والخذلانِ وظهورِ وضمورِ الحضارات، وتنافسٍ كانت السماء فيه طرفاً ثالثاً، نأى به الشرق أن يعد الغرب نداً له. ولم يكن الاقتتال على مواقع القوى وطرق المواصلات ونهب خيرات الشعوب

واستعمار البلدان وتحويلها إلى أسواق لترويج بضائع الانقلاب الصناعي ، إلا واجهة لذاك الحقد التاريخي المتأصل .

وذهب استعمار قديم بوسائله المتخلفة البالية وأساليبه الوحشية اللاانسانية وحكمه للأقطار العربية بالقمع والجهل والإفقار والتجويع، ومرت على العراق سنوات وقرون وليس فيه معلم أو مدرسة، طبيب أو مستشفى، صحيفة أو مطبعة، قناة أو سد. ولم يخلُ عام من طاعون أو فيضان، وقد يجتمع هذا وذاك، وسار الزمن وبقيت روح النضال كامنة، وإلا فأي شعب في ظروف مماثلة لا يفضل الانتحار الجماعي؟!

إلا أن هذا التاريخ الطويل من إهدار القيم الانسانية والقمع والكبت، جعل العراقي ثورياً بطبعه وتكوينه النفسي والعاطفي ونزعته القومية وإرادة التطوير والتغيير والبحث عن الأحسن والأفضل، على الرغم من الكوارث السياسية التي توالت قبل حلول الاستعمار الجديد، الذي أتى بأقنعة براقة تتخذ من التثقيف أو التحضير أو التحرير أعذاراً وواجهات[1]:

ولا تغتررْ إن قيل عصر تمدن ... فإن الذي قالوه من أكذب الكذب

ويتساءل محمد رضا الشبيبي[2]:

متى نحن نحيا أو تموت سياسة ... لها كل يوم مظهر متلون
خداع وكذب وافتراء وقسوة ... وظلم، أهذا العالم المتمدن؟

ولئن اكتفى القائد الفرنسي بتحديه الأموات في دمشق، واطمأن إلى ما اقتطعه من التركة العثمانية، فقد بدأت الأيدي الخفية تبحث عن كنوز أرض العراق وتتضمخ بالذهب الأسود وتسرق الآثار بمهارة وتحصي بانبهار ما يمكن أن يقدمه الإرث الجديد، وتدرس بما أوتيت من علم كيف يمكن أن يصب الرافدان في غير خليج العرب! وأصيب العراقي بالذهول: فهل قدر عليه أن يكون غريباً في وطنه، وأن يصبح جزءاً من موروث يتعاقب عليه الوارثون، دون مجال زمني يتهيأ فيه لعملية الابتزاز الجديدة بشكلها العالمي الشامل، وكيف يتخلص من استعمار ليقع في آخر أعتى وأقوى بوسائل حديثة وأقنعة حضارية؟! ألا يمكن أن يحاول إقالة عثرات التاريخ بنفسه وأن يبني مستقبله بيديه؟!

---

(١) البيت للرصافي في معروف الرصافي ، ديوان الرصافي ، الطبعة ٦ (القاهرة : ١٩٥٧) ، ص ٤٧٨ .

(٢) قصي سالم علوان ، الشبيبي شاعراً (بغداد : ١٩٧٥) ، ص ٢٣٤ .

وأدرك بحسه المرهف ووعيه الكامن وثوريته المتحفزة وبقايا تجارب الاستعمار الذاهب، وروحه القومية المتأججة إن الحقد التاريخي الممتد في الزمن واقع قائم[٣]:

يقـولـون إن الشـرق لا يلد النهى ولا ترتجى منه النزاهة والصـدق
فقلت إذن من علم الغـرب رشـده وهل كان إلا شيخ نهضته الشـرق؟

فلا بد من المجابهة ليتم الخلاص، وعليه أن يوصل رأيه إلى كل مكان، وليس هناك غير الشعر، فوسائل الإعلام الأخرى قاصرة محدودة.

وكان على القصيدة أن تؤدي دوراً كبيراً وفعالاً بسرعة وتصميم، ولم يخب الأمل في شعراء استطاعوا أن يمسكوا بالمبادرة، وأن يصنعوا الثورة أو يسهموا في تكوينها، وأن يحلوا المقاومة مكان التهيئة لها، وبدون توطئة أو تمهيد زمني حولوا الموضوعات الشعرية السائدة التي دارت في أجواء فردية ضيقة خاصة، لا تهم سوى أصحابها كالمديح الكاذب والتهنئة والرثاء والاخوانيات، إلى مضامين عامة في مجالات سياسية واجتماعية وثقافية. وبدأ الشعراء يتناولون قضايا معاصرة كالفقر والجهل والمرض والحث على العلم ومشاركة المرأة في بناء المجتمع وبلورة الشعور القومي والدعوة إلى الوحدة العربية وسحق الاقطاع ومحاربة الاستعمار، ونبذوا الاهتمام الكلي بالتزويق اللفظي والمحسنات البديعة الساذجة.

وكان هذا الانقلاب الشعري مدهشاً صاحب تبادل المواقع بين الاستعمارين القديم والحديث، ولم يستغرق مدة طويلة. واندفع الشاعر بتركز الوعي في ذاته وكونه المعبر الوحيد عن الأمة إلى قيادة الجماهير وتعبئتها وبلورة أحاسيسها وترجمتها واقعاً ملموساً.

وما إن تم للانجليز احتلال العراق كله، حتى قامت ثورة العشرين في سبق زمني لكل ثورات العالم بوقت قياسي مهيء لقوى الشعب لم يمتد إلى شهور طويلة فصلت بين استعمار راحل وبقاياه وآخر قادم يود الإقامة الدائمة. وضاعت الوعود الخلابة بتأسيس حكم وطني أو استقلال الشعب في إدارة شؤونه الداخلية والخارجية، وظهرت مصطلحات جديدة كالانتداب أو الوصاية[٤]:

---

(٣) البيتان لمحمد مهدي البصير، المجموعة الشعرية الكاملة (بغداد: ١٩٧٧)، ص ٨٥.

(٤) البيت لمحمد باقر الحلي ينظر في: إبراهيم الوائلي، ثورة العشرين في الشعر العربي (بغداد: ١٩٦٨)، ص٦٢.

هم يطلبون على العراق وصاية   عجباً فهل أبناؤه أيتام

ويحذر محمد باقر الحلي المواطنين ألا ينخدعوا بوعود المستعمرين الجدد ويذكرهم بتجارب لهم ماضية في مصر والهند(٥):

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا   خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة   ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا   أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا

ويرى البصير أن الشرق يدرك تماماً ما يرمي إليه الغرب في سياسته، وأن تجربة الاحتلال قد تمخضت عن درس لا ينسى(٦):

أعطيتم الشرق درساً عن سياستكم   تعلمت منه ما تحيا به الأمم

وسرعان ما تراصت الجموع وتألبت الجماهير وقامت المظاهرات وعقدت الندوات وانحدر البصير من الحلة إلى بغداد، خطيباً وشاعراً وداعيةً للثورة. واستطاع بنجاح كبير أن ينقل بشعره المعارضة إلى الشوارع والأندية، وآزره خطباء وشعراء، ودعمته جماعات سياسية دون أن يفسح لها الزمن مجال التخطيط الدقيق والتهيئة الطويلة للمجابهة. فحتمية المقاومة الآنية للاحتلال مزقت أقنعة العقل والتدبير ومحقت أعذار التمهل والتروي.

وانطلقت الثورة من كل مكان وطالب البصير بالتكاتف والتضامن، وأن يكون رأي الأمة واحداً: «وإذا تجنبنا الشقاق فكيف يحكمنا الأجانب»(٧)، ودعا إلى النهوض واليقظة: «فهبوا إلى تحرير أوطاننا هبوا»(٨)، وأدان التراجع والانخذال، وآن للعراقي أن ينتفض على واقعه وأن يثور على مغتصبيه وأن يثأر من الاستعمار الجديد وكل عهود الطغيان السابقة(٩):

لا يلبسنَّ الشعب حلة مجده   حتى تطرز بالنجيع القاني
وإذا تتوجت الجماجم بالظبا   كانت لهن كرامة التيجان

---

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٢، ٦٣.
(٦) البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٥١.
(٧) المصدر نفسه، ص ٥٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٧.

وتعم الثورة أرجاء العراق كله ويصب الفرات الأوسط بكل ثقله في مساربها وترتفع راية الثورة في النجف الأشرف، ولم يبقَ عراقي مخلص بمنأى عنها واقترنت مقاومة الاحتلال والنقمة عليه، بمخلفات عهود القهر والاستبداد والابتزاز. وكانت استجابة الجماهير التي خرجت من أقبية الحكم العثماني وعانت من الانخذال والقهر والاستغلال مدهشة رائعة.

ودارت رحى الثورة بين طرفين غير متكافئين: شعب يحمل على كاهله أعباء استعمار قديم دام أكثر من أربعة قرون، وليس من مال أو سلاح، وجيش منظم خرج منتصراً من حرب كونية ولديه أسلحة فتاكة حديثة وأطماع لا حدود لها. وعلى الرغم من ذلك دامت الثورة أشهراً، ولكن الغلبة المحددة بفترة زمنية معينة، طالت أو قصرت، كانت إلى جانب الانجليز، ولم يلقِ العراقيون السلاح: «إلا بعد مفاوضة انتهت بعقد اتفاق بين الطرفين ينص على ست مواد أولاها: «أن تكون للعراق حكومة عربية مستقلة...»[10].

إلا أن الثورة أصبحت بمثابة انطلاقة وطنية رائدة في العراق والوطن العربي، ولدى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها في كل مكان. وإن استطاع الانجليز أن يخمدوا جذوة ثورة العشرين، فإنها عاشت في ضمير الأمة واتخذت شكل انتفاضات ووثبات وثورات اخرى، وفي أقل من نصف قرن، ويؤكد البصير أن ثورة العشرين ليست سوى بداية طريق من النضال طويلة[11]:

ولئن رجعت بغير ما أملته ونزعت في يد قاهريَّ سلاحي
فلقد أفدت من المصائب خبرة ستكون عند العود سر نجاحي

وتتضمن قصائد الجواهري في الثورة هذا المنحى، وله بعد انتهائها قصيدة مطلعها[12]:

إن كان طال الأمدُ فبعد ذا اليوم غدُ

ومنها:

يا ثورة العرب انهضي لا تخلقي ما جددوا

---

(١٠) الواثلي، ثورة العشرين...، ص ١١.
(١١) البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، ص ٦٣.
(١٢) محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري (بغداد: منشورات وزارة الاعلام، ١٩٧٣)، ج١، ص٩٧.

لا عــاش شــعــب أهــلـه لــســانهم مــقــيــد
أفــدى رجــالاً أخلصــوا لــشــعــبــهــم واجــتــهــدوا

وبعد ثورة العشرين تظاهر المحتلون بالرضوخ إلى إرادة الشعب والعمل على قيام حكومة وطنية في الظاهر، تديرها أيدي المستعمرين خفية أو علانية، ولم يكن الشعر بعيداً عن الواقع، واسقط الشعراء حتى العناية بفنية قصائدهم وجمالية أسلوبها وكرسوا الشعر أداة كفاح وتعرية وكشف ومقاومة ونضال وإن طغت العاطفة المتأججة والحماسة المتدفقة على الفكرة النافذة والحل الموضوعي، وبقي دور الشاعر، في كثير من الأحيان، محصوراً في الحث والترغيب فلجأ إلى الأوامر الشعرية في السياسة والاجتماع ومحاربة الجهل والفقر والمرض والدعوة إلى تحرير المرأة، وأحس الشاعر في كثير من الأحيان أن مهمته تنتهي بإثارة الحماسة وتأجيج العواطف فاكتفى بالإرشاد والتوجه المثالي في الفكر والمضمون الشعري، وبالرغم من ذلك كان للشعر دور كبير في ثورة العشرين والثورات التي أصبحت امتداداً لها واستمراراً.

وما لبث العراقيون بعد ثورة العشرين أن تنبهوا إلى تمثيلية تجمع ما بين المأساة والملهاة، من شخوصها: «علمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ»[13]، وحكم: «وجهه وطني وباطنه أجنبي»[14]، وواجهوا الواقع الجديد بسخرية مريرة وخيبة أمل تضم في أنحائها تصميماً على النضال. ويلخص محمد باقر الشبيبي الوضع السياسي القائم بالأبيات التالية[15]:

قــالوا استقلت في الـعـراق حكـومـة ... فعجبت إذ قــالــوا ولــم يتــأكــدوا
أحــكــومــة والاســتــشــارة ربهــا ... وحكــومــة فيهــا المشــاور يعبــد
الــحكـم حكـمـهـمُ بغـيــر مـنـازع ... والأمــر مــصــدرهُ هـمُ والــمـورد
المستشـار هـو الـذي شـرب الـطلا ... فعــلامَ يـا هــذا الــوزيــر تعـربــد

ويكشف الرصافي في طقوس الاستيزار وكيفية تشكيل الوزارات والتخطيط لها[16]:

إن الــوزارة لا أبــا لــك عنــدنــا ... ثــوب يفصــل في معــامــل لنــدنــا

---

(١٣) من بيت للرصافي ، ديوان الرصافي ، ص ٤٦١ .
(١٤) لعلي الشرقي تنظر في : الدائلي ، ثورة العشرين . . . ، ص١٢ ومصادره .
(١٥) ينظر : عبد الكريم الدجيلي ، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث (القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩) ، ص ٦٠ .
(١٦) الرصافي ، ديوان الرصافي ، ص ٥٠٤ .

لا يرتديه سوى امرىء أضحى له طبعاً وداد الانجليز وديدنا

أما الملك عنده فليس سوى رجل: «يعدد أياماً ويقبض راتباً»[17]، وبعد انتهاء ثورة العشرين وقيام الحكم الأهلي اتخذ الشعر مساراً جديداً ولم تعد ظروف ملحة تفرض على الشعر أن يكون موجهاً مباشراً ومؤججاً لحماسة الجماهير، وبدأ الشعراء يعالجون مضامين تتصف بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية. فرأوا أن الاستقلال السياسي لا يتم إلا بالقضاء على الجهل والفقر والمرض، والوقوف بقوة وصرامة ضد الاقطاع، وأن المحتل لم ترسخ له قدم لولا الحدود المصطنعة التي جزأت الوطن الواحد، تمهيداً للسيطرة عليه. فدعوا بقوة إلى الوحدة العربية كطريق للخلاص من الأجنبي وتحقيق الاستقلال، يقول عبد المحسن الكاظمي[18]:

إلى العرب الكرام بكل أرض أمد يدي وأطلق من لساني
جميع العُرْب إخوان فهذا لهذا في العلا أقوى ضمان
فلا هذاك نجدي ولا ذا حجازي ولا هذا يماني

ويتساءل محمد حسن أبو المحاسن[19]:

فمتى تؤلف وحدة عربية وطنية الإصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده فبلاد قومي كلهن بلادي

ويقول علي الشرقي[20]:

كنا نحاول أمراً يفوق كل اعتبار
أهدافه تتغنى بوحدة الأقطار

ويهتف الرصافي[21]:

معشر العُرْب أين أنتم من القوم إذا ما تم انقلاب الزمان
أنيام والدهر يفتح فيكم من جديديه مقلتي يقظان

---

(17) المصدر نفسه، ص ٤٤٠ .

(18) ينظر: محمد مهدي البصير، سوانح (بغداد: ١٩٦٧)، ص ١٢٣ .

(19) ينظر: خضر عباس الصالحي، شاعرية ابي المحاسن (النجف: ١٩٦٥)، ص٥٢ .

(20) ديوان علي الشرقي، جمع وتحقيق إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي (بغداد: ١٩٧٩)، ص ١٨١ .

(21) الرصافي، ديوان الرصافي، ص ٤٧٤ .

ويرى الشبيبي أن الثورة تكمن في أعماق الحزن الذي انطوت عليه الأمة[٢٢]:

يا أمتي لا تحزني أو فأحزني حزن النفوس الشم زاد مضاؤها
إن الضمائر والقلوب إذا دجت دخل الأسى أعماقها فأضاءها

ويفصح عن مشاعره في قصائد كثيرة تدعو إلى التضامن والوحدة. وله[٢٣]:

إنني ذاك العراقي الذي ذكر الشام وناجى اليمنا
إنني أعتد نجداً روضتي وأرى جنة عدن عدنا

«وتتسق مشاعر الشبيبي الوطنية في هذا اتساقاً كبيراً مع مشاعره القومية، حتى كأنهما أمر واحد. إنهما لكذلك، وقد قرن همه العراقي بهمه العربي وسعيه الوطني بسعيه القومي، يتألم ويستنهض، يتابع ما يجري شاداً يده على يد إخوانه أنّى كانوا في ليبيا أو في الشام، في مواجهة العثمانيين والايطاليين والفرنسيين: يتألم للجهل والخراب والخضوع، ويبارك المستيقظين، ويفضح أحابيل الأعداء، ويرثي الشهداء»[٢٤]:

ولم يبق الشعر بعد ثورة العشرين في حدود الأمنيات والنزعة المثالية المطلقة، فتناول قضايا عديدة هي دعائم للاستعمار في الداخل وترسيخ لوجوده في مقدمتها الاقطاع، ولأحمد الصافي النجفي قصيدة بعنوان الفلاح[٢٥]:

رفقاً بنفسك أيها الفلاح تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة ونظيرها لك في الفؤاد جراح
هذي ديونك لم يسدد بعضها عجزاً فكيف تسدد الأرباح
بغضون وجهك للمشقة أسطر وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئاً فيزان منها للغني وشاح

ويقول علي الشرقي[٢٦]:

من كسرة الفلاح أقداح الطلا ومن عصا الراعي القمار والبطر

(٢٢) علي جواد الطاهر، وراء الافق الادبي (مقالات) (بغداد: ١٩٧٧)، ص ٢١٧.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢١٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٢٥) احمد الصافي النجفي، الامواج، الطبعة ٤ (بيروت: ١٩٦١)، ص ٨ وما بعدها.
(٢٦) ديوان علي الشرقي، ص ٢١٤.

وللرصافي[٢٧]:

وترى الغائصين في البحر أمسى ... لسواهم ما أخرجوا من لآلي
وترى المعسرين في كل أرض ... كعبيد والموسرين موالي
أكثر الناس يكدحون لقوم ... قعدوا في قصورهم والعلالي
واحدٌ في النعيم يلهو وألفٌ ... في شقاء وبؤس واعتلال

وكان من نتائج ثورة العشرين أن ظهرت بوضوح أغراض اجتماعية جديدة، واتسعت الدعوة إلى العلم في الشعر، فالجهل يشكل ركيزة للاستعمار ينفذ من خلالها إلى تحقيق مشاريعه ومطامعه. وقضت الروح التي سادت الثورة على أية نزعة إقليمية ضيقة أو منحى فردي في التفكير محدود، وكانت انطلاقة الشعراء في معالجة قضايا الوطن ذات اتجاهات شاملة تمثلت في مضامين متعددة لا حصر لها، منها الدعوة إلى حرية الفكر التي يربط الرصافي بينها وبين الاستقلال السياسي[٢٨]:

إذا كان في الأوطان للناس غاية ... فحرية الأفكار غايتها الكبرى
فأوطانكم لن تستقل سياسة ... إذا أنتمُ لم تستقلوا بها فكرا

ويؤكد في أشعاره على أهمية العلم في القضاء على الاستعمار ويرى أن الجهل يحيل الإنسان ميتاً في ثياب حي[٢٩]:

إذا ما عق موطنهم أناس ... ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتى ... وليس بيوتهم إلا قبورا

ولتعليم المرأة وحصولها على حقوقها المشروعة وبنائها المجتمع مع الرجل وسيرها قدماً في سبيل تحرير الوطن من المستعمر الغاصب، مدى واسع في قصائد شعراء النصف الأول من القرن العشرين، يقول الزهاوي[٣٠]:

كيف يسمو إلى الحضارة شعب ... منه نصف عن نصفه مستور

(٢٧) الرصافي، ديوان الرصافي، ص ١٧٩.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٥١.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٣٠) جميل صدقي الزهاوي، رباعيات الزهاوي (بيروت: ١٩٢٤)، ج٣، ص ٧٥.
(٣١) المصدر نفسه.

وله أيضا[٣١]:

إنما المرأة والمرء سواء في الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة

وهكذا تتالت الموضوعات الشعرية واتسعت، ونأت عن التطلع الفردي المحدود الذي ساد الشعر في القرن التاسع عشر، واتجهت القصيدة إلى التنبيه والحث والدعوة إلى مقارعة الاستعمار إبان ثورة العشرين، واتخذت أشكالاً مغايرة بعدها تتناول المشكلات التي تهم المجتمع وتتصل به اتصالاً مباشراً بتفصيل دقيق ومتابعة دائبة. فثورة العشرين لم تكن في أذهان الشعراء حدثاً تاريخياً منقطعاً عن الأحداث الأخرى التي شهدها العراق، إنما هي توطئة وبداية تتخذ أبعادها في الاستقلال الشامل. وانتظر الشعراء ولم ييأسوا، حتى تضافرت عوامل شتى لقيام ثورة «مايس» التحررية التي أعادت سيرة ثورة العشرين بمحاربة الانجليز والتخلص من نفوذهم. ولم يعِ المستعمرون التجربة الأولى فحاولوا أن يحتلوا العراق ثانية بعد أكثر من عشرين سنة، وإن كانت مقاومة الانجليز للعثمانيين في الحرب العالمية الأولى عذراً أرادوا أن يقنعوا به العراقيين، وتلفيق دعاوى التحرير تسويغاً توهموا أنهم يخدعون به البسطاء السذج، فإن الإحتلال الثاني يكشف عن نوايا وخطط المستعمرين بوضوح، وأن النضال لا يمكن أن ينتهي إلا بالقضاء على هذا الوجود الاستعماري الذي تمتد جذوره في البلاد بوقاحة وتصميم ومراوغة واعتداء سافر. يقول العقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته: «لقد فرض الانجليز علينا القتال فوقفنا بوجه العدوان لنعلن للعالم أجمع أن الأمة العربية لا تقبل الاستعمار ولا ترضخ لجور الانجليز، وترفض تقديم فلسطين العربية لقمة سائغة للصهاينة». وحين وطئت جيوش الاحتلال أرض العراق ثانية أعلن العراقيون الحرب على بريطانيا، وهبت الجموع تساند القوات المسلحة في سبيل الخلاص من المحتلين، ولم يكن الشعر في خضم الأحداث بمنأى عن المشاركة في صنع حاضر العراق ومستقبله والتوطئة للثورة والنقمة على المستعمر ومقاومة الاحتلال، الذي يتذرع دوماً بأسباب واهية ويتشبث بدواع متوهمة لتنفيذ مآربه وخططه.

وللرصافي قصيدة يحيي بها ثورة «مايس» التحريرية، مطلعها[٣٢]:

---

(٣٢) اكثر القصائد التي قيلت في ثورة مايس التحريرية ضمها كتاب يونس بحري ، اسرار مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية الانجليزية ، تقديم علي الخاقاني (بغداد : ١٩٦٨) ، ص ١٥٦ وما بعدها .

اليــوم قــري يــا مــواطن أعينــا   وتــطربي بـالحمــد منــك الألسنــا
فلقــد وفـاك الجيش حقـك سـابقـاً   إذ قــام فيــك على البــلاد مهيمنــا

ويذكّر محمود الحبوبي الانجليز، في قصيدة له، بالمقاومة الصلبة التي تجلت في ثورة العشرين:

فيا بني آلتيمس الناسين ما فعلت   بـهم بنـادق كـل ابن لنـا وأب
هـذي مصارعكم بـالأمس فـاعتبروا   بهـا ولا تقربـوا الآسـاد إن تثب

ويقول محمد بهجة الأثري:

جيش إذا اقتحم المعامع خاضها   بـجنـان أروع لا يـهـاب لقـاءا
من كل أغلب ما جد وهب الحمى   والسـاكنيـه العمـر والحـوبـاءا
يمشي إلى الهيجـاء يستبـق الـردى   ليـنـال عـزا أو يـمـوت فـداءا

ويتوجه عبد الغني الخضري إلى الشباب الثائر بقصيدة تحيي ثورة «مايس» التحررية، ويعود بالانجليز إلى الثورة الأولى وما وقع لهم فيها:

جمـع الخـصم جيشـه ليـريهـا   أنـه قـادر عـلى الاضـطهـاد
فـاستشـاطـت من الأبـاة نـفـوس   ظـامئـات إلى الـوغى والـجـلاد
تشتـري العـز بـالنفـوس لتحيـا   بـحـيـاة الـخـلود والأسـعـاد
إيـه يـا ثـورة العـراق أعيـدي   ذكـريـات الآبـاء والأجـداد
واشـرحي للبنيـن كيف الألى ثـا   روا بـوجه العـدو في كـل وادي
يـا آبنة آلتيمس اذكـري يـوم هجنـا   بـوجـوه الـذئـاب كـالآسـاد
كيف ثـرنا من قبـل عشـرين عـامـاً   نـطلب العـز في ظهـور الجيـاد
تـلك أعـمـالـنـا تـدل بـأنـا   أمـة حـيـة بـرغـم الـمـعـادي

ويدعوا إبراهيم الوائلي إلى التحام الشعب والجيش في ثورته التحررية:

الـجـيش لـلأمـة لـحـم ودم   فلتسـع يـا شـعب لاسـعـافـه
وأرهـف الـسـيـف وخـل الـقـلم   فـالـفـوز مـقـرون بـإرهـافـه
ودرس الـنشء حـيـاة الـشمـم   مـنـتـهـجـاً تـاريـخ أسـلافـه
وسـر إلى المجـد بـظل العـلم   فـإنـمـا الـنـصـر بـأطـرافـه

* * *

ها هو ذا يوم العراق المجيد حقق للأمة آمالها
فاستبشرت فيه لدور جديد وانبعثت تحطم أغلالها
وكيف ترضى بحياة العبيد من كرست للمجد أعمالها
قد حقق الجيش لها ما تريد فقدست في الروع أبطالها

ويقول محمد علي اليعقوبي:

وما حمت لندن أبناءها فكيف يحمون (بحبانيه)
لا يرتضي الشعب سوى أهله حكومة آمرة ناهيه
وكم أرانا الله من دولة قبلك جارت فغدت فانيه

وللشاعر عبد الكريم العلاف قصيدة بعنوان (بعد عشرين سنة أقف بوجه الوحش البريطاني)، منها:

ونصرخ فيهم صرخة مضرية يرد صداها مصرها وشآمها
أنرعى حقوق الانجليز وهذه نواياهمو قد ميط عنها لثامها
وفي الشام والقدس الشريف فعالها تجلت وفي بغداد كان تمامها

أما جميل أحمد الكاظمي فيقول:

هذه وثبة وأخرى تولت منذ عشرين طعنة نجلاء
إيه أبناء لندن قد أهجتم أسد غاب ولم تراعوا الوفاء
ما سلكتم مسالك الحق لكن قد سلكتم سياسة نكراء

ويرتجل أحمد الصافي النجفي مقطوعة يلقيها من شرفة القنصلية العراقية في بيروت على المتظاهرين الذين أيدوا ثورة «مايس» التحررية، منها:

ليس ينمو العز إلا في ضفاف الرافدين
فلقد فاضا دماءً أخصبت في الشاطئين
يا ليوثا تحرس الغا ب بكلتا المقلتين
صرتمو والعُرْب طراً بالدنا قرة عين
امسكوا آستقلالكم يا أسد في كلتا اليدين
كونُوا أمةَ عُرْبٍ لا تقولوا أمتين
إنكم مطمح آما ل بلاد المشرقين

وأدت هذه القصيدة ومواقفه الوطنية وإسهامه من قبلُ في ثورة العشرين إلى اعتقاله، ومكث في السجن ردحاً من الزمن، وكانت الوعود بإخلاء سبيله تنهال عليه دون طائل فنظم قصيدة يقول فيها[٣٣]:

حكومة لبنان قد راجعت ... فرنسا لفكي فلم تستطع
وراحت فرنسا إلى الانجليز ... تراجعهم جل من مرجع
وقد راجع الانجليز العراق ... ولليوم بالأمر لم يصدع
فقلت اعجبوا أيها السامعون ... ويا أيها الخلق قولوا معي
أمن قوتي صرت أم ضعفهم ... خطيراً على دول أربع

وكان الشعر من أقوى الأسلحة التي يمتلكها الشعب في مقارعة الاستعمار. وأثبتت القصيدة فاعليتها وتأثيرها إزاء أهم حدثين في تاريخ العراق عبر النصف الأول من هذا القرن: ثورة العشرين ووليدتها: ثورة «مايس» التحررية[٣٤].

---

(٣٣) حصاد السجن، الطبعة ٢ (بيروت: د. ت.)، ص ٩٠.

(٣٤) ليس لهذا البحث ان يمتد الى اكثر مما قدم، فهو جزء من ابحاث الندوة المختلفة التي تحاول ان تتابع مسيرة الشعر عبر الاحداث السياسية المعاصرة والثورات العارمة التي قامت في الوطن العربي.

المناقشات

عبد الستار جواد: ملاحظاتي الأولى تتعلق بعنوان البحث، الشعر بين ثورة العشرين و حركة «مايس» التحررية. فالباحث الفاضل أطلق كلمة حركة على ثورة «مايس». والواقع نحن نقول حركة «مايس» عفوياً، وهي من مصطلحات الحكومات السابقة. أطلقت هذه السمة على ثورة «مايس»، وقد ثبت أنها ثورة أصيلة، وقد مرت بمراحل تمهيد أقنعت من دفع رشيد عالي إلى الوزارة، كما هو معلوم في مرحلة تمهيدية لقلب النظام الملكي. ولذلك اقترح أن يكون العنوان «ثورة» مايس.

الملاحظة الأخرى: إنني وجدت الدكتور جلال الخياط يركز على الجانب السياسي للشعر. فإذا كان عنوان الندوة الفكرية هو في الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية، فإن مسألة الوعي القومي لا تعني الوعي السياسي وحسب. فلو أخذنا المرحلة التي أراد أن يقصر بحثه عليها، وهي فترة ما بين ثورة العشرين وثورة «مايس» لا بد وأن نقف عند مفهوم الحرية عند الرصافي. كيف كان الرصافي يتعامل فنياً مع الحرية، وكيف كان يعبر عن إرادته. كذلك لا بد وأن نقف عند آراء الزهاوي التقدمية ودعوته للتجديد، وما قاله في مسألة الحجاب والمرأة، ودعوته أيضاً حتى للتجديد في الأوزان الشعرية. فأنا لا أفهم أن يتوفر ناقد يدرس مرحلة معينة تشكل مرحلة حاسمة بالنسبة للشعر العراقي في هذه الفترة، ويقتصر على جانب سياسي وحسب، دون أن يتلمس الجوانب الاجتماعية والفكرية التي أفرزتها تلك المرحلة التي اتسمت بمخاض عسير في تلك الفترة.

الدكتور جلال الخياط: هناك ملاحظة أعتقد أنها تخص المناقشين جميعاً صباح هذا اليوم وهي، أننا نلقي عليكم تلخيصاً، ولسنا في صدد محاضرة متكاملة تضم أبعاد

الموضوع. أنا الآن اختصرت في التلخيص والأستاذ عبد الستار جواد أشار إلى قضايا اجتماعية وقضايا تتعلق بتحرير المرأة. هذه القضايا موجودة في البحث الأصلي أولاً. وثانياً إن كنت قد اقتصرت على الجانب السياسي أو تأثير الجانب السياسي في الشعر ؛ فأنا ملتزم بالشعار الذي عقدت هذه الندوة من أجله .

ليس لدي شيء آخر، وأشكر الأخ عبد الستار على ملاحظته القيمة، أما أن نطلق كلمة اصطلاح حركة أو ثورة فهذه القضية لست أنا صاحب القول الفصل فيها.

الفصل السابع

دور الأدب في الوحدة العربية

- الشعر بين الحربين -

الدكتور علي عباس علوان[*]

ليس من طموح هذا البحث، أن يقدم تصوراً كاملاً لحركة الأدب ودوره في الوحدة العربية ما بين الحربين. ولعل المتتبع المنصف والموضوعي، يجد من الأسباب للباحث أكثر مما يجده الباحث نفسه من أمثال توزع نظرية الأنواع الأدبية المتعددة من شعر بأنواعه وقصة ورواية ومسرحية وخطبة ومقالة.. الخ، وفضلاً عن ارتباط الأدب بالحركة الزمنية للتاريخ مما يجعل تطبيق أي منهج نقدي متميز، عملية غير مأمونة النتائج. وليس هذا فحسب، وإنما ما يجده الدارس من تفاصيل وأحداث ومتغيرات على كل الأصعدة، الفكرية والسياسية والاجتماعية والفنية، كفيل بأن يجعل الاحاطة بذلك كله في نسق من التصور الموضوعي والعقلاني عملية تفتقد المنطق وأسس البحث العلمي.

ومع ذلك، فإن ما يحاوله البحث، وأقصى ما يطمح إليه، أن يقدم ملامح صورة لحركة الأدب العربي الحديث من خلال أكبر فنون الأمة، ونعني به فن الشعر، في ضوء معطيات الواقع الموضوعي لحركة التاريخ وأحداثه الكبرى في الوطن العربي بين الحربين.

ونحن نرى أن الدخول إلى موضوع دور الأدب العربي، في هذه القضية الكبيرة من تاريخنا الحديث، لا يحتاج إلى حسّ نقدي وانتقاء ذكي من بين آلاف النصوص والقصائد والمواقف فحسب، وإنما الأمر يحتاج إلى مناقشة بعض المسلّمات الشائعة في حياتنا والأحكام المجانية التي نجدها كثيرة وفي مصادر وكتب متعددة.

١ ـ من المسلمات التي شاعت في مفاهيمنا النقدية والأدبية أن الأدب تعبير عن واقع المجتمع وآماله[١] وهذه، في تقديرنا، تعبير خاطىء في التطبيق. ذلك أنه إذا كانت

(١) اوستن وارين ورينيه ويليك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، (دمشق : ١٩٧٢)، ص ١٢.

آمال المجتمع العربي، مغربه ومشرقه واحدة، فإنه في الواقع لم يكن مجتمعاً واحداً في أقطاره المتعددة. إذ لم يكن المجتمع المصري الذي اتصل بأوروبا، منذ أواخر القرن الثامن عشر، هو المجتمع العراقي المتصل بدول شديدة التخلف مثل إيران والهند؛ وبسبب موقعه الجغرافي المتطرف في أقصى الوطن العربي مما جعل آثار التيارات الحضارية والفنية تصله متأخرة عن وصولها إلى مصر وبلاد الشام ولبنان مثلاً، بحيث ظلت حركة المجتمع العراقي تكاد تكون أسيرة حركة القرون السابقة التي مرت عليه. هذا إذا ما صرفنا النظر عن المتغيرات المستمرة، في كل لحظة ويوم، داخل نسيج المجتمع الواحد وتركيباته الطبقية والمصالح والهموم والشرائح والقوى التي تتحكمه.

ثم: من هو الأديب الذي يستطيع أن يعبر عن (المجتمع) كله، بكل تناقضاته ومتغيراته؟ ترى ما رؤية هذا الأديب؟ وإلى أي الشرائح ينتمي؟ وكيف يستطيع أن يمثل كل المجتمع وكل قواه السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية؟ أليست القومية في مفاهيمها ترتبط بهموم وآمال وسلوك سياسي واقتصادي وآيديولوجي وفي الحد الأدنى منه؟

من هنا، ينبغي أن نغير هذا المفهوم الشائع خطأ، ونحن نحاول الدخول لتلمس ملامح صورة الأدب العربي خلال الحربين، فنقول: «إن الأدب تعبير عن فهم الأديب لمجتمعه وواقعه، وإنعكاس هذا الفهم في إبداعه الفني».

وسنكتشف أن أدلة كثيرة تؤيد هذا الذي نذهب إليه. فإذا كانت كوكبة الشعراء العرب في الشام والعراق والمهاجر الأمريكية قد بايعت الشريف حسين بن علي ملكاً على العرب ومحرراً لهم من نير الأتراك، فإن شعراء مصر مثلاً سكتوا جميعاً عن ذلك، بل نجد أكثر من ذلك. نجد في العراق من يهاجم دعوة الشريف حسين وحركته هجوماً كاسحاً كالرصافي، مثلاً، الذي وجد أن الأنكليز الذين خلعوا الخديوي عباس من منصب الخديوية في مصر سنة ١٩١٤ هم حلفاء الشريف حسين الخارج على الدولة العثمانية، فقال[٢]:

دَعْ الحسينين في مصرَ وَقَدْ بَغَيا ... ففي الحجاز حُسينٌ ثالثٌ لهما
هَذان قَدْ أَخْجَلَ الأهرامَ بغيهُما ... وَبَغي ذَلكَ أخزى البيتَ والْحَرَما

(٢) الأبيات غير منشورة في الديوان.
نقلاً عن: رؤوف الواعظ، معروف الرصافي، حياته وأدبه السياسي (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦١)، ص١٦٢ - ١٦٣.

فأنْتِ يَا أرْضُ ميدي تَحْتَه جَزَعاً ... وَيَا سَمَاء عَليه أمْطِري نقَما
قَالوا الشريفُ وَلَوْ صَحَّتْ شَرَافَتُه ... لَمْ يَنْقُضِ الْعَهْدَ أَوْ لَمْ يحفرِ الذِّمَمَا

والحسينان في البيت الأول يعني بهما السلطان حسين كامل ورئيس وزرائه حسين رشدي .

وإذا كان الرصافي يتبع في موقفه وجهة نظر إسلامية تؤيد الخلافة والسلطان التركي في الآستانة ، ويهاجم الأنكليز وهم بعيدون عنه كل هذا البعد ، فإنه لم ينبس ببنت شفة حين دخلوا العراق محتلين في الحرب الأولى وقيام ثورة العشرين بعد ذلك ، وكذلك فعل سائر شعراء العراق المشهورين الزهاوي والشبيبي . بل إن الرصافي نفسه ، وقف ليرحب بفيصل بن الحسين ملكاً على عرش العراق منشداً أبياته في بيت عبد الرحمن النقيب[٣] . ولعل ورطة الكاظمي كانت شديدة ومثيرة جداً ، فلم يستطع أن يكوّن نتيجة منطقية لما يجري في الساحة العربية ، فهو في مصر يؤيد الشريف حسين وأولاده ، ولا يهاجم حلفاءهم الأنكليز . لكن هؤلاء الحلفاء دخلوا القدس وأحتلوها ، والقدس رمز إسلامي عزيز ومقدس ، والكاظمي طالما دافع عن الدولة العثمانية الإسلامية في حروبها ضد الأوروبيين ، ولم يكن آنذاك موالياً للشريف حسين ، ولا سيما في حرب البلقان عام ١٩١٢[٤] . وها هو مضطرب متناقض ، فرح وحزين في آن واحد فها هو قائل :

لستُ أدري أيّ الفريقين أدنى ... للأماني : أضالح أم عودُ ؟
أأصافي وَذاكَ عِندي عدوٌ ... أو أداجي وَذاكَ عِندي ودُودُ ؟
نبأ لاقتِ المسامعُ مِنْهُ ... مَا يُلاقي المسرورُ والمنكودُ
فلِهَذا هنا به وسرور ... وَلِذاكَ الزفيرُ والتنهيدُ
فهنيئاً لِمَعْشَرٍ قَدْ أبَادُوا ... وَعَزاءٌ لمعشَرٍ قَدْ أُبيدوا

ويتخلص الكاظمي من هذا الحرج الذي لازمه طوال القصيدة فيزعم لنفسه أن القدس (لم تسقط) ، وإنما سقط عنها اللوْم والتفنيد .

وأُحاشِيهِ مِنْ سقُوطٍ ولكِن ... سَقَطَ اللوْمُ عَنْهُ والتنفيدُ[٥]

٢ ـ ومن المسلمات التي تحتاج إلى نوع من المراجعة : هذا المطلق في الأحكام عن

---

(٣) علي عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، (بغداد: ١٩٧٥)، ص١٢٦ .
(٤) عبد الحسن الكاظمي، ديوان الكاظمي (دمشق: ١٩٤٠) ج ١ : ص١١٠ .
(٥) المصدر نفسه، ج ١ :ص ١٧٨ .

هذا الشاعر أو ذاك ، وبأنه شاعر العرب ، أو شاعر النيل وهكذا مما ألفناه من أحكام . وليس اعتراضنا على الألقاب، ولكن اعتراضنا على التجريد في الألقاب والأحكام بعيداً عن الأطر الزمانية والمكانية لرؤية الأدباء والشعراء ومتغيرات عصرهم وظروفهم السياسية والاجتماعية والخاصة التي أنتجت أدبهم .

فالعقاد الذي كتب أروع البحوث والمؤلفات عن سير أبطال العروبة والإسلام والعبقريات الإسلامية والذي قال في عيد الاستقلال السوري عام ١٩٣٠ متحدثاً عن فكرة القومية العربية جامعاً كل عناصرها ومقوماتها[٦] :

إنّا بنو وطنٍ تُقرّب بينه ... سيناءُ في قدسيّةٍ وَجَلالِ
الشمسُ تجمعُ في المَطالعِ بيْنَنا ... والأرْضُ في حَرَمِ الجوار الغالي
وَمَعَالِمُ التّاريخ في كُتُبٍ وَفِي ... عُقْبٍ وفي نُصبٍ وفي أطْلالِ
ولسانُ صِدْقٍ في اللّغاتِ تَآلفتْ ... فِيهِ القلوب تآلفَ الأقْوَالِ
شَكْواكُم شَكْواي أوْ سَلْواكُم ... سَلْوَاي وَمَآلكم كَمَآلي

هو العقاد نفسه الذي نظم مجموعة من القصائد في سعد زغلول ولم يكتشف فيه أية رابطة بالعرب والمسلمين ، إنما وجد فيه أبناً باراً للفراعنة وإمتداداً لهم . فقصيدته (ذكرى الأربعين)[٧] التي يصف فيها تشييع جثمان الزعيم المصري قائلاً :

مَوْكِب رمسيسَ لَمْ يَظْفر بِهِ ... وَهْوَ مَوْلَى الخَلْقِ من بيضٍ وَجونِ

وكذلك قصيدته على رفات سعد في ضريحه المقام على النمط الفرعوني :

الفراعينُ الألى أجْلَيْتَهُم ... لَتَمنُّوا لَوْ أجازُوكَ الطَّريق
فَضْلُكَ اللاّحِقُ أحْيا فَضْلَهُمْ ... فَاسْتَوى مِنْهُ طَريفٌ وَعَريق[٨]

وحافظ إبراهيم ، شاعر النيل والوطنية المصرية الذي هاجم الأنكليز في عديد من قصائده ، ومنها تلك التي يخاطب فيها اللورد كرومر ، صاحب مأساة دنشواي ، قائلاً في حفل توديعه بعد أن نقلته السلطات البريطانية من مصر :

قتيلُ الشمسِ أوْرَثَنا حَيَاةً ... وأيقَظَ هاجعَ القومِ الرّقودِ

(٦) عباس محمود العقاد، وحي الأربعين، قصائد ومقطوعات (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٣٣)، ص١٤٦.

(٧) المصدر نفسه، عابر سبيل (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٧)، ص٢٧٨.

(٨) المصدر نفسه، ص٥٨.

فَلَيْتَ كُرومراً قَدْ دَامَ فِينَا يُطَوِّقُ بالسَّلاسِلِ كُلَّ جيدِ
وَيُتْحِفُ مِصرَ آناً بَعْدَ آن بِمَجْلودٍ وَمَقْتولٍ شهيدِ
لِنَنْزِعَ هَذِهِ الأكفانَ عَنَّا وَنُبْعَثَ فِي العَوَالِمِ مِنْ جَديدِ[9]

هو حافظ إبراهيم نفسه ، وبعد تسع سنوات ، يقف ليخاطب السير مكماهون معتمد بريطانيا في مصر سنة ١٩١٥ ، وقد أعلن الأنكليز الحماية الكاملة عليها ليقول له :

أَيْ مَكْمَهُون قَدِمْتَ بالقصدِ الحميدِ وبالرِّعَايَة
أَوْضِحْ لِمصرَ الفرق ما بينَ السِّيادةِ والحَمَايَة
أَضْحَتْ ربوعُ النيل سَلْطَنَةً وَقَدْ كَانَتْ ولايَة
فتَعَهَّدُوها بالصَّلاح واحسنُوا فِيها الوِصَايَة
أَنْتُمْ أطبَّاء الشعوب وأنبلُ الأقوامِ غَايَة
أنَّى حَلَلْتُمْ فِي البلَادِ لَكُمْ مِنَ الإصلاحِ آيَة
رَسَخَتْ بِنَايَةُ مَجْدِكم فَوْق الرويَّة والهدايَة
وَعَدَلْتُم فَملكْتُم الدُّنيَا وَفِي العَدْل الْكِفايَة[10]

والأمثلة كثيرة نقرأها في مواقف الزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ والعقاد ومحمد الأسمر وعشرات من الشعراء وهم يضطربون ويتناقضون نتيجة المتغيرات السريعة والأحداث المتلاحقة . وليس غرضنا تعداد الأمثلة ، بل مناقشة المسلمة في الأحكام المطلقة على الشعراء ، ومن ثم الحكم على إبداعهم ومواقفهم ، متناسين أطر عصرهم وثقافاتهم ووعيهم وانتماءاتهم .

٣ ـ وتترتب على مناقشة هذه المسلمة مناقشة أخرى لمبدأ مهم وخطير بالنسبة للأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، ونعني مبدأ الوعي بروح العصر . فلم يكن هؤلاء الأدباء ، وهم يدافعون عن قضية الوجود العربي مطالبين بالوحدة العربية في مستوى واحد في الثقافة والوعي بالقضية ، وبالتالي اختلافهم في فهم مدى المخاطر المحيقة بالوجود العربي كله ، وما ينعكس على أثر ذلك من إنتماء صميم للأمة العربية والقومية العربية .

---

(٩) حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم (بيروت: دار العودة، ١٩٦٩)، ج٢: ص٣١.
(١٠) المصدر نفسه ، ج ٢ : ص٨٢، وانظر أيضاً: شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣)، ص١٢.

فإذا كان جبران خليل جبران قد فك إنتماءه القومي بشكل صريح ، وهاجم اللغة العربية قائلاً « لكم لغتكم ولي لغتي ، أقول إن أخشاب النعش لا تزهر ، أقول إن ما تحسبوه بياناً ليس بأكثر من عقم مزركش وسخافة مكلسة »[11] . ثم أنتهى إلى العامية فكاتباً باللغة الانكليزية من الدرجة السادسة . نقول إذا كان الأمر مع جبران كذلك ، فإن دعوات مشبوهة وخطيرة قامت لرفد هذه الآداب ، وحضارة مصر المرتبطة بحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط ، بعيداً عن أجواء العروبة والوطن العربي ، ما هو شائع معروف في التاريخ العربي المعاصر ، شاركت فيها أسماء لامعة مؤثرة في ثقافتنا الحديثة أمثال طه حسين ولطفي السيد وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وعيسى اسكندر المعلوف وعبد العزيز فهمي ، الذي أقترح تغيير الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية[12] .

نقول ، إن ثمة من لم يبلغ وعيه بمتغيرات عصره ، الأسباب الخفية لتدرج أحداث التاريخ وخيوط المؤامرة ضد القومية العربية . ولعل سذاجة الوعي السياسي وعدم اكتمال المنظور القومي بشكل دقيق ، يتمثل عند بعض الأدباء وفي مقدمتهم الرصافي عام ١٩٢٠ ، حين أصر على الحاق اليهود بالعرب باعتبارهم أبناء عمومة يتمون إلى أصل واحد هو السامية ، فقال قصيدته (إلى هربرت صموئيل)[13] المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، رداً على ما قاله (يهودا) أحد رسل الصهاينة الأوائل في فلسطين ، قال الرصافي :

خطابُ (يهودا) قَدْ دَعَانا إلى الفكْرِ   وَذَكَّرنَا ما نحنُ مِنهُ عَلَى ذِكْرِ

ثم يقول :

وَلَسْنا كما قالَ الالى يَتَّهِمُونَنَا   نُعادي بني إسرائيل في السِّر والجهْرِ
وكيفَ وَهُم أعْمَامُنا وإليهِم   يَمُتُّ بإسماعيل قِدماً بنو فِهْرِ
وإني أرى العربي للعرب ينتمي   قريباً مَعَهُ العبري ينمي إلى العِبْرِ
هُما مِنْ ذوي القُربى وفي لُغتيْهِما   دَليلٌ على صِدْقِ القَرَابةِ في النَّجْرِ

ولسنا نشك بعد ذلك في سذاجة الشاعر الرصافي ، وعدم إطلاعه على ما كانت تديره

---

(١١) عبد الواحد لؤلؤة، البحث عن معنى: دراسات نقدية (بغداد: وزارة الاعلام، ١٩٧٣)، ص١٣٢، وانظر أيضاً: جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، ص٥٨٨.

(١٢) أنور الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، ١٨٣٠ - ١٩٥٩ (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٥٩)، ص٥٦٥.

وانظر أيضاً: عمر الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، الطبعة٢ (حلب: مكتبة الشرق، ١٩٦٣)، ص١٠٥ - ١٥٢.

(١٣) معروف الرصافي، ديوان الرصافي، الطبعة٦ (القاهرة: ١٩٥٧)، ص٤٣٠.

الحركة الصهيونية العالمية من مكائد حول فلسطين ، منذ القرن التاسع عشر ومؤتمراتها المعروفة في بازل . بل إن شاعراً فلسطينياً من جيل الرصافي ، هو وديع البستاني ، قد تنبه إلى هذه السذاجة القومية عند الرصافي فرد عليه رداً ذكياً يكشف عن وعي تام بالقضية الصهيونية وأهدافها فقال(١٤) .

أجـل عـابِـرُ الأردن كَـانَ ابنُ عَمِّـنـا وَلكِنّنـا نَـرْتَـابُ مِنْ عَـابِـرِ البحـرِ
أَيَهْـجُـر أوروبـا لِيَبْنِـي (بَـيْـتَـه) عَلَى قُبَّـةٍ مـا بَيْنَ مَـهْـدي والقبْـرِ

وهكذا أوضح للشاعر العراقي قضية الهجرة الصهيونية المخيفة التي كان يحس بها الشعراء الفلسطينيون(١٥) .

ولسنا نريد من هذه الأمثلة أن نزري بمواقف شعرائنا ، أو نطعن في إخلاصهم وعروبتهم ووطنيتهم ، وإنما قصدنا إلى أن نناقش بعض هذه المسلمات وأن نضع هذا الأدب في أطره الزمانية والمكانية ، وأن نبين مستويات الوعي القومي عند هؤلاء الشعراء وفق مكوناتهم البيئية والنفسية وهم يشهدون أكبر الأحداث التي مرت بالوطن العربي ، وينادون بأقدس قضايا العروبة وأخطر أهدافها وطموحها .

وليس من المعقول بعد ذلك . وبعد أن تكشفت وثائق وأسرار وأحداث وأعاجيب التكنولوجيا في التواصل الإنساني ، أن نسحب وعينا السياسي وأطر ثقافاتنا ومقاييسنا وآيديولوجياتنا على هؤلاء الأدباء ، وهذا الأدب كله . وإنما المعقول أن ندرسهم وندرسه في إطاراته وفي ظروفه ، وسنجده في أقل حدوده مرتبطاً أرتباطاً بالقومية العربية ، معها في صميم الأحداث والأخطار والآمال .

(٢)

لقد عرفت في التاريخ أربع هجمات خطيرة وشرسة أستهدفت الوجود العربي كله . كانت الهجمة الأولى متمثلة في الحملات الصليبية ، وتمثلت الثانية في التتار ، والثالثة في محاولات العثمانيين من خلال سياسة التتريك ومسخ لغة الإنسان العربي وثقافته ووجوده . وكانت الأخيرة متمثلة في الهجمة الأوروبية الغربية الاستعمارية التي مزقت الوطن العربي واحتلته كله عبر مجموعة من المناورات والسياسات والألاعيب والوعود الاستعمارية الخادعة والخبيثة .

(١٤) عبد الرحمن ياغي، حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة، حتى النكبة (بيروت: المكتب التجاري، [١٩٦٨])، ص١٨٤.

(١٥) خالد علي مصطفى، الشعر الفلسطيني الحديث، (بغداد: ١٩٧٨)، ص٢٥ - ٣٤.

فعلى أبواب الحرب العالمية الأولى ، كانت الهوة سحيقة بين المشاعر العربية ومخططات حزب الاتحاد والترقي . ومن هنا ، كان تصاعد حركة المقاومة السرية ، وازدياد عمل الجمعيات العربية . وعند قيام الحرب الأولى عام ١٩١٤ ، إنضمت تركيا إلى دول المحور وإنضم العرب إلى الحلفاء ، ولأول مرة ينفصل العرب عن العثمانيين ، ولقد تدخل الحلفاء وأبرزهم بريطانيا في إزجاء الوعود الخلابة للشريف حسين في الاستقلال وتأسيس المملكة العربية بزعامته .

وكان لهذه الثورة ، بغض النظر عن مراجعة ظروفها وأهدافها الكاملة ومقاييس النظر لها من منظور ثوري ، آثارها وأصداؤها في النفس العربية ، وفي إذكاء مشاعر العرب نحو آفاق المطالب القومية ، لا سيما في العراق وبلاد الشام . ومعروف أن هذه الثورة قد شارك فيها عدد من الضباط العراقيين والسوريين ، ومنهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً .

ولقد كان للشعر دوره ، حيث أنطلق الشعراء وراء الثورة يغذونها ويعلنون عن تأييدها ، محيين قائدها . فهذا فؤاد الخطيب ، الملقب بشاعر الثورة العربية لمواكبته إياها ومرافقته أبرز أحداثها ، يقول محيياً الثورة واستقلال العرب القومي بقيادة الشريف حسين(١٦) :

حيِّ الشـريفَ وحيِّ البيتَ والحَـرَمـا ... وانْهَضْ فَمِثْلُكَ يَرْعَى العهدَ والذِّمَمَا
يـا صاحبَ الهمّـةِ الشّماء أنْتَ لَهـا ... إنْ كـانَ غيـرُكَ يَرْضَى الأَيْنَ والسَّقَمَا
فَمَنْ يَكُنْ عَنْ إبـاءِ الضيمِ في صَمَـمٍ ... فَلْيَسْمعِ اليومَ صَـوْتاً يَحْسِمِ الصَّمَمَا
فَـقَـدْ تَكَـلَّمَ صـوتُ النّـار مُـرتـفِعـاً ... مـنَ الحـجـازِ فَشَقَّ البيـدَ والأكَمَـا
يـا ابنَ النبي وانْـتَ اليـومَ نَـاصِـرُهُ ... قَـدْ عَـادَ مُتَّصِـلاً مَـا كَـانَ مُنْفَصِمـاً
والـتـفَّ حَـوْلَـكَ أبْـطالٌ غَـطَارِفَـةٌ ... شُمُّ الأنـوفِ يَـرَوْنَ المـوتَ مُغْتَنَمَـا
فـاصْدُمْ بِهَـا حدثَـان الـدَّهْـر مُعْتَـرِضـاً ... صَدّاً مِنَ التُّرِكِ إنْ تَعرَّض لَهَا انْهَـدَمَا
إيـه بني العـرب الأحـرار إنّ لكم ... فخـراً أطـلَّ على الأكـوان مُبتسِما
مِنْ ذَلـكَ البيتِ مِنْ تِلْكَ البِطاحِ عَلَى ... تِلْكَ الـطَّريقِ مَشَتْ أجْدَادُكُم قُـدُمَـا
مِنْ كُـلِّ أرْوع وثّـابٍ إذا انْتَـسَبَتْ ... بيضُ المكـارِمِ كـانَ الصـارمَ الخـذِمـا
لَسْتُمْ بَنيهُـم ولَسْتُم مِنْ سُـلالَتِهـا ... إنْ لَمْ يَكُنْ سَعيُكم مِنْ سَعْيهم أُمَـمَـا
إلى الشّـآم إلى أرضِ العـراقِ إلى ... أقْصَى الجـزيـرةِ سَيْـراً واحْملُوا العَلَمَـا

وعلى هذا النهج من الحماس والنشوة والتدفق ، وفي إطار هذه الآمال ، جاءت قصائد

(١٦) أسعد داغر، ثورة العرب: مقدماتها، اسبابها، نتائجها (القاهرة، المقطم، ١٩١٦)، ص٢٤٤.

الشعراء العرب وفي مقدمتهم عبد المحسن الكاظمي [١٧] وخير الدين الزركلي[١٨] ، ورشيد أيوب[١٩] .

ولقد تدفق الحماس القومي عند الشعراء متلهباً ومثاراً عندما وصل الملك فيصل من الجزيرة حاملاً الراية إلى دمشق وركز في ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨ ، علم الثورة العربية في ساحة البرج رداً على جريمة الاتحاديين حين شنقوا أحرار العرب في الساحة نفسها قبل سنوات ثلاث[٢٠] .

إلاّ أن تتالي نبض الأحداث سرعان ما كشف الخديعة كاملة فقد أصدر اللورد بلفور ، وزير خارجية بريطانيا ، تصريحه المشؤوم في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ ، ثم نشرت بنود معاهدة سايكس بيكو السرية المبرمة في آذار / مارس ١٩١٦ باقتسام الوطن العربي ، عندها أضطر بلفور إلى إرسال برقية للعرب يقطع عهداً بمساعدتهم في الحصول على الاستقلال ونفى كل ما أشيع عن تخلي الانكليز عن مساعدة العرب ، وكان تاريخ البرقية في ٨ شباط / فبراير ١٩١٨[٢١] ولكن بعدما كانت بريطانيا قد أتمت إحتلال العراق ، وأعلنت حمايتها على مصر والسودان قبلها ، وكانت إيطاليا قد بسطت نفوذها على ليبيا ، وفرنسا على المغرب العربي كله . أما في سوريا فقد احتلتها القوات الفرنسية بعد لبنان واحتلت بريطانيا المنطقة الجنوبية (شرق الأردن) وفلسطين .

وهكذا تمت اللعبة وتمزق الوطن العربي بكامله وابتدأت مرحلة الدويلات والحدود المصطنعة . ولم ينفع مؤتمر الصلح في سانت ريمو الملك فيصل الذي أقر له إستقلال سوريا والمناداة به ملكاً عليها ، إذ سرعان ما استطاع الجنرال (غورو) الدخول إلى دمشق بعد المعركة الفاصلة على سفح ميسلون وسقوط البطل الشهيد يوسف العظمة وجنده .

وهكذا تكشفت نيات الغرب الاستعمارية وسقطت الأقنعة مرة واحدة ، ولا سيما وأن عصبة الأمم قررت أن هذه البلدان لا تزال في حاجة إلى وصاية وإرشاد بعض الدول الكبرى .

---

(١٧) الكاظمي، ديوان الكاظمي، ج ١ : ص١٩٠ ـ ١٩٧.

(١٨) خير الدين الزركلي، ديوان الزركلي (القاهرة: ١٩٢٥)، ص٨٣.

(١٩) رشيد أيوب، الايوبيات: ديوان (نيويورك: [د. ن.]، ١٩١٦)، ص٦٩.

(٢٠) أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة٢ منقحة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠)، ص١٥١ ـ ١٥٢.

(٢١) أنظر، أمين الحسيني، حقائق عن القضية الفلسطينية (القاهرة: الهيئة العربية العليا لفلسطين، ١٩٥٠).

وانطلقت حناجر الشعراء الغاضبة، عن شعور عام بالخيبة والشعور بالظلم والتشاؤم. يقول خليل مردم[٢٢]:

ما حُرِّرتْ من قيودِ التركِ أنفسُنا حتّى نكونَ لغير التركِ عِبدانا
تأبى دِماءٌ زكيّاتٌ لَقَدْ سُفِكَتْ وأنفسٌ بالحِمَى زَايَلْنَ أبْدَانَا
أنْ يُستَبَاحَ ذِرَاعٌ مِنْ مواطَنِنَا في سَهْلِ سيناءَ أوْ في حَزْنِ لُبْنَانَا

ويقول خير الدين الزركلي[٢٣]:

فِيمَ الونى وديارُ الشّامِ تُقْتَسَمُ أيْنَ العهودُ التي لَمْ تَرعَ والذِّمَمُ
مَا بَالُ بَغْدَاد لَمْ تَنْبِسْ بِهَا شَفَةٌ وَمَا لبيروتَ لَمْ يَخْفُق لَهَا عَلَمُ
قَلْبي تقسم وجداً مِنْ تَقسمهم لكنّ حُبّي وحيدٌ ليس يَنْقَسِمُ

وقد عبر أمين ناصر الدين عن مشاعر الخيبة عند العرب إثر انتهاء الحرب ونقض الوعود وإحتلال الأوطان:

ولمّا بشروا بالصّلح قُلْنَا لِكُلّ رزيئةٍ نَزَلَتْ زَوالُ
وأملنا النّجاةَ فمَا رَجَوْنَا سِوَى أمْرٍ حقيقتُه خَيَالُ
وما نَفْعُ العهودِ مُسَطّراتٍ إذَا كَانَتْ تُنَاقِضُهَا الفِعَالُ[٢٤]

ويقول بشارة الخوري:

حَدَّثُونَا عَنِ الحقوقِ فَلَمّا كَبُرَ النّصرُ أحْوَجَتْنَا التَّراجِمُ[٢٥]
نَفَحَتْنَا بِهَا الحروبُ سَلاماً وَرَمَانَا بِهَا السَّلامُ أدَاهِمُ

والأمثلة كثيرة، وليس غرضنا الاستقصاء والحصر.

ولقد أنتهى الأمر، بعد ذلك، إلى رفض كل ما يجيء عن الغرب من تصريحات ووعود. وتكشف موقف الأدباء تماماً حين أصدر الرئيس الأمريكي ولسن مبادئه الأربعة عشر، فإذا بالشيخ فؤاد الخطيب، الذي عاش ظروف الثورة العربية بكل ملابساتها وظروفها، يسخر من الرئيس الأمريكي ومبادئه على هذه الصورة[٢٦]:

---

(٢٢) خليل مردم، ديوان خليل مردم (دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩)، ص١٤٩.
(٢٣) الزركلي، ديوان الزركلي، ص١٥.
(٢٤) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص ٢٨٥.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.
(٢٦) فؤاد الخطيب، ديوان فؤاد الخطيب (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩)، ص٥٤٤.

نَسَخَ (الوصايَا العشْر) مِنْ أَلْوَاحِها وَحَوى (الكتاب) وَزَاحَمَ التّنْزيلا
وأتى بِأَربَعِ عشْرةَ نظمتْ مَعَا وَحَيا يُرتِّلُ بُكْرَةً وأَصيلا
مَشَت الشعوبُ إلى الشعوب وأكْبَرَت مَا كانَ مِنْهُ وَهَلَّلَتْ تَهْليلا
وَتَوسَّمَتْ فيه المسيحَ وَأَبْصَرَتْ أن السياسَةَ لَمْ تَزَلْ تَضليلا
وَرَأَتْ (مُسَيْلَمَةَ) يُسَاوِمُ (أَشْعَباً) سَلبَ الممالِك عَرْضَها والطُّولا

ولم يكن الرصافي بأقل من فؤاد الخطيب سخرية بالرئيس الأمريكي ومبادئه عن تحرير الشعوب وإستقلالها وحرياتها وأوطانها.. الخ.

فقال من قصيدته (ولسن بين القول والفعل)[٢٧]:

قَالَ قَولاً بِهِ اسْتحقّ احْتِرَاما وَتَعَدَّاه فَاسْتَحَقَّ مَلاَمَا
رجلٌ قَدْ تَنَكَبَّ الحق قَوْسَا وَمِنَ البُطْل ظَلَّ يرمي السِّهَاما
كانَ مِنْهُ المقالُ نُوراً فَلَمّا حَانَ حينُ الفعَال كَانَ ظَلاَمَا
قَالَ حريةُ الأنام هي الغا يةُ لي في الوغى فَغَرَّ الأَنَامَا
فاشْرَأَبَّ الورَى إِلَيهِ وَظَنُّوا أنّهم سوف يَبْلُغون المُرَامَا
ثُمّ خَابَتْ ظُنُونُهم فيهِ لَما مَرّ في الجَوِّ خُلّباً وَجَهَاما

وكما ندد شعراء العراق وبلاد الشام بمبادىء الرئيس ولسن الخادعة كذلك فعل شعراء مصر، حين تكشفت لهم حقائق الاستعمار كاملة والشعب المصري يجابه رصاص الاحتلال الانكليزي في ثورة ١٩١٩ العارمة، وهذا محمد عبد المطلب يخاطب الغربيين وبينهم ولسن، والثورة في بلاده على أشدها[٢٨]:

يَا نَاشِري عَلَمَ السَّلامِ أَلَم تَروا لِلسّلم في أرجاءِ مِصْرَ مَجالا
ما العدلُ ما حريةُ الأمَمِ التّي سَارَتْ رَسَائِلُكم بِهَا أَرْسَالا
ما عَهْدُ وِلْسن، أَيْنَ وِلْسن هَل دَرَى أنّا بمِصْرَ نُكَابِدُ الأَهْوَالا

ولعل ما أثارته، ثورة فلسطين عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في أعماق الشاعر الأخطل الصغير من عودة لتلك الوعود الكاذبة، فإذا هو يخاطب رمز الاستعمار البريطاني (جون بول) في قصيدته الشهيرة (يا جهادا صفق المجد له)[٢٩] بقوله:

(٢٧) الرصافي، ديوان الرصافي، ص٤٣٣.
(٢٨) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٢٨٤ - ٢٩٢.
(٢٩) بشارة الخوري، الهوى والشباب (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣) ص١٦٥.

قُلْ لجون بول إذا عاتَبْتَهُ   سَوْفَ تَدْعُونَا وَلَكِن لَنْ تَرانَا
قَدْ شَفينَا غِلَّةً في صَدْرِهِ   وَعَطِشْنَا فانْظُروا مَاذَا سَقَانَا
يومَ نَادَانَا فلبّينَا النِّدَا   وَتَركْنَا نَهيةَ الدين وَرَانَا
نَركَبُ الموتَ إلى (العهدِ) الّذي   نَحرتْهُ دُونَ ذَنْبٍ خُلَفَانَا
أمِنَ العدلِ لدَيهِم أنّنا   نَزْرَعُ النَّصرَ وَيَجْنِيهِ سِوَانَا

ولقد قاد هذا الموقف نفسه بعض الشعراء إلى رفض الغرب وحضارته ومدنيته ودعاواه في حرية الإنسان والتمدن. يقول الرصافي من قصيدته (الحق والقوة)[30]:

إلى الله نَشْكُو الأمرَ مِنْ مَدَنِيّةٍ   عَارَضَ في أوصَافِها الكذبُ والصدقُ
كَمْ قَدْ سَمِعْنَا سَاسَةَ الغرب تَدّعي   بأشياءَ مِنْ بُطْلاَنِهَا ضَحِكَ الحقُ
فَهُم مَنَعوا رقَّ الأسير وإنّما   أَجازُوا لَهُم أنْ يَشْمَلَ الأممَ الرِّقُ
أَلَمْ تَرَ فِي القُطْرِ العراقيِّ أمّةً   مِن الأَسْرِ مَشْدُوداً بأعْنَاقِهَا رِبْقُ

ويقول الشيخ مصطفى الغلاييني ، في نفس قافية الزهاوي ووزنها ومضمونها[31]:

يقُولونَ إنسانيةٌ وتَمَدّنٌ   وتحريرُ أقوام وفي العُتْقِ الرِّقُ
مَا وَعْدُهُم إلاّ وَعيدٌ وَلَم يَكُنْ   لهم في مَيادِين الوفَا مَرّةً سَبْقُ
فَخلفهُم خُلفٌ وَوَعْدُهُم هَباً   وَقَولهُم إفْكٌ وَعَهْدُهُم خرقُ

وانتهى الأمر بالشعراء، وباتساع وعيهم القومي، إلى هذا الخطاب الساخر الذي وجهه الشاعر الياس فرحات إلى الحلفاء، الانكليز بخاصة، رداً على طلبهم من الشباب العربي التطوع في جيوشهم في بداية الحرب الثانية، بعدما مهد الاستعمار[32] وبريطانيا بالذات، لقيام الوطن القومي لليهود، فيقول فرحات:

يحكُمُ السِكْسُون في استعْدَادهم   لِلوغى أنْ يأخذوا مِنَّا جنودَا
طَمْئِنُوهُم إنّنا مِنْ أمّةٍ   تَحْفَظُ الودَّ وَلاَ تَنْسَى العهُودَا
كيْفَ نَنْسَاهُ وَنَنْسَى أنّهم   أخذُوا النّفطَ وأعْطُونا اليهُودَا

في مثل هذه الصورة حدد الشعر العربي موقفه من قضية الاستعمار ووعوده

---

(٣٠) الرصافي، ديوان الرصافي، ص٤١٣.
(٣١) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٩٣.
(٣٢) المصدر نفسه، ص٢٩٢.

وأحابيله وفي مثل هذا الفيض من التفجر العاطفي الواعي جاءت معظم دواوين الشعراء.

(٣)

ولقد كان الرد طبيعياً على هذا الاستعمار، والتجزئة، ودويلات الحماية والانتداب وصكوك المعاهدات الجائرة الذليلة. إنها الوحدة العربية والدولة الواحدة والشعب الواحد. من خلال أصرار مستمر وصارم على الجهاد والبذل والثورة على كل تلك القيود وتلك الحدود المصطنعة بين أبناء الشعب الواحد.

ولقد تفجر الوطن العربي في ثورات وإنتفاضات متتالية أعادت لأذهان المجاهدين ثورات عرابي في مصر والمهدية في السودان ووثبات الشعب المصري والتونسي والجزائري والليبي ضد الاحتلال أثناء الحرب الأولى. وإذا بثورة مصر الكاسحة عام ١٩١٩ تعقبها ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ تليها ثورات سوريا في دمشق والجبل والغوطة أعوام ١٩٢٥ و١٩٤٥ ثم في مراكش عام ١٩٢٦ ثم في حركة عبد الكريم الخطابي فمقاومة البطل الشهيد عمر المختار في طرابلس حتى عام ١٩٣٠ تليها ثورة مايو القومية في العراق سنة ١٩٤١ والانتفاضات الفلسطينية المتتالية وأبرزها ثورة ١٩٣٦.

وكان الأدب والشعر يحدوان القافلة الثائرة وأحداث الثورات والانتفاضات بعد أن هيَّئا النفوس وغذَّيا العواطف وصهراها صهراً حتى بات الشعر، وهتافات الشعراء، منشورات ثورية سياسية تفضح تلك الدول المصطنعة ذوات الوصايا والحمايات والمعاهدات، وقد قال شفيق جبري في الثورات العربية:

لله ثوراتٌ تبارَكَ أهلهَا ... أثنَى عَلَيْهَا الواحدُ القهَّارُ
في النيل مِنْهَا صَيْحةٌ مَيمُونَةٌ ... حَسُنَتْ بها مِنْ ربعهِ الآثارُ
أصداءهُ الأنجادُ والأغوارُ[٣٣] ... وَمَشَى الضَجيجُ إلى الشَّآمِ فَرَدَّدَتْ

وكان مصطفى الغلاييني يتذكر أبيات اليازجي، أول من دق أجراس الخطر، داعياً إلى الالتفاف حول القومية العربية في القرن التاسع عشر، في أبياته الشهيرة:

تَنبّهوا واسْتَفيقوا أيُّها العربُ ... لَقَدْ طَغَى السَّيْلُ حَتَّى غاصَتِ الرُّكَبُ
لِمَ التَّعلّلُ بالآمالِ تَخدَعُكُم ... وأنْتُم بَيْنَ رَاحَاتِ القَنا سَكَبُ

(٣٣) الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع ١٨٣٠ - ١٩٥٩، ص٤٧٨.

فردّد الغلاييني أصداءه سنة ١٩٢٠[٣٤]:

هُبّوا فـأمّتُكم أمْسَتْ عَلَى خَـطَرٍ جَـارَتْ عَلَيْهـا الأعـادي جَوْرَ مُنْتَقِمِ
حَتَّى تَسيلَ رُبوعُ الشَّـامِ مُفْعَمَةً دَمـاً يَسيلُ الـرَّدى في سَيْلِهِ العَرِمِ
وَذِمّـة العُـرْبِ والأيـامُ شَـاهِـدَةٌ لَنُضْرِمَنَّ الوغَى في السَّهْلِ والظُّلَمِ
حَتّى يخلّوا بِـلَادَ العُربِ أَجْمَعَهـا مِنْ سَاحِلِ العُرْبِ حتّى سَاحِلِ العَجَمِ

ويرتفع صوت شاعر الثورة العراقية محمد مهدي البصير في قصيدته: (ألا لتعش يا علم وليعش العرب)[٣٥]:

بِنَـا يَسْتَقِلُّ الشَّـرقُ أو يُطْرَدُ الغـربُ فَهُبّوا إلى تحـريـر أوطـانِنـا هُبّـوا
وَهَـا نَحْنُ قَـدْ ثُـرْنَـا لِنيل حُقـوقِنَـا وَغَـالَبَت الأعـداءَ أبـطالُنَـا الغُلْبُ
وَسِـرْنَـا إلى استقـلالِنَـا لنعيـدَه عَلى قَدَمٍ في مَوْكِبِ الضَّرْبِ لا تَكبوا

ويؤكد الشعراء دعوتهم إلى الوحدة والتجمع فيقول بدوي الجبل[٣٦]:

كُلُّ الرّبوعِ ربوعُ العرب لي وَطَنٌ مَـا بَيْنَ مُبْتَعِـدٍ عَنْهـا وَمُقْتَـرِبِ
إنْ لَمْ تَكُنْ وَحْدَةُ الأَنْسَاب جامِعَةً فَـإنَّنـا جَـمَعتْنـا وحـدةُ الأَدَبِ
لِلضَّـادِ تَـرجِـعُ أنسـابٌ مُفَـرَّقَـةٌ فَـالـضَّـادُ أفْضَـلُ أمٍّ بَـرَّةٍ وأبِ
تَفْنى العصـورُ وَتَبقى الضَّادُ خـالِـدةً شَجىً بحَلْق غريبِ الدَّهـرِ مُغْتَصِبِ

أما فؤاد الخطيب، فيلبي نداء الوحدة العربية قائلاً[٣٧]:

لَبّيْك يـا أرضَ العـروبـةِ واسْمَعي مَـا شِئْتِ مِنْ شِعْـري وَمِنْ إنْشَـادي
أنـا لا أُفـرِّقُ بيْـنَ أهـلِكِ إنّهُـم أهْـلي وأنـت بِـلادُهُـمْ وبِـلادي

ويتصور عبد الله يوركي من حلب، العلم العربي الواحد وقد رف على الوطن العربي كله[٣٨]:

هَـذَا لِـواؤنـا امـتـدّ مِـنْ أقْـصَى الـعـراقِ إلى الـيَـمَـنْ

---

(٣٤) مصطفى الغلاييني، ديوان الغلاييني (حيفا: المطبعة العباسية، ١٩٢٥)، ص٦٦.
(٣٥) محمد مهدي البصير، البركان (بغداد: مجلة المعلم الجديد، [د. ت])، ص٩٢.
(٣٦) الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع ١٨٣٠ ـ ١٩٥٩، ص٤١.
(٣٧) المصدر نفسه، ص٤١.
(٣٨) المصدر نفسه، ص٤١.

فـانْـظُرْهُ يـخفِـقُ فـي الـسَّـمـا كـالـقـلْب يَـخفـقُ فـي الـبـدَن
واسْـمَـعْـهُ يَـدْعُـو الـعـربَ لِـلمجْـدِ الـرفـيـعِ أو الـكَـفَـنِ

ومما يلاحظ على معظم هذا الشعر، الداعي إلى الوحدة العربية، ارتباطه بسمة بارزة يمكن أن نسميها سمة التحريض، فهو شعر تحريضي قومي، إذ وجد الشعراء أنفسهم في مواضع الإثارة والاهتمام من قبل الجمهور في المحافل والصحف والمنتديات والمناسبات، فإذا هم لا ينفكون عن ترديد دعوتهم للوحدة وتحريضهم الجماهير عليها ضد حكامهم وساستهم التقليديين. وهذا الشاعر السوداني جعفر حامد البشير يقول(٣٩):

فِتيـانُ يـعـرب لن تـلين قَـنَـاتُهـم لـلمُـرجفـيـنَ بـقـوّة وَنـكـالِ
وسيكتبُ الـتـاريـخُ عنهُم مُعجِبـاً أسـفـارَ مجـدٍ شـامـخٍ مُتَعَـالِ

ويقول داعياً للوحدة والجهاد القومي الموحد(٤٠):

تَعَالَـوا نُقِمْ صفَّ الجهَـادِ مُـوحّـدَا فَلَا نَفْعَ في الأحزَابِ شتَّى جُهُودها
تَعـالَـوا نُحَـطِّمهـا قُيُـودا بِغَضْبَـةٍ يَصِلُ عَلَى سَمْعِ الأُبـاةِ حَـديدُهَا

ويقول إبراهيم طوقان، من فلسطين، محرضاً المواطن العربي، يدعوه للنهوض وتحمل المسؤولية(٤١):

كَفْكِفْ دُموعَكَ ليسَ يَنْفَعُكَ البُكَاء ولا العويلُ
وانْهضْ ولا تَشْكُ الزَّمانَ فَمَا شَكَا إلَّا الكسُولُ
إنْ لَمْ تَقمْ بالعبء أنْتَ فَمَنْ يقومُ بِهِ إذَنْ؟
يَا مَنْ حَمَلْتَ الفأسَ تَهدمُها عَلى أنْقَاضِهَا
وَطَنٌ يُباعُ ويُشْتَرى وتَصيحُ فَلْيَحيى الوَطَنْ
لَوْ كنتَ تَبغِي خَيْرَه لَبَذَلْتَ مِنْ دَمِكَ الثَّمنْ

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص٤١.
(٤٠) المصدر نفسه، ص٤١.
(٤١) إبراهيم عبد الفتاح طوقان، ديوان إبراهيم طوقان، ص٧٩.

ويظل الشاعر العربي، وهو في فورة غضبه لاهجاً بالوحدة العربية شاكياً ظلم الساسة والأحزاب والشعب أحياناً. ويسخر إلياس قنصل في مهجره البعيد من هذه الدويلات العربية التي اصطنعت لها حدوداً وفواصل قائلاً(٤٢):

دويلاتٌ تفرّقها حُدُودٌ مُزيفةٌ أُقيمَتْ ثم قسْرا
وتَجْمَعُها العروبةُ وهي روحٌ مُقدَّسَةٌ بِها الخُلدُ استقرّا

ويعبر بدوي الجبل عن حقيقة الوحدة، ولا سيما بين الأقطار المتجاورة، كما هو الحال بين العراق والشام فقال بيته المشهور الذي لهج به الوحدويون في التاريخ الحديث:

ليسَ بَيَنْ العراقِ والشّامِ حَدٌّ هَدَمَ اللّهُ ما بَنَوا مِنْ حُدُود

كذلك كان صوت الجواهري مخاطباً دمشق(٤٣):

ثِقِي دمشْقُ لا حدّ ولا سِمَة ولا خطوطٌ كلُعْب الطّفل تُبتَدَعُ
تُقصيكِ عَنْ أرض بَغْدَاد ودِجْلتها أمّا الفراتُ فينبَعُ بَيْننا شَرِع

ويؤكد هذا المعنى محمد رضا الشبيبي في قوله(٤٤):

وَمَا أنا في أرض الشّآم بِمشْئِم وَلاَ أنَا في أرض العراق بِمُعْرِق
هُما وَطَنٌ فَرْدٌ وَقَدْ فَرّقوهُمَا رَمَى اللّهُ بالتشتيتِ شَمْلَ المُفَرِّقِ

كما وجد شعراء مصر والسودان هذا التقارب الطبيعي والجغرافي، فضلاً عن الحس القومي، فراحوا يدهشون بمرارة لتلك الحدود المصطنعة بين الشقيقتين كالذي نقرأه في قصائد شوقي(٤٥)، ومحمد الأسمر(٤٦).

على أن التجاوب مع مصر، أرض الكنانة وواجهة العرب الحضارية آنذاك وما عرف عن زعاماتها الوطنية وتصاعد انتفاضاتها الشعبية، كان ملحوظاً في دواوين الشعراء

---

(٤٢) إلياس قنصل، ديوان السهام (بيونيس ايرس: ١٩٣٥)، ص٤١.
(٤٣) محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري ٦أجزاء (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام) ج ٢: ص٣٣٩.
(٤٤) محمد رضا الشبيبي، ديوان الشبيبي (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ص٤٢.
(٤٥) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ١٨٣٠ ـ ١٩٥٩، ص٢٦٢.
(٤٦) أحمد شوقي، الشوقيات، ٤أجزاء (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤)، ج ٢: ص٢٠٢.

في الشام والعراق وفلسطين ولبنان والمهاجر. ولعل ما كتبه الزهاوي والرصافي والشبيبي والكاظمي وخليل مردم والفراتي والشرقي وشفيق جبري والزركلي وأبو الفضل الوليد وحافظ وشوقي والأسمر وفؤاد الخطيب والجواهري والبصير والأخطل الصغير والياس فرحات والغلاييني وبدوي الجبل وحليم دموس وعشرات الشعراء العرب الآخرين، حول الوحدة وطلبها والتغني بالدولة الواحدة المرتقبة، ما يملأ دواوين كاملة(٤٧).

ولسنا في معرض الاستقصاء، إلَّا أن ما كتبه الشعراء المذكورون وغيرهم، ظل يؤكد حتمية هذا الهدف في دعوة مضطردة قاطعة ترد على مؤامرة التجزئة الاستعمارية رداً لا رجوع فيه ولا يقبل التأجيل أو التريث: إنها الوحدة الشاملة.

ولعل من أجمل صور هذا النزوع القومي الوحدوي الأصيل، تلك الصورة التي رسمتها ريشة الشاعر حليم دموس برشاقة العواطف الصادقة المرتبطة بصور ومرائي الوطن العربي، نراه يقول:

وَتَقَارُبُ الأرواحِ ليسَ يضيرُه ... بينَ الدِّيارِ تَباعُدُ الأجْسَادِ
أفَمَا رأيْتَ الشَّمسَ وهي بعيدةٌ ... تُهدي الشُّعَاعَ لأنجُدٍ ووِهادِ

(٤٧) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ١٨٣٠ - ١٩٥٩، ص٢٦٥ - ٢٦٦.
وانظر أيضاً: جميل صدقي الزهاوي، الكلم المنظوم والرباعيات (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٥)، ص٢٣، ١٤٢.

المصدر نفسه ديوان الزهاوي (القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٤) قصائد رقم ١٢٨، ١٤٦، ٢٢٠، ١٨٨، ٢٥٠.

المصدر نفسه، اللباب (بغداد: ١٩٢٨)، ص٢٨٠، ٣٧٨.
المصدر نفسه، الأوشال (بغداد، مطبعة بغداد، ١٩٣٤)، ص١٧٠، ٢٤٩، ١١٠، ١١١.
وانظر أيضاً: المصدر نفسه، الشمالة (بغداد: ١٩٣٩)، ص٤٢، ٢٩، ٦٤.
وأيضاً: رفائيل بطي، الأدب العصري في العراق العربي (القاهرة: مطبعة السلفية، ١٩٢٣)، ص١٨.

وأنظر أيضاً: الرصافي، ديوان الرصافي، ٣٤، ٦٥، ١٢١، ١٢٩، ٣٨٠، ٣٩٤، ٤١٥، ٤٢٩، ٤٥٥.
وأيضاً: الكاظمي، ديوان الكاظمي، الجزء١: ٤٦، ٦٣، ٧٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٣، ١٧٠، ٢٣٣.
وأيضاً: الشبيبي، ديوان الشبيبي، ٢٦، ٣٣، ٤٢، ٥٠، ٦٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٣.
وأيضاً: الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، ١٨٣٠ - ١٩٥٩.
الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث.
المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث.

أَنَا كَيْفَ سِرْتُ أَرَى الأَنَامَ أَحِبَّتِي والقوم قومي والبلاد بلادِي
بَرَدَى كَدِجْلَةَ والفراتُ مَحَبَّةً والنيلُ كالأردن طَيُّ فُؤادي
وَأرى الرُّصَافَةَ في العِراق وَكَرْخِها كالصَّالحيَّةِ مَرْقَدَ العبَّادِ
والغُوطتينْ وكرَم وَادي دِجْلَة كنخيل مِصْرَ في ظِلالِ الوادي
وحفيفَ هَذَا الأرزِ في لُبنانِهِ كحفيفِ ذَاكَ النَّخلِ في بَغْدَادِ(٤٨)

على أن الشعراء ظلوا يلهجون بمودة وصدق، يعيدون هذه المطالب الواحدة، حتى يخيل إلينا أنهم كانوا يحملون أمانة عزيزة وغالية يغذون بها جيلهم، فإن لم يستطع فليكن جيلاً جديداً قادماً يتقرى ملامح الصدق في حناجرهم، ولعله يكون أكثر قدرة على تحقيق الأمل الغالي. ذلك أن القوى السياسية والأحزاب المختلفة والشخصيات العاملة في الميدان القومي، رغم التضحيات والأماني، لم تستطع أن تخترق حواجز السياسات الاستعمارية الصفيقة التي كانت تقيمها وراء تلك الحكومات المصنوعة، المرتبطة مع قوى الاستعمار الظاهرة والخفية بمجموعة المعاهدات والوصايات والاتفاقيات السرية. ولقد ظلت الوحدة العربية قائمة في النفوس، ولم تتحول إلى واقع عملي ملموس في نظام سياسي، أو تقارب حقيقي في ميادين الحياة العربية المختلفة يحسه المواطن العربي في أرضه الواسعة. لقد وصل الأمر ببعض الشعراء، وقد طال الليل على الوحدويين، أن راح يكفر بالأقليمية الضيقة والوطنية التي تظل أسيرة الجزء من الكل، فلقد برىء شاعر الثورة العربية الشيخ فؤاد الخطيب من هذا المفهوم الوطني الضيق الذي كان مطلوباً أن يسود في أشكال المطالب الشعبية:

وَلَقَدْ بَرِئْتُ إليكَ مِنْ وطنيةٍ ليسَتْ تُجاوِز مَوطِنَ الميلادِ

ويصيف أبو الفضل الوليد، هو الآخر، فيقول:

نَعَمْ موطني لبنانُ لَكِنْ مَوْلِدي بِه عربي كالولي مِنَ السُّحْبِ

ويتضجر الشاعر القروي، بل ينفجر غضباً، على النحو التالي:

هبُوني عِيداً يجعلُ العربَ أمةً وسِيروا بجُثْماني عَلى دين بَرْهَم
سَلامٌ عَلَى كُفرٍ يُوحِّدُ بَيْنَنا وأهلاً وسهْلاً بَعْدَهُ بِجَهَنَّمِ(٤٩)

---

(٤٨) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٤٩) المصدر نفسه، ص٢٦٨.

وقد رأى أمجد الطرابلسي في وحدة النضال والآلام المشتركة بشيرا بالوحدة العربية المنشودة، فراح يقول بلهجة الواثق المطمئن؟[٥٠].

وَحدةُ العربِ مَزَّقَتْ حجُبَ الليلِ وَسَعَتْ مِلءَ الفضاءِ المنيرِ
عَربٌ نحنُ مَا نُذَلُّ لِبَاغٍ مُستبيحٍ ولا ندينُ بنيرِ
وَحَّدَتْنَا مَواجِعُ القيدِ حِيناً فَأرقبُوا اليومَ وَحدَةَ التحريرِ

ولكن الشاعر حسن البحيري، الفلسطيني، وهو يحتج على هذه الحكومات يؤكد أن الشمل العربي قد تجمع منذ زمن في أصلاب المواطنين العرب وفي دمائهم[٥١]:

لَئِنْ فَرَّقَتْنا أكفّ الخُطُوبِ دِياراً تَقَاسَمَها المُقْتَسِم
فَإنَّ لَنَا في طَوَايا القُلوبِ لَشَمْلاً تأصَّلَ في كُلِّ دم

وهكذا، فقد وصل الشعراء عبر هذه المعاناة الطويلة والتمزُّق الشديد ما بين (المثال) الذي لم يتحقق (والواقع) الانفصالي المتردي السيء والمتحقق فعلاً على أيدي الحكام والسياسات الاستعمارية الظاهرة والباطنة، وصل الشعراء إلى التشخيص الدقيق حين ضاقوا بالحدود الأقليمية وبالمفهوم الوطني الضيق والدعوة إلى نسف تلك الحدود والثورة على هذه الحكومات وكشف سوءاتها ووزاراتها ووزرائها ونوابها ورسومها ومؤسساتها وحاشية المتفعين.

لكننا قبل أن نتنقل إلى دور الأدب العربي ومحاربته هذه الحكومات وسياساتها، لا بد لنا من أن نسجل بعض الملاحظات السريعة على هذه القصائد والنصوص التي استعرضناها:

١ : ـ فمن الملاحظ على هذه النصوص، أن الشعر يستخدم لغة مألوفة وعادية جداً، بعيداً عن فخامة الأسلوب الشعري ومواصفات البلاغة التي اشتهرت بها القصيدة الكلاسيكية والتي رضي بها الشعراء هؤلاء نموذجاً يحتذى. ثم إننا نلاحظ أن هذا الشعر يكاد يضج بالفاظ الخطابة من نداء وإستغاثة وأمر وإستفهام والمباشرة في التعبير. إذ قلما نجد صوراً شعرية متأتية من خيال محلّق، كما لا نجد عناية خاصة بالموسيقي الداخلية وتنغيم النسيج باستخدام العناصر المألوفة في الجناس الذكي والطباق المطبوع ورد الصدر

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص٢٦٩.
(٥١) حسن البحيري، ابتسام الضحى (حيفا: صندوق الأمة العربي، ١٩٤٦)، ص٦٢.

على العجز وغيرها من الأساليب الخفية التي استخدمها الشاعر البارع (كالمتنبي مثلاً). وكل الذي نلقاه، في الجانب الموسيقي، القافية الموحدة والبحر الرنان.

ولعل افتقاد سمات التخيل الأصيل يقودنا إلى تساؤل مشروع يدور في ذهن المتتبع، يتلخص في غياب الصورة المتكاملة التي يمكن أن تكون قد مرت في خيال أحد هؤلاء الشعراء العديدين عن شكل الدولة العربية المنشودة، : في صورة حكامها، دور أبنائها، شكل النمط الاقتصادي، علاقات الأفراد، شكل الحكم ومؤسساته. . الخ.

أليس غريباً أن لا يتخيل الشعراء ذلك، ومنذ القديم تخيل أفلاطون ـ ويعد شاعراً إذا عد أرسطو ناقداً[٥٢] جمهورية يطمح إليها، بكل تفاصيلها ورسومها. ثم أليس من حق الفنان، بل من واجبه أن يتصور المستقبل منتزعاً من تناقضات الواقع وقسوته.

تُرى كيف فهم النقاد ملحمة الفردوس المفقود للشاعر الانكليزي (ملتن)؟ وكيف فهموا الكوميديا الألهية لدانتي الليجري؟ ألم تكن فكرة الصراع بين الخير والشر في المجتمع ومستقبله هي محور الفردوس المفقود، متخيلاً عالماً جديداً سعيداً وحقيقياً، يرسم فيه ملامح صورة يطلبها الشاعر ويحرص عليها ويتمناها لمستقبل قومه[٥٣]. ثم ألم تكن الكوميديا صورة لما تمناه دانتي لمجتمعه الممزق وأحبائه الذين عصفت بهم الأحداث والخصومات الداخلية ، وصورتهم التي أراد لها أن تكون في المستقبل ، بدل الانقسام والفرقة والعداء والتشتت .

لقد دعا الشعراء العرب إلى العدالة الاجتماعية، والمحبة والسلام، كما دعوا إلى العلم والحضارة وتحرير المرأة، والإهتمام بالثقافة والتجدد والأخذ بأساليب الحياة الحضارية الجديدة وغير ذلك من الدعوات. إلا أنها تظل دعوات منفصلة عن الوحدة العربية، وعن شكل علاقات الإنسان العربي داخل دولته الموحدة المرجوة، دولة الأمل والمثال.

لقد قدم الزهاوي مجموعة من أفكاره سنة ١٩٢٤ في كتابه (المجمل مما أرى) فتصور أن نظام الدول سيكون جمهورياً، كما تصور العدالة الاجتماعية وأفكاراً أخرى

---

(٥٢) أنظر: سهير القلماوي، المحاكاة، الطبعة٢ (القاهرة: ١٩٧٣)، الفصل الثاني.

(٥٣) Cecil Maurice Bowra, **From Vergil to Milton** ((London: Macmillan. New York: St. Martin's Press. 1963). p.199.

جديدة ومثيرة(٥٤). بل لقد تخيل الزهاوي، في قصيدة مطولة سماها (ثورة في الجحيم)(٥٥) قدرة العباقرة المعذبين في جهنم على اختراع آلة تطفيء نار جهنم وتوقف عذاب من فيها!

وحين سأل الملك فيصل الأول الشاعر الزهاوي عن معنى ذلك ومعنى هذا الخيال أجابه الشاعر. «ماذا أصنع يا مولاي، لقد حاولت أن أشعل الثورة في الأرض فلم أتمكن فأشعلتها في السماء»(٥٦).

٢ : ـ ويمكن أن نضيف إلى ذلك كله أن كثيراً من هذا الشعر، قد تعمّد الشاعر أن يبلغه قومه، فهو في دور المبشر والداعية، إنه يذيع ما بداخله من تفجر عاطفي في عالم من المصطلحات السياسية والقومية.

ولعل مما يجعل هذا الشعر قريباً إلى نفس العربي ووجدانه، نبرة الصدق الكامل، والعاطفة المتدفقة بشكل عفوي والتي طغت على كل المواصفات الأخرى. ومن هنا ذاع هذا الشعر بين الناس ورددته الألسنة، حتى صار نشيداً في ساحات المدارس وتجمعات الشباب من الجيل الطالع كما هو الحال مع أبيات اليازجي المشهورة:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب... الخ.

وكما في أبيات نسبت الى فخري البارودي:

بلادُ العرب أوطاني من الشّام لبغْدان
ومِنْ مِصْرَ إلى يمنٍ إلى نجد فتطْوانِ
فَلا حَدّ يمزِّقُنا ولا دينٌ يُفرِّقُنا
لسانُ الضّادِ يجمعُنا بغسّان وَعَدْنانِ

فلقد هزت الطلاب بهذه القوافي في مظاهراتهم اللاهبة، ولا سيما في سوريا ضد الفرنسيين، بل سارت على لسان كل مناضل عربي حتى غدت نشيداً جماهيرياً عربياً(٥٧).

٣ : ـ ومن الملاحظ، على الخريطة الجغرافية لهذا الشعر الوحدوي أن هناك تفاوتاً في المد القومي والتيار الوحدوي في الأقطار العربية. وقد انعكس هذا التفاوت على رؤى

(٥٤) جميل صدقي الزهاوي، المجمل مما ارى. مقالات (القاهرة: ١٩٢٤)، ص٥٣ ـ ٥٥.
(٥٥) المصدر نفسه الاوشال. ص٢٩٣ ـ ٣١٩.
(٥٦) علي عباس علوان، «شعر جميل صدقي الزهاوي» (رسالة ماجستير)، ، ص٦٠٢ ـ ٦١٠.
(٥٧) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٢٧٣.

الشعراء وتوجهاتهم ففي الشام والعراق والمهاجر كان التيار الوحدوي شديداً وبارزاً. ونجده يجمع بين آمال التحرر الوطني وفي الوقت نفسه يحمل راية القومية العربية والدعوة المستمرة الدائبة لتكوين الوطن الواحد. بينما لم نجد لهذا التيار القومي حضوراً كاملاً في مصر.

فلقد انكمشت حركة التحرر الوطني على نفسها حتى لنجد أن من أبرز أسباب فشل ثورة ١٩١٩، كما قال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في إحدى خطبه، أنها لم تستطع أن تتجاوز بنظرتها حدود سيناء. كما أن طرح فكرة (مصر للمصريين)، ووجود أفكار مناهضة لفكرة القومية العربية كالفرعونية وتبعية مصر وحضارتها لحوض البحر الأبيض المتوسط، كانت من جملة غياب ذلك الحضور القومي.

وإذا كنا قد لاحظنا الموقف السلبي عند شعراء مصر من ثورة الشريف حسين في الحجاز، فإن نوعاً من التحرك الإيجابي قد بدأ يبرز في قصائد بعض الشعراء على إثر ثورة ١٩١٩، لا سيما بعد احتلال الفرنسيين لسوريا وإستشهاد يوسف العظمة وقيام ثورة ١٩٢٠ في العراق، وبعد نكبة دمشق المعروفة عام ١٩٢٦ وفي مقدمتهم شوقي في قصيدته الذائعة الصيت ذات المطلع:

سَلامٌ مِنْ صَبَا بردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشْقُ[٥٨]

أما في المغرب العربي، فإن الموقف القومي يتخذ زاوية جديدة من حيث التعامل مع فكرة القومية العربية.

فإذا كان العراق وسوريا وبلاد الشام والمشرق العربي يتغذى بقصائد شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والجواهري وبدوي الجبل وخليل مطران، ومقالات ولي الدين يكن والمنفلوطي، وما أثارته كتابات قاسم أمين ومحمد فريد وجدي حول تحرير المرأة، ومقالات الكواكبي ورشيد رضا وشبلي الشميل وصروف، وما أثارته آراء طه حسين في الشعر الجاهلي، وعلي عبد الرزاق في قضية الإسلام وأصول الحكم، إذا كان الأمر كذلك في المشرق العربي، فإن المغرب العربي كان يخوض قضية القومية العربية والوحدة العربية من خلال الثقافة العربية، وليس من زاوية التجزئة والدعوة إلى الكيان السياسي الواحد.

---

(٥٨) شوقي، الشوقيات، ج ٢، ص٨٨.
وانظر قصائد تحمل سمات التيار القومي لأحمد محرم وعلي الجارم وأبي شادي.
المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص١٩٦ - ١٩٨.

لقد كان المغرب العربي يخوض القضية من زاوية الحفاظ على الوجود الأساسي للقومية العربية المتمثل في اللغة العربية نفسها، وبالتالي فإنها تشكل وجود ذلك الإنسان الذي يتصل بالأمة وأرضها وتراثها وتاريخها من خلال ما يقرأ ويكتب به. فلقد عمد الاستعمار هناك إلى طمس الشخصية العربية بطمس اللغة القومية، وإشاعة اللهجات المحلية أولاً والفرنسية بشكل واسع. ولقد نصت فرنسا على (فرنسة) التعليم هناك وحاولت عام ١٩٣١ أن تشيع في ربوع المغرب على أنهم شعب نشأ من قوميتين مختلفتين: العرب والبربر، وكانت حريصة على سن أنواع مختلفة من القوانين لكل منهما.

ولقد صمدت المقاومة الفكرية هناك لدعم العربية الفصحى وتأكيدها أمام التيار الفرنسي العنيف الذي كان يعمل ما في وسعه للقضاء عليها. وقد كافحت المدارس الإسلامية العربية في المغرب العربي هذا العدو وكانت حصوناً قوية ضد أساليبه الملتوية ونهضت العربية سليمة، ولا سيما في مناطق البربر، واستطاعت أن تقاوم. يصور علال الفاسي سياسة الاستعمار الفرنسي في هذا الصدد قائلاً «بذل المستعمر كل ما في استطاعته لإحلال لغته محل اللغة العربية. ولم تمض مدة قليلة حتى أصبح الشباب في المستعمرات، لا يتكلم في المسائل ذات الأهمية ولا يكتب حولها إلا بلغة المستعمرين»[٥٩]. ويصور عبد الله جنون القضية بقوله: «ليس هناك أزمة لغة. ولكن هناك أزمة الإستعمار لقتل اللغة؟»[٦٠].

وهكذا جاءت صورة الأعمال الأدبية هناك، تتحدث من زاوية غير الزاوية التي كان يطل منها شعراء المشرق العربي وكتابه، حتى لنجد مجلة الأنيس التي تصدر في تطوان، تؤكد هذا، وتصور الموقف الفكري حتى عام ١٩٤٧ قائلة: «نحن في عصر اندثر فيه الأدب المغربي. ولعبت الأيدي بالفنون والصنائع المغربية وأصبح المغرب في طور تلقيح جديد يحتاج إلى تدعيم سريع. إن الأدب المغربي أصبح، في طور تكوينه، لا يمكن أن تنجح فيه عملية ما دام لم يسلك مسلكاً أدبياً محضاً خاضعاً لقوانين الثقافة العالمية. هذه فترة من الركود التي تقدر بقرن مرت على الأدب المغربي دون أن ينتج شيئاً يذكر. وهذه الحروب العالمية الأولى والثانية، لم تجد من يكسو معركة منها حلة أدبية مغربية»[٦١].

إلا أن المغرب العربي بأقطاره الثلاثة: مراكش والجزائر وتونس، كان قد شهد، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب الثانية، كوكبة من المفكرين ودعاة الفصحى

---

(٥٩) الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، ١٨٠١ - ١٩٥٩، ص٦٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ص٦٦ - ٦٧.

(٦١) المصدر نفسه، ص٦٢ - ٦٣.

والتراثيين والصحفيين والأدباء والشعراء أمثال علال الفاسي وعبد الوهاب منصور والحسن السايح وعبد الله جنون ومحمد علي الكتاني ومحمد بن العربي وعبد القادر الصحراوي.

وفي تونس برزت نشاطات علي باش حمبة وعبد العزيز الثعالبي والبشير صفر والطيب بن عيسى وسلمان الحادري وحسين الجزيري وعلي كاهية وحسن حسني عبد الوهاب. ومن تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي يبرز محمد الصادق التيعفر، والشيخ عثمان بن الخوجة، ومحمد مناشو وأحمد توفيق المدني، ومحي الدين القليبي وزين العابدين السنوسي ومحمد المهدي بن ناصر ومحمد الطاهر بن عاشور[٦٢]. لقد حاول هؤلاء، كتاباً ومفكرين وشعراء وصحفيين وتراثيين، أن يصمدوا بوجه الإعصار الإستعماري، الذي هبّ على الجناح الغربي من الوطن العربي، في محاولة حاقدة ويائسة لاكتساح العروبة وإنسانها وتراثها هناك. وعلى هذا، فإن شكل المعركة قد اختلف، وليس من المنطقي بعد ذلك أن نحاول تبين هتافات الوحدة العربية والدولة الواحدة وتتبع سير أحداث الشرق العربي وانتفاضاته.

(٤)

لقد انتهينا إلى أن الأدب قد صور، في أكبر فنونه وهو الشعر، إرهاصات الوحدة وشعارات الجماهير وهتافات الوحدويين في المشرق العربي، وانتهينا أيضاً إلى وصول الشعراء في معاناتهم وإرتباطهم بالأحداث اللاهبة للتاريخ الحديث إلى تقرير الحقائق التي اكتشفتها الجماهير المثخنة بآلام التمزق وأحابيل الإستعمار وسياساته.

على أن الشعراء، كانوا يتجهون من واقعهم السيء إلى الماضي البعيد وكأنهم يحاولون إعطاء هذه الحقائق الناصعة سندها التاريخي المؤكد. فلقد اتجهوا برؤاهم إلى ماضي الأمة، مستلهمين أمجادها وأحداثها ووقائع العرب وأخبارهم ومعاركهم الفاصلة وإضاءة سير نوابغهم وأبطالهم، وتخليد عظماء الأمة وانجازاتهم في شتى ميادين العلوم والثقافة والحضارة، أو تصوير ذكرى الآثار والأمصار وجامعات العلم المختلفة، كما أولعوا بالذكريات الألفية لبعض نوابغ الرجال كالمتنبي والمعري وغيرهما. على أن هذا الالتفات نحو الماضي لم يقتصر على الشعر وحده، فقد شارك فن النثر، بالتأليف والخطابة والترسل، في هذه المهمة إلى جانب الشعر، ولعل روايات جورجي زيدان

---

(٦٢) المصدر نفسه، ص٦٤ - ١٣٧.

وكتابات روحي الخالدي عن (أشهر مشاهير الإسلام) وكتاب (حاضر الأندلس وغابرها) لمحمد كرد علي وكتاب (تراث العرب العلمي) لقدري طوقان خير ما يشار إليه في هذا الصدد[٦٣].

ولو حاولنا ضرب الأمثلة من الشعر العراقي وحده، لهالنا هذا العدد الضخم من القصائد في هذا المضمار وبخاصة في دواوين أبرز شعرائه الأربعة: الزهاوي[٦٤] والرصافي[٦٥] والكاظمي[٦٦] والشبيبي[٦٧]. وسنكتشف أن هذا الجانب القومي من شعرهم السياسي يحتل مساحات واسعة من دواوينهم وبشكل لافت للنظر، وأن أهم ما يميز هذا الجانب من شعر هؤلاء الحنين الطاغي إلى الماضي والتأمل الطويل في أحداثه واسترجاع لنغمات ذلك المجد المندثر والاصرار على العيش في أجواء الفخر العربي وأمجاد الأمة وما قدمته في قضايا الحكم والثقافة والحضارة، وكأن هؤلاء الشعراء، في أغلب قصائدهم، يزاولون حالة من حالات إثبات الوجود، وأحياناً يقعون فيما يشبه حالة

---

(٦٣) انظر انجازات الشعراء العرب في كافة أقطارهم في هذا الموضوع ونماذج منها في: المقدسي، **الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث**، ص١٧٦ ـ ١٩٨.

(٦٤) أنظر على سبيل المثال. الزهاوي. **الكلم المنظوم**، قصائد أيام بغداد، ص١٤٣، الصارخة، ص٢٣.

المصدر نفسه، **ديوان الزهاوي**، قصائد: المستنصرية، ص١٢٨، أكبر خطة، ص٢٢٣، الجامعات تزار، ص١٤٦، استنهاض، ص٢٢٠، لا تلومني، ص١٨٨، وضح الصباح، ص٢٥٠.

المصدر نفسه، **اللباب**، قصائد: المجد لا يغل، ص٢٨٠، بغداد، ص٣٧٨.

المصدر نفسه، **الأوشال**، قصائد: في فرقانة، ص١٧٠، ياعين، ص٢٤٩، هتاف العراق، ص١١٠، ويل الى ويل، ص١٤.

المصدر نفسه **الشمالة**: قصائد: الدنيا قبل الدين، ص ٤٢، العروبة والعاملون في سبيلها، ص ٩، العراق ومصر، ص ١٤.

وانظر: بطي، **الأدب العصري في العراق العربي**، ج ١: ص١٨، قصيدة النائحة.

(٦٥) الرصافي، **ديوان الرصافي**، قصائد: نحن والماضي، ص٣٤، الى الشبان، ص٦٥، في سبيل الوطن، ص١٣١، الأمة العربية، ص١٣٩، اطلال العلوم، ص٣٨٠، إلى الأمة العربية، ص٣٩٤، صبح الأماني، ص٤١٥، إلى هربرت صموئيل، ص٤٢٩، نفثة مصدور، ص٤٥٥.

(٦٦) الكاظمي، **ديوان الكاظمي**، ج ١، : قصائد: نعم أهل مصر، ص٤٦، رحلة مصر، ص٦٣، في الفخر، ص٧٧، ذكرى الفتوح، ص١٢٨، أنين وحنين، ص١٣٥، سيروا بنا، ص٢٣٣.

(٦٧) الشبيبي، **ديوان الشبيبي**، قصائد: ثورة على الأتراك، ص٢٦، دمشق وبغداد، ص٣٣، الهيام بين العراق والشام، ص٤٢، أوطار وأوطان، ص٥٠، جولة في الغابرين، ص٦٩، رجال الغد، ص١٨١، رثاء الشهداء، ص١٨٣.

الـ'Nostalgia' حين يتوق الانسان للماضي توقاً شديداً غير سوي، في محاولة لاستعادة وضع يتعذر استرداده. ولعل مرجع ذلك في واقع الأمر لا يعود فقط إلى محاولات هؤلاء الشعراء ضرب الأمثلة والمواعظ للمواطن العربي الذي طال شعوره باليأس والتأخر، وإنما مرجعه أيضاً يعود إلى أن آمال هؤلاء الشعراء كانت تكتسب درجة عالية من التضخم حين تمر على هذا الماضي فتستجليه وهي تقع أسيرته، في أغلب الأحيان، بسبب الواقع المرير الذي يعيشه هؤلاء الشعراء وعدم تناسبه بشكل معقول لا مع آمالهم الحاضرة ولا مع ماضيهم المشرق.

وهكذا أتجه الشعراء إلى هذا الواقع الفاسد وإلى رموزه السياسية من ملوك ووزراء ونواب ومستشارين، وإلى تلك الأنظمة بكاملها، يوسعونها إزدراء ومقتاً وسخرية وتجريحاً وقولاً غليظاً لاذعاً لا غبار عليه ولا مواربة.

ولقد ابتدأوا بالملوك، وفي مقدمتهم الشريف حسين، بعد أن أخذت هالة البطولة تنحسر من حوله، وبعد أن خذله حلفاؤه الانكليز، وظل يؤمل فيهم الآمال. نرى خير الدين الزركلي يخاطبه قائلاً[٦٨]:

طَالَ انْقِيادُكَ للخصوم وأنتَ أدْرى بالخصوم
الانكليزُ وَمَا أَرَاكَ بأمْرِهِم غير العليم
مَا في جُموعِهم وإنْ حَدِبوا عَلَيْكَ سوى غريم
عَجَباً لِمنْ طَلَبَ الخلافةَ والخلافةُ في النجوم

أما الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فيقول عن علاقة الملوك العرب بالاستعمار ودورهم في التجزئة القومية[٦٩]:

واسْتَخْدَمُوا مُلُوكَنَا لِضَرْبِنَا وَلاَ عَجَبْ
هُمْ نَصَبُوا عَرْشَاً لَهُم في كُلِّ شَعْبٍ فانْشَعَبْ

أما أديب التقي، الشاعر الدمشقي، فيصف العروش العربيةَ قائلاً[٧٠]:

في كُلِّ يومٍ لَنَا عَرْشٌ تُشيدُه عَلى المطامع أيدٍ نَبَتَاتُ

---

(٦٨) الزركلي، ديوان الزركلي، ص٧٢.
(٦٩) عبد الكريم الدجيلي، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩)، ص٦٤.
(٧٠) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣١٧.

مَــاذَا تَفيــدُ ملوكٌ تَحْتَهــا عُــرُشٌ   جميعُهــا بين أيــدي القــوم آلاتُ
إنّي سَئمتُ صَدَى الألقابِ في بَلدٍ   يــكــادُ يُـعْــوزُهـا مَــاء واقــواتُ

ويخاطب خليل مردم الملك فيصل الأول، وكان من الشعراء المتحمسين له أول الأمر، إلا أن الأمور لم تجر وفق أهواء الشعراء وآمالهم، فقال[71]:

إلى فَيْصــلٍ لا يثلم اللّهُ حَــدَّهُ   قــوارصُ قــول دُونهــا كُــلُّ مخــذم
إذا بلغتــه أحــرجَ الهــم صَــدرهُ   وقبض وجــهُ العــابس المتجــهِّم
أفيصــلُ إن سلِمتَ مقْــدَار ذرّةٍ   ميــاسرة منْ حَفّنــا لا نُــسَلِّم

أما أبيات الرصافي فقد شاعت في الملك فيصل وبلاطه وفيها من قبيح القول نكتفي منها بهذا البيت[72]:

غَــضِــبَ الــلّهُ عــلى سَــاكِــنِــهِ   وَتَــدَاعَــى سَــاقِــطاً ذَاكَ الــبــلاطُ

كما شاعت أبيات الزهاوي بين الأوساط الأدبية في هجاء الملك فيصل[73]:

إن شَعْبــاً يَــرجــو بفيصــلٍ عــزّاً   لَهُــوَ شَعْبٌ يَــظَلُّ غيــر عَــزيــز
عَــرَبــيٌّ أضْحَــى أشــدَّ عَلــيـنــا   إنــكــليــزيــةً مِــنَ الانــكــليــز

أما الكاظمي فقد دعا العراقيين لنقض بيعته قائلاً[74]:

لا يَــغُــرنّــكُــم عــرشٌ سَــمَــا   رُبَّ عــرش في الــوَرَا قــدْ سَفَلا
طَهِّــروا أوْطَــانَكم مِنْ طَــامِــعٍ   جُــنَّ في أطْــمَــاعِــهِ فَــاخْــتَــبَلا
غَــرَّهُ مَــجــدٌ وجَــاهٌ كَــاذِبٌ   خَــلّفــوه يــومَ أغــروا جــهــلا

ويسخر الرصافي من الملك وعرشه ودولته قائلاً[75]:

لَــنَــا مَــلِكٌ ولَــيْسَ لَــهُ رَعَــايَــا   وأوطَــانٌ ولَــيسَ لَــهــا حُــدُودُ

---

(٧١) مردم، ديوان خليل مردم، ص١٥٣.
(٧٢) الواعظ، معروف الرصافي: حياته وأدبه السياسي. ص١٧٦.
(٧٣) هذان البيتان رواهما لي الأستاذ محمد بهجة الأثري في حديث شخصي بتاريخ ١آب (أغسطس) ١٩٦٢ وإذن بنشره.
(٧٤) الكاظمي، ديوان الكاظمي، ج ١، ص١٥٣.
(٧٥) الرصافي، ديوان الرصافي، ص٤٦٠، وانظر بقية الابيات في الدقاق، **الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث**، ص٣١٤.

وأجْـنـادُ ولـيسَ لَـهُـم سِـلاحُ ومـمـلَكَـةٌ ولـيس لـهَـا نُـقُـودُ
أيـكْـفِـيـنَـا مِـنَ الـدّولات أنّـا تُـعَلَّقُ في الـدِّيـار لَـنَـا الـبُـنُـودُ
وأنّـا بَـعْـدَ ذَلـكَ في افْـتـقَـار إلـى مـا الاجـنـبي بـه يـجـودُ
كـلاب لـلأجـانـب هـم ولـكـنْ عـلى أبـنـاء جِـلْدَتِـهِـم أسُـودُ

ولمحمد صالح بحر العلوم وخير الدين الزركلي وعبد الله وهبي التل في بقية الملوك نماذج تكاد لا تختلف عمّا استشهدنا به وما تحمله من غضب وحنق وعنف ضد العروش وملوكها[٧٦]. إلا أن قصيدة أبي سلمى من فلسطين، تتميز عن تلك القصائد باعتبارها المعلقة الكبرى في هجاء الملوك العرب، فبعد مطلعها المعروف[٧٧]:

أنْـشُـرْ عَـلىَ لَـهَـبِ الـقـصـيـدِ شَـكْـوى الـعـبـيـد إلى الـعـبـيـد

يتعرض للملوك العرب واحداً واحداً فيسلقهم بألسنة حداد. ثم يتعرض لهم مجتمعين قائلاً:

إيه ملوكَ العرب لا كُنْتُم مُلوكاً في الـوجـود
قـوموا اسْمَعُوا في كُلّ نَـاحيةٍ يَصيحُ دَمُ الشّهيـدِ
قُوموا انْظُروا الأهْلِين بَيْنَ الوعْدِ ضَاعُوا والوعيـدِ
مَـا بَيْنَ مُلقىً في السّجونِ وبَيْنَ مَنْفيّ شـريـدِ
قُوموا انْظروا الوطنَ الذبيحَ مِنَ الوريدِ إلى الوريدِ
تَتَزَاحَمُ الأجيالُ داميةَ الخُطى نَحْوَ اللّحودِ
يَـا مَنْ يعزّونَ الحِمَى ثـوروا عَلىَ الظّلمِ المُبيـدِ
بَـلْ حَـرِّروهُ مِنَ الملوكِ وحَـرِّروهُ من العبيـدِ

وإذا كان هذا موقف الشعراء من الملوك العرب، فماذا يمكن أن يقولوه في الوزراء والوزارات؟ يقول محمد الأسمر في الوزارات المصرية المتعاقبة[٧٨]:

تَـرُوحُ وزارة تـجيء أخْـرَى وَمِـصْـرُ تُقَـلّبُ النَّـظَرَاتِ حَـيْـرَى
تَـشِـيـمُ فَـلا تَـرَى إلاّ بُـرُوقـاً كَـوَاذِبَ رُبَّـمـا أمْـطَرْنَ جَـمْـرَا

---

(٧٦) أنظر نماذج من هذه القصائد في المصدر نفسه، ص٣١٣ ـ ٣١٨.
(٧٧) خالد علي مصطفى، الشعر الفلسطيني الحديث. ص٣٣.
(٧٨) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٢٠.

فَيَا وُزَرَاء مِصْر بِكلّ عَهْدٍ　　لَقَد مَلّ الرِّوايَةَ شَعْبُ مِصْرا

وفي العراق ترتفع أصوات بحر العلوم والشبيبي والزهاوي والجواهري ومحمد باقر الشبيبي. لكن الرصافي يظل فارس ميدان القصيدة السياسية المعارضة الساخرة والذكية، يصف الحكم في بغداد بشكل صريح في قصيدته (يا محب الشرق)[٧٩] مخاطباً الثري الأمريكي بمناسبة مجيئه إلى بغداد عام ١٩٢٩:

يا محبَّ الشرقِ أهلاً　　بكَ يا مستر كراين
وإذا تَسألُ عمّا　　هُو في بَغْدَادَ كائِن
فَهُوَ حُكْمٌ مَشْرقيّ　　الضرع غربيّ الملابن
وَطنيّ الإسْم لَكِنْ　　إنكليزيّ الشّناشن
عَرَبيّ أعجميّ　　مُعْربُ اللّهجةِ رَاطِن
فيه للإيعازِ مِنْ لَنْـ　　ـدُن بالأمر مَكَامِن
هُوَ ذُو وَجْهَين وَجْهٌ　　ظَاهِرٌ يَتْبَعُ بَاطِن
قَدْ مَلَكْنَا كُلّ شَيءٍ　　نَحْنُ في الظّاهِر لَكِن
نَحْنُ في الباطِنِ لا نَمْـ　　ـلِكُ تَحْريكاً لِسَاكِن
أفَهَذَا جَائزٌ في الغربِ　　يَا مِسْتر كَرَاين؟

ومن قصائد الرصافي الشهيرة في الوزارات ومؤسسات الدولة قصيدته (حكومة الانتداب)[٨٠] التي يقول فيها:

هَذي حُكومتُنا وكُلّ شُموخها　　كَذبٌ وكلُّ صَنيعِها مُتَكلّف
عَلَمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمّةٍ　　كُلٌّ عَن المعْنى الصحيحِ مُحَرّف
أسْماء ليسَ لَنا سوَى ألفاظها　　أمّا مَعَانيها فَلَيْسَتْ تُعْرف
منْ يَقرأ الدستورَ يَعْلَم أنّهُ　　وفْقاً لصَكّ الإنتداب مُصَنّف

ويستمر الرصافي في نفثاته الحارة، فالعلم لا يرفرف لعز بني البلاد، ومجلس النواب (المراد غير الناضبين مؤلف). أما الوزارة:

مَنْ يَأتِ مُطّرد الوزارةِ يَلْفها　　بقيودِ أهْلِ الإستشارةِ تَرْسُف

---

(٧٩) الرصافي، ديوان الرصافي، ص٤٣٦.
(٨٠) المصدر نفسه، ص٤٦١.

والوزراء، يصورهم على الشكل التالي:

هَـذي كـراسـيّ الـوزارةِ تَحْـتَكـم كـادَتْ لِفَـرْطِ حَيـائِهـا تَتَقَصَّـف
أنـتم عَـلَيْهـا والأجـانِـبُ فَـوْقَكـم كُـلٌّ بِسُلْطَتِـهِ عَـلَيْكُـم يُـشـرف
أيُعَـدُّ فَخْـراً لـلوزيـرِ جُلُوسُـه فَـرَحـاً عَلَى الكـرسيّ وَهُـوَ مُكَتَّف

وتعد قصائده (غادة الانتداب)[81] و(تجاه الريحاني)[82] و(الوزارة المذنبة)[83] التي يقول فيها:

أهْلُ بَغْدَاد أفيقُوا مِنْ كَرَى هذي القَراره
إنَّ ديك الدَّهر قَدْ بَاضَ بِبغْدَادَ وَزَاره
كَمْ وزير هُو كالوزْر عَلىَ ظَهْرِ الوَزَاره
ووزيرٍ مُلْحَق كالذَّيلِ في عَجْزِ الحمَاره
فوزيرُ القوم لا يَعْمَل مِنْ غير إشارَه
وهو لا يَمْلِكُ أمْراً غير كُرسِيِّ الوَزَاره
يَأْخُذُ الرَّاتِبَ أما بَلَغَ الشَّهْر سرَاره
ثُمَّ لا يَعْرِفُ مِنْ بَعْدُ خربٌ أمْ عمَارَه

وقصيدته (الحرية في نظر المستعمرين)[84] ذات المطلع:

يـا قـومُ لا تـتـكـلّمـوا إنَّ الـكـلامَ مُـحَـرَّم

من الشهرة والذيوع على ألسنة الناس بحيث لا تحتاج لاعادة.

وفي الأردن ثمة صوت تعود طريق السجون والمعتقلات والظلم، وهو صوت الشاعر عبد الله وهبي التل، الذي يكاد والرصافي يلتقيان عند رؤية واحدة وجرح واحد وسخرية متشابهة، يقول التل أو البدوي الملثم[85]:

---

(٨١) المصدر نفسه، ص٤٤٩.
(٨٢) المصدر نفسه، ص٤٢٣.
(٨٣) المصدر نفسه، ص٤٦٤.
(٨٤) البدوي الملثم، الديوان، ص٧٦.
(٨٥) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٢٥.

أمّا البليّة فهي في تِلكَ التي تُدعى الوَزَاره
حَشَرُوا بِهَا المخْتارَ والبغلتيْنِ ثُمّ ابنَ الحِمَاره
واللّهِ لَو بِيعُوا بسوقِ الخيلِ ما بِيعُوا بباره
حتامَ لا تتمَلْمَلونَ فَلاَ يُقالُ هُمُ الحِجَارَه
الناسُ منْ لوْ أرهِقُوا شنوا على الارهاقِ غارَه
(العبدُ يُقْرَعُ بالعَصَا والحُرُّ تكفيهِ الإشارَه)

أما إبراهيم طوقان فسخريته من نوع آخر، فهو يخاطب الانتداب الانكليزي في فلسطين على هذه الشاكلة(٨٦):

قَدْ شَهِدنَا لِعَهدِكُم بالعدَالَه   وَخَتَمْنَا لِجُنْدِكُم بالبَسَالَةْ
وَعَرفْنَا بِكُمْ صَدِيقاً وفيّاً   كيفَ ننسى انتِدَابَهْ واحْتِلاَلَهْ
وَخَجلْنَا مِنْ لُطْفِكُمْ يومَ قُلْتُم   وَعْدُ بلفورَ نَافِذٌ لاَ مَحَالَةْ
كُلّ (أفْضَالِكم) على الرأسِ والعين   وليْسَتْ في حَاجَةٍ للدّلاَلَةْ
غَيْرَ أنَّ الطريقَ طَالَتْ عَلَيْنا   وَعَلَيْكُم فَمَا لَنَا والإطَالَةْ
أجَلاءً عَنِ البلادِ تُريدونَ   فَنَجْلُو أمْ فحقَنا لاَ مَحَالَةْ

والملاحظَ على مجموع هذا الشعر السياسي طغيان روح السخرية المرة، ولعلها تمثل تلك الحالة التي عاشها الشعراء وهم يسخرون ولكن بمرارة وألم شديدين. ولعل قصيدة حافظ المشهورة، التي سخر فيها من جيش الاحتلال الانكليزي عندما فرّق مظاهرة نسائية قامت بها نساء القاهرة إبّان ثورة ١٩١٩، ذات المطلع(٨٧):

خَرَجَ الغَوانِي يَحْتَجِجْنَ   فَرُحْتُ أرْقُبُ جَمْعَهُنّ

تعد من القصائد الساخرة، من نوع آخر، إذ قارن بين جبروت جيش الأمبراطورية المدجج وبين صنف النساء ورقتهن، فراح يهنيء هذا الجيش الكمي على ذلك النصر الساحق المضحك:

وَتَضَعْضَعَ النّسْوانُ والنسوانُ ليس لَهُنّ مِنّه
ثُمّ انْهزَ مْنَ مُشَتّتاتِ الشّمْلِ نَحْوَ قُصُورِهِنّ
فَلْيَهْنَأ الجيشُ الفخورُ بنصْرِه وَبِكَسْرِهِنّ

---

(٨٦) طوقان، ج ٢: قصيدة مظاهرة السيدات، ص٨٢.
(٨٧) علي الخاقاني، شعراء الغرى أو النجفيات (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٥٤).

أما محمد باقر الشبيبي فيسخر من الحكومة العراقية بطريقته الخاصة، وقد ذاعت أبياته بين عموم الطبقات إذ قال(٨٨):

قَالُوا استقلّتْ في البلادِ حُكُومةٌ فَعَجِبْت إذْ قَالُوا وَلَمْ يَتَأكّدوا
أحكومةُ الاستشارةُ ربُّها وحكَومةٌ فيها المُشَاورُ يُعْبَدُ
المسْتَشَارُ هُوَ الذِي شَربَ الطّلا فَعَلامَ يَا هَذَا الوزيرُ تُعَرْبِدُ

والأمثلة في هذا المجال عديدة(٨٩).

أما أشكال الحكم وصور العلاقات غير المتكافئة، بين الدول الاستعمارية وهذه الحكومات الهزلية وما تتحمله من حماية ووصاية وانتداب ومعاهدات، فقد كانت موضع هجوم جارح ونقد مستمر ورفض قاطع تواصى الشعراء على اتخاذه موقفاً ثابتاً ونهجاً مرسوماً. يقول مصطفى الغلاييني من لبنان(٩٠):

لَا تَخْدَعُونا بألفاظٍ إذا سُمعتْ تَحْلُو وإنْ نَخْتَبِرْها مرّ مَعْنَاهَا
فَمَا الحمايَةُ إلاّ السّهمُ يَقْصِدُنا وَمَا الوِصَايَةُ إلاّ النّارُ نَصْلاَهَا

ويقول الكاظمي من قصيدة يرثي بها فؤاد سليم شهيد الحرب الاستقلالية في سوريا(٩٠):

صَحَتْ فَرَنْسا لَكِنْ أرَتْنَا رَأياً لاطْمَاعِها سَقِيما
بنَغمةِ الانتدابِ غَنّتْ وَرَدّدتْ صَوْتَها الرَّخيما
أذا انتِدَابٌ أم اغتصابٌ عَادَ بِهِ حَقُّنا هَضِيما
لا تلزِمُونَا بِكُمْ فَلَسْنَا نَرَى لَكُمْ بَيْنَنا لُزُومَا

وحمل الرصافي على الانكليز وانتدابهم المزعوم على العراق بجرأته المعهودة، على أثر انتحار الزعيم الوطني عبد المحسن السعدون(٩١):

يَا أهْل لَنْدنَ ما أرْضَتْ سِيَاسَتُكُم أهْلَ العراقين لا بَدْواً ولا حَضرا
إنَّ انتِدابَكم في قَلْب مَوْطِنِنَا جُرْحٌ نُدَاويهِ لَكنْ لَمْ يَزَلْ غَبِرَا
وَلِلمشُورة في أوْطَانِنَا شَبَحٌ تُخيفُ صُورَتُه الأشباحَ والصوَرَا

(٨٨) الدجيلي، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث. ص٨٢ ـ ٨٩.
(٨٩) الشبيبي، ديوان الشبيبي، ص٧٥.
(٩٠) الغلاييني، ديوان الغلاييني، ج٢ : ص١٦٢.
(٩١) الرصافي، ديوان الرصافي، ص ٣٢٠.

يَجُولُ في طُرُقَـاتِ البَغْيِ مُحْتَقِباً للغشِّ خَلْفَ سِتَارِ النّصحِ مُسْتَتِـرَا
لَمْ يَكْفِـهِ أَنَّـهُ لِلحُكْمِ مُغْتَصِبٌ حَتَّى غَـدَا يَقْتُـلُ الآراءَ وَالفِكَـرَا

ويقول الزهاوي من قصيدته (يباع ويشرى):

يُباعُ وَيُشْرى الشعْبُ في سَوقِ لَنْدنٍ ببخْسٍ من الأثْمَانِ والشَعْبُ لا يَدْري
وَمَا الخيرُ بـالمقصودِ مِنْهَـا وَإِنَّما يُـرادُ بِهَـا شَـرٌ وأكثـرُ مِنْ شَـرِّ
وَأَصْعَبُ مِنْ قَيْـدٍ ثقيلٍ حَـدِيـدهُ عَلَى الرِّجْلِ أَمْيَادٌ ثِقَالٌ عَلَى الفِكْرِ

وفي قصيدته (يستفتي ويهدد)[٩٢] صورة لما كان يدور في الحياة السياسية في العراق أيام المعاهدات:

تُلْغَى مُعَـاهَـدَةٌ وأخْـرَى تُعْقَـدُ والشَّعْبُ يُسْتَفْتَى لَهَـا وَيُهَـدَّدُ
الشّعْبُ بـالقيـدِ الثقيـلِ مُكَبَّـلٌ حَتَّـى يكـاد إذا تَحَـرَّكَ يَقْعُـدُ

ويصرخ في أخرى، وقد عقدت المعاهدة الجائرة[٩٣]:

طَعَنُـوكَ يَـا وَطَـني الـمفـدى في الصَّـدرِ حتّى كُنْتَ تـردى

كما يشير وديع البستاني، من فلسطين، إلى لعبة الوصاية والحماية والدستور... الخ، فيقول[٩٤]:

وَأَنْكَـرْنـا وصَـايَتَـهُم عَـلَيْنـا وَقَـدْ جَعَلُوا بَـوَادِرَهـا اغتصَـابَـا
وَلَـم نَـنْـدُبْهُـم في الأمـرِ فينـا وَقَـدْ حَكَمُـوا وَسَمَّـوهُ انْتِـدَابَـا
وَدَسّـوا السُّمَّ في الـدّستـورِ دَسّـاً فَمَـا ذقنـا الـطّعـامَ وَلا الشّـرابَـا

على أن عنف الشعراء وهجومهم وسخريتهم اللاذعة قد تجلّت أكثر ما تجلّت حين اتجهوا إلى البرلمان، إذ كانت تلك الحكومات حريصة كل الحرص على إقامة هذه الواجهة شكلياً للحكم باعتبارها الصورة الديمقراطية التي ترد طعنات الناقدين والمعارضين. ومن هنا راح الشعراء العرب يوجهون حمم القوافي نحو المجالس النيابية، والنواب البؤساء. يقول خليل مردم عن النواب في المجلس النيابي السوري[٩٥]:

---

(٩٢) الزهاوي، الاوشال، ص٦٤.
(٩٣) المصدر نفسه، قصيدة النادبة، ص٧٢ ـ ٧٥.
(٩٤) وديع البستاني، ديوان الفلسطينيات (بيروت: [د. ت]، ١٩٤٦)، ص١٥٣.
(٩٥) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٢٩.

البـرلمـانُ وَهَـلْ أتـاكَ حَـديثـُهُ   وحـديـثُ مَنْ فِيـه مِنَ النـوَّام
نُقلوا إليـهِ نـاكِسِيـنَ رُؤوسـهم   نَقْـلَ الجبـان لِسَـاحَـةِ الإعْـدَام
مَـلَكَ الحيـاءُ عَلَيهم أبْصَـارَهُـم   فعيـونُهـم بِـمَـوَاطِىءِ الأقْـدام
عَـكَفَـتْ زَوَايَـاهُ على أصْنَـامِهـم   مَنْ لي بـإبـراهيـمَ لـلأصْنـام

أما الشاعر محمد الأسمر، من مصر، فيخاطب نواب المجلس المصري بهذه الطريقة الطريفة[96]:

حَـطِّمُـوا الأغـلالَ عَنْ أمّتـكُـم   وَازأروا فـي الـحـقِّ فِيـمَـنْ زَأرَا
لا تـمـوؤا هِـرّةً مَـحْـبـوسَـةً   بَـلْ أُسُـودٌ غَـاضِـبَـاتٌ لِلـسُّـرَى
واخلِصُـوا الأرْسَـانَ لَسْتُم حُمُـراً   واطْـرَحُـوا النّيـر فَـلَسْتُمْ بَقَـرَا

ويزيد، عبد الكريم الدجيلي، من العراق، حدة الهجوم، فيقول مخاطباً النائب في المجلس[97]:

أيّـهـا الـنـائـبُ لا تَـبْـحَـفَـلْ   بِـمَـنْ قَـالَ وَقِـيـلا
قَـدْ هَـرَزْنَـاكَ حُـسَـامـاً   فَـوَجَـدْنَـاه كـلِـيـلا
وَسَـبـرنَـاكَ عَـمِـيـلاً   فَـوَجَـدْنَـاكَ أصِـيـلا
قَـبِّـلِ الأقْـدامَ وادْخُـلْ   حَـرَمَ الـمـجـلـس غُـولا
وانـتَـصِـبْ فَـوْقَ وَتِـيـرٍ   نَـائِـبَـاً عَـنْـهُ قَـؤُولا

ويصور الشيخ محمد علي اليعقوبي هؤلاء النواب قائلاً[98]:

أرَى الـبـرلـمَـانَ وَنُـوّابَـه   سُـكُـوتٌ بِـهِ سَكْـتَـةَ الأخْـرس
تَـمَـاثِـيـلُ يَنْحَـتُـهـا الإنـتَـدَابُ   وَتُـعْـرَضُ فِي قـاعَـةِ (الـمجلس)

ولأحمد الصافي النجفي هذه الرباعية الطريفة عن البرلمان العراقي[99]:

قَالَ لي صَاحِبي: هَلُمَّ إلى المجلس   فـالـيـوم أعْـظَم الـجَـلَسَـاتِ
قُـلْتُ بـالأمْسِ زُرْتُـهُ وَفُـؤادي   مفْعَمٌ مِنْـهُ فـي أذى الـذِّكْـرَيـاتِ

---

(٩٦) المصدر نفسه، ص٣٢٧.
(٩٧) الدجيلي، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث، ص١١٧.
(٩٨) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٩٩) المصدر نفسه، ص١٢٣. أنظر نماذج أخرى لشعراء العراق محمد الجنوبي وحسين كمال الدين وناجي القشطيني واليعقوبي وآخرين في: المصدر نفسه، ص١١٦ ـ ١٢٤.

قالَ: كـرِّرْ لَـهُ الـرَّواحَ لِتَلْقى   لَـكَ سلوى عَنْ هـذه الأزمـات
قُلْتُ: هَيْهـاتَ لا أعُـودُ فَحسْبي   رؤيـة الـموت مـرَّةً في حَيَـاتي

ومن أطرف الصور التي رسمها الشعر العربي، لهذه المجالس ونوابها، أبيات الشاعر القروي في تصوير النواب في مجلس أقامه الفرنسيون وزوّروا فيه إرادة الشعب اللبناني، إذ يقول(١٠٠):

وَطَني تَـحَيّـرت العـبيـدُ لِـذلّـه   وأذلّ مِـنْـهُ رئـيـسُـهُ والـمَـجْلسُ
جَـادَ المفـوَّضُ بـالعَليق فَحَمْحَمُـوا   وثنى عَليهم بـالشّكيـم فـأسْلسُـوا
لا تَـسْلقُـوهُـم بـالمَـلاَم فـإنّهـم   جَلسوا وَهَلْ نُخِبُوا لكَيْ لاَ يَجْلسُوا
فِي كُـلِّ كُـرسيٍّ تَـسَـنَّـدَ نَـائِبٌ   مُـتَـكـتِّفٌ أعـمـى أصـمُّ أخْـرسُ

إن هذه الصورة الساخرة الحادة تكشف، دون شك، عمّا في أعماق شعراء الأمة من غضب واحتقار لهذه الأنظمة ورسومها ومؤسساتها، وقد اتخذت أشكالاً متعددة، ولكنها في واقع الأمر ليست سوى واجهات تحركها أصابع المستشارين الأجانب وسفارات لندن وباريس. ويتفرد شاعر من العراق، ويستقل براية الشعر السياسي العنيف، في الوطن العربي، بما قدمه من قصائد جاءت شظايا من نار وحمماً لاهبة صبّها صبّاً على رؤوس الأنظمة وساستها والحكام الطغاة. ذلك هو الشاعر الجواهري الذي تميّز صوته في الشعر السياسي ما بين الحربين، ولا سيما في الأربعينات من هذا القرن.

ولم تكن الجرأة والشموخ والغضب الخلّاق والعنف المتزايد هي كل الأسباب التي جعلت من الجواهري قمة في الشعر الكلاسيكي في الوطن العربي، وإنما لأسباب أخرى فنية تميز بها شعره، ونعني بها - دون أن ندخل في التفاصيل - قوة أسر النسيج الذي نتقنه، واللغة الشعرية المتدفقة التي امتلكها من الموروث الشعري، بل من أجمل ما في الموروث الذي تلقحت به روحه تلقحاً أصيلاً، فضلاً عن مهارات وقدرات نمت معه ومع موهبته الضخمة، مذ كان صبياً يدور في حلقات المساجد والدرس الديني في النجف في العشرينات(١٠١).

ولقد استكملت أحداث الزمن وصدمات الدهر شاعرية الجواهري الكامنة

---

(١٠٠) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٢٩.
(١٠١) أنظر الفصل الذي عقدناه لدراسة تطور شعر الجواهري السياسي والفني، في:علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، ص٢٥٧ - ٣٣٥.

وأنضجتها، إذ دخل معارك الحياة السياسية موظفاً في البلاط الملكي، ثم صحفياً ونائباً فمناضلاً سياسياً كانت له مواقفه وآراؤه في الحكم والحكام، إنعكست بشكل حاد ومؤثر على قصائده المشهورة من أمثال (أبو العلاء)(١٠٢) و(عبد الحميد كرامي)(١٠٣) و(إلى الشعب المصري)(١٠٤) و(يوم الشهيد)(١٠٥) و(يا أم عوف)(١٠٦) و(المقصورة)(١٠٧). يقول الجواهري، في قصيدته الذائعة الصيت (هاشم الوتري)(١٠٨)، مصوراً موقفه من الحكام:

آليتُ أقْتَحِمُ الطُّغَاةَ مُصَرِّحاً ... إذ لم أُعَوَّدْ أنْ أكونَ الرَّائِبَا
وَغرَسْتُ رِجْلي في سَعِير عَذَابِهِم ... وَثَبَتُّ حيثُ أرَى الدَّعِي الهَارِبَا
ماذَا يَضُرُّ الجُوعَ مجدٌ شَامِخٌ ... إنّي أظَلّ مع الرَّعِيَّةِ سَاغِبَا
إنّي أظَلّ مَعَ الرَّعِيَّةِ مُرْهَقَاً ... إنّي أظَلّ مع الرَّعِيَّةِ لاَغِبَا
يَتَبَجَّحُونَ بِأنَّ مَوْجاً طَاغِياً ... سَدُّوا عَليه مَنَافِذاً وَمَسَارِبَا
كَذِبُوا فَملءُ فَمِ الزَّمَانِ قَصَائِدي ... أبَداً تَجُوبُ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
أنَا حَتْفُهُمْ أَلِجُ البيوتَ عَلَيهِمُ ... أُغري الوليدَ بِشَتْمِهِم وَالحَاجِبَا
لِلَّهِ دَرُّ أبي يَرَانِي شَاخِصَاً ... لِلهَاجِرَاتِ لِحَرٍّ وَجْهي نَاصِبَا
أَبْتَرِدُ مِنَ المَاءِ الزُّلالِ وغنيتي ... كِسَرُ الرَّغِيفِ مَطَاعِمَا وَمَشَارِبَا
أنَا ذَا أمَامَكَ مَاثِلاً مُتَجَبِّراً ... أطَأُ الطُّغَاةَ بِشِسْعِ نَعْلِي عَازِبَا

والحديث عن الجواهري، ومقاومته السلطة العميلة في العراق، حديث طويل ذو شجون، وكأن الجواهري، في عشرات من قصائده، يشكل ملحمة الصراع التاريخي، الذي كان يدور بين الشعب والحكام وحادي القافلة هو الجواهري.

وهكذا قدم الشعر السياسي في الوطن العربي الصورة الحقيقية لهذه الدويلات التي

---

(١٠٢) محمد مهدي الجواهري، **المجموعة الشعرية الكاملة** جزءان (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٨ - ١٩٦٩)، ج ١: ص١٠٩.

(١٠٣) المصدر نفسه، ديوان الجواهري، جزءان (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٧)، ج ٢: ص٩٦.

(١٠٤) المصدر نفسه، **المجموعة الشعرية الكاملة**، ج ٢: ص٣٥.

(١٠٥) المصدر نفسه، ج ٢: ص٨١.

(١٠٦) المصدر نفسه، ج ٢: ص٦٣.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ٢: ص١٩٧.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج ١: ص١٧٢.

أقامها الإستعمار بالقوة والحماية والمعاهدات، كي تبقى الجهود قائمة، وكي تترسخ روح الأقليمية الضيقة ولكي لا يتطلع الشعب الى الوطن الأكبر والدولة الموحدة.

(٥)

على أن من القضايا التي حرص الشعر العربي على الاهتمام بها وتصويرها بعناية فائقة، قضية المقاومة الشعبية، التي توزعت التراب العربي، وصور قوافل الشهداء العرب الذين سقطوا في هذه المقاومة الباسلة، منذ العقد الأول من القرن العشرين، في حوادث جلى وأحداث اهتزت لها الجماهير الشعبية، ولا سيما ما كان منها في المشرق العربي.

ولعل أول هذه القضايا التي تبرز في الواقع السياسي القومي وتنعكس في الأدب العربي الحديث، تلك المجزرة الوحشية التي أرتكبها الأتراك أثناء الحرب الأولى، حين أقدم أحمد جمال السفاح على تنفيذ تلك الجريمة على دفعتين في دمشق وبيروت في الحادي والعشرين من آب/أغسطس ١٩١٥ وفي السادس من أيار/مايو ١٩١٦، وقدم فيها إلى المشانق الطورانية، اثنين وعشرين بطلاً من قادة النضال العربي والعاملين في سبيل تحرير الأمة من براثن العصبية التركية، التي أراد لها الاتحاديون أن تسود إرادة القومية العربية.

وكانت جريمة السفاح مأساة دامية إهتزت لها القلوب والأرض العربية غاضبة تزأر لهذا الجرم الفادح والظلم البشع. ولقد تجاوبت أصوات الشعر العربي مع موجات الأمة الغاضبة المحزونة، يقول خير الدين الزركلي، من سوريا:

نَعَى نَادي العَرب شُبَّانَها ... فَجَدَّدَ بِالنَّعي أَحْزَانَها
بَكَى كُلُّ ذي عِزَّةٍ تِرْبَهُ ... فَهَاجَ نِزَارٌ وَعدْنَانُها
فَمَنْ لِلمَدامِعِ الاَّ تَفِيض ... وَتُرْسِل كَالسَّيل هَتَّانَها
وَنَاحَتْ على مَنْ بَنَوا عِزَّهَا ... وَاعلَوا بِمَا أثلُوا شَانَها[١٠٩]

ويتفجر صوت محمد الشريقي، من الشام أيضاً:

لِلّه شُبّانُ البِلادِ وَشِيبُها ... بِاسْم البِلادِ عَلىَ الجُذُوع تُعَلّق
يَتَدَفَّقُونَ عَلىَ الرَّدى بِتَبَسُّم ... لا يَرْهَبُونَ المَوتَ وَهُو مُحَقّق

(١٠٩) الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، ١٨٣٠ - ١٩٥٩، ص٣٥٢.

لِيَكِلْ لَنَا الأوْغَادُ مَا شَاءوا أذىً لا بُدَّ أنَّ الظلمَ يَوْماً يُمْحَق
نَقَمُوا عَلَيْنَا أنْ نُحِبَّ بِلادَنَا والحُبُّ في شَرْعِ الإلهِ مُصَدَّقُ(١١٠)

ويجيء صوت من المهاجر قوياً مكلوماً، فيه من رنة الحزن مثل قافية من الثبات والفخر والاعتزاز بهذه الدماء الشهيدة الطاهرة، إنه صوت الشاعر القروي القائل(١١١):

لِتُحْنى الهَامُ إجلالاً وتَكْرُمَةً لِكُلِّ حُرٍّ عن الأوطانِ مَاتَ فِدَى
يا أنْجُمَ الوطَنِ الزُّهْرِ التي سَطَعَتْ في جَوِّ لُبْنَانَ لِلشعبِ الضليلِ هُدَى
قَدْ عَلَّقَتْكُم بِصَدْرِ الأُفْقِ أوْسِمَةً مِنْها الثُّريَا تَلَظَّى صَدْرُها حَسدًا
أكْرِمْ بِحَبلٍ غَدَا لِلْعربِ رَابِطَةً وَعُقْدَةٍ وحَّدَتْ لِلْعربِ مُعْتَقَدا

وهكذا يقرر الشاعر، وبرؤية سليمة، حقيقة وحدة النضال العربي ووحدة الدم الشهيد الذي سيؤطر دولة العرب الكبرى وقضيتهم المصيرية عبر أجيال من الشهادة والشهداء. وتعد في هذا المجال، قصيدة الزهاوي (النائحة) أو (معلقة الشهداء)، كما يسميها بعض الكتاب والمؤرخين(١١٢)، وهذه القصيدة هي غير قصيدته المسماة (أرجوحة الأبطال)(١١٣) التي خصّ بها أحد الأبطال الشهداء، وهو شاب أسمه (عمر حمد) وكان قد تقدم إلى حبل المشنقة بوجه باسم قائلاً: «إذا كان لا بد للاستقلال من أن يشاد على جماجم الرجال فمرحباً بك يا أرجوحة الأبطال»(١١٤). وهكذا ظلّت هذه العبارة تحرك مشاعر الزهاوي وقوافيه حتى أفرغها في قصيدته، التي يصور فيها حواراً مثيراً بين البطل العربي وحبال مشنقته قائلاً:

مَرْحَباً يَا أرجُوحَة الأبْطَالِ فِيكِ اهتزَّ فَارِحاً بالمعالي
أنْت تعلين بي لِذَاكَ الجَلالِ إنَّ في الموتِ لِلبقَاءِ جَلالا

أما مطولته الشهيرة (النائحة)(١١٥) فقد جاءت في مائة وستين بيتاً صور فيها المأساة

---

(١١٠) المصدر نفسه.

(١١١) المصدر نفسه، ص٤٧٩.

وهناك قصائد متعددة تصور هذه الفاجعة في: المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. ص١٤٢ ـ ١٤٦.

(١١٢) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٣٨٩.

المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص١٤٢.

(١١٣) الزهاوي، اللباب، ص٣٧٥.

(١١٤) لغة العرب، المجلد ٤ (١٩٢٨)، السنة ٦. ص٢٦٣.

(١١٥) جاء قسم قليل من هذه القصيدة منشوراً في:

وأسبابها، والأبطال وأعمالهم، لؤم الأتراك وغدرهم، وحقد السفاح وعنصريته. وقد جاءت في عشرة مقاطع، وضع الشاعر لكل مقطع منها عنواناً وابتدأها بقوله:

عَلَى كُلِّ عودٍ صَاحِبٌ وَخليلُ وَفي كُلِّ بَيْتٍ رَنَّةٌ وَعَويلُ
وَفي كُلِّ عَينٍ عَبْرَةٌ مهْرَاقَةٌ وَفي كُلِّ بَيْتٍ حَسْرَةٌ نَحليلُ
كأنَّ وُجوهَ القومِ فوقَ جُذوعِهِم نُجومُ سَمَاءٍ في الصَّباحِ أُفُولُ
رجَالٌ عليهم مِنْ سَنَى الفضلِ رَوْنق وِلِلْمَجْدِ فيهم عِزَّةٌ وحُجُولُ

ويلتفت إلى قبور القتلى:

قبورٌ ببيروتَ وأخرى بِجُلَّقٍ تَجُرُّ عَليها للرياحِ ذُيُولُ

ويكشف الشاعر عن الأسباب الخفية لجرأة الاتحاديين:

لَعَمْرِكَ لَيْسَ الأمرُ ذَنْباً أَصَابَه قَصَاصٌ وَلكِنْ يَعْرُبٌ وَفُصُولُ

وتستمر القصيدة في هذا الجو المأساوي، فتعدد مكارم الأبطال الشهداء: الأمير عمر الجزائري، نجل القائد المجاهد عبد القادر الجزائري، وشكري العسلي، أحمد مبعوثي دمشق، وسليم الجزائري، وسليم الأحمد العبد الهادي، والشيخ أحمد طبارة وشفيق المؤيد، وعبد الحميد الزهراوي، رئيس المؤتمر العربي الأول بباريس وغيرهم.

وتأتي معركة ميسلون، واستبسال حاميتها حتى الرمق الأخير، مثلاً أعلى للبطولة والشهادة والفداء القومي. وقد خلد أصحابها في سفر نضال الشعوب وجعلهم نماذج ممتازة للنفوس الطامحة للتحرر واستقلال الشعوب والمقاومة العربية في التاريخ الحديث.

لقد احتل الجنود الفرنسيون الساحل السوري في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨، ثم تقدموا بقيادة الجنرال (غورو) نحو دمشق والمناطق الداخلية، والتقوا في صباح ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٤ في هضاب ميسلون، الواقعة على بعد ٢٥ كيلو مترا من دمشق إلى جهة الغرب، بعدما سرحت دمشق جيوشها بناء على إنذار فرنسا. وكانت المعركة، بين جماعة صغيرة وجيش إستعماري لجب. وسقط يوسف العظمة ودخل الفرنسيون دمشق على جثث المجاهدين الأبطال، ويتبارى الشعراء في رثاء البطل وجنده. يخاطبه خليل مردم قائلاً(١١٦):

= الزهاوي، ديوان الزهاوي، ص١٦٨. وقد جاءت كاملة في: بطي، الأدب العصري في العراق العربي. ج ١: ص١٨ - ٢٨.

(١١٦) الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع، ١٨٣٠ - ١٩٥٩، ص٣٥٦.

أيوسفُ والضحايا اليومُ كُثْرٌ ليهنك كنتَ أوّلَ مَنْ بَنَاهَا
زكا بنتَ البلادِ وليس بِدْعاً زكيّاتُ الدِّما كانتْ جَنَاهَا
فَدَيْتُك قائداً حيّاً وميتاً رَفَعْتَ لِكُلِّ مَعْرَكَةٍ صَوَاهَا
فَيَا لَكَ رَاقِداً نبّهتَ شَعْبَاً وأيقظْتَ النواظِرَ مِنْ كَرَاهَا
وَيَا لَكَ ميّتاً أحييْتَ فِينَا نُفُوساً لا تَقَرُّ عَلَى أذاهَا

ويخاطبه إيليا أبو ماضي من المهاجر قائلاً(١١٧):

بأبي وأمي في العراء مُوسدٌ بَعَثَ الحياةَ مَطَامِعاً وَرِغَابَا
لمّا ثَوَى في ميسلونَ ترنّحتْ هَضَبَاتُها وَتَنَفّستْ أطْيَابَا
وأتى النجومَ حديثُه فتهافَتَتْ لِتَقُومَ حُرّاسَاً لَهُ حُجَّابَا

وتعصف المأساة، والمفخرة ببقايا مشاعر الشعراء في كل مكان. فهذا أبو الفضل الوليد يصعق للنبأ، الذي ساق إليه أخبار الشهداء (الفاجعة). فينكب على نظم قصيدته المطولة، التي أسماها (الشهادية)(١١٨) في جلسة واحدة لم يدع خلالها القلم حتى ينجزها، في مائة وثمانية وستين بيتاً، ومما قاله فيها:

هَوَى القائدُ الأعلى فَتَى العرب الّذي حَكَى أنْجَدَ القوّادِ بَلْ كانَ أَمْهَرَا
وَمَا بَسقَتْ حُرّيةٌ وَتَأصّلَتْ بغير الذي يجري من القلب مهدرا
تمنّيتُ مَعَ فِتيَانِ قومي شَهَادَتي وَلكنّني أهْوى الحياةَ لأثْأرَا

ونكتفي ببعض أبيات لامية شوقي الباهرة، حيث رثى ميسلون وقائدها الشهيد فقال(١١٩):

سَأذْكُرُ ما حَييتُ جِدَارَ قَبْرٍ بِظَاهِرِ جُلّقٍ رَكِبَ الرِّمَالا
مُقيمٌ مَا أَقَامَتْ مَيْسَلُونٌ يُذَكّرُ مَصْرَعَ الأسَدِ الشِّبَالا
تَغَيّبَ عَظْمَةُ العَظَمَاتِ فِيهِ وأولُ سَيّدٍ لَقِيَ النِّبَالا
فَكُفِّنَ بالصَّوارِمِ والعوالي ووسِّدَ حيثُ جَالَ وَحَيْثُ صَالا
إذَا مَرَّتْ بِهِ الأجْيَالُ تَتْرَى سَمِعْتَ لَهَا أزِيزاً وابْتِهَالا

وتستمر قوافل الفداء والمقاومة والشهداء وهي تصنع خطوط ملحمة القومية

(١١٧) المصدر نفسه.
(١١٨) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص(٢٩٣).
(١١٩) شوقي، الشوقيات، ج ٣: ص٢٢٧.

العربية ضد الحلفاء والاستعمار والنهب وتدنيس التراب المقدس. فلم تصبر سوريا على هذه الفاجعة، وإنما قامت بثوراتها وانتفاضاتها المتعاقبة، ولا سيما في ثورتها الجبارة عام ١٩٢٥، والتي ابتدأت من جبل الدروز وامتدت إلى مناطق دمشق وحماه وجبل القلمون، واستمرت عامين هدمت خلالها القرى وضربت أحياء دمشق بمدافع الفرنسيين وسقط مئات الشهداء، وكانت بطولة الشهداء مصدر إلهام الشعراء والكتاب. يقول خير الدين الزركلي(١٢٠):

اللّهُ لِلحدَثَان كيفَ تَكيدُ ... بَرَدَى يَفِيضُ وَقَاسِيونُ يَمِيدُ
طغى على وَطَنٍ يَجُوسُ خِلالَهُ ... شُذَّاذُ آفاقٍ شراذِمُ سُودُ
أَبرابِرُ السِّنْغالِ تَسْلُبُ أَمّتي ... وَطَني وَلاَ يَتَصَدَّعُ الجُلمُودُ
شَرُّ البليةِ والبَلاَيَا جَمَّةٌ ... أنْ تَسْتَبِيحَ حِمَى الكِرَامِ عَبِيدُ
غَلَت المَراجِلُ فاسْتَشاطَتْ أمَّةٌ ... عَرَبِيَّةٌ غَضَباً وَثَارَ وَقُودُ
زَحَفَتْ تَذُودُ عَنِ الدِّيَارِ وَمَا لَها ... مِنْ قوّةٍ فَعَجِبْتُ كَيْفَ تَذُودُ
الطّائِراتُ مُحَوِّمَاتٌ حَوْلَهَا ... والزَّاحِفَاتُ صِرَاعُهُنَّ شَدِيدُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ جُمُوعَهَا وَثَبَاتَهُ ... لَوْ كَانَ يُدْفَعُ بالصّدُورِ حَدِيدُ

ويصور الشاعر وديع البستاني، من فلسطين، في قصيدته (كلنا مسلمون)(١٢١) الأحداث والنكبات والفواجع التي مرت بدمشق:

حَقّونَا حَتّى نَثُورَ فَثُرْنَا ... وَهُمُ المُمْعِنُونَ في الإِرْهَاقِ
فأيتموا الدور والخدور وَوَدّوا ... لو أصابُوا الرقودَ في الأطْبَاقِ
بِشَظَايَا قَنَابِلٍ هَادِمَاتٍ ... وَشَظَايَا قَنَابِلِ الأَحْرَاقِ
لَيْلَة بَعْدَ أُخْتِهَا وَنَهَاراً ... غَربَتْ شَمْسُهُ بِلا إِشْرَاقِ
وَدُخَانٌ وَعَثْيَرٌ ونفوسٌ ... ملءِ جَوّ الفَيْحَاءِ في الآفاقِ
وَجِدَارٌ عَلَى جدارٍ وَدَارٍ ... تَحْتَ دَارٍ والرّعبُ حَظّ البَوَاقِي
والشَّظَايَا في اللّيلِ في الحيّ ... عمياءُ أفاعٍ وضاءة الأحداقِ

---

(١٢٠) لم يتضمن: محمد ياسين عرفة، جامع، ديوان الثورة، (القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٦)، الجامع لقصائد هذه الثورة السورية القصيدة.
انظرها في: الجندي، الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع ١٨٣٠ ـ ١٩٥٩، ص٣٤٩.
(١٢١) عرفة، ديوان الثورة، ص٦٩.

بَعْضُ أهْـدَافِهَـا صـدورُ العَـذارَى وَوجُـوهُ الأطْـفَـالِ فـي الأسْـوَاق
ثَـوْرَةٌ بِـنْـتُ ظُـلْـمِـهِـم وَأَدُوهَـا شـدٌّ وَيْـلُ الـمخـلوقِ مِن خَـلاَّقِ

ويضج الوطن العربي لتلك المذبحة، التي أقامها جنون الاستعمار الفرنسي في دمشق، وارتفعت أغلب أصوات الشعراء العرب تتحدث عنها وعن آثارها، متخذين من المدينة الباسلة وثورتها مناراً ودرباً للنضال العربي وصفحة مشرقة من صفحات المقاومة العنيدة. فتعالت أصوات شوقي والكاظمي والشبيبي والرصافي ومحمد الهاشمي وشكيب ارسلان والزركلي ومحمود رمزي نظيم وأبو سلمى وجورج صيدح وحبيب عوض ومحمد الشريقي وأديب التقي ووديع البتساني ورشيد سليم الخوري والعدناني وأحمد زكي أبو شادي وعادل أرسلان وخليل مردم وغيرهم[١٢٢].

وتميزت قصيدة شوقي، من بينها، لما عرف عن شاعرية شوقي الرائعة، وحسه الوجداني المرهف، وذكائه في التقاط زوايا الأحداث وصورها، وبما أوتي لشوقي من مشاعر قومية اسلامية مترابطة، وقدرات فنية وطاقات على تجسيد صدق مشاعره من خلال أحاسيس الشعب العربي في كل مكان. فقد ارتفع بالشعر إلى مصاف الحادثة ومستوى المشاعر المضطرمة، حين قال، في صدق أصيل وعاطفة إنسانية:

سَـلاَمٌ مِـنْ صَـبَـا بَـرَدَى أَرَقُّ وَدَمْـعٌ لا يُكَـفْكَـفُ يَـا دِمَـشْـقُ
وَمَـعْـذِرَةُ الـيَـرَاعَـةِ والـقَـوَافـي جَـلاَلُ الـرُّزءِ عَـنْ وَصْـفٍ يَـدِقُّ
وبـي مِمَّـا رَمَـتْـكِ بِـهِ الـلـيـالـي جـرَاحَـات لَهَـا في الـقلب عُـمْقُ
وقـيـلَ مـعـالـمُ الـتـاريـخ دُكَّـتْ وَقـيـلَ أصـابَـهـا تَـلفٌ وَحَـرْقُ
ألَـسْـتِ دمـشـقُ لـلاسـلام ظِـئْـراً ومـرضـعـة الأبـوَّةِ لا تُـعـقُّ
صلاحُ الـدِّين تَـاجُـكِ لَمْ يُجمَّـلْ وَلَـمْ يُـوسَم بـأَزيَـنَ مِـنـه مِـزْقُ
وَكُـلُّ حَضَـارَةٍ في الأرضِ طَـالَتْ لَهَـا مِنْ سَـرْحِـكِ العُلويّ عِـرْقُ
ربَـاعُ الخُلدِ ويحُـكَ مَـا دَهَاهَـا أحَـقَّـاً أنَّـهـا دُرِسَـت أَحَـقُّ
وَهَـلْ غُـرفُ الجِنَـانُ مُنَضَّـداتٍ وَهَـلْ لِنَـعِيـمـهـنَّ كَـأمس نَـسْـقُ
وأيْنَ دمي المقـاصـرُ من جَمَـال مُـهـتَّـكـة وأسْـتَـارٍ تُـشَـقُّ
بَـرَزْنَ وفـي نَـوَاحي الأَيْـكِ نَـارٌ وَخَـلْـفَ الأيْـكِ أفـرَاخٌ تـزقُّ
إذَا رُمْـن الـسَّـلاَمَـة مِـنْ طَـريـقٍ أتَـتْ مِـنْ دُونِـهِ لـلـمـوتِ طـرقُ

---

(١٢٢) أنظر قصائدهم ومشاركة الشعراء العرب الآخرين في: المصدر نفسه.

سَلي مَنْ رَاعَ عَهْدَكَ بَعدَ وَهْنٍ أَبَيـنَ فُؤادِهِ والصخر فَرْقُ
وَلِلمسْتَعْمِرينَ - وإِنْ أَلانُوا - قلوبٌ كالحجارةِ لا تَرِقُّ
رَمَاكِ بِطيِّةٍ وَرَمَى فَرنْسَا أخُو حَرْبٍ بِهِ صَلَفٌ وحُمْقُ
إِذا مَا جَاءهُ طُلابُ حَقٍّ يَقُولُ عِصَابَةٌ خَرجُوا وَشَقُّوا
دَمُ الثُّوار تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نورٌ وَحَقُّ
وللحُرِّيةِ الحَمْراءِ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

وتستمر ملحمة الفداء والمقاومة ضد المستعمرين وجيوشهم وقواهم المتسلطة المتوحشة، والشعر من كل ذلك في الصميم يرفد ويصور ويهز المشاعر. وهذه فلسطين تشهد مجموعة من الثورات والانتفاضات. وعلى أثر ثورة ١٩٢٩ يصدر الانكليز حكماً بالإعدام على ثلاثة من أبطال الثورة، ويقرر أن ينفذ الحكم بالشهداء الثلاثة في ثلاث ساعات متتالية. وكان من المقرر أن يكون الشهيد عطا الزير، أولهم، لكن (جمجوم) حطم قيده، وزاحم رفيقيه على الدور حتى فاز ببغيته. ومن هذه اللقطة الرائعة ينطلق الشاعر إبراهيم طوقان ليصور في قصيدته (الثلاثاء الحمراء) مصارع الشهداء الثلاثة، وقد ألقاها في حفل حاشد، فذهل عن الجمهور وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه، فكان يلقي بروحه وبأعصابه، وما انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نشيجه(١٢٣).

ويقع المجاهد عبد الكريم الخطابي بطل الريف في قبضة المستعمرين، بعد جهاد طويل وثورة عارمة، فيخاطبه محمد الفراتي(١٢٤):

إِنْ يَأسُروكَ فإِنّهم لَمْ يَأْسُروا إِلاّ الهِزَبْرَ الأغلَبَ المَرْهُوبَا
مَا كُنتَ أوَّلَ ثَائِرٍ مُتَظَلِّمٍ بالعَسْفِ قُيِّدَ مُكبلاً مَخْرُوبا
لا تأسَ فالتاريخُ يَحلفُ جَاهِداً بِاللهِ إِنّكَ لَمْ تَكُن مَغْلُوبَا

ويستمر المجاهد الشهيد عمر المختار في ثورته بليبيا، ويقع في عام ١٩٣٠ في قبضة الطليان المستعمرين، فيعذبونه تعذيباً شديداً - رغم شيخوخته - ثم يشنقونه، فتضج مهج الشعراء، ويرتفع صوت شوقي الخالد، بهمزيته الشهيرة، ليصور الشهيد المختار قمة الفداء، ونوراً يهتدي به الغرب الأعمى من وحشيته المكسوة بقناع الحضارة، فيقول(١٢٥):

---

(١٢٣) طوقان، ديوان إبراهيم، المقدمة بقلم فدوى طوقان، وانظر: القصيدة ص٣٨.
(١٢٤) الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص٤٠٠.
(١٢٥) شوقي، الشوقيات، الجزء٣: ص٧١.

رَكَّـزوا رُفَـاتَـك في الـرِّمَـالِ لِـوَاءً ... يَـسْتَنْهِضُ الـوَادِي صَبَـاحَ مَسَـاء
يَـا وَيْحَهُم نَصبُـوا مَنَـارًا مِنْ دَمٍ ... يُـوحِي إلى جيـلِ الغـدِ البَغْضَـاء
جُـرْحٌ يَصيحُ عَلى المدَى وصيحة ... تَـتَلَمَّسُ الـحـريَـةَ الـحـمْـرَاء
بَـطَلُ البـداوةِ لَمْ يَكُن يَغْـزُو عَلى ... (تَنْـكٍ) وَلَمْ يَـكُ يَـرْكَبُ الأجـوَاء
لَكِنْ أخُـو خَيْـلٍ علَت صَهَـواتُهـا ... وَأدَارَ مِنْ أعْـرافِهـا الـهيْـجَـاء

وتستمر المقاومة، ويستمر الشهداء الأبطال كوكبة إثر كوكبة، والشعر لا ينفك يصور كل ذلك تصويراً يجمع المشاعر القومية، والأهداف الموحدة وآيات الفخر القومي، المتجسد بهذه الروح الوحدوية المقاومة على امتداد الوطن العربي، تصويراً أعلق بالنفس، يضج حزناً ومرارة، هي أحزان الشعراء وأمتهم، وهم يرون الأحرار العرب يقدمون دماءهم الزاكية فداء وتضحية وتجسيداً لمبادئهم ووحدتهم.

وإذا كنا قد لاحظنا أن الشعراء كانوا وراء القافلة، يحدون، لا أمامها، وأنهم يسجلون الوقائع والأحداث بعدوقوعها،فلعل ذلك مما يمكن أن يؤاخذ عليه الشعراء، إذ كانوا مسجلي أحداث، يقفون وراء التاريخ لا قبله، وقلما أشاروا إلى رؤى المستقبل وتصوره، وإذا كان الأمر كذلك فإن العمل الشعري هذا، وبمجمله، كان تعليقاً على الأحداث لا ممارستها، والعيش وسط غبارها ودمائها. بمعنى أن هناك انفصالاً قائماً بين التجربة والقصيدة بين الحياة وبين الفن. ويمكن أن نستثني بعض الشعراء في بعض تجاربهم، كالجواهري وعبد الله وهبي التل (البدوي الملثم) والشيخ فؤاد الخطيب ومحمد مهدي البصير. إلا أن شاعراً واحداً تميز بالتلاحم التام بين تجربته النضالية وتجربته الفنية، فوحد بين العمل الثوري والعمل الشعري، حتى غدت تجربته الشعرية هي تجربته في الحياة والمقاومة، ذلك هو الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود، الذي وصف دائماً بأنه «الشاعر الفارس الأول في الأدب العربي الحديث» ووصف محمود درويش، شاعر المقاومة، شعره بأنه «صنو حياته كلاهما مليء بالكبرياء والشجاعة[١٢٦]:

لقد كانت أمنية هذا الشاعر الدائمة هي الحصول على الشهادة في سبيل الحرية والأوطان، فكان يقول[١٢٧]:

---

(١٢٦) محمود درويش، المقدمة من فلسطين ريشتي، تأليف عبد الكريم الكرمي (بيروت: ١٩٧١)، ص٩.

(١٢٧) عبد الرحيم محمود، ديوان عبد الرحيم محمود (بيروت: ١٩٧٤)، ص١٢٠.

سأحملُ رُوحي عَلى رَاحَتي وأُلقي بِهَا في مَهَاوي الرَّدَى
فإمّا حياةٌ تُسرُّ الصديق وإمّا مماتٌ يغيظ العدَا
لَعَمْرك إني أرَى مَصْرَعِي وَلَكِنْ اغذ اليه الخُطَى
يَلِذُّ لأذني سَمَاعَ الصَّليل وَيُبْهِجُ نَفسي مَسِيلُ الدِّما
وَنَسْرٌ تَجَنْدَلَ فَوْق الهضاب تَنَاوشُهُ جَارحَاتُ الفَلاَ
فَمِنْهُ نَصِيبٌ لِطيرِ السَّماء وَمِنْهُ نَصِيبٌ لأسْدِ الثرى

وينال الشاعر الشهادة ويستشهد على أرض فلسطين، مناضلاً يجمع بين الفعل الثوري والفعل الشعري.

ومن هنا، فإن مقولة (الشهادة)، وبشكلها التجريدي، قد تجسدت واقعياً من خلال وعي الفنان. ولعل قصيدتي إبراهيم طوقان المثيرتين عن (الشهيد) و(الفدائي) جاءتا تلخيصاً ممتازاً لهذا النضال الدائب للثوريين العرب بين الحربين.

إن أبرز ما في قصيدة (الشهيد) لطوقان أنها تقدم صورة حياة وتكامل لفكرة الشهيد. وقد وجد في هذه الشهادة كامل حريته وكرامته وحياته، بل كامل مبادئه، إنه متكون من أعرق جواهر الأمة العربية ومثلها المتواترة عبر العصور: إخلاصها، كرمها، حريتها، شرفها، جهادها، كبرياؤها... الخ.

إن الشهيد الذي صور طوقان فكرته، قد يكون في أية بقعة من بقاع الوطن العربي، غير محدد الملامح لا يحمل اسماً ولا عنواناً ولا هوية.. إنه الشهيد العربي وكفى:

عَبسَ الخطبُ فابْتَسَمْ وَطَغَى الهولُ فاقْتَحَمْ
رَابِطَ الجأش والنُّهَى ثَابتَ القلب والقَدَمْ
نَفْسُهُ طَوْع هَمِّهِ وَجَمَتْ دُونَهَا الهِمَمْ
وَهِي مِنْ عُنْصُر الفِدَا ومِنْ جَوْهَر الكَرَمْ
وَمِنَ الحقِّ جَذْوَةٌ لَفْحُها حَرَّرَ الأمَمْ
سَارَ في مَنْهج العُلا يطْرُقُ الخُلْدَ مَنْزلا
لا يُبَالي مُكبلا نَالَهُ أمْ مُجَنْدِلا
فهو رَهْن بما عَزَمْ
رُبَّما غَالَهُ الرَّدَى وَهُوَ بالسِّجْن مُرتهن
لَمْ يَشيِّعْ بِدَمْعَةٍ مِنْ حبيبٍ وَلاَ سَكَنْ
رُبَّما أُدرِجَ التُّرا ب سَلِيباً مِنَ الكَفَنْ

لا تَقُلْ ايْنَ جِسْمُهُ وَاسْمُهُ في فَمِ الزَّمَنْ
إنَّه كوكبُ الهُدَى لاَحَ فِي غَيْهَبِ المِحَنْ
أيُّ وجْهَةٍ تَهَلَّلا يَرِدُ الموتَ مُقْبِلا
صعد الرّوح مُرسِلا لِجَنَةٍ يَنْشُد المَلاَ
إنّا لِلهِ والوطَنْ(١٢٨)

ولقد تطورت فكرة (الشهيد) عند الشاعر طوقان لتأخذ شكلاً أكثر واقعية، وصورة أشد التحاماً بالقضية الفلسطينية بعد ذلك، وكأنه، قبل الحرب العالمية الثانية، كان يرنو ببصره ورؤيته الشعرية إلى حركة المقاومة الفلسطينية ومادتها الأولى (الفدائيون) بالذات. وهكذا جاءت قصيدته (الفدائي). إنه هذه المرة الشهيد صاحب المهمة الكبرى والدقيقة، له مواعيد مع الموت من أجل قضية محددة يرتبط بها. وهذه القضية كسابقتها لا تنطلق من الخاص والجزئي المرتبط بشخص ما أو بحادثة ما أو باسم ما، إنما تنطلق من مفهوم البطولة الشاملة وتتحدث عن العام والشامل والإنساني:

لا تَسَلْ عَنْ سَلامَتِهِ رُوحُه فَوْق راحَتِهْ
بَدَّلتْهُ هُمُومُه كَفَناً مِنْ وِسَادَتِهْ
يَرْقُبُ السَاعَةَ الّتي بَعْدَها هولُ سَاعَتِهْ
مَنْ رأَى فحمةَ الدجى اضْرِمتْ مِنْ شَرارَتِهْ
حَمّلتْهُ جَهَنَّم طَرَفاً مِنْ رِسَالتِهْ
هُو بالبابِ واقفٌ والرَّدَى مِنهُ خائفُ
فاهْدَئِي يا عَواصِفُ خَجَلاً مِنْ شَجاعَتِهْ(١٢٩)

وهكذا استطاع الشاعر العربي أن يستخلص، من ذلك الجهاد الطويل، نموذجاً إيجابياً أثبت فاعليته في كل معارك الأمم والشعوب. إنه نموذج الفدائي الذي يعيش عصره بشرف، وهو يحمل إلينا معنى الحياة وطعمها ويبشرنا في كل يوم بنسائم الحرية وخيوط الأمل والفرح الإنساني القادم، وبأصالة هذه الأمة وصحة عراقتها. إنه يعمد فلسطين، القداسة والحرية والعروبة، بدمه شرفاً فوق شرفها ويمنح تاريخها نضارة ولقضيتها المركزية روحاً جديداً وقاعدة حديدية لا تقهر.

---

(١٢٨) طوقان، ديوان إبراهيم، ص٦٣.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص٦٥.

المناقشات

الدكتور عناد غزوان: أود أن أذكر الباحث بالمقولة العربية الشائعة إن الشعر ديوان العرب الذي سجلوا فيه كل دقائق الحياة. سجلوا فيه الناحية النفسية والناحية الاجتماعية وكل تناقضات الطبيعة العربية الخيرة والشريرة. فهذه المقولة عندئذ تكون مقولة إذا آمنا أن الشعر تعبير عن المجتمع، لذلك نظر إليه النقاد العرب القدامى على أنه وثيقة تاريخية مهمة جديرة بالاهتمام، بالإضافة إلى ما تتمتع به هذه الوثيقة من قيمة فنية ووجدانية لما يدرس الشعر فناً ووجداناً.

المقولة الثانية التي يقولها الدكتور علي أيضاً حين يذهب إلى الاطلاق والمطلق ويقول، مع شديد الأسف، إن هذا النوع من المسلمات مرفوض. ولكن أرى أن المطلق حينما نسمي حافظ شاعر النيل أو محسن الكاظمي شاعر العرب، هذا المطلق هو معيار نقدي، حين يكون المطلق مرتبطاً بموقف الشاعر وبوعاء فكري. فالكاظمي له وعاء فكري وله ارتباط. كذلك شاعر النيل له وعاء فكري وله ارتباط. أما المطلق الذي لا يمتلك موقفاً ولا يمتلك قضية فهذا مرفوض. ثم يتعرض إلى جبران خليل جبران فيقول أنه كتب بالعامية، وجبران من أروع كتاب العربية ويعد على رأس المدرسة الرمزية في الأدب العربي الحديث، ومن أبرز دعاة الشعر العربي في المهاجر الأمريكية. ويقول قد كتب باللغة الإنكليزية لعشرين عاماً، حتى عد كاتباً من الدرجة السادسة. ولا أدري كيف استطاع الدكتور علي أن يصل إلى هذا المقياس الحسابي، لدرجة أنني قرأت عن جبران خليل جبران في الإنكليزية، وهو الوحيد الذي ترجمت آثاره إلى اللغة الإنكليزية وكتب عنه باللغة الإنكليزية أكثر من بحث، وكان مدعاة إعجاب بالأدب العربي الحديث، وليس كاتباً من الدرجة السادسة.

أما الملاحظة الأخيرة فهي: يدعو الدكتور علي إلى أدب التحريض. هذه مقولة جيدة، ولكنه عندما يعرض لنا بعض النماذج يصفها أنها منشورات سياسية. أدب التحريض بأخذ الجانب الفكري، هو منشور سياسي فعلاً. هذا هو أدب التحريض، والخيال في أدب التحريض مسألة ثانوية وليس مسألة أساسية. فهو يدعو إلى أدب التحريض الفني، هذا ليس بأدب تحريض. أدب التحريض يجب أن ينفذ إلى قلب الجماهير ويتحدث إليها. ولا ننسى أننا نتحدث عن حقبة بين حربين كونيتين، وكان الوعي وقتئذ يحتاج من الشاعر أن يكون جماهيرياً، أي أن يكون عفوياً بلغته، بعيداً عن التقتر وعن الطباق وعن الجناس ورد الإعجاز عن الصدور والدوريات والاستعارات. هذا لا يعني أن القصيدة التي فيها طباق وفيها جناس وفيها من المحسنات البديعية هي أصيلة بالضرورة. أدب التحريض أدب وجد من الشعب وإلى الشعب، يتحدث إلى قلب الشعب وفكره ووجدانه ويخلق فيه الإحساس بالثورة، وهذا هو أدب السياسة الذي وجد، أو هو الذي نسميه بالمنشورات السياسية الشعبية.

الدكتور سعدون حمادي: الملاحظة التي أريد أن أوردها لا تتعلق مباشرة بالتلخيص الذي ألقي، وإنما هي ملاحظة عامة، ولكن لها شيئاً من العلاقة بالبحث الذي ألقي: الملاحظة هي أنه أصبح تقليداً في النقد العربي للشعر وللأدب الرغبة في التفتيش عن النقائص أكثر من الإيجابيات - فأنا لست مختصاً بالأدب لكن الإخوان الحاضرين كلهم يعرفون بأنه عندما نقرأ أو نكتب عن حياة الرصافي لا بد من التعرض لموضوع هل كان الرصافي إبناً شرعياً أم ابناً غير شرعي؟ عندما يدرس المتنبي لا بد من الحديث عن مدحه لكافور؟ وعندما يدرس البحتري نتساءل كيف قال قصيدته في وصف إيوان كسرى؟. نحن طبعاً نعيش في مرحلة سلبية. والمرحلة السلبية من صفاتها أننا نميل إلى تشخيص النقائص أكثر من توضيح الإيجابيات. ربما كانت روح هذا العصر منعكسة ومؤثرة حتى في النقد الأدبي. نحن في بعض الأحيان عندما ندرس حياة الشعراء ندرسهم ونقيمهم وكأننا ننتظر منهم ألا يكون لأي منهم خلال كل حياته أي اجتهاد متباين من وقت لآخر في قضية ما. وبذلك نكون كأننا نطلب منهم ما لا نطلبه لأنفسنا. فأي واحد منا عندما يراجع نفسه، منذ أن نشأ إلى الآن، لم يمر به وقت كان له رأي مثلاً بثورة ٤١، وبعد فترة كان له رأي آخر بتلك الثورة؟ ألم يمر وقت كان لكل منا مثلاً رأيان يتناقضان في قضية واحدة؟. إن ذلك يمر على كل إنسان. الفرق هو أن الشاعر كلما شعر بشيء عبر عنه شعراً، فنأتي نحن بعد ذلك فنرصد ونصدر الأحكام. طبعاً الباحث وضع يده على الموضوع عندما قال يجب ألا نقيم ونسحب تفكيرنا ومقاييسنا على الشعراء.

وهذا صحيح. وإذا كان ذلك صحيحاً إذن لماذا نذكر تلك المآخذ؟ إنني أعتقد أن الشعراء والنصوص يجب أن تقيم بواقعية تعتبر الشاعر والأديب كأي إنسان منا ونطبق عليه ما نطبقه على أنفسنا. كذلك إن مفاهيم وتعريف الوطنية والقومية والنضال من المؤكد أنها ليست واحدة من فترة إلى أخرى فوطنية والدي هي غير وطنيتي. لكن والدي وطني وأنا وطني وإن اختلفنا في فهم معنى الوطنية. إذا اعتمدنا هذه النظرة لن نجد هذه التناقضات، لا بل نجد لهذه الأمور المختلفة تفسيراً معقولاً. والخلاصة التي أريد أن أقولها هي أنه لا يفيدنا شيء وليس من التفكير العلمي بشيء أن نتطلب من الأدباء أن يكون فهمهم كفهمنا، وأن تكون مواقفهم واحدة غير خاضعة للتغيرات وللإجتهادات ولتموجات آراء الإنسان. إن النزعة السلبية والرغبة بجلد النفس وإظهار المثالب والنقائص عند أدبائنا وعند شعرائنا ظاهرة معروفة تجلب الإنتباه. هذا الشيء الذي درجنا عليه يستحق وقفة وأن يعاد النظر به، لأننا أحوج ما نكون الآن إلى إذكاء روح الوطنية والتفاؤل والأمل بالمستقبل. وحتى الأمانة العلمية تقضي أننا عندما نقيم الأديب أو الكاتب نقيمه بمجمل حياته واتجاهها العام وأن نفتش عن الأسباب الإنسانية لتفسير المواقف المختلفة.

الدكتور نعمة العزاوي: ملاحظة سريعة أود أن أعرضها هي أن هذا البحث لم ينتبه لموضوع أولاه بعض الشعراء اهتمامهم، ذلك هو الموقف من اللغة العربية والحرب الغاشمة التي شنها عليها أعداء الأمة، فوقف أولئك الشعراء ينبهون لأهمية اللغة للوحدة العربية ودورها في حفظ التراث. ولعل أشهر هؤلاء الشعراء حافظ إبراهيم وعلي الجارم، وهناك أيضاً نثر كثير عرض لهذا الموضوع، وحوارات أدبية نافعة عرضت للموضوع نفسه، كان بودي أن يعرج عليها هذا البحث، أو أن يفرد لها بحث كامل لأهميتها في الوعي القومي والتنبيه لأهمية الفصيحة وما يدبر لها من عداء وما يشن عليها من حرب.

أحمد عباس صالح: إن فكرة العروبة وفكرة الوحدة العربية فكرة متطورة تلتئم وتتجمع في مكان معين وزمان معين في ظروف معينة، ثم تتفتت وتنقسم وتضيع وتتشتت لأسباب معينة أيضاً. لاحظت فيما ألقي من الكلمات أن هذه الكلمات تتحدث كما لو كان هناك وضع كامل ومستقر اسمه الوحدة العربية والقومية العربية ونحن نفتش عن شعر المتنبي في الوحدة العربية كما لو كنا نفتش عنه في شعر الكاظمي وفي شعر الرصافي وغيرهم. هذا طبعاً غير صحيح وغير علمي. ونحن نضحك على أنفسنا كلما فتشنا في الماضي البعيد أو الماضي القريب بما يرضي آمالنا وأحلامنا ولن يصدقنا أحد، ولعلنا لن

نصدق أنفسنا أيضاً. ومن باب المجاراة أتكلم في انفعالات وعواطف ان لنا، نتيجة التحديات الخطيرة التي تواجهنا، أن نطرحها وأن نفكر بشكل أكثر واقعية. الحقيقة أن الوحدة العربية والقومية العربية حس معاصر، على الأقل بالنسبة لنا نحن المعاصرين. وإن هذه الأمة تتكاثف وتتجمع لمقابلة ومواجهة تحد خطير هو التحدي الإستعماري الأوروبي، الذي أيضاً اتخذ المسيحية شعاراً له، كما قال أحد الزملاء المحاضرين، واستشهد بالمقولة التي قالها الفرنسي على قبر صلاح الدين: ها نحن قد جئنا أخيراً يا صلاح الدين. فعلا هذا موجود وهذه الأمة تريد أن تتجمع في مواجهة هذا التحدي منذ قرنين على الأقل. منذ فشل الإمبراطورية العثمانية في أن تقود هذه الوحدة السياسية العامة، التي تنطوي على اختلافات وفقاً لزمانها ولعصرها، اتجه العرب إلى الفكرة الأساسية لمفهوم الإسلام وهو العرب أنفسهم، باعتبارهم مصدر الإسلام، أو هم الذين حملوا راية الإسلام وبدأوا يطلقونه على النواة الأصلية، على الجنس العربي أو الذين يمكن أن نطلق عليهم العرب، وهم الذين يعيشون حضارة واحدة وثقافة واحدة وظروف تاريخية واحدة، وهي المنطقة التي نسميها الآن بالوطن العربي. ومنذ هذا التاريخ ـ بداية من محمد علي إلى اليوم ـ والعرب يحاولون مواجهة هذا التحدي في تجميع وتقوية أنفسهم واكتشاف كل الروابط التي تربط بينهم. إذ أن اللغة ليست هي المثل الوحيد، فاللغة الإنكليزية يتكلمها الأميركيون ويتكلمها الإنكليز ويتكلمها أجزاء من الكنديين والاستراليين، ولكن لا نستطيع أن نقول أن استراليا وأمريكا يشكلان أمة واحدة. لكن هناك بالنسبة لنا نحن العرب عوامل أخرى جديدة وحقيقية ومتميزة هي المصلحة الإقتصادية. الارتباط الضروري لمواجهة عملية التدمير الفظيعة التي تمارس ضد هذه الأمة وإن رغبتها في النهوض والتحرك لمل هذه العوامل، لو اننا وضعناها في اعتبارناونظرنا إلى التعبير عنها ـ سواء التعبير الواعي أو غير الواعي ـ سوف نجد أن الأشعار التي استعرضناها هنا لها مبرراتها. إن الرصافي حين يتردد بين هذا الرأي وذاك هو خاضع لظروف معينة. نحن للأسف لم نفهم لماذا قال هذا إلا أننا نحاكمه كما لو كنا نحاكمه بالمعيار الحالي وكذلك بالنسبة لسائر الأدباء والمفكرين. لو أننا نظرنا هذه النظرة واكتشفنا التيارات المختلفة ولا بد أن يكون في كل مجتمع تيارات متعددة. من المستحيل أن تجد تياراً في مجتمع الآن بل على العكس ؛ أحياناً يكون الكاتب والشاعر عرضة للتنقل ما بين تيار وآخر، حسب ظروف معينة. كل هذا يجب أن ندرسه بحياد وموضوعية، حتى نتحرك بالعملية السياسية الكبرى التي نتحرك بها الآن، وهي توحيد الأمة العربية ومواجهة التحديات القائمة على أسس حقيقية وعلمية، وليست انفصالية أو افتراضية أو انتقائية، أو أي اسم من الاسماء التي يمكن أن نسميها، واضعين في اعتبارنا أن الأفكار ليست

ثابتة والأوضاع ليست ثابتة، وإنما كل شيء متحرك، متطور، متغير، إلى الأمام، إلى الخلف. المهم أننا نكتشف وضعنا الحالي على أسس صحيحة حقيقية موضوعية ليست بالضرورة تتفق مع أمانينا. ومن هذه الزاوية أظن تفسيرنا للأدب، وأيضاً استثمارنا للأدب كنشاط اجتماعي. توحيد هذه الأمة سوف يكون أكثر صدقاً وأكثر تأثيراً فينا من المحاولات التي نلاحظها الآن، أو تحاول دون وعي حقيقي، وأظن أن في هذه النقطة بالذات يكمن مفهوم الوعي القومي والوعي بالوحدة العربية، أكثر من أي معنى آخر من الذي نتداوله.

كمال الحديثي: ليلة أمس فاتني أن أقول كلمة على الأقل أشعر أنها كلمة حق بالنسبة للبحث الذي قدمه الدكتور جلال الخياط. كان في رأيي بحثاً رائعاً. وعلى التشابه بين مبحث الدكتور جلال الخياط، في العنوان على الأقل، ومبحث الدكتور علي عباس علوان، كنت أتمنى لو حاول الأستاذ الدكتور علي أن يخوض هذا البحث الشائك لكي يتميز عن البحث السابق، ويغني البحث مضامين تعطي البحثين صفة التكامل وتعطينا فائدة أكبر. في الواقع من أبرز المسائل التي أردت أن أشير إليها، تفضل وأشار إليها الدكتور سعدون حمادي. لكن هناك بعض مسائل بسيطة جداً. في الواقع نحن لا نريد من الشريف حسين أن يكون مثل كاسترو، هذا ظلم، ظلم كبير للأشخاص ولفهمنا للتاريخ. لا يمكن في مرحلة ٧٠ سنة أو أكثر من ٦٠ سنة أن نقارن بها مفاهيم العصر المتطورة والعصر الذي يغني الحياة الإنسانية بكثير من المتطورات والمتغيرات، التي تستلزم بالمقابل من الشعوب أن تفتش عن صيغ متكافئة مع طبيعة التحديات التي تواجهها، وبالتالي لا يمكن أن نطلب من الشعراء أو الأدباء أن يكونوا بمستوى الوعي الذي نعيشه أو نعاصره نحن الآن. هذه مسألة أساسية أعتقد لا يمكن نسيانها أو التغافل عنها.

الشيء الآخر المهم هو أنني كنت أتمنى أن يتحفنا الباحث بكثير من الشواهد التي لم أهيء نفسي لأن أذكرها الآن. هناك كثير من الشواهد التي واكبت تطور ونضج الحركة القومية العربية، سواء من خلال المفكرين أو من خلال الشعراء، وكان من المفيد جداً أن يذكر شيئاً عن شعراء الشام. وذكر الأستاذ علي أشياء سريعة جداً عن إبراهيم طوقان وعن المرحوم الشهيد عبد الرحيم محمود، لكن نحن نعلم أن الحركات العربية انبثقت في الأساس من دمشق وبلاد الشام بالدرجة الأساسية. هذا لا يعني أن الأجزاء الأخرى من الوطن العربي تعيش حالة ـ المخاض أو لم يكن هناك اتصال. بل كانت هذه الحركات تضم عرباً. الحركات التي كانت موجودة أو الأندية العربية التي كانت موجودة في

استنبول وتركيا كانت من العرب. وكان التطور الفكري القومي الموجود في الشام أساس انطلاقة الحركة القومية التي نعيشها ـ ونعاصرها الآن، والتي نعمل جادين على تطورها، لأن القومية العربية أو الفكرة القومية فكرة متطورة، وهذا أهم ما فيها وأهم ما يمكن طبعاً أن يجعل لها مستقبلاً مضموناً. حبذا لو ذكرنا الأستاذ علي بالأناشيد التي كنا نعيشها في صبانا. وكان كل الناس يرددونها. أنا لا أستطيع أن آخذ على الرصافي مجرد أنه قال أن العرب أبناء عمومة بني إسرائيل. هذا موقف يرتبط بالوعي في تلك المرحلة، وهذا ليس كل الرصافي، ولا كل الكاظمي موقفه في القدس. وهناك مسألة أيضاً من المفيد أن نشير إليها أنه في كثير من حالات الحس الوطني والقومي لا تكون المسائل واضحة بشكل دقيق. في ثورة العشرين كان كثيرون قد انخرطوا في ثورة العشرين، إذا جاز التعبير بكاء على سقوط الدولة العثمانية. فهل تسقط ثورة العشرين من تاريخنا؟ هناك من ارتبط بثورة من الثورات لأنه ذو مصلحة معينة في القضاء على نظام لكن هذا لا يعني أنه كل الشعراء. إن الذي فهمته من المحاضر هو أن كل الشعر في هذه المرحلة كان شعراً ليس بالمستوى المطلوب، لا شكلاً ولا مضموناً.

مسألة أخرى تعرض لها الدكتور عناد غزوان في الرد على ما قاله الدكتور علي عباس. موضوع المنشور السياسي في الشعر وموضوع الأدب التحريضي. ما نقول عن الأدب التحريضي هو في تقديري الشعر لأنه أكثر قدرة على مخاطبة المشاعر أو الاتصال بالنفس الإنسانية. وكانت ملاحظة الدكتور عناد على ما قاله الشاعر الجاحظ من أن الشعر ديوان العرب كانت ملاحظة موفقة تماماً. لكن لا أتفق مع الدكتور عناد في الواقع على أن الشعر التحريضي هو بمثابة منشور.

أحمد عباس صالح: كانت تغلب على البحث نظرة قائمة بعض الشيء إلى الشعراء إنما لدي تعقيب قصير. الفرعونية مسألة تاريخية جداً انتهت مثل البابلية والأشورية. لو نمسك من ناحية التعمير السكاني مثلاً الشام والعراق وفلسطين ومصر والصومال والسودان، وحتى افريقيا ووسط افريقيا، نلاحظ أن نفس التعبير السكاني واحد. أي أن التعبير السكاني في مصر بدأ من منفذين إثنين باب المندب من الجنوب وفلسطين من الشمال. ربما جاء لشمال افريقيا بعض الموجات من أوروبا قديمة جداً، وهي قليلة أيضاً. وسارت من هذه الموجات الموجودة حتى في شمال افريقيا وحتى في مصر نفسها. عندما كان الناس يتكلمون في العشرينات عن الفرعونية أو عن فرعون، كانوا يتكلمون عن موضوع تاريخي بحت، أما الذين يتكلمون الآن ويستخدمون كلمة الفرعونية في مواجهة العروبة فهذا مثل حوار الخوف أو الصم البكم مثل بعضهم

يضعون أصابعهم على أنفهم لمجرد إغاظة الآخرين. فرجائي ألا ننساق في مواجهة مثل هذه الحوادث. عندما ننظر بمنظور تاريخي مثلاً لشيء لا ننظر له بمنظور الحوار القائم حالياً، ونعمل انعكاساً على حدث تاريخي ماض.

الشيء الثاني الذي لاحظته في البحث أن الأصل الاجتماعي للشعراء مهم جداً في بيان انتمائهم. يعني مثلاً لما نتكلم عن الرصافي لا بد من أن نعرف عن الموجة التي تدعو إلى القومية الإسلامية بصفة عامة، وقبل هذا بمدة جاءت موجة الكواكبي التي هي القومية الإسلامية العربية. إن هذه الحركات لها أصولها الاجتماعية. أحمد شوقي كان ينتمي إلى أي طبقة؟ هل كان ينتمي إلى الطبقة الشعبية؟ نرى شاعر النيل أيضاً تاريخه بعد سنة ١٥ لما جاءت ثورة ١٩ وعمليات الصراع الاجتماعي. وبعد ذلك لا نستطيع أن نفصل واحداً مثل العقاد عن انتمائه . الشعر هو قمة الفن الأدبي ، والفن هو خلق لحظة السعادة للإنسان أي تكوين لحظة سعادة أو لحظة حياة سعيدة للإنسان نفسه، ومساعدته على هذا. وفي نفس الوقت يدخل في لحظة السعادة هذه طموحه وتطلعاته، فهو طبعاً انعكاس للمجتمع كله وانعكاس لرغباته. والشاعر أيضاً جزء من هذا المجتمع ، ويحاول أن يخلق له نصيباً في السعادة، لأنه فنان وكونه ينتمي لا يعني الانتماء الحزبي. الأصل الاجتماعي هو الأساس الذي يوجه أعماله.

والنقطة الثالثة أن العرب لم يكونوا مقصرين في النظرة إلى المدينة الفاضلة كما كان المعري. إن العرب كانوا سابقين في هذه الفترة يعني فترة الخيال، وكانت لهم حضارة راسخة ، وكانت عندهم أشياء واقعية جداً .المنطقة العربية من الناحية الاستراتيجية مرت بمراحل الصراع الاقتصادي والسياسي، وكانت عرضة دائماً لضربات من الاستعمار من جميع جوانبه، لذا كان تأثيرها شديداً جداً على أدب العرب والشعر العربي. كانت هناك محاولات دائمة لإحباط أي نوع من الفكر العربي المتكامل، والتشكيك فيه عن طريق عمليات التغلغل الثقافي والمدارس الأجنبية التي تزرع في كل مكان في الدول العربية لهدم أي فكر عربي أصيل. الالتزام في الأدب يعني الحقيقة، والالتزام في الشعر مسألة هامة جداً. لا نستطيع أن نتكلم عن الالتزام تاريخياً، بل نوصي الشاعر أو الأديب لكي نعطيه الفرصة لأن ينشر فالأديب يحتاج حالياً إلى وسائل النشر والمفروض أننا نعطي الشاعر الملتزم إمكانيات للنشر. إن المجتمع يستطيع التوجيه أي يستطيع السيطرة على جموح الشاعر. فحالياً نستطيع السيطرة، عندنا الوسائل الإعلامية للجماهير التي نستخدمها.

عثمان السعدي: أولا أود أن أثني على هذا البحث القيم الذي قدمه لنا الدكتور

علي عباس علوان، فعلاً يعتبر من أهم الأبحاث التي طرحت أمامنا. . لكن لي ملاحظة صغيرة هي أن أدب المغرب العربي كان غائباً في هذا البحث. . وأتصور أن الدكتور علوان ليس له عذر في أن فترة ما بين الحربين تعتبر من أكثر الفترات صراعاً بالنسبة للشعر، وخاصة في المغرب العربي. ولو اطلع على أعداد مجلة «أبولو» التي كانت تصدر في مصر، لوجد عشرات من شعراء تونس والمغرب والجزائر نشروا قصائد لهم في هذه الفترة بحس قومي، لا أقول بحس وطني، وإنما أقول بحس قومي، معبرين بذلك عن تطلعاتهم الوحدوية.

النقطة الثانية التي أود أن أثيرها مع تقديري لما تقدم به من ملاحظة د. سعدون حمادي وموافقتي عليه، فإن الجهد الذي قام به الباحث في ميدان النقد للشعراء يشكر عليه، وإن كان متطرفاً في بعض الأحيان. لماذا؟ لأن دورنا نحن كمؤرخين للأدب ونقاد أولاً لا بد أن يكون موضوعياً، يتناول الشاعر بظرفه وبوضعه مثلما أشار الدكتور سعدون حمادي إلى ذلك. ولكن له جانباً آخر تربوياً يستهدف تقوية أجيال الشعراء من كتاب الناشئة الآن ومستقبلاً، حتى لا يبقوا مذبذبين بين آراء وبين أشخاص وبين قادة وزعماء، هذا يرتفع فيصفقون له وهذا يسقط فيدفنونه يلعنونه ويشتمونه، يغيرون أفكارهم كما يغيرون قمصانهم. هذا الدور التربوي في تصوري قام به الناقد الباحث في هذا البحث جيداً ويشكر عليه. ما أشار له الأخ أحمد عباس صالح فعلاً جعلني أطلب من مركز دراسات الوحدة العربية أن يخصص في المستقبل ندوة لدراسة أصول العربية، أصولنا العربية. لأنه بكل أسف عندما نتكلم عن الفراعنة نجعلهم خارج الأمة العربية بينما أشرت إلى كتاب بالأمس طبع في فرنسا ١٩٧٦ نشره مؤرخ فرنسي يدخل الحضارة الفرعونية في إطارها العربي ويقر بعروبتها ويقول في خلال دراسته لتطور الأديان أن «عشتار» تطورت وصارت «إيزيس» في مصر، ثم صارت «أفروديت» في اليونان، ثم صارت «فينوس» في روما، وهو بحث طويل. ومن خلال دراسة قمت بها وهو كتاب تحت الطبع بعنوان (الأصول العربية للبربر) وأنا من الذين يقال عنهم بربر أثبت بها عروبة البربر، لأن البدعة التي أوجدها وأقنعنا بها المؤرخون المستعمرون الأوروبيون هي أن البربر نقيض للعرب. وجدت أسرتين فرعونيتين كاملتين بربريتين. الأسرة الثانية والعشرون والثالثة والعشرون كانتا بربريتين. إذن الحضارة الفرعونية عربية، وينبغي أن نراجع أنفسنا، بل إن وليم لنك صاحب الموسوعة التاريخية المؤرخ الأمريكي في موسوعته يذهب إلى أبعد من ذلك، ويقر بأن جنوب أوروبا كله منحدر من الجزيرة العربية. كلهم مهاجرون من الجزيرة العربية، كل حوض البحر الأبيض المتوسط

يعتبرونه من الأصول العربية. وليم لنك ليس عربياً ويعتبر من أعظم المؤرخين المعاصرين، ولهذا لا بد في تصوري، قبل أن نبحث في القومية العربية والوحدة العربية، أن نبحث عن أصولنا العربية، لأن العرب أو الثقافة العربية أو الوجود العربي اتخذ عدة أشكال، شكل الإمبراطورية البابلية في العراق، شكل الإمبراطوريات في مصر، شكل الإمبراطورية الفينيقية حول البحر الأبيض المتوسط كله شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ولا بد أن نبحث أولاً عن أصولنا. أما قضية الوحدة القومية فقد أصبحت من البديهات المسلم بها في الوطن العرب.

الدكتور علي عباس علوان: في الحقيقة أنا شاكر جداً كلام الأخوة الزملاء، ويظهر أن البحث أثار مجموعة من الملاحظات. وفي تقديري هذا إلى جانب الباحث أكثر من أن يكون ضده. الدكتور عناد غزوان يشير إلى أن شعر ديوان العرب مقولة قيلت قبل مصطلح الأدب تعبيراً عن المجتمع. الأستاذ كمال قال الجاحظ، والحقيقة هو ابن سلام، وأقول مسرعاً أن مصطلح الشعر ديوان العرب يختلف تماماً عما نعرفه عن أن الأدب تعبير عن المجتمع وأختلف في التسمية، في المفهوم جبران، اخذ علينا الأخ الزميل الدكتور عناد غزوان أنه من الدرجة السادسة. الحقيقة يـ ني اطلاعنا على ما يكتب هناك في أوروبا عن جبران في تقديري قليل ويمكن من باب المجاملة جاملوا جبران على أنه رسام جيد ورمزي لكن كم تأثيره داخل الحركة الرمزية، وكم تأثيره داخل الرومانسية؟ أما الدرجة فأتركها إلى الدكتور عناد يثبتها كما يريد، خامسة أو رابعة. لدى نصوص من أدب المقاومة الفلسطينية هو أدب تحريف ومسمع، محمود درويش وعشرات من شعراء المقاومة الفلسطينية أدب تحريض يمتلك قوة خيالية عالية جداً. ألم يكن أدب المتنبي أدباً تحريضياً ضد الملوك وضد من حكموا الأمة بغير حق، وضد هذا التفاوت الطبقي والاجتماعي وضد التناقضات داخل المجتمع العباسي، وضد الظلم وضد أشياء كثيرة؟ ألم يكن أدب المتنبي من أعلى صورة للقصيدة الرائعة في شكلها الكلاسيكي، وكذلك الشعر في العصر الأموي. أدب الحركات السياسية لم يكن أدباً خالياً من الموسيقى والشعر والخيال والمجتمع والصورة الجميلة. . تفضل الدكتور سعدون حمادي مشكوراً في إبداء الملاحظة، إذ كنا في دراستنا النقدية ننظر إلى الماضي على أنه جميل كله وعظيم كله ونتجاوز الهنات هنا وهناك. فأنا واحد منكم وإذ كان هناك من شكر للرصافي فالرصافي رجل الوطنية ولكن الواجب النقدي والبحث الموضوعي والأمانة العلمية التي أشار إليها الدكتور سعدون تقتضيني أن أشير إلى ظروفهم وإلى متغيرات عصرهم، والتي كانت السبب وراء أن يقولوا هذا الرأي ويقولوا هذا الاجتهاد. نحن نتحدث عن مدى رفد

الأدب ومواكبته لقضية من أخطر قضايا الأمة هي قضية الوحدة ولذلك الموقف السكوتي الذي سارت عليه دراساتنا النقدية. وليس قصدنا أن نسيء للناس. هؤلاء شعراؤنا وأهلنا وتاريخنا، لكنه من حقنا أن نبحث عن هذا الجانب وذاك، ونقدم للأجيال القادمة ومن يريد أن يناقش هذا الموقف أو ذاك. أمّا الإشارة إلى الفرعونية والقومية العربية، لماذا نتردد في قول الحقيقة. إن مسألة الفرعونية لم تطرح كموقف حضاري بل طرحت كفكرة مناهضة لفكرة القومية العربية، كفكرة معادية لفكرة القومية العربية وليست قضية. وهذه ليست مسألة صغيرة. وماذا نقول في الفينيقية؟ الفينيقية نشأت في لبنان واستمرت حتى العصر الحاضر، وهناك أحزاب تدعو للفينيقية. إن هذه الأفكار انفصالية وليست وحدوية. وبالنسبة للعقاد أو غير العقاد، قلت إن العقاد واحد من أعظم الناس الذين خدموا القومية العربية والإسلام، لكن كان له موقف في يوم من الأيام. كذلك شوقي لما رجع من فرنسا وقرأ فكتور هوغو ورأى أن واحدة من أطول قصائد هوغو قصيدة أحداث العصور أو أحداث الدهور الكبرى، فأحب أن يكتب قصيدة من هذا النوع. ولكنه رأى أنه إن كتب عن العرب، فهذا غير مرغوب فيه بالنسبة للخديوي، وكذلك غير مرغوب فيه بالنسبة للآستانة. لذا اتجه إلى الأحداث الكبرى في التاريخ، سماها وتحدث عن الفراعنة في قصيدة طويلة وعجيبة. ولكن حين تغيرت الظروف وذهب إلى اسبانيا عام ١٩١٤ منفياً، كتب أرجوزة العرب والإسلام بعد أن خفت عنه ظروف الضغط.

الدكتور نعمة العزاوي طالب ببحث آخر. والمعروف عن حافظ إبراهيم أن له القصيدة التائية المشهورة عن العرب وعلي الجارم له قصيدة واحدة لكن الشعراء فعلا تحدثوا عن اللغة. ونحن نعلم أن اللغة واحدة من المقومات الأساسية للقومية العربية. وفي تقديري أن التاريخ واللغة هما المقومان الأساسيان. والحديث عن اللغة يطول لأن هناك دراسات كاملة عن دور اللغة في الوحدة العربية، وموضوعي لم يكن البحث عن مقومات القومية العربية وإنما عن دور الأدب في رفد فكرة الوعي القومي والوحدة العربية، وإلا لماذا يطالبني الدكتور نعمة باللغة فقط، وهناك الماضي المشترك، هناك الآلام المشتركة، هناك الآمال المشتركة، هناك التاريخ.

يرى الأستاذ أحمد عباس صالح المفروض أن نرصد التحرك نحو الوحدة وقد حاول أن يرصد هذا التحرك، وأنا أختلف معه في قضية اللغة بالنسبة للأمة العربية. اللغة تشكل مقدماً أساسياً لا يمكن الحياد عنه، لذلك نرى ويرى معي الأستاذ أحمد عباس صالح معظم الهجمات التي شنت على الأمة العربية كانت في الأساس على اللغة

العربية. الشواهد التي طلبها الأستاذ كمال داود موجودة بكثرة، ولا سيما من شعراء الشام. وعلى سبيل المثال عشرات الشواهد استشهدت من ـ الزركلي وخليل مردم ومحمد الشريفي ومحمد الفراتي ومصطفى الغلاييني وأبو الفضل بن الوليد، ورجعت إلى ما يسمى ديوان الثورة الذي صدر سنة ١٩٢٦، بعد أن ضربت دمشق بالمدافع من قبل الفرنسيين، وفيها عشرات من قصائد شعراء الشام بالذات. فأرجو أن يطمئن أخي إلى هذه القضية، وسيجد أن شعر الوحدة بالذات وما تحدث الآخرون عن شعر الوحدة كثير جداً في البحث، إلى درجة فكرت أن أحذف بعض هذه النصوص.

أعود إلى الأستاذ أحمد عزام وأقول ليس عيباً أن نقول في العراق ظهرت قليل من البوادر للدعوة إلى المجد الأشوري ورفضها الشعراء فمسألة الفرعونية قد طرحت كنقيض لفكرة القومية العربية وأساتذتنا الكبار في مصر ما كانوا يرتبطون بالوحدة ولا بالوطن العربي، وهب بعض آراء طه حسين وآراء هيكل وآراء لطفي السيد، إن مصر ترتبط بحضارة البحر الأبيض المتوسط وليس لها علاقة بالعرب.

الفَصْل الثّامِنْ

الأدبْ وَالشعُور القَومي
منْ خِلال القضيّة الفلَسطينيّة

الدكتور عُمَر محمّد الطَالبْ

الشعر والقضية الفلسطينية

حاولت الأمة العربية، فيما انقضى من سنوات هذا القرن، أن تبحث عن ذاتها وتحدد شخصيتها بعد أن طمست معالم هذه الشخصية بتأثير عوامل خارجة عن إرادتها وبدوافع استعمارية، أسكتت الألسن الحرة في وطننا. فقد وجدت البلدان العربية نفسها تحت وطأة الاحتلال الأجنبي منذ استباح هولاكو والفرنجة والأقوام الأجنبية هذا الوطن، فوجدت نفسها ترزح تحت أشباع لهذا الاستعمار في الداخل. وقد لعب هذا أو ذاك دوراً خطيراً في توجيه اقتصاد هذه البلدان كما وجه الفكر وجهات مختلفة نحو خدمة هذا الاقتصاد. وكان لهذا أو ذاك تأثيره الفعال على الأدب العربي عامة، وعلى لغة الأداء والتعبير لهذا الأدب خاصة. فقد كان الأدب في ذلك الوقت وسيلة ارتزاق وواسطة للتقرب من الحكام ومسح الأعتاب وإهدار ماء الوجه من أجل لقمة تقيم الأود، أو مال يتنعم به أو منصب يتربع فوقه انتهازي يحرك من قبل أعداء الوطن، حتى بدأ الشعور القومي بالتفتح مع بدء عصر النهضة، وظهر التيار القومي في الأدب العربي الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر، مع بدء التفتح القومي والتصدي للإستعمار العثماني. ووضحت بداياته في شعر الشعراء اللبنانيين مثل قصيدة إبراهيم اليازجي، والتي يقول في مطلعها:

تنبهـوا واستفيقـوا أيهـا العـرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

ووضح التيار القومي في كتابات الكواكبي، ثم تدفق في شعر الشعراء التقليديين (الاتباعيين) وفي المسرح العربي وفي قصص محمود أحمد السيد ويوسف عواد وميخائيل

نعيمه. ثم تدفق التيار القومي في الأدب العربي عامة، ولكنه كان تياراً مباشراً يفتقر إلى ركائز فكرية يرسي عليها قواعده، حتى بدأ الأدب القومي بالتميز في منتصف الأربعينات، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتحدد مفهومه في ضوء المفاهيم القومية.

لقد بدأ الأدب الدائر حول الصراع العربي ضد الإستعمار منذ وعد بلفور المشؤوم. فقد عبر العديد من الأدباء شعراً ونثراً عن عمق الخطر الكامن وراء هذا الوعد. يقول مصطفى وهبي التل معبراً عن الأسى الذي أصابه من جراء هذا الوعد:

يا رب إن (بلفور) أنفذ وعده ... كم مسلماً يبقى وكم نصراني
وكيان مسجد قريتي من ذا الذي ... يبقي عليه إذا أزيل كياني؟
وكنيسة العذراء، أين مكانها ... سيكون؟ إن بعث اليهود مكاني؟

وإذا ألف الأسى والحزن مشاعر مصطفى وهبي في تعبيره عن مأساة وعد بلفور، فإن جورج صيدح عبر عن المأساة بأنفة وتعال (هو يسخر من عصبة الأمم ومن فعلتها النكراء):

مهلاً خلائف (بلفور) الكريم لقد ... جاوزتموه شأوه في حلبة الكرم
حامي حمانا. حمانا الله منك ومن ... وصاية فرضتها عصبة الأمم
أكل شأنك إرغام الشعوب وإن ... تقوم فيها مقام الخصم والحكم؟
مهد النبوة تأبى أن تدنسه ... إن نام فيه بنو صهيون لم تنم

ويقابل إبراهيم طوقان المأساة بسخرية لاذعة، يكمن فيها التصميم والتحدي والإستخفاف من أولئك الذين شرعوا لغيرهم باسم العدالة قوانين فيها إجحاف وجور.

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة ... وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وفياً ... كيف ننسى انتدابه واحتلاله
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم ... وعد (بلفور) نافذ لا محالة
كل أفضالكم على الرأس والعين ... وليست في حاجة للدلالة
ولئن ساء حالنا فكفانا ... أنكم عندنا بأحسن حالة
غير أن الطريق طالت علينا ... وعليكم فما لنا والإطالة؟
أجلاء عن البلاد تريدون(م) ... فنجلو؟ أم محقنا والإزالة[1]

---

(١) النصوص الشعرية مأخوذة من كتاب دور الأدب في معركة التحرر والبناء (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٥)، ق ١، ص ١٧٠ - ١٧١.

وقد أثار ثورة الشعب العربي في فلسطين عام ١٩٣٦ مشاعر الأدباء في الوطن العربي، فقد عبر بشارة الخوري عن المشاعر القومية حيث قال:

سائل العلياء عنا والزمان | هل غفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا | لم تزل تجري سعيراً في دمانا
يا جهاداً صفق المجد له | لبس الغار عليه الأرجوانا
شرف باهت فلسطين به | وبناء للمعالي لا يداني
إن جرحاً سال من جبهتها | لثمته بخشوع شفتانا

* * *

نحن يا أخت على العهد الذي | قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما | كعبتانا وهو العرب هوانا
قم إلى الأبطال نلمس جرحهم | لمسة تسبح بالطيب يدانا

* * *

إنما الحق الذي ماتو له | حقنا نمشي إليه أين كانا

ويدعو علي محمود طه إلى القتال لاسترداد الكرامة العربية حيث يقول من قصيدة طويلة:

أخي جاوز الظالمون المدى | فحق الجهاد وحق الفدى
أنتركهم يغصبون العروبة (م) | مجد الأبوة والسؤددا
وليسوا بغير صليل السيوف | يجيبون صوتاً لنا أو صدى
فجرد حسامك من غمده | فليس له بعد أن يغمدا

وكثرت الدعوات الشعرية آنذاك في العراق لخوض معركة الكرامة ضد المستعمرين الإنكليز حماة الإسرائيليين، وخير مثال على ذلك شعر محمد مهدي الجواهري، حيث قال:

فاضت جروح فلسطين مذكرة | جرحا بأندلس للآن ما التأما
يا أمة غرها الإقبال ناسية | أن الزمان طوى من قبلها أمما
كانت كحالمة حتى إذا انتبهت | عضت نواجذها من حرقة ندما
سيلحقون فلسطينا بأندلس | ويعطفون عليها البيت والحرما

ويسلبونك بغداد وجلقة
ويتركونك لا لحماً ولا وضما

يا أمة لخصوم ضدها احتكمت
كيف ارتضيت خصيماً ظالماً حكما

بالمدفع استشهدي إن كنت ناطقة
أو رمت أن تسمعي من يشتكي الصمما

سلي الحوادث والتاريخ هل عرفا
حقاً ورأيا بغير القوة احترما

لا تطلبي من يد الجبار مرحمة
ضعي الحمى على هامة جبارة قدما

ثار الشباب ومن مثل الشباب إذا
ريع الحمى وشواظ الغيرة احتدما

يأبى دم عربي في عروقهم
أن يصبح العربي الحر مهتضما

إن الربط بين نكبة الأندلس والتنبؤ بنكبة فلسطين أعطت للقصيدة محورها، فاندفع من الخيبة إلى الأمل، ومن التشتت إلى الدعوة للوحدة، ومن الإستكانة والخضوع إلى الكفاح والقتال من أجل الكرامة، ومن الاستخذاء في طلب العدل والإنصاف من الأعداء المساعدين للإسرائيليين إلى الدفاع عن الكرامة العربية، فإن الدماء العربية الحرة الأبية لا ترضى الضيم والهوان.

وتجاويت أصوات المغرب لأصوات المشرق، واندفع شعراء المهجر يعبرون عن سخطهم ودعوتهم لقتال الإسرائيليين الطامعين في الأرض العربية. ويعبر الشاعر عن مشاعر صادقة متدفقة، ويؤكد فيها على أن فلسطين عربية وستبقى عربية، كما يقول إيليا أبو ماضي في هذه القصيدة:

ديار السلام وأرض الهنا
يشق على الكل أن تحزنا

فخطب فلسطين خطب العلا
وما كان رزء العلا هينا

يريد اليهود بأن يصلبوها
وتأبى فلسطين أن تذعنا

وتأبى المروءة في أهلها
وتأبى السيوف وتأبى القنا

أأرض الخيال وآياته
وذات الجلال وذات السنا

تصير لغوغائهم مسرحا
وتغدو لشذاذهم مسكنا

فليست فلسطين أرضاً مشاعاً
فتعطي لمن شاء أن يسكنا

فإن تطلبوها بسمر القنا
تردكم بطول القنا

ففي العرب صفات الأنام
سوى أن يخاف وأن يجبنا

وإن تهجروها فذلك أولى
فإن فلسطين ملك لنا

وكانت لأجدادنا قبلنا
وتبقى لأحفادنا بعدنا[٢]

---

(٢) النماذج الشعرية مستقاة من المصدر السابق ص٢١٧ ـ ٢٢٠ .

وقد جسد العربي الصراع العربي ضد الاستعمار الإنكليزي، ومحاولته تثبيت دعائم الإسرائيليين في أرض العرب فلسطين، قبل الحرب العالمية الثانية. وقد دارت هذه القصص بأحداثها وشخصياتها في فلسطين وجسدت البطولة العربية ضد من يحاولون استملاك أرضه فكتب أمين ملحس مجموعة قصصية باسم (من وحي الواقع)، ونجاتي صدقي كتب (الأخوات الحزينات)، وعزمي لبيب كتب مجموعة قصصية عن فلسطين باسم (وجوه جديدة).

ولم تستطع القصة أن تصل إلى ما وصل إليه الشعر في تلك الفترة من معالجة المشكلات العربية في فلسطين. ويعود السبب في ذلك إلى أن الفن القصصي كان في بداياته الأولى في الوطن العربي، ولم يمارس الأدباء كتابة القصة باندفاع وحماس كما كانوا يمارسون الشعر ويبدعون فيه ويستجيبون فيه مباشرة لمواكبة الأحداث وحدوث ردود الفعل والإنفعال بالحدث، مما يخلق قصائد شعرية رائعة انبعثت عن تجربة شعورية صادقة، فجاء تأثيرها في الشعب العربي قوياً ومحفزاً.

الأدب العربي في فلسطين قبل نكبة عام ١٩٤٨

لقد برز في فلسطين عدد من الشعراء المبرزين من الذين تناولوا مشكلات الصراع العربي ضد الاستعمار والصهيونية العالمية، ومن أبرز هؤلاء الشعراء: إبراهيم طوقان ومصطفى وهبي التل وعبد الرحيم محمود ومحمد حسن علاء الدين ومطلق عبد الخالق وحسني فريز وحسن البحيري وحسني زيد الكيلاني ومحي الدين الحاج عيسى الصفدي وإبراهيم الدباغ وبرهان الدين العبوشي وأبو سلمى وغيرهم.

وقد وقف الشعراء العرب والفلسطينيون، كما وقف الشعب العربي كله، ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشعروا بأن هذه الهجرة تخفي وراءها النوايا الخطيرة. فدعا الشعراء إلى اليقظة من هذه الهجرة والوقوف تجاهها وتجاه النوايا الإستعمارية الكامنة في حناياها.

يقول إبراهيم طوقان في هذا الصدد وهو يحذر من هجرة اليهود إلى فلسطين من قصيدة بعنوان (الرقم ١٠٠٠):

أرى عـدداً في الشؤم لا كثلاثـة ... وعشـرو لكن فاقـه في المصـائب
هو الألف لم تعرف فلسطين ضربة ... أشـد وأنكى منه يـومـاً لضـارب
يـهـاجـر ألف ثـم ألف مـهـربـا ... ويـدخـل ألف سـائحـاً غيـر آيـب

وألف جواز ثم ألف وسيلة   لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر آلاف كأن عبابه   وأمواجه مشحونة بالمراكب
بني وطني هل يقظة بعد رقدة   وهل من شعاع بين تلك الغياهب

وقد أدرك الشعراء في فلسطين ـ والشاعر ضمير الأمة ـ بأن الطريق الصحيح للوقوف ضد الإستعمار والهجرة اليهودية لا يتحقق إلا عن طريق إذكاء الوعي القومي والمشاعر القومية، فالأمة العربية جزء واحد لا يتجزأ فإذا ما استبيح جزء منه فكأن الوطن العربي قد استبيح برمته.

يقول إبراهيم طوقان في قصيدته (مناهج) داعياً العرب جميعاً لمواجهة الخطر الإسرائيلي:

أمامك أيها العربي يوم   تشيب لهوله سود النواصي
مصيرك بات يلمسه الأداني   وسار حديثه بين الأقاصي

ويقول برهان الدين العبوشي في قصيدته (الوطن المبيع) رابطاً بين ضياع الأندلس واحتمال ضياع فلسطين محذراً من الخطر، داعياً العرب لمواجهة هذا الخطر:

يا بن البلاد وأنت كل رجائها   يوم الجلاء أسمع نعيق غرابه
ما مسّ أندلسا يمسك مثله   فابذل له تلحقه قبل ذهابه
قد شردوا العربي من أوطانه   قد جردوا العربي من أثوابه

إن الدعوة للثورة ضد الإستعمار وألاعيبه وأذنابه تنبع من المشاعر القومية والوعي القومي وهذا ما حدا الشعراء في فلسطين إلى دعوة العرب إلى ثورة عارمة لإنقاذ فلسطين من المخاطر التي تتهددها. يقول عبد الرحيم محمود من قصيدة بعنوان (دعوة إلى الجهاد) حاثاً فيها الشعب العربي على الثورة:

دعا الوطن الذبيح إلى الجهاد   فخف لفرط فرحته فؤادي

* * *

وللأوطان أجناد شداد   يكيلون الدمار لكل عادي
بني وطني دنا يوم الضحايا   أغرّ على ربا أرض المعاد
وما أهل الفداء سوى شباب   أبيّ لا يقيم على اضطهاد
أثيروا للنضال الحق نارا   تصبّ على العدا في كل واد

فليس أحط من شعب قصير عن الجلي وموطنه ينادي

وقد مجد الشعراء البذل والفداء في سبيل استرداد الكرامة العربية والخلاص من أرذال البشر وشذاذ الآفاق. يقول أبو سلمى من قصيدة بعنوان (فلسطين):

هذي فلسطين استحالت هرما مقدسا فقلبوا الترب الندي
من كل قطر عربي فتية ثائرة ترعى أصول المحتد
هبت على الوادي وأجرت دمها متحدا يا للدم المتحد
فيه من الخلود أزكى طيبة وهو يد الثورة يا أسمى يد

* * *

أخت صلاح الدين عشت حرة تأبى لك العلياء أن تهوّدي
دعي (عصابة اللصوص) جانبا واعتمدي على بنيك اعتمدي
أم العروبة إضحكي يا أمنا فكلنا اليوم أبر ولد
يهفو إلى بعض الصفاح باسما الخود قبل الشيخ قبل الأمرد
تنثر ما فوق الثرى قلوبنا لينبت استقلالنا بعد غد
فيا قلوب الثائرين أنشدي على المدى ويا سفوح رددي

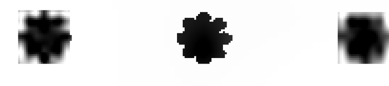
وقد رثى الشعراء الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن وروت دماؤهم الزكية الأرض الطيبة. يرثي إبراهيم يس القطان في قصيدته (المجاهد الشهيد) يرثي فيها القائد عبد الرحيم الحاج محمد:

(عبد الرحيم) تحية وسلام لا الشعر مضن لا ولا الإلهام
يهنيك عشت مجاهداً تحمي الحمى تمشي طريقاً خطها (القسّام)
فانعم فإنك رمز عزّ خالد ولأنت سيف باتر صمصام
جاهدت لا تخشى غشوماً ظالماً ونهضت لم يصعب عليك مرام
أقبلت بالنصر المبين مفرجا وإليك يسند في الخطوب زمام
حرية الأوطان بالدم تشترى لا بالكلام فما يفيد كلام
إيه فلسطين العزيزة أقدمي راياتك الإجلال والإقدام

وقد قام بعض أغنياء فلسطين في تلك الفترة ببيع أراضيهم لليهود، طمعاً بالمال واستجابة لإغراء اليهود لهؤلاء الأغنياء بالأموال الطائلة مقابل شراء الأرض منهم، وهي لعبة قذرة لعبها اليهود لتحقيق مخططهم في الإستيلاء على فلسطين، فانبرى الشعراء

محذرين ساخطين على أولئك الذين باعوا الأرض طمعاً بالمال. قال إبراهيم طوقان، من قصيدة بعنوان (إلى بائعي الأرض) محذراً ومنددا وداعياً إلى الحفاظ على الأرض:

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً ... بالمال، لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو أن الجوع أرغمهم ... والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
تلك البلاد إذا قلت اسمها وطن ... لا يفهمون ودون الفهم أطماع
أعداؤنا - منذ كانوا - صيارفة ... ونحن - منذ هبطنا الأرض - زراع



يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ... ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفي ... وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرّك الذهب اللماع تحرزه ... إن السراب كما تدريه خداع
فكر بموتك في أرض نشأت بها ... واترك لقبرك أرضاً طولها باع[٣]

وانبثقت عن تلك المحنة أناشيد رددها العرب في أرجاء الوطن العربي وما زالوا يرددونها، فيها إذكاء للمشاعر القومية وتذكرة بأمجاد الأمة العربية، ودعوة إلى الجهاد في سبيلها وتحقيق كرامتها وأصالتها، مثل نشيد (موطني وطني)[٤] لإبراهيم طوقان، ونشيد (فلسطين)[٥] لمحمد العدناني، ونشيد (الجهاد)[٦] لاسكندر الخوري البيتجالي، وغيرها كثير.

وقد ظهر الشعر القصصي معبراً عن عمق الثورة ضد الإستعمار والإسرائيليين كما في ملحمة الشاعر إبراهيم طوقان (الثلاثاء الحمراء) التي كانت نتيجة تجربة شعرية قاسية مرّ بها الشاعر في ثورة البراق وإعدام الشهداء، في صباح يوم الثلاثاء عام ١٩٣٠، وينهي الشاعر طوقان ملحمته وقد استشهد الشهداء الثلاثة، وهو قول فيه تحريض ودعوة إلى الثورة ضد الملوك المستكينين للذل والخنوع:

إيه ملوك العرب لا كنتم ملوكاً في الوجود

(٣) النصوص الشعرية من كتاب كامل السوافيري، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦٣ - ١٩٦٤)، ص ٢٠٧ - ٢٣٢.

(٤) ابراهيم عبد الفتاح طوقان، ديوان ابراهيم طوقان، ص ١٩١، ١٩٧.

(٥) محمد العدناني، اللهيب (لبنان: ١٩٥٤)، ص ٧٤.

(٦) اسكندر خوري، آلام وآمال (القدس: ١٩٦١)، ص ١٥.

قوموا اسمعوا من كل نا حية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا الوطن الذبيح من الوريد إلى الوريد[7]

وقد استلهم الشعراء الأحداث الدامية في فلسطين لكتابة مسرحيات شعرية تجسد الثورة والإستشهاد ضد الإستعمار والإسرائيليين كمسرحية (وطن الشهيد) لبرهان الدين العبوشي. وهذا مقطع من حوار يدور بين سعيد العاص وعبد القادر الحسيني:

سعيد:

يا ابن موسى وأنت خير صديق قد دعانا الجدود فيها ونادوا
كيف نرضى البقا بظلم وغبن وعداة البلاد عاثوا وسادوا

عبد القادر (أبو موسى):

يا سعيد الجهاد لبيك إنا قد عرانا لأجل ذاك سهاد
سنبيد العدى ونثخن فيهم يوم يرمي بهم إلينا الطراد
قد توالت على البلاد رزايا حالكات وعاث فيها الجراد
فاندب الشيب والشباب ليحموا أمة قد سبى حماها العباد[8]

هذه الملامح هي أهم ما تطرق إليه الشعراء، في فلسطين قبل النكبة، وهي مفعمة بالمشاعر القومية والإحساس بأن نكبة فلسطين بالإستعمار والإسرائيليين هي جزء من نكبة العرب في جميع الأقطار العربية بها. والشعر في هذه الفترة شعر مباشر، فيه الكثير من الحث والدعوة للجهاد، وفيه من العاطفية والغنائية الشيء الكثير. ولكنه شعر يناسب تلك الفترة، حيث لم يكن الشعر آنذاك إلا غنائياً، ومباشراً في الدعوات القومية والوطنية. ولكنه سرعان ما تطور بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن تجرع العرب غصاصة التقسيم والتشرد، فلم يعد مباشراً كما كان بل اكتسب سماته الفنية الأصيلة، وكان عوناً للوقوف ضد التقسيم وثورة عارمة تلهب المشاعر القومية في أرجاء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج.

الشعر الفلسطيني بعد التقسيم

ظهر في فلسطين عدد كبير من الشعراء الذين تناولوا مآسي التقسيم وما جره ذاك

(٧) طوقان، ديوان ابراهيم طوقان، ص ٣٨.
(٨) برهان الدين العبوشي، وطن الشهيد (القدس: المطبعة الاقتصادية، ١٩٤٧)، ص ٦٠.

من غبن وظلم على الأمة العربية عامة وسكان فلسطين خاصة ومن أبرز هؤلاء الشعراء عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وفدوى طوقان ومحمود سليم الحوت وسلمى الخضراء الجيوسي وبرهان الدين العبوشي ومحمد العدناني ويوسف الخطيب وكمال ناصر وهارون هاشم رشيد وعيسى الناعوري ومحمد العزبي وأمين شنار وخالد نصرة وخليل زقطان وميّ صايغ وناجي علوش وعبد الرحمن الكيالي ومعين بسيسو وثريا ملحس وتوفيق صائغ ومؤيد إبراهيم الإيراني وغيرهم.

وقد تناول هؤلاء الشعراء موضوعات عدة لها علاقة بتقسيم فلسطين، ذلك القرار الذي ارتجت الأمة العربية لصدوره في ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧ عن هيئة الأمم المتحدة. ورفض الناس كما رفض الشعراء هذا القرار، قال محمود الحوت مديناً قرار التقسيم هذا من قصيدة بعنوان (نحن هنا):

قل للأولى اتفقوا على ... تمزيقهم وطن الجدود
إن القرار سيملى ... بدم الشهيدة والشهيد
وليشهد الكون الوبيء ... بكم على وهج النقود
أنا هنا حتى يقول الله ... للغبراء ميدي

وكما أدان الشعب العربي القرار بالتقسيم ورفضه لم يعد يثق بهيئة الأمم التي أعلنت القرار. وقد وقف منها الشعراء موقف الشك والريبة والعداء والسخرية من قراراتها، كما في قصيدة (انقضوا الهدنة) لمحمد العدناني:

لحى الله مندوب الخنا والجرائم ... دهانا بشر راعف الحد حاجم
فما (برنادوت) غير علج ضميره ... يباع ويشرى مثل باقي الأعاجم

ويدعو الشاعر مندوبي الغرب لمغادرة هيئة الأمم المتحدة بعد التقسيم مندداً بمن لطخ يديه بهذا القرار:

يا رعاديد يا غنم ... غادروا هيئة الأمم
كيف تخشون ويحكم ... زمرة باعت الذمم
وغدا الحق عندها ... باطلاً جدّ مهتضم
إن من أضرم الوغى ... نازل الموت واقتحم
ورأى المجد والعلا ... في ظلال الردى الأصم

أعلنت بريطانيا عن مغادرتها لفلسطين في زمن أقصاه ١٥/٥/١٩٤٨ . وبات من

المحقق أن الصهاينة سينفذون التقسيم بالقوة، وأدرك الشعب العربي أن حرباً مصيرية ستنشب. فاندفع الشعراء يحثون على القتال ويحذرون الشعب العربي من التهاون والاستكانة. قال برهان الدين العبوشي:

لقد رأيتم بعينيكم وسمعتم يا بني العرب فانهضوا واستعدوا
أصبح الحق للسلاح وإني لا أرى الحق بالبكا يسترد
دججوا الشيب والشباب وسيروا لقراع الخصوم حيث استبدوا(٩)

اضطرمت الحرب بين العرب والصهاينة وأبلى الفلسطينيون بلاء حسنا في الدفاع عن مدنهم وقدموا الشهداء والدماء الزكية في سبيل استرداد الكرامة العربية. فانطلق الشعراء يعبرون عن مشاعرهم تجاه البطولة العربية الفذة ويرثون الشهداء. وكان لمذبحة (دير ياسين) الأثر الأقوى على مشاعر العرب فاستنهضت الهمم وكلمت الجروح الفائرة في الكرامة العربية، وانطلق الأدباء يصفون المذبحة الدنيئة وفاعليها من شذاذ الآفاق القتلة. وقد وصفها محي الدين الحاج عيسى قائلاً:

ذاك ما أغرى بنا أعداءنا فغزوا من دير ياسين الحمى
لم يكن فيها سوى الشيخ الذي دب في مشيته على العصا
وسوى طفل غرير سادر راح يلهو بالتراب والحصا

* * *

إنها مجزرة قد لطخت وجه صهيون على طول المدى(١٠)

عندما شعر الصهاينة بغلبة العرب عليهم في القتال دعوا إلى عقد الهدنة لمدة أربعة أسابيع في ١١/٦/١٩٤٨، وحاولت الدوائر الإستعمارية تأييد الصهاينة في طلبهم للهدنة وخدعة العرب لكي تتمكن من تزويدهم بالأسلحة والعتاد والمقاتلين. وأدرك الشعب العربي الخدعة، ولكن الحكام العرب آنذاك كانوا يسيرون في ركب الإستعمار وينفذون خططه، فلم يستجيبوا لإرادة شعوبهم، فانبرى الشعراء محذرين من مغبة الهدنة، ثم ساخطين على أولئك الذين أضاعوا الأرض العربية فلسطين، يقول الشاعر محمد العدناني في قصيدته (انقضوا الهدنة):

فهدنته كانت على العرب نقمة أضاعوا بها ما شيدوا بالجماجم

---

(٩) الشعر الفلسطيني، ص ٢٠٨.

(١٠) محي الدين الحاج عيسى، اسرة الشهيد (دمشق: ١٩٦٦)، ص ١١٤.

ونـال اليهـود الجـائعـون منـاهم		وباتوا كأن لم يخذلـوا في الملاحم
لقـد نكثـوا عهـداً فقـازوا وأيسـروا		وصاروا بفضل الختل مثل الضراغم

* * *

ألا يـا ليوث العـرب نقضـاً لهـدنـة		كنقض عصـابـات اليهـود الجـوارم
نبيـد به جـرثـومـة الشـرفي الـورى		فيفنى بنـو صهيـون سـلّ العـوالـم

وقد دعا الشعراء الشعب العربي إلى البذل والعطاء والشهادة في سبيل الأرض الحبيبة وأبنوا الشهداء في قصائدهم، كما فعل كمال ناصر في قصيدة (مصرع البطل) التي أبّن فيها البطل عبد القادر الحسيني، :

أيهـا المـوت تـه علينـا وفـاخـر		لم يـطش سهمـك اللئيم الـغـادر
أنـت لـم تـطـوه جبـانـاً ولـكـن		قـد تهـادى إليـك نشـوان ظـافـر

* * *

يـا فـلسـطيـن لا تـبـالـي فـإنـا		قـد روينـا والخصم ظمآن صـاغـر
مـا اغتصبنـا المجـد الأثيـل ولكن		قـد ورثنـاه كـابـراً عن كـابـر

* * *

يـا فـلسـطين لا تـنـامـي فـفـينـا		همـة تـصـفـع الـزمـان القـاهـر
كـل شـبـر عـلى أديمـك دينـا		سـوف يفـديـه شعبـك المتضـافـر

وحلت المأساة طعنة نجلاء في كرامة كل عربي بعد أن قسمت فلسطين وشرد أهلها واستباح الصهاينة حرمة الوطن، يجسد عيسى الناعوري في قصيدة (صرخة أسى) عمق المأساة الفلسطينية وجرحها الغائر في نفس كل عربي.

سقطت يضرجها النجيع على الثرى		ومضت كحلم كـان في الأحـلام

* * *

ضـاعت فلسطين الشهيدة وانـطوت		واحـســرتـاه لـعـهـدهـا البـسـام
لـو كـان أخضعهـا العدو بجيشـه		خفّ المصـاب وهان شـرب الجام
لكـنهـا قـد سلمت لـعـدوهـا		بـيـد مـلطخـة مـن الإجـرام
قـد سلمتهـا لليهـود عصـابـة		رعـديـدة بـرئـت مـن الإسـلام

* * *

عاش الغريب بها وشرد أهلها فتفرقوا في الأرض كالأغنام
يأس يطوف بكل نفس حرة واليأس أفتك من شفار حسام

لقد كان الحكام العرب في ذلك الوقت سبباً في حدوث المأساة، ولعبوا دوراً في تنفيذ المخطط الإستعماري الصهيوني لتقسيم فلسطين، وقد حقد الشعب العربي على حكامه آنذاك كما حقد الشعراء على هؤلاء الحكام واتهموهم بالغدر ووصموهم بالخيانة، كما في قصيدة (من وحي النكبة) لمصطفى زيد الكيلاني:

ألا إنكم يا قوم أذهب ريحكم زعامة رهط حولوا النور غيهبا
يميناً لقد نال الزعامة فيكم أناس تفشوا في العروبة كالوبا
تعدونهم غبّ الحوادث رؤوسا وإن تنصفوا كانوا ذيولاً وأذنبا
ظهورهم بالخزي أضحت مطية تناخ إلى المستعمرين ومركبا
هم أسلموا الجزار غدراً رؤوسكم وأنتم نيام لا تحسون ما النبا
وهم ساوموا الأحرار عن حر أرضكم فتبا لها من صفقة تجرح الإبا
فيا ويحكم حتام تغلي صدوركم لقد بلغ السيل السماوات لا الزبى
ويا ويحكم ضاعت فلسطين منكم غداة اتخذتم ساحة الحرب ملعبا
فلسطين قد أعطيتنا الدرس قاسياً فبتنا نرى برق الزعامة خلبا

وفي مثل هذا الشعر ظهرت بذور الثورة ضد الأنظمة الفاسدة ولم تمض غير أربع سنوات حتى انتصرت ثورة يوليو عام ١٩٥٢، ومن بعدها ثورة ١٤ تموز في العراق. وتوالت الثورات في الأقطار العربية ضد الحكام الخونة.

استولى الإسرائيليون على مدن فلسطين المهمة وقراها ومساحات كبيرة من الأرض العربية، ونزح عن هذه الأرض سكانها الأصليون، ولم يبق تحت حكم الصهاينة إلا أسر قليلة «قدر حينئذ بسبعين ومائة ألف، أكثرهم يعيشون في قرى وبعض مدن المناطق الشمالية»[(١١)]. وقد تشرد السكان ونزحوا إلى القسم العربي من فلسطين، ومنهم من نزح عنها إلى الاردن وسوريا والعراق وقد قدر عدد اللاجئين في نهاية عام ١٩٤٨ بمليون لاجيء أصبحوا مشردين من غير مأوى ولا طعام. وتشتتت الأسر «وظهرت حاجتهم الملحة إلى الغوث والإحسان، فكانت هذه الظاهرة أشد مأساة، ويشاركهم في معاناتها

(١١) الشعر الفلسطيني، ص ٢٣١ .

بعمق شعراؤهم الذين أذهلتهم الكارثة فتفجعوا وناحوا، على أهلهم وأنفسهم[١٢]، تقول سلمى الخضراء الجيوسي واصفة هذه المأساة:

راعـبـاً ضـج الـرنـيـن ثم ذاك الصـوت ملحاماً حـزين
(أرسـلي غـوثـك شـرقـاً كـل أعـمـامـك أمسـوا لاجئين)

فتنهـدت ملياً وتحـرقت عليهم[١٣]

وتقول أيضاً:

ثم أرسلت لأعمامي ثياباً كنت قد جمعتها للسائلين
وزبيباً كان عندي لم نكن نأكله
وقروشاً لزجة لا وهج فيها أو رنين
منذ ذاك الوقت لم أمنح قروشي سائلاً
فبنو عمي أمسوا لاجئين
يا بني الموق، أموق مثلهم؟ أم يتامى
أم بقايا الجرح من شعب حزين
نحن هـذا كلـه
كلمة مبحوحة الجرس نشاز جمعتنا
(لاجئـيـن)[١٤].

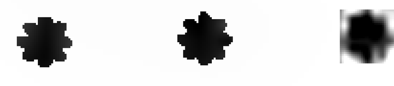
وتعظم المأساة وتنتشر البطالة وتسوء الحالة المعاشية ويعم البكاء والعويل، وأكثر الشعراء من وصف اللاجئين وبؤسهم وتشردهم، وهذا الشاعر أبو سلمى يصف لنا اللاجئين في قصيدة بعنوان (النازحون)[١٥] ويشخص لنا فيها الأسباب والنتائج:

يـا فلسطين أين تـربتك العـذراء تـفـتـضـهـا يـد الـمـجـتـاح
مـرّ قلبي على التـراب خضيبـاً بـشـظـايـا الأعـراض والأرواح

---

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .
(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .
(١٣) سلمى الخضراء الجيوسي ، العودة من النبع الحالم (بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٠) ، ص ١٤٦ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .
(١٥) عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) ، ديوان المشرد (دمشق : ١٩٥٣) ، ص ٣٧ .

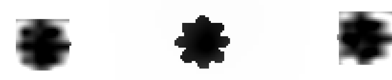
أيها النازحون كيف تهاويتم نجوماً على غريب البطاح؟
أين أنتم؟ إن القلوب تنادي فيحول النداء رجع نواح؟
ليتكم في ملاعب الحرب كنتم في فلسطين وحدكم في الساح
لو حملتم عبء القضية أنتم وكفرتم بعصبة الأشباح
لجلوتم عرائس المجد فوق الأفق بين السني وخفق الوشاح
أو دفنتم هناك طيّ تراب طهرته الدماء قبل البراح



أيها النازحون ماذا لقيتم غير دنيا الآلام والأتراح
وحملتم ذل السؤال ثقيلا بعد تاريخ ثورة وكفاح

لقد أحس المهاجرون عن وطنهم بمرارة الغربة وألم البعد عن الديار والتشتت الذي أصاب الأسرة الواحدة. وعبر الشعراء بأسى ولوعة عن مرارة الغربة هذه ومع الإحساس بالغربة ظهر الحنين إلى الديار والمراتع والربى، وامتزج ألم الغربة بالحنين والشوق إلى الديار. يقول أبو سلمى من قصيدة بعنوان (داري)[١٦] فيها توق إلى الديار. وألم لفراقها، وفيها أسى الغربة وحزن البعد:

هل تسألين النجم عن داري وأين أحبابي وسماري
داري التي أغفت على ربوة حالمة بالمجد والغار
تفتح الزهر على خدها فعطرت أيام آذار
والشمس لا تضحك إلا لها تهدي إليها وشي أستار



والكرم ما أرحم أفياءه أحلام عشاق وأطيار
من عرق الفلاح أنداؤه أكرم من طل وأمطار
والبيدر السمح على صدره حبات أكباد وأبصار
أغنية الراعي وراء الربى منشورة في الأفق العاري

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢١ .

وتبقى الخيمة السوداء رمزاً لمآسي اللاجئين وتشردهم والأسى والحزن الذي يلفهم وقد غنى الشعراء بلوعة وأسى عن الخيمة والمخيمات والبؤس الذي يكتنف اللاجئين في عيشهم فيها. يقول كمال ناصر من قصيدة بعنوان (خيمة)[17] :

يا خيمة أعرفها في الأسى فات عليها في الرجوع الأوان
النار في أرجائها أخمدت وفي زواياها تلاشى الدخان
والهم من يأس بها مطرق يحصي عليها في العذاب الثوان
يجتر من تاريخها راوياً ما كان من مجد لديها وكان
يا خيمتي السوداء ما لي هنا ذكرى على أشلاء حكم جبان

أغاني العودة والأمل والإصرار لتحقيق الغد الأفضل. وقد انتعشت الروح الثورية واستيقظ الأمل لدى الفلسطينيين بالعودة حينما بدأت الثورات تجتاح الأقطار العربية منذ عام ١٩٥٢. مما أنعش الأمل في نفوس الشعب العربي عامة والفلسطينيين خاصة بإعادة الجزء السليب من فلسطين، وعبر الشعراء عن هذا الأمل وعن الثورة المضطرمة في النفوس للعودة إلى الأرض والديار، يعبر يوسف الخطيب عن هذا الأمل الثائر المختلج في نفوس الفلسطينيين بعودة الأرض السليبة إلى الأمة العربية في قصيدته (موعد مع الثأر)[18] حيث يقول فيها:

أما ترانا في الدجى نفتلي وموعد الثأر ينادينا
نسعى إلى الفجر وما نأتلي نمزق الليل بأيدينا
إن كنت لا تعرف من أمتي فاسأل عن العرب الميادينا؟
سنلتقي يوماً على موعد للثأر في يافا وفي الكرمل
سيجمع التاريخ أشتاتنا واحدة الراية والجحفل
ويعلم الشذاذ من أمتي وأي دار حرة موئلي؟

وإذا احتلت القضية الفلسطينية الجزء الأكبر من الشعر العربي في فلسطين فقد تبوأت مكانة بارزة في الشعر العربي المعاصر.

---

(١٧) كمال ناصر ، جراح تغني (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٠) ، ص ١١٩ - ١٢٠ .
(١٨) يوسف الخطيب ، العيون الظمأ للنور (دمشق : ١٩٥٥) ، ص ٩١ .

الشعر العربي المعاصر والقضية الفلسطينية بعد النكبة

لقد أحس الشعراء في الوطن العربي بعمق النكبة وبالأفق المدلهم الذي أخذ ينتشر على الوطن العربي ويلقي بغلالته السوداء على النفوس العربية التي تملكها اليأس والقنوط، بسبب التقسيم واستيلاء الصهاينة على شرقي فلسطين. وفي سوريا تناول الشعراء موضوع فلسطين الدامية، وقد نعى عمر أبو ريشة على الأمة العربية أن ترضى بحكام لا يتوانون عن تقديم جزء من وطنهم لقمة سائغة لأعداء الوطن من قصيدة بعنوان (أمتي):

أمتي كم غصة دامية ... خنقت نجوى علاك في فمي
أيّ جرح في إبائي راعف ... فاته الأسى فلم يلتئم؟
ألإسرائيل تعلو راية ... في حمى المهد وظل الحرم؟!
كيف أغضيت عن الذل ولم ... تنفضي عنك غبار التهم؟
أو ما كنت إذا البغي اعتدى ... موجة من لهب أو من دم؟
فيم أقدمت وأحجمت ولم ... يشفك الثأر ولم تنتقمي

* * *

رب وامعتصماه انطلقت ... ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست أسماعهم لكنها ... لم تلامس نخوة المعتصم

ويعبر الشاعر اللبناني عاطف كرم من قصيدة عنوانها (عودة اللاجئين) عن المأساة في فلسطين بعد النكبة وعما آلت اليه حالة اللاجئين، ويدعو الأمة العربية الى استرداد الكرامة المهدورة.

عاتبي المجد واعصفي يا ملاحم ... غرقت بالدماء أرض الملاحم

* * *

أمن العدل أن تسود السبايا ... ويساق الأحرار سوق الغنائم؟

* * *

أمتني أين عزتي وإبائي ... بك إن نادت الجراح البلاسم

يا بلادي قومي لقد صرع الحق   وحنت إلى الآيات القشاعم
هكذا يكتب الخلود: يراع   من دماء وصفحة من ملاحم(١٩)

إن المشاعر القومية هي التي دفعت الشاعر في الخليج العربي إلى تناول القضية الفلسطينية في إطار الأمل في استرجاع الأرض المغتصبة واستنهاض الهمم من أجل هذا الهدف المقدس.

يقول الشاعر الكويتي أحمد السقاف:

وحماكم نجست تربته   واستباحته الحثالات الكلاب
وطن أنبت أمناً وهدىً   وارتوى منه يراع وكتاب
يتداعى المسجد الأقصى به   ويعيث الهدم فيه والخراب
كلكم يبكي فلسطين فهل   يرجع الحق بكاء وانتحاب
يرقد الغاصب في أعينكم   ولكم فيكم عداء واحتراب
ما عهدنا العرب ترضى ذلة   عجب أن تقبلوا العار عجاب

ويقول الشاعر البحراني عبد الرحمن محمد رفيع مؤكداً أن النصر للعرب:

لقد آمنت يا صهيون
بالأوهام مسطورة

* * *

يمين الله لن نرتاح
حتى تحكم الحرب
نشيدي المدفع الرشاش
والألغام والضرب
وزحف صامت في الليل
يعقب صمته الرعب
فإما أنت صهيون
وإما النصر والعرب

---

(١٩) النماذج الشعرية من كتاب السوافيري، الشعر العربي الحديث . . . ، ص ٥٠٩ - ٥٣٠ .

ودفعت المشاعر القومية الشاعر العماني صقر القاسمي لنظم قصيدته:

فلسطين يا فخر العروبة هوني — عليك وإن كرت عليك أسادد
فلا شبر ما لم يجر فيه لنادم — ولا بقعة إلا بها نام ماجد
لئن فرقتنا قبل أيد أثيمة — فمبلؤنا في قبضة الحق صامد

* * *

فقد علم التاريخ أنا نباته — وإنا له كهف نقيه وساعد
إذ لم نعدها يا فلسطين جذعة — عوانا لها في الملحمات عوائد

* * *

فلا جادنا يا فتنة الشرق صيب — ولا ذاد عنا ما رد الظلم ذائد[20]

وفي مثل هذه المشاعر ولدت قصيدة الشاعر السعودي فؤاد الخطيب:

هو الصوت دوى من فلسطين عالياً — وأوغل يغشي الشرق والغرب باكيا
فهل سمعت منه العروبة من صدى — وهل نشدت للعار بالسيف ماحيا
وإن جبن الأحياء عن أخذ ثأرها — هززت من الموتى الجدود الأواليا

* * *

هي الجولة الأولى وللعرب كرة — وغير بعيد كل ما كان آتيا
وقد عرفت عنا فلسطين أننا — وإن نحن فارقنا استطعنا التلاقيا

وينعي الشاعر اليمني محمد محمود الزبيري في قصيدته (صحوة العرب) على الأمة العربية استكانتها تجاه قرار التقسيم، ولكنه يؤمن بأن الوحدة ستتم وأن الجزء السليب من الوطن العربي سيعود إلى الأمة العربية:

أمن العدل أن يفر ويستبقي — على الغضب كل لص يجيده

---

(٢٠) النماذج من مقال عبد الرزاق البصير، «قضية فلسطين واثرها في الأدب العربي الحديث والمعاصر،» في مجلة الكتاب، (١٩٧٥)، العدد ٦، ص ١٥٩ - ١٦٤.

يطرد الشعب من حماه ويستاق   إليه من كل شعب طريده
لم يدمر حمى القوانين في العالم   إلا نقوده ويهوده
سوف يبني الشعب الأبي ضحاياه   ويسترجع القديم جديده

* * *

عالم واحد وإن زعمته   ألف شعب ثغوره وحدوده
سوف يبقى حقيقة تملأ الأرض   ويفنى عدوه وحسوده

وقد تناول الشعراء في المغرب العربي القضية الفلسطينية في شعرهم، وأكد الشاعر التونسي نور الدين صمود على وحدة الصف العربي من خلال الدعوة إلى الإعتماد على السلاح وترك الكلام، لأن فلسطين تحرر بالدماء لا بالكلمات:

وننادي بوحدة العرب لكن   بعد ما تملأ الدروب اتزانا
إن أردنا للعرب وحدة صف   فلنوقد قلوبنا وهوانا
ما ترانا نقول شعراً بديعاً   وفلسطين تطلب النيرانا
ولنسر للجهاد صفاً عتيداً   فكفانا من الكلام كفانا[٢١]

ويؤكد صالح الخرفي أن الأمة العربية فقدت مجدها بنكبة فلسطين ولكنه واثق من عودة المجد إلى الأمة العربية بعد أن يطرد الإسرائيليون من فلسطين وتعود عربية خالصة:

يا فلسطين يا تراث الأوائل   حال مغناك الهوى غير حائل
يا فلسطين إن دهتك العوادي   فلك الدهر في القلوب معاقل
يا فلسطين أنت نكبة دهر   سوف يبكيك كل آت وراحل
ثكل الشرق مجده إن تواني   عنك يا مفخرة الأباة البواسل

ويربط الشاعر الليبي أحمد فؤاد شنيب بين ماضي الأمة العربية التليد وبين الأخذ بثأر فلسطين المنكوبة:

يا بني يعرب من تاريخكم سفر حياتي
منه أمسى في نضال زاخر بالتضحيات
منه يومي في إبائي ومضائي وثباتي

---

(٢١) نور الدين حمود، ديوان رحلة العبير (تونس: ١٩٦٩)، ص ١٦.

منه آمال غد يجمعنا رغم العداة
عدة للحق للإيمان تردي كل عاتي
أمة تستلهم الماضي لتبني خير آت
وتحيل العزم ناراً كي تنال اليوم ثأراً

* * *

من أنا إن لم تكن يعرب في الكون قوية
أنا من يحمي الذمارا ويرى في الصمت عارا

وينعي الشاعر السوداني عبد الرحيم عثمان صارو على الأمة العربية رضاها بقرار التقسيم في قصيدته (الضمير العالمي)، ويؤكد بأن هيئة الأمم ليست غير عصابة من اللصوص، وأنهم يؤمنون بالقتل لا بالسلام. وإن الهزيمة التي اعتقدوا بأنهم منوا العرب بها، ما هي إلا النصر لأن النصر مع الحق دائماً:

فيم المجامع راح ينهزم حق بها ويعزّ بهتان
لو صحت النيات والذمم لم يشق تحت الشمس إنسان
لو لم تك الأهواء غالبة ومطامع تعدو وتستبق
لم تخذلوا العرب واضحة غراء مثل الشمس تأتلق
تاه السلام وحار بينكم ويكاد يقضي نحبه طفلا
تتشدقون به وفعلكم يردي السلام ويورث القتلا

ويجسد الشاعر المصري محمود حسن إسماعيل في قصيدته (من دموع اللاجئين) مأساة اللاجئين وألم العروبة الناضح من ألمهم، والقصيدة صرخة مدوية في وجه الملوك العرب الذين قابلوا المذابح والقتل بإطلاق الكذب الأبلق والإنغماس بالشهوات:

سلوهم واسألوا ما شئتم الإسلام والعربا؟
وكيف على تراب الذل لم يتمزقوا غضبا؟
وكيف غدت فلسطين بهم تتجرع النّوبا؟
تنوح على سياستهم وتشكو القيد واللهبا
وهم لمذابح الشهوات ساقوا اللهو واللعبا
وقالوا: الشرق. قلت: صحا على أفواهكم كذبا

وينحو الشاعر العربي في المهجر نفس المنحى، حيث يلقي الشاعر جورج صيدح

في قصيدته (ذكرى فلسطين) تبعة الهزيمة على عاتق حكام العرب. ويدعو العرب إلى جمع الجموع للأخذ بثأر الشهيد:

بنو فلسطين قطعان مشردة عن الحياة ملاك الموت راعيها
وكف صهيون بالأقداس عابثة كأنما الله أمر ليس يعنيها
أما الملوك فلا حس ولا بصر ولا حديث سوى الأسلاب تحصيها
خطيئة العرب لا الاردن يغسلها ولا صبا بردى بالنشر يطويها
يحمر في النيل وجه الماء إن رويت وينحني رأس صنين لراويها
غاض الحياء وفاض النفط وابتلعت آبار صحرائنا أمجاد ماضيها
لا عاد عيد على الأعراب إن هدروا دم الشهيد وحث الكأس ساقيها[٢٢]

شعر النكبة في العراق

اهتم شعراء العراق بعد النكبة بتناول القضية الفلسطينية في شعرهم، ويكاد الشعر العراقي الدائر حول النضال الفلسطيني والقضية يحتل المكانة الأولى بين شعراء الأقطار العربية الذين تناولوا الموضوع ذاته. في الوقت الذي تميز الشعر السوري واللبناني بتناول القضية الفلسطينية قبل النكبة على بقية الشعر في الأقطار العربية:

يبرز محمد مهدي الجواهري من بين شعراء العراق الذين تناولوا القضية الفلسطينية في شعرهم منذ بدء المشكلة. فهو يخاطب الفلسطينيين في قصيدته (ذكرى وعد بلفور)[٢٣] التي ألقاها في بهو أمانة العاصمة في بغداد عام ١٩٤٦[٢٤] شاحذاً هممهم للصمود والنضال من أجل قضيتهم العادلة، باعثاً فيهم نسغ الشجاعة والإقدام والحذر واقتحام الصعاب، محذراً إياهم من أن يقعوا في شباك المعاهدة كما وقع فيها العراق. ويدعو إلى النضال حتى الموت أو النصر، فلم يبق في الحياة ما يستحق التردد، بعد الحيف والضيم اللذين أصابا الأمة العربية من جراء معاهداتها مع الإستعمار:

خذي مسعاك مثخنة الجراح ونامي فوق دامية الصفاح
ومدي بالممات إلى حياة تسر وبالعناء إلى ارتياح

(٢٢) النماذج من كتاب السوافيري، الشعر العربي الحديث...، ص ٥٠٦، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٥٣.

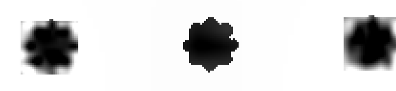
(٢٣) الجواهري، ديوان الجواهري، ج١، ص ١٣٨.

(٢٤) محمد حسين الصغير، فلسطين في الشعر النجفي المعاصر ١٩٢٨ ـ ١٩٦٨ (بيروت: دار الصادق للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨)، ص ٦١.

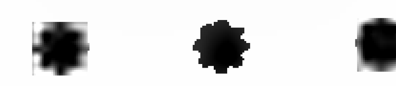
فإن أمرّ ما أدمى كفاحا طعون الخائفين من النجاح
فكوني في سماحك بالضحايا كعهدك في سماحك بالأضاحي
فإن الحق يقطر جانباه وما ضو المروءة والسماح
وتاريخ الشعوب إذا تبنى دم الأحرار لا يمحوه ماح

يخاطب الشاعر القدس وكيف كانت ساحة للبطولة والفداء، فإذا أصابت موسى وقومه بالتيه فإنها قد وطئت من قبل الصليبيين، وإذا فعل صلاح الدين الأيوبي ما فعله نبوخذ نصر بالإسرائيليين فإن الإستعمار البريطاني الذي حقق وعد بلفور سيلحقه على يد العرب ما لحق بالإسرائيليين القدامى والصليبيين، وإن البطولات العربية ستبقى كما كانت قوية صارمة بيد صلاح الدين وبطش نبوخذ نصر. ويفيد الجواهري من الأمس لإلقاء الضوء على اليوم. وهو يربط بينهما ربطاً جدلياً قوياً ويعطي من انتصارات الماضي وتاريخ الأمة التليد بشائر الأمل الحاضر في الانتصار والفوز، ويعطي من استهانات الاستعمار البريطاني المقنع في العراق تذكرة للشعب العربي في فلسطين بألا ينخدع ويتوانى، وأن يكون حذراً يقظاً لألاعيب الدول الإستعمارية وترقبها الخبيث:

ألم القدس والتاريخ دام ويومك مثل أمسك في الكفاح
ومهدك وهو مهبط كل وحي كنعشك وهو مشتجر الرماح
ووادي التيه إن لم يأو موسى فقد آوى الصليب على صلاح



وتصريح يمططه قوي كلوح الطين إذ يدحوه داح
وحلف لست أدري من ذهول أعن جدّ يدبر أم مزاح
لنا حق يرجى بالتماس وبألمهم ينفذ بالسلاح
ولست بعارف أبداً حليفا يهدده حليف باكتساح



فكم هاو أجد لنا جروحا بدعوى أنه آسي جراح
وأصدقك الحديث فكم حلول حرام لحن في زي مباح
تطوف ما نطوف ثم نأوى إلى بيت أقيم على اقتراح
يخرج ألف وجه من حديث ويخلق ألف معنى لاصطلاح

ويبلغ الألم أقصاه بالجواهري بعد النكبة، ويستنهض همة الشعب العربي لاسترداد

فلسطين في قصيدة (فلسطين)[٢٥]. وينعي على الأمة العربية استسلامها وسكونها، وينعي على الدول الإسلامية وقوفها على الحياد. وهو ينخر الملوك العرب من طرف خفي ومن دون تصريح ويجابه الأمة العربية بحقيقة الأمر وألا سبيل لعلاج القضية إلا بالقوة والسلاح، وإن البلسم بيد الشعب العربي وألّا شفاء للقضية إلا عن طريقه:

حماة الدار ما النكسات سرّ ولا شيء تلفف في بجاد
ولا لغز يحار المرء فيه فيجهل ما سداس من أحاد
فما ذهبت فلسطين بسحر ولا كتب الفناء بلا مداد
وما كانت فلسطين لتبقى وجيرتها يصاح بها بداد
وست جهاتها أخذت بجوع وجهل واحتقار واضطهاد
شعوب تسترق فما يبقى على أثر لها ذل الصفاد

* * *

حماة الدار لولا سمّ غاد أساغ شرابه فرط التمادي
ولباس على ختل وغدر ثياب الواقفين على الحياد
ولولا نازلون على هواه سكارى في المحبة والوداد
نسوا إلا نفوسهم وهاموا غراما حيث هام بكل واد
أجرهم على ذهب فجروا فلسطينا على شوك القتاد
وقادوها له كبش افتداء منيع الهاربين من التفادي
لكنتم طب علتها وكانت بكم تحدي على يد خير حاد

وقد سار بقية الشعراء في العراق هذا المسار، حيث يتناول علي الحلي في قصيدة (مؤتمر أريحا) مهزلة هذا الميثاق واللعبة التي تجرع العرب في فلسطين من جرائها التشرد والجوع:

هل عرفتم منطق الساسة في دنيا الفضيحة
خدروا الأعراف مذ كانت فلسطين جريحة
وتمادوا في الأراجيف وقد أمست ذبيحة
وتباروا في الخطابات وكم كانت فصيحة
ورأوا في المأكل الدسم ملذات مريحة

(٢٥) الجواهري ، ديوان الجواهري ، ج١ ، ص ٧٢ .

وقضوا من نشوة الخمر لياليهم مليحة
ثم داسوا شرف العهد بميثاق أريحة
إنها مهزلة الدهر وقد كانت صريحة
زفها البغي إلى دنيا التفاهات الصبوحة

ويتهدد خالد الشواف في قصيدة (تدويل القدس) الحكومات العربية آنذاك بأنها كما لفقت وكذبت على شعوبها ستنتهي بأيدي تلك الشعوب، وهو يضع اللوم كل اللوم على الساسة العرب وعلى خورهم وجبنهم وتصريحاتهم الخاوية البعيدة عن العدل والحق:

بالأمس كانت فلسطين قضيتنا والقدس في يومنا والباقيات غدا
وكان أدنى أمانينا عروبتها فصار تدويلها الحلم الذي افتقدا
وأنتم يا رجال العرب ما فعلت آياتكم تلك بالجمع الذي احتشدا
متى ستوحي لكم أحداث عالمكم يا حاكمين بأن العدل قد فقدا؟
يا ساسة العرب سقيتم شعوبكم من كرمة الخور القتال ما قصدا
لا تحسبوا أنها أغفت وإن ثملت ويل الحكومات من ثأر الشعوب غدا

ولا يختلف عدنان الراوي في تناوله للقضية الفلسطينية عن سابقية، فهو يصف حالة الحزن واليأس التي تملكته بعد النكبة، كما تملكت كل عربي، ويلقي باللوم على الساسة والحكام لأنهم سخروا بأمتهم وشعبهم وكذبوا عليهما، وذلك في قصيدة (استغفر الله):

يقولون قد كنت فيما مضى تباهي بقومك المادحين
وتفخر بالعرب في حاضر وترغي وتزبد في الثائرين
ونحن ونحن فأين الذي تقول وأين تراث السنين؟
أأحكي الحقيقة يا سادتي سلام على الساسة الحاكمين
سأذكرهم كلما أبصرت عيوني فرداً من اللاجئين
سأذكرهم كلما نوحت حماماتنا في ربى الغافلين[٢٦]

ومضى الشعراء العراقيون في تناول القضية الفلسطينية في شعرهم، ولا نجد شاعراً عراقياً حديثاً لم يتطرق إلى هذا الموضوع ويعالجه في شعره، والأمثلة كثيرة والنصوص الشعرية تعد بالمئات.

---

(٢٦) النماذج من كتاب السوافيري، الشعر العربي الحديث . . . ، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٨ .

وفشل الحكام العرب آنذاك في صد إسرائيل والإستعمار الغربي من ورائها، لأنهم لم يكونوا جادين في القضاء على إسرائيل، ولم تتوحد كلمتهم ووصموا بالخيانة والعمالة.

لقد ولدت نكسة حزيران مشاعر قاتمة ويائسة عندبعض الشعراء، وآمنوا بالمصيبة التي حلت بالأمة العربية وعزوا ذلك إلى جيلهم جيل ما قبل النكسة، وإلى تشتت الأقطار العربية. وخير مثال على ذلك نزار قباني في قصائده الطويلة (هوامش على دفتر النكسة، الممثلون، الإستجواب) وما عداها من قصائد أخرى. وقد برز هذا الإتجاه اليائس المتشائم عند الشعراء العرب ولا سيما في سوريا ولبنان وشمال أفريقيا. ولو تصفحنا ديوان الشاعر التونسي جعفر ماجد الموسوم (غدا تطلع الشمس) لوجدناه يائساً متشائماً ولنأخذ مثالاً على ذلك قصيدتيه (الأصنام)[٢٧] و(صوت الأندلس)[٢٨] . يقول الشاعر في القصيدة الثانية :

واليوم أنتم مثلما كانوا هنا   قوم عبيد أسرة وكراسي
في كل قصر عندكم ولادة   ويقال للص الكبير: سياسي
وإذا حميت الشعب من سراقه   ماذا سيحميه من الحراس

* * *

ورأيت أن الجسم ليس بهالك   لكنها أوجاعنا في الراس

ولكن فترة اليأس سرعان ما زالت، وعاد الشعراء إلى تفاؤلهم وأملهم بالنصر بعد أن بدأت المنظمات الفدائية عملياتها في الأرض المحتلة. يقول الشاعر التونسي منور صمادح مؤكداً أن القوة لا تغلبها غير القوة:

في أرض حيفا والخليل مروءة   هدرت ولما يدرك العرب الصباح
إن كان حي على الفلاح شعارنا   فالقدس نادانا: فحي على السلاح[٢٩]

أما في العراق فلم يصب اليأس الشعب أو الشعراء، حيث وقف محمد مهدي الجواهري غداة حرب حزيران / يونيو عام ١٩٦٧ رافعاً من معنويات الشعب مؤكداً

---

(٢٧) جعفر ماجد ، غدا تطلع الشمس (تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٤) ، ص ٥ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٢١) منور صمادح ، نسر ونصر (تونس : ١٩٧٢) ، ص ٣٠ .

إرادة الأمة العربية في النصر، في قصيدته (الخطوب الخلاقة)[٣٠] التي نشرت في أكثر الصحف العربية.

دع الطوارق كالأتون تحتدم | وخلها كحبيك النسج تلتحم
وخذ مكانك منها غير مكترث | د هدى بك الموج أو علّت بك القمم
كفاك والخطب فخراً إن تصارعه | إن المصارع أنى صار محترم
ومثل بلواك في فمي تدافعها | تكون عقباك أن تستكشف الفحم

ويمضي الشاعر مؤكداً أن الأزمات هي التي تخلق النصر، وأن زمن المحنة هو زمن الإنفراج والنصر:

قالوا أتت أزمة جلّى فقلت لهم | أهلاً وسهلاً فنعم الطارق الأزم
يا جارتا: من يضق ذرعاً بمنزلة | فليس منا وإن متت به رحم
سلي بنا الأزمات السود كم غنيت | إذ كان عند سوانا الفقر والعدم
ما شئت فامتحني نزدد ندى وقرى | هل كان إلا ليوم المحنة الكرم

ويندفع الشاعر في العراق مع عزم الأمة وتصميمها على الانتصار. وكلما استشهد واحد من الفدائيين في فلسطين العروبة كلما ازداد أملاً في النصر ودنا خطوة منه. قال الشاعر محمد مهدي الجواهري قصيدته (فداء الدم)[٣١] في الحفل الذي أقامته المنظمات الفدائية ببغداد إحياء لذكرى الفدائي الشهيد (صبحي ياسين) في قاعة الشعب عام ١٩٦٨، حيث يؤكد الشاعر في قصيدته أن عظمة الفداء ستحقق حتماً عظمة النصر، وإن الأمة العربية قد نذرت نفسها من أجل استرداد الأرض المغتصبة، وأن الشهداء ما هم إلا نذور الأمة العربية للوصول إلى هذا الهدف السامي النبيل:

جلّ الفداء وجلّ الخلد صاحبه | ضاق الفضاء وما ضاقت مذاهبه

* * *

جلّ الفداء فما ينفك مأربه | لكل مستبسل أعيت مآربه

* * *

حوى النضال فسيحا ما به غلق | ولا بمائعة رخوا رحائبه

---

(٣٠) الجواهري، ديوان الجواهري، ج٥، ص٢٥٣.
(٣١) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٩١.

على حفــافيه من شعب مصــايــره   وبين جنبيــه من آمــر عــواقبــه

* * *

تصــاعــدت همم للفــدى واستبقت   مــراتب النفــر الفــادي مــراتبــه
وفــي لأمــتــه نــذار مــفــجــرة   نحــوره وخضــيبــات تــرائبــه

وتعبر قصيدة (بكائية إلى شمس حزيران)[٣٢] لعبد الوهاب البياتي عن وعي الشاعر الجمعي بنقائض الواقع العربي آنذاك، والتي نتج عنها كل المساوىء التي أصابت الأمة العربية، ومنها نكسة حزيران، ولا يحاول الشاعر فصل النكسة عن الأوضاع العامة في الوطن العربي، وإنما يجد بينهما تفاعلاً قوياً. فالنكسة نتيجة لتردي الأوضاع في الأقطار العربية:

طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات
والسيوف الخشبية
والأكاذيب وفرسان الهواء

* * *

شغلتنا الترهات
فقتلنا بعضنا بعضا وها نحن فتات

ولكن الشاعر على الرغم من كل ذلك متيقن بأن الشعب العربي لن يهزم، وأن الشعب العربي لا بد أن يصنع ثورته ويحقق الانتصار، وأن حرب حزيران ما هي إلا حرب زائفة ستعقبها الحرب الماحقة التي تحقق النصر للأمة العربية وتعيد الحق المستلب، وأن الهزيمة هزيمة الزعامات العربية وليست هزيمة الشعب العربي .

حاملين الوطن المصلوب في كف وفي الأخرى التراب
آه لا تطرد عن الجرح الذباب
فجراحي فم أيوب وآلامي انتظار
ودم يطلب ثأراً
يا إله الكادحين الفقراء

---

(٣٢) عبد الوهاب البياتي ، عيون الكلاب الميتة (بيروت : دار العودة ، ١٩٦٩) ، ص ٢٣ .

نحن لم نهزم ولكن الطواويس الكبار
هزموهم وحدهم من قبل أن ينفخ ديار بنار

ومثل هذا العزم والتصميم والإندفاع في إعادة الكرة لتحقيق الإنتصار، والأمل المعقود على الفدائيين العرب، نجده في قصائد الشعراء العراقيين الذين تناولوا القضية الفلسطينية في شعرهم مثل شاذل طاقة وشفيق الكمالي وعلي الحلي وكمال عبدالله وسامي مهدي وحميد سعيد ومحمد جميل شلش وعبد الرزاق عبد الواحد، وغيرهم كثير.

وفي الوقت الذي ظهرت فيه حركة شعرية جديدة في الأرض المحتلة سميت بشعر المقاومة أو الشعر المقاتل - كما سنوضحه بعد قليل - ظهر العزم واضحاً في شعر الشعراء الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة. فإذا أخذنا شعر فدوى طوقان بعد حرب حزيران نجده قد ابتعد عن الرومانتيكية المغرقة التي وجدناها في قصائدها السابقة. فقد تحولت إلى شاعرة مقاومة، كما في قصيدة (لن أبكي)، حيث أكدت بأن جسر الوصول إلى التحرير هو الفداء والمقاومة. وفي قصائدها الأخرى مثل (المخاض، الفدائي والأرض، همزة، حرية الشعب) التي تؤكد فيها على موقف الفدائي المناضل الذي سيقود الأمة إلى النصر ويعيد إليها كرامتها بإعادة الجزء السليب المغتصب من الوطن العربي.

سأظل أحفر اسمها وأنا أناضل
في الأرض في الجدران في الأبواب في شرف المنازل
في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع
في كل مرتفع ومنحدر ومنعطف وشارع
في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق
رغم السلاسل رغم نسف الدور رغم لظى الحرائق
سأظل أحفر اسمها حتى أراه
يمتد في وطني ويكبر
ويظل يكبر ويظل يكبر
حتى يغطي كل شبر في ثراه
حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب
والليل يهرب والضياء يدك أعمدة الضباب(٣٣)

---

(٣٣) اخترت النص من : غالي شكري أدب المقاومة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠) ، ص ٤٠٧ .

وينقلب شعر معين بسيسو من اليأس والقنوط إلى الثورة والغضب، فهو لم يعد بكاء بل مناضلاً لا يجد غير طريق الفداء جسراً للنصر فإما النصر بالبندقية وإما الموت، كما يقول في قصيدته (أغنية الرجل والجواد) فالمستحيل لا يتحقق إلا بالعزيمة والصمود:

يا أيها المطاردون
لو تقدرون فاقلعوا
أسنان كل نجمة لو تقدرون
لا بد أن نواصل السير
وأن نواصل النزيف
فالمستحيل
يصبح مرة جرحاً
ومرة سكين(٣٤)

يجد المتمعن في القصائد التي تناولت القضية الفلسطينية طغيان المباشرة والخطابية والنبرة المرتفعة في جميع القصائد العمودية تقريباً، بينما نلمح التلميح والإشارة والخفيفة في القصائد التي تعتمد التفعيلة. وهي بالإضافة إلى غنائيتها العذبة تضم حدثاً يكون صلب القصيدة، ويتنامى هذا الحدث في خط درامي متصاعد حتى نهاية القصيدة. وبدت الغاية بالديباجة الشعرية كبيرة وحظيت الجملة باختيار ينسجم والجمل التي تليها لخلق تماسك وترام في العبارة. وجاء الاهتمام بالموسيقى الخارجية كبيراً لتؤثر في السامعين وتهز مشاعرهم. وامتازت اللغة الشعرية في قصائدهم بالأصالة، وبعضهم لجأ إلى لغة قديمة تتصل بالتراث بوشائج قوية لتوصيل ما يريده من فخامة وشجن إلى سامعيه.

وقد اعتمد هؤلاء الشعراء في تجسيد أفكارهم على الصورة الأدبية اعتماداً كبيراً وتتراوح هذه الصور ما بين الصور البسيطة عند شعراء ما قبل النكبة والصورة المركبة التي تعطي من خلال بؤرة النظر أبعاداً كثيرة متعددة الزوايا والجوانب والظلال. وقد تجسد ذلك في قصائد ما بعد النكسة خاصة. وقد أخذت هذه الصور من واقع المجتمع الفلسطيني والأمة العربية. وقد استعان الشعراء بالتشابه والتضاد والتفاعل لإيصال المعنى المراد إلى المتلقين وانبعث واقع الأمة العربية وتاريخها المجيد وبطولات الاستشهاد والتضحية في سبيل الأمة والدفاع عنها وتأجيج المشاعر القومية في شعرهم. لقد أسهموا في

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

تبلور الوعي القومي، إنه شعر الدم والتضحية والفداء: «إن النضال بمعناه الواسع العميق هو السبيل إلى بعث الروح العربية وتحقيق الإنقلاب العربي»[٣٥]. وقد تمكن هذا الشعر أن يحقق الهدف القومي في التحريض ضد الفساد والعمالة، والإندفاع إلى تحرير الأرض العربية وإعادة الحق المغتصب. ولم يتعرضوا لأمجاد الأمة العربية في شعرهم كناقلين للأحداث كما هي، بل أسبغوا عليها جواً من المعاصرة والالتحام التام الذي خلقوه بين أحداث الماضي ووقائع الحاضر. إن ما حققه هؤلاء الشعراء هو التلاحم بين الذاتي والموضوعي، بين الواقع المؤلم وآمال الأمة في النصر والوحدة. ونتج عن هذا الاندماج بين الذاتي والموضوعي تحقيق الوحدتين الموضوعية والعضوية. فجاءت قصائدهم في الأعم الأغلب قوية البناء حيوية النماء، دائرة في فلك الموضوع المعبر عنه بألفاظ منتقاة مناسبة، وخاصة عند شعراء ما بعد حرب حزيران. وإن تلمسنا في بعض القصائد ضعفاً في البناء والتعبير وفراغ الألفاظ من معانيها، والسعي وراء فخامة اللفظة في بعض الأحيان.

وفي الوقت الذي كان فيه شعر القضية الفلسطينية في الأقطار العربية يتراوح بين اليأس والثورة، بين السطحية والعمق، كانت حركة شعرية قوية لها أصالتها وفاعليتها تترعرع وتزدهر عند الشعراء العرب في الأرض المحتلة. أطلق عليها بعد تكاملها اسم شعر المقاومة.

القصة العربية والقضية الفلسطينية

كان للصراع العربي الإسرائيلي الأثر الكبير في القصة العربية. فقد تناول القصاصون العرب هذه القضية بالمعالجة والتحليل والدراسة. ووقف القصاص العربي، إلى جانب الجندي العربي، يقاتلان من أجل القضية. وقد اهتمت القصة العربية بهذه القضية بعد التقسيم أكثر مما اهتمت بها قبله، وإن جاء اهتمام الشعر وتناوله للقضية الفلسطينية أكثر من القصة، لأن الشعر أسهل تناولاً، وهو حصيلة الإنفعال والتأثر أما القصة فتحتاج إلى الإعداد والتخطيط، ويفسدها الإنفعال والتأثر السريعان.

وإذا سعى الحكام العرب آنذاك إلى خذلان الجندي العربي الباسل، فإن القصة استطاعت التعبير عن مكنونات النفوس حول القضية الفلسطينية ونظمت أشعار كثيرة. ولكن ما دور الفن القصصي في معركة المصير؟ لقد ألف بديع حقي «التراب الحزين»

---

(٣٥) ميشيل عفلق، في سبيل البعث (بيروت: ١٩٥٥)، ص ٦٤.

وعزمي لبيب «وجوه جديدة» وقدم أمين ملحس «من وحي الواقع» ونجاتي صدقي «الأخوات الحزينات» وكتب عبد السلام العجيلي قصتي «كفن حمود» و«أينما كان» من مجموعة «الحب والنفس». وكتب العجيلي أيضاً قصتي «بنادق من لواء الجليل» و«بريد العودة» من مجموعته القصصية «قناديل في أشبيلية». وجاءت قصص ألفت الأدلبي عن القضية الفلسطينية انفعالية وساذجة. وكتب سعيد حورانية قصتيه «حمد دياب» و«قيامة العازار» من مجموعته القصصية «شتاء قاس آخر» وقصة «من يوميات ثائر» من مجموعته القصصية «ستتان وتحترق الغابة». ويعد وليد اخلاصي أكثر القصصيين السوريين الذين تناولوا القضية الفلسطينية محوراً لقصصهم. فقد كتب قصتي «أبو سطيف يحرق خان الشوربجي» و«الآلام الرائعة» من مجموعته القصصية «دماء في الصبح الأغبر». وأصدر مجموعة قصصية تتحدث جميع قصصها عن النضال العربي في فلسطين باسم «زمن الهجرات القصيرة» أهداها إلى مناضلي فتح، وفيها قصص أقرب إلى السذاجة والسطحية، وهي لا تمثل قصص إخلاصي الجيدة، ولا تمتلك البعدين الفكري والإنساني الكافيين لمعالجة قضية بمثل هذه الأهمية، فجاءت القصص قصيرة جداً ومبتسرة، أقرب في تناولها إلى الميلودراما منها إلى الفن القصصي الناضج. ففي «قصة فلسطينية» مثلاً يسأل محمد والده: متى سنعود؟ ولكنه لا يتلقى جواباً. يموت الأب بالسل، ويحقد محمد على الحياة، ويتزوج ويسأله ابنه أحمد عن الوقت الذي يستطيع فيه القتال فيجيبه الأب: عندما تبلغ الرابعة عشرة وعندها يهتف الإبن: متى أبلغ الرابعة عشرة يا إلهي؟

لقد اهتمت القصة السورية بالقضية الفلسطينية أكثر من اهتمام أية قصة أخرى في الوطن العربي. وفي الفترة ما بين النكبة عام ١٩٤٨ والنكسة عام ١٩٦٧ لم تأت القصص التي تناولت القضية الفلسطينية بمستوى القضية، على الرغم من اهتمام كتابها بها، وأهم ما يميزها الربط بين القضية الفلسطينية والثورة العربية، ويتم هذا الربط باعتبارين أساسيين: «الأول: إن النكبة الفلسطينية كانت عاملاً رئيسياً من عوامل تفجير الثورة العربية والثاني: إن تحرير فلسطين يؤلف جوهر القضية العربية»[٣٦]. وتبرز قصص مطاع صفدي «أشباح أبطال» الصادرة عام ١٩٥٩ كمثال في هذا المجال، وكذلك روايته «جيل القدر» (١٩٦٠) وقد جسد فيها شخصية فلسطينية هي شخصية (هاني) اللاجيء إلى دمشق والمسافر دائماً بين الشرق العربي وأمريكا، وكأن الكاتب أراد أن يخلق

(٣٦) حسام الخطيب، «الموضوع الفلسطيني في القصة السورية الحديثة»، في مجلة الكتاب، (١٩٧٥)، العدد ٦، ص ٩٥.

لنا البديل الموضوعي لليهودي التائه. وقد وقع الكاتب عند كتابته لهذه الرواية تحت تأثير المذاهب الأدبية الأجنبية.

وقد لجأ قدري العمر في مجموعته القصصية «يحدثونك عن القلب» (١٩٦٢) إلى تصوير المشكلات التي كان يعاني منها اللاجيء الفلسطيني. وهو يعالج هذه المشكلات من السطح من دون غوص في أعماق المشكلة. ووقع فيما وقع فيه جيل القصصيين الرواد من إنشائية السرد وبعد عن الفنية القصصية. وتحدث بديع حقي غبر قصصه في مجموعة «التراب الحزين» (١٩٦١) عن الحنين إلى فلسطين والتشرد عنها، وجاء أسلوبها فخماً جزلاً ينضح بعمق الفجيعة وجلل المصاب. ويقدم فارس زرزور في قصصه «حفنة من تراب»، «شجرة البطم»، «الدخان» من مجموعته «حتى القطرة الأخيرة» (١٩٦١)، وعبر قصصه «ساعة الصفر»، «أحياء في قبور»، «المقاومون» من مجموعته القصصية «٤٢ راكباً ونصف» (١٩٦٦) الروح النضالية الإنسانية ضد العدوان الصهيوني ولا سيما بطولة الجندي العربي السوري في الحرب الفلسطينية. وقد احتلت القضية الفلسطينية مكان الصدارة في القصة العربية السورية بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧، ووصلت القصة عند بعض كتابها درجة عالية من الفنية والإتقان مثل قصص حيدر حيدر وهاني الراهب وحنا مينه وسعيد حورانية ووليد إخلاصي وجان الكسان وزكريا تامر وصدقي إسماعيل.

وقد حاولت القصة في الأردن أن تعالج القضية الفلسطينية بأسلوب فني عال، ولكنها لم تبلغ ما بلغته القصة السورية من فنية وشمول واحتواء. وقد دارت القصص في الأردن، والتي تناولت القضية الفلسطينية بالمعالجة، حول موضوعين أساسيين، التشرد وما سببه للفلسطينيين من قهر وجوع والتطلع في العودة إلى الوطن بعد القضاء على الكيان الإسرائيلي في فلسطين. وخير مثال على ذلك قصة «فتاة من فلسطين» (١٩٤٨) لعبد الحليم عباس. أما قصص عيسى الناعوري في مجموعته «خلي الصيف يقول». فهو يرى بأن أسباب النكبة تكمن في الساسة والحكام العرب: «والمأساة التي ألمت بالأمة فينا أنفسنا وفي عدونا: مأساة بلدك وبلدي وأهلك وأهلي، هي من صنعك أنت ومن صنع قومك وقومي، تواطأ الواعي منا فيها مع الأعداء عن خيانة وتصميم وسار الجاهل منا فيها مع خطى الأعداء على إذعان وسذاجة، فوقعت المأساة نتيجة للوعي الخائن المصمم والجهل الساذج المذعن»[٣٧]. وقد ظهرت بذرة قصص المقاومة في مجموعة «ما أقل الثمن» (١٩٦٢) لمحمود سيف الدين الإيراني. فهو يجسد اليأس الذي يتحول لدى الفلسطيني

---

(٣٧) عيسى الناعوري، خلي الصيف يقول (القدس: ١٩٥٦)، ص ٣.

المتشرد إلى ثورة وتصميم لاسترداد الأرض المغتصبة: «يشرع في التفكير وإعادة النظر، فيرى الموت والحياة. والحياة أقوى من الموت، بدليل هذا الصراخ القوي. ويتساءل أما لهذا الليل من آخر. ويمضي في تفكيره إلى أن يحس أخيراً بقوته مثل قوة الوليد الذي ملأ الدنيا صراخه، وخيل إليه أنه كان يجب أن ينصهر في بوتقة الألم لكي يولد من جديد، لكي ينهض هو والآخرون من بين الأنقاض وقد صمموا أن يعملوا ليضعوا حداً لهذا الليل الطويل»[٣٨]. وقد شغلت القضية الفلسطينية الكتاب في الأردن: «فهي من أهم المشاكل التي واجهها الأردن الحديث بمختلف جوانبها وأبعادها التاريخية والحضارية وما ترتب على ذلك من عواقب ومخلفات سياسية جسيمة على البلاد، لذا فليس غريباً أن تكون قضية فلسطين ومشكلة اللاجئين وطردهم من أراضيهم من أهم موضوعات ومواد الأدب في الأردن ولا سيما أن أكثر أدباء الأردن عاشوا النكبة وعانوا من آثارها الكثير، وإن بعضهم ينتمي إلى اللاجئين أنفسهم. . . وطرحت قضية الشعب العربي في فلسطين كمشكلة لاجئين يستحقون العطف وليس كمشكلة شعب اقتلع بكامله من الجذور التي تربطه بالأرض وتشكل كيانه القومي فأصبح يعيش قضيته الآن مكافحاً مقاتلاً من أجل استعادة حقه المغتصب وكيانه المفقود، والذي لا يمكن بدونه أن يكون إنساناً بعد أن خرج من صعيد الادمية، وكثيراً ما كانت الفكرة الهادفة السليمة ذات المغزى الجميل تطغى على وسائل الأداء الفني وتصيب النواحي الجمالية في الصميم فتهزها، وتضعف من مكونات البناء القصصي السليم»[٣٩] تضم قصص أمين ملحس في مجموعتيه «من وحي الواقع» و«أبو مصطفى» وقصص أخرى كفاح الشعب العربي في فلسطين وبطولاته الرائعة من أجل الذود عن كرامته. ولا تخلو قصصه من مباشرة وتلقينية لاسترداد الأرض والتمسك بها وحب الوطن. وقد كتب كل من محمد سعيد الجندي وميشيل الحاج ومحمد أديب العامري وأحمد العناني ونمر سرحان وأمين شنار قصصهم في هذا المعنى ونفس الاتجاه.

وقد كتب جورج حنا روايته (لاجئة) لتصوير عمق المأساة. وعبرت غادة السمان في بعض قصصها عما يعانيه الفلسطيني في حياة اللجوء والتشرد ولم تهتم القصة اللبنانية كثيراً في تجسيد القضية الفلسطينية فقد تأثرت بالمذاهب الأوروبية الحديثة في الأدب وجنحت نحو التقليد أكثر من معالجتها لمشكلات الأمة العربية والصراع القومي في

---

(٣٨) محمود سيف الدين الايراني، ما اقل الثمن (عمان: ١٩٦٢)، ص ١٤٨.

(٣٩) حسين جمعة، «قضية فلسطين في الأدب الاردني الحديث حتى نكسة حزيران ١٩٦٧»، في مجلة الكتاب، (١٩٧٥)، العدد ٦، ص ١٢٦ - ١٢٧.

فلسطين. أما القصاص العراقي فلم يهتم كثيراً بالقضية الفلسطينية بعد النكبة، فيما عدا قصص متفرقة هنا وهناك في بطون الصحف والمجلات والمجموعات القصصية. وجميعها تغلب عليها النزعة العاطفية والميلودرامية، وتفتقد الإحساس الفني الأصيل. فقد صور هؤلاء الكتاب في قصصهم المطرودين من أرضهم واللاجئين، وصوروا شقاءهم وبؤسهم وأحزانهم مما أدى إلى طغيان الجانب الحماسي والعاطفي والدعاوى على العنصر الفني.

واعتمد القصصيون في مجال الشخصيات على رسم المشردين والبائسين، فبدت في صورة ثابتة مفتعلة ومسطحة لا أبعاد لها. وقد تحولت هذه القصص إلى مقالات حماسية أو ريبورتاجات صحفية. وضيقوا من الدلالة الرحبة للمأساة، وداروا في حلقتها القومية ولم يقفوا إلا عابرين عند دلالتها الإنسانية. ولا شك أن النكبة الفلسطينية مأساة إنسانية إلى جانب مظهرها القومي. فقد تضمنت مجموعة حامد غضبان الراوي «إزاحة الستار»، الصادرة عام ١٩٤٩، قصصا تصور القضية الفلسطينية. وتمثل نفسية العربي الهارب من الواقع إلى الخيال. فقد خلق الراوي مجتمعات وأناساً حسبما يشتهي عن عقيدة وإخلاص. وخلق أحزاباً سرية تدافع عن العرب وخلق حكاماً يؤمنون بكلام المتهمين السياسيين، فينتمون إلى منظماتهم بيسر وسهولة، لأنهم يدافعون عن العروبة ويعملون على استرداد فلسطين، كما في قصة «هل أنا مجرم؟» مثلاً. أما قصة «ضحايا وشهود» لعبد المجيد لطفي فهي ليست إلا تحقيقاً صحفياً عن مذبحة دير ياسين، وتصور قصة «دمعة محمود» لعبد المجيد لطفي أيضاً لاجئاً فلسطينياً يعمل خادماً عند أسرة عراقية، ويأمل في العودة إلى يافا، وهي من مجموعته «في الطريق» الصادرة عام ١٩٥٨. وتمثل قصة «أشباح وظلال» لنزار سليم من مجموعته القصصية «أشياء تافهة» الصادرة عام ١٩٥٢، فريقاً من اللاجئين يبثون رسائلهم إلى ذويهم المشتتين في أرجاء الوطن العربي، ويعرض الكاتب صوراً قاتمة من حياة أولئك البائسين، ويسخر من موقف الدول العربية آنذاك تجاه المأساة. صور في القصة نوازع نفسية متفرقة في وقفة الفتاة الفلسطينية أمام المذياع تتوافر أمام ناظريها رؤى تحمل كلها طابع الفجيعة.

وإذا كان الكتاب في حديثهم عن فلسطين استطاعوا أن يعبروا تعبيرا صريحاً ومباشراً عما يريدون الجهر به، وهو تصوير أثر النكبة على الشعب الفلسطيني خاصة والشعب العربي عامة في الخمسينات من هذا القرن، فقد ارتفعوا في الستينات عن هذا المستوى التقريري إلى مستوى آخر أكثر فنية، حيث يعالج محمد خضير في قصته «الأرجوحة» جانباً إنسانياً من الصراع ضد الصهيونية، فيها تجاوز للموت وارتباط بالحياة والمستقبل

والأمل الإنساني. فبدلاً من أن يحول موت الجندي إلى ميلودراما تستدر الدموع استطاع أن يكسب القضية وجهاً جديداً عبر اهتداء الحياة. ويستمر الجندي حامل الرسالة والفتاة الصغيرة بعيدين عن شبح الموت مستمرين في نهر الحياة. فهو لا يقف أمام الفجيعة بل أمام الحياة المتفجرة المتجددة دائماً[٤٠]. وقد سار أحمد خلف في قصتيه «خوذة لرجل نصف ميت» و«صمت سري يضيء»، وجليل القيسي في قصتيه «زليخة البعد يقترب» و«الطيور المهاجرة تأخرت»، وجمعة اللامي في قصصه «اهتمامات عراقية»، «البحر والعنقاء»، «ساعات من زمن آت»، «حكمت الشامي» من مجموعته «من قتل حكمت الشامي؟». نهج هؤلاء القصاص نفس الطريق الذي نهجه كتاب الخمسينات، ولكن بفنية أكبر. وقد عالجت هذه القصص حركة المقاومة المتصاعدة لدى الناس البسطاء داخل الأرض المحتلة مع العناية بالبراعة الفنية لخلق الأثر الكلي.

وتدور رواية عبد الرزاق المطلبي «ثقب في الجدار الصدي» حول الصراع العربي الإسرائيلي حيث نجد (مختاراً) قائد الجماعة يفقد منزلته بينهم، ويظنون به الظنون، مما يدفعه إلى النزوح بعيداً عن قريته، على حين يثق أهل القرية بموسى اليهودي الذي ينقل الأخبار للصهاينة ويمكن اليهود من سكان القرية العزل، ولكن مختاراً ينجح في القبض على موسى وقتل القائد الصهيوني. كل ذلك يعبر عنه بافتعال ميلودرامي عاطفي خال من الجمال الفني. وهكذا يفشل عبد الرزاق المطلبي في معالجة القضية الفلسطينية بفنية وإبداع. ومثل هذا الهبوط الفني نجده عند أكثر كتاب الستينات الذين عالجوا القضية الفلسطينية في رواياتهم، بينما نجح جبرا إبراهيم جبرا في روايته «البحث عن وليد مسعود» وعبد الرحمن منيف في روايته «شرق المتوسط» و«حين تركنا الجسر». وجاءت رواية «الرجال تبكي بصمت» مقنعة عبر شخصياتها التي تمثل ثلاثة أجيال من الفلسطينيين، جيل ما قبل النكبة وجيل النكبة والجيل الشاب الذي يقدم نفسه فداء في سبيل استرداد الحق المغتصب. وهي من تأليف عبد المجيد لطفي. وإذا ما انتقلنا إلى القصة في مصر نجدها عالجت الموضوع في بناء فني مكين بعد النكسة، بعد المعالجات العاطفية التي قدمها أمثال يوسف السباعي في روايته «طريق العودة» ونجيب كيلاني في روايته «أرض الأنبياء» ويوسف سالم في روايته «دقت الساعة يا فلسطين». فقد امتلأت هذه الروايات وأضرابها بالنبرة الخطابية والتعبير المباشر، وامتلأت بمواقف عاطفية أبعدت الحدث عن بؤرته الأصلية. فبطل يوسف السباعي (إبراهيم) ضابط مهندس يهرب من

---

(٤٠) فاضل ثامر وياسين النصير، قصص عراقية (بغداد: ١٩٧١)، ص ٥٢، ٥٩.

ميدان المعركة لأنه ما ذهب بدافع الوطنية بل تخلصاً من الديون التي وقع فريسة لها في القاهرة.

أما بعد النكسة فقد ارتفعت المعالجة عن هذه الضحالة والسطحية وجاء انعكاس التناول قوياً على المصريين أنفسهم. ودارت الأحداث في مصر لا في فلسطين مثل رواية نجيب محفوظ «حب تحت المطر» وقصة «القاهرة في العشرين من سبتمبر» لجميل عطيه إبراهيم. يصور فيها شاباً وفتاة يسيران في شارع قاهري في العشرين من أيلول/سبتمبر عام ١٩٦٧، أي بعيد النكسة. ويتكون النسيج للقصة من دقائق حياتيه صغيرة وعادية تتخلل المسيرة في يوم عادي. ويلتصق الأسلوب بسطح الأشياء بالإشارة إلى الحرب مجسداً فيها إحساس رجل يخرج من السجن ولم يجد في انتظاره أحداً. فقد بات في مجتمعه غريباً وفقد بطولته ولم يعد مناضل الأمس القريب منذ صفيت نضاليته وصلابته داخل نفسه، وأضحت حياته خالية من كل جمال، سلوته الوحيدة أكلة شهية وأحضان امرأة. ثم أصدر رواية أخرى تعد امتداداً لرواياته الأولى، ولكنها لم تضف جديداً. فهي تصور فقدان الصلة بينه وبين العالم بعد أن نفوه من الداخل واقتلعوا جذوره من الأرض. وتصور قصة جمال الغيطاني «أيام الرعب» مأساة الإنسان العربي. فالبطاقة الهوية تعلن أن ميلاده عام ١٩٤٥، وتخترق النصال جلده وتصل إلى النخاع، لأنه يمثل جيلاً تجاوز الهزيمة وتحداها في مختلف أبعادها. وعندما ينتهي الأمر بمحروس بطل القصة إلى الجنون يحاول (عويضة) إنقاذه بثبات وثقة، وتعطينا صورة محروس دلالة على الضياع الذي أوشك الإنسان الفلسطيني أن يعيشه، والذي يرى في الموت والجنون لعبة الحياة، لولا أن تدارك الفدائيون الموقف.

وبين السلبية الكامنة في النموذجين والموقف البطولي الذي يقفه الفدائي العربي لاسترداد الحق المغتصب تتراوح القصة العربية في مصر.

وقد عالجت القصة في الجزائر القضية الفلسطينية. ففي قصة «عائدون» لحنفي بن عيسى نجد البطل لاجئاً فلسطينياً يعاني من إهدار كرامته ويصبو للعودة إلى أرضه وبيته[٤١].

وقد سار في هذا الاتجاه رمضان عبدالله من كتاب القصة في ليبيا في قصته «الأعلام

---

(٤١) عبد الله ركيبي، «البطل في القصة الجزائرية،» في الآداب السنة ٢١، (تموز / يوليو ١٩٧٣)، العدد ٧، ص٢٩ - ٣٢.

الخضراء» من مجموعته القصصية «حوار في المدينة»، وهي تحكي رد فعل مأساة عام ١٩٤٨ على الشعب العربي في ليبيا «فقد رأت مجموعة من الشباب المثقف الليبي طبع خريطة فلسطين وتوزيع أعلام خضراء ودبابيس بحيث تعلق الخرائط في المحال والمنازل وتلصق الأعلام كلما استرد العرب مدينة فلسطينية، وبينما تجار السوق البرجوازيون منغمسون في الشراء بادر بطل القصة، وهو طفل يبيع الخرائط والأعلام إلى مهاجمة حانة يهودي ومنع الرواد عنها، ولكن إعلان الهدنة أعاد إلى الحانة نشاطها السابق وبقيت الهدنة حاجزاً مانعاً يحمي اليهود. أما بطل القصة فقد فهم بأنه إذا أراد الإنسان أن يتقدم فعليه ألا يعتبر أن هناك هدنة مع الحياة... وهي تخلو من الخطابية المباشرة... خلوها من روح الشعر التي وجدناها منغمة في قصص أحمد إبراهيم الفقيه... وليكن عذر رمضان عبدالله أنه يكتب القصة كسلاح في معركة الشعب الليبي نحو التحرر والتقدم»[٤٢].

تناول القصصيون التونسيون القضية الفلسطينية بدرجات متفاوتة من الإتقان والجودة وبأساليب مختلفة، منها ما يعتمد على الإيحاء وما فيه من إثارة كما في قصة «بندقيتي» لحسن نصر، ومنهم من استعمل الرمز. وهم يتناولون أكثر من موضوع من مواضيع القضية الفلسطينية، وخاصة تلك التي تتعلق بمسؤولية الساسة والحكام العرب في ضياع الحق العربي في فلسطين. ومنهم من زاوج بين العلم والثورة الفلسطينية مثل قصة «فاطمة» لجلول عزونة. وقد أشار فيها إلى الثورة الفلسطينية وعمل الفدائيين البطولي والتضحية بكل شيء في سبيل تحقيق القضاء على الكيان الصهيوني. وحدد في قصته أن هذا الكيان المزروع في الوطن العربي مصيره الموت، تماماً كما يحصل عند زرع القلوب التي سرعان ما تتوقف كما حدث لـ(لايبرغ) عندما زرع له قلب بدلاً من قلبه فقاده إلى الموت. وقد اهتم الكتاب التونسيون بشكل عام في قصصهم حول القضية الفلسطينية بالجانب البطولي والعسكري أكثر من اهتمامهم بالجانب السياسي[٤٣].

ولم تستطع القصة في الخليج العربي أن تقدم الكثير للقضية الفلسطينية غير بعض القصص المتفرقة هنا وهناك في بطون المجلات والمجموعات القصصية. ولعل أفضل

---

(٤٢) احمد محمد عطية، «القصة والانسان في ليبيا،» في الآداب السنة ١٦، (حزيران / يونيو ١٩٦٨)، العدد ٦، ص ٤٣ ـ ٤٨.

(٤٣) محمد مواعده. قضية فلسطين في نتاج بعض الأدباء التونسيين،» في مجلة الكتاب، (١٩٧٥)، العدد ٦

عملين قدما في هذا المجال هما روايتا إسماعيل فهد إسماعيل «ملف الحادثة ٦٧» و«الشياح»(٤٤).

إن أفضل النتاج القصصي العربي الذي تناول القضية الفلسطينية، ذلك الذي كتبه الكتاب الفلسطينيون أنفسهم، على الرغم من أن البدايات القصصية لم ترتفع إلى المستوى الفني الذي يلائم عظمة القضية مثل روايتي «دقت الساعة يا فلسطين» لعلي أبي حيدر و«لاجئة» لجورج حنا، لأنهما غلفتا بإطار عاطفي وكتبتا بأسلوب خطابي وخططتا بأحداث جانبية. فقدمتا لنا شخوصهما بصورة مبالغ بها وبأثواب وطنية زاعقة وتوق صوفي لتحرير البلاد، كل ذلك يبعدهما عن جو المأساة الحقيقية، لأن التحرر لم يكن بالخطب يوماً، بل بالسواعد المناضلة المقاتلة بعناد وثقة.

أما القسم الثاني من الأعمال القصصية والروائية التي تدور حول القضية الفلسطينية فقد ارتفع إلى مستوى القضية وخير مثال على ذلك قصص غسان كنفاني ورواياته: «موت سرير رقم ١٢»، «أرض البرتقال الحزين»، «رجال في الشمس»، «عالم ليس لنا»، «ما تبقى لكم»، «عن الرجال والبنادق»، «أم سعد» و«عائد إلى حيفا». ورواية حليم بركات «ستة أيام» ورواية اميل حبيبي «سداسية الأيام الستة» ورواية جبرا ابراهيم جبرا «البحث عن وليد مسعود».

يقف غسان كنفاني المناضل الشاب، الذي قدم حياته من أجل قضيته، في أدبه القصصي في نفس الموقف الذي وقفه طوال حياته وحتى موته، فتح عينيه على مأساة بلاده فاستطاع أن يجسد هذه المأساة بعد أن شربها كأساً دهاقاً، فتأصلت غناً على قلمه وحياة بين سطوره. فقد عالج في مجموعته القصصية الأولى «موت سرير رقم ١٢» موضوع القضية الفلسطينية في إطار محلي بلغ فيه درجة إنسانية عالية. ففي قصة «منتصف أيار» مثلاً تعود الذكرى ببطلنا إلى الماضي يوم أن قام هو وصديقه بعملية فدائية. وقد طلب الصديق إليه أن يضع أزهار الحقول على قبره، إذا لم يعد من العملية الفدائية. وبينما هما في الحديث يفاجآن بقنبلة إسرائيلية فيستشهد الصديق «لقد اكتشفت. يجب أن تكون أنت قد اكتشفت منذ بعيد. كم هو ضروري أن يموت بعض الناس من أجل أن يعيش

---

(٤٤) ينظر: عمر الطالب، القصة في الخليج العربي.
تطور المرأة من خلال القصة في الخليج العربي. منشورات المؤتمرين الثقافي والثالث للخليج العربي الذي اقامته جامعة البصرة في المجلدين ٣، ٣١.

البعض الآخر، إنها حكمة قديمة، أهم ما فيها الآن أنني أعيشها»[٤٥] وهذا ما قاله بطل القصة في أواخر الخمسينات وبداية الستينات. ولكن هذا الصوت الجميل سكت إلى الأبد في مطلع السبعينات. ومثل هذه الجمالية الفنية تجدها في قصص أخرى من المجموعة تناولت القضية الفلسطينية بعمق وأصالة مثل قصتي «موت سرير رقم ١٢» و«شيء يذهب». وتقف روايات غسان كنفاني في طليعة الروايات العربية التي تحدثت عن القضية الفلسطينية وإن بلغت رواية «ما تبقى لكم» درجة كبيرة من الإبداع الفني، ورواية «رجال في الشمس» تبقى التجسيد الحقيقي العميق للقضية الفلسطينية عبر أجيالها الثلاثة (جيل أبي قيس وجيل أسعد وجيل مروان). وقد استوعبت روايته الأخيرة «عائد من حيفا» القضية الفلسطينية وطرحت موضوعاً جديداً عنها، موضوع أولئك الذين تركوا وطنهم وأولئك الذين تركوا في أرضهم فلذات أكبادهم هرباً من الجور والظلم الإسرائيليين. فقد ترك سعيد وزوجته صفية ولدهما خلدون الذي لم يتجاوز الخمسة أشهر من عمره، عندما احتل العدو منزلهم الذي رحلا عنه ومعهما أولادهما. وتاقا إلى رؤية منزلهما وولدهما بعد رحيل عشرين سنة، فعادا إلى حيفا، وقفزت الذكريات إلى مخيلتهما وانسابت دموعهما عندما رأيا بيتهما وما حل به من تغيير. ومضى الولدان في انتظار ابنهما خلدون ولكنهما فوجئا بدخول (دوف) تبينا فيه أنه ابنهما خلدون الذي لم يبق فيه شيء من العروبة وأصبح إسرائيلياً معادياً للعرب. وبعد أن خرجا من دارهما القديم تاركين ولدهما الذي لم يعد ولدهما، ظلا صامتين، ونظر سعيد إلى زوجته صفية وقال: (أرجو أن يكون خالد قد ذهب أثناء غيابنا). وخالد هذا فدائي عظيم البأس خرب الكثير من المؤسسات الإسرائيلية وقتل الكثير من الإسرائيليين.

وقدم اميل حبيبي روايته عن الأرض المحتلة باسم «سداسية الأيام الستة» وهي سلسلة من القصص يربطها خيط واحد تروي لنا مأساة حزيران والتمزقات والآمال والأحزان التي عاشها المواطن الفلسطيني طوال فترة الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وتتحدث عن مأساة أولئك الذين بقوا في فلسطين والذين هاجروا منها. وأفجع ما فيها أنها تمثل الأرض المحتلة الرازحة تحت كابوس الهزيمة والإنهيار.

تحدثنا القصة الأولى عن مسعود وابن عمه. فقد عاش مسعود وحيداً في قريته لا يعرف له أهلاً، ولكن مسعود، المكنى بفجلة، يفاجأ بزيارة ابن عمه القادم من الضفة

---

(٤٥) غسان كنفاني، الآثار الكاملة (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٢ - ١٩٧٧)، م٢، ص ٧٩.

الغربية. أحب مسعود ابن عمه سامحاً وكان يستمع إليه بإعجاب، وهو يتحدث عن أخيه الذي يعمل صيدلياً في الكويت، والذي زار القاهرة وحضر حفلة غنى فيها عبد الحليم حافظ بشخصه. ونام مسعود وهو يحلم بابن عمه سامح وبأخيه في الكويت.

وتحدثنا القصة الثانية «وأخيراً نوّر اللوز» عن أبناء الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة الذي انقطعت الأواصر السابقة بينهم. فهم أغراب في وطنهم. يفاجأ راوي القصة بزيارة صديقه (م) الذي راح يحدثه عن ذكريات سابقة وآمال مشتركة: «ولكنني الآن بعد أن زارني الأستاذ ميم وحدثني بكل ما حدثني به فهمت كل شيء، فإني واثق بأن الأستاذ ميم صادق في نسيانه وصادق في لهفته على أن يتذكر، فبإرادة باطنية غريبة نسي حقاً أنه نفسه هو صاحب القصة الجميلة والابتسامة التي نورت صبانا... إذا كانت قامته قد طالت كما قال لي فستطول يده هذه القصة فيقرأ، فهل حينئذ سيتذكر فيعيد الروابط بماضيه فينتشل نفسه من حاضرها. وأخيراً نور اللوز فالتقينا وكان الربيع يضحك وكان القدر يقهقه»(٤٦).

ومن الروايات الطليعية التي تناولت موضوع الأرض المحتلة واستقطبت أبعاد القضية رواية «ستة أيام» لحليم بركات. وقد امتازت بالإجادة الفنية وحسن البناء في تناول الموضوع والمزاوجة الواعية بين عمق القضية والتمزق الكائن في الوطن العربي بحيث استطاع الكاتب أن يعكس وجه القضية الفلسطينية على مرآة الوطن العربي الكبير(٤٧).

وقد نضجت الرواية الواقعية الفلسطينية في روايات توفيق فياض ورشاد أبو شارد ويحي يخلف وحليم بركات وجبرا إبراهيم جبرا. إن ما يميزهم هو التجربة الحياتية اليومية والمشاعر العربية الفلسطينية في المثبطات والآلام والآمال والوعود والعمل والقتال، وإن اختلفوا في المعالجة والتناول، وغيرهم كثير.

إن القصص التي دارت حول القضية الفلسطينية لم تستوعب تماماً عمق القضية. فلم تنجب فناً قصصياً يحمل أبعاد القضية عدا قلة من القصص والروايات التي استطاعت أن تصل إلى مستوى القضية، ولا سيا تلك القصص والروايات التي كتبها

---

(٤٦) اميل حبيبي، سداسية الايام الستة (بيروت: دار العودة، د. ت.)، ص ٣٨، ٣٩، ٤٨.

(٤٧) صبري حافظ، «نكبة فلسطين في الرواية العربية المعاصرة،» في مجلة الآداب، (١٩٦٤)، العدد ٤.

كتاب فلسطينيون. ومن هنا وجب على القصصي العربي أن يعمل جهده لتقديم أبعاد القضية الفلسطينية بعمق إنساني ورؤية قومية، وأن يربط بين القضية وبين الثورات التحريرية العالمية، لأنها جميعاً تملك بعداً إنسانياً واحداً هو الحرية. ولكي تستمع شعوب العالم إلى الصوت العربي الصميم وتتفهم القضية على حقيقتها من أجل تحقيق الكرامة للإنسان العربي خاصة والإنسانية عامة.

المسرح العربي والقضية الفلسطينية

لم تهتم الحركة المسرحية في الوطن العربي ولا كتاب المسرحية فيه بالقضية الفلسطينية، كما اهتم الشعراء وكتاب القصة والرواية بتلك القضية التي هزت وجدان وضمير المواطن العربي من المحيط إلى الخليج. ولعل أول من اهتم بهذه القضية في مسرحياته برهان الدين العبوشي الذي كتب ثلاث مسرحيات شعرية عن القضية الفلسطينية هي «وطن الشهيد» (١٩٤٧)، «شبح الأندلس» (١٩٤٩)، «الفداء» (١٩٥٢) تناول في المسرحية الأولى الصراع بين العرب والإسرائيليين، وفي المسرحية الثانية حرب جنين حيث قابل الجيش العراقي الجيش الإسرائيلي وانتصر عليه، وتناول في المسرحية الثالثة فكرة الفداء والدفاع عن أرض الوطن حتى الاستشهاد.

أيـا جنـة الأحبـاب بـالله أرجعـي ... فلسـطين أمي ليس غيـرك لي أمـا
فلسطين ما أبهى سهولك والربى ... بك الكرمـل الفواح أبـدع به كـرما
وما أجمل الثغـرين يافـا وعكـة ... فـإني رأيت الهم عنـدهمـا نعمى
لك العز في بيسان والجرمق الـذي ... بـه صفد ازدانت فتـاهت بـه رسمـا
بكت طبـريـا البعـد عن أخـوة لهـا ... فحال خيبثاء ماء بحرتهـا طعمـا
تكـاد تـذوب النفس حـزنـا وحسـرة ... أيـا ثكنة الأشبـال اتقدي عـزمـا
فـتـا لله لم تـرجـعي مـسـتـجـدة ... شبابا فلن نرتاح روحاً ولا جسما[٤٨]

وتمتاز المسرحيات الشعرية والنثرية التي تناولت القضية الفلسطينية بالبساطة والوضوح والمباشرة، والبناء الفني فيها ضعيف، وتقرب المسرحية الشعرية من الغنائية حيناً والخطابية في أحايين أخرى، ولا تخلو النثرية من الإنفعال الشديد والسذاجة والدعاوي. وفي المسرح العراقي العديد من مثل هذه المسرحيات مثل: «فلسطين المجاهدة» (١٩٤٨) لابن الشراة، «مأساة فلسطين» (١٩٥٢) لحسن أحمد الأسدي،

---

(٤٨) شبح الأندلس، ص ٧٢.

«خالد وثريا» (١٩٣٩) لحنا رسام، «فلسطين» (١٩٦١) لعبد الإله حسن، «فلسطين عربية» (١٩٦٦) لعبد الرزاق الشاهين، «لبيك فلسطين» (١٩٦٤) لعبدالله زكي، «مأساة فلسطين» (١٩٦١) لعزيز الكعبي و«مأساة أخوين من اللاجئين» (١٩٤٨) لميرزا حمزة شير علي. وتغرق جميع المسرحيات العراقية في العاطفية والسوداوية والصراخ والأسلوب غير الفني والحوار الساذج والبناء المفكك.

وقدمت مسرحيات عراقية ناجحة تناولت القضية الفلسطينية بعمق ونضج، وألقت أبعاداً جديدة على واقع القضية لم يتناوله الكتاب من قبل مثل مسرحية «الأسوار الشعرية» (١٩٥٦) لخالد الشواف، «محاكمة سرحان بشارة سرحان» (١٩٦٩) لعمانوئيل رسام، «أنا ضمير المتكلم» (١٩٧١) لقاسم محمد، «جيفارا عاد افتحوا الأبواب» (١٩٧١) لجليل القيسي، «بطاقة دخول إلى الخيمة» (١٩٧٤) لعبد الأمير معله.

ولم يكن المسرح في سوريا أفضل مما هو عليه المسرح في العراق. وقد بدأ المسرح في سوريا باليقظة وتناول الكتاب في سوريا القضية الفلسطينية وقدموا مسرحيات جيدة في هذا الاتجاه بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ مثل «دخان الأقبية» ليوسف مقدسي «والسيل» لعلي كنعان، وقد عالجت الأخطار التي تحيق بالوطن العربي من جراء الإعتداءات الإسرائيلية بمزيج من الواقعية والشعر، والمباشرة والرمز ثم ظهرت «طائر الخرافة»، وهي مجموعة مسرحيات تجريبية متأثرة بعمق الواقع السياسي الحزيراني، ويسيطر عليها إحساس بالقتامة والسواد من جهة وبالصراع من أجل التماسك من جديد من جهة أخرى. وظهرت مسرحيتا «الفلسطينيات» و«الغرباء» لعلي عقلة عرسان حيث مال في الأولى إلى التسجيلية وفي المسرحية الثانية اتجه نحو الطابع الدرامي المتفاعل. ومسرحية «ضيعة تشرين» لمحمد الماغوط، وهي مسرحية ناقدة ساخرة، وكان قد قدم قبلها مسرحيتين ناجحتين «العصفور الأحدب» و«المهرج». وقدم مصطفى الحلاج مسرحيتي «أيها الإسرائيلي حان وقت الإستسلام» و«احتفال ليلي خاص بدريسدن». وهما مسرحيتان بسيطتان في بناء درامي مكين يكثف فيهما الزمان والمكان ويمنح شخصياته حرية الحركة والصراع، ومسرحية «كفر قاسم» وهي خليط من المسرحية التسجيلية والميلودراما والأوبريت لجان الكسان(٤٩). ولم يتناول المسرح المصري القضية الفلسطينية تناولاً جاداً إذا استثنينا مسرحيات قليلة مثل «المسامير» لسعد الدين وهبة و«اللحظة

---

(٤٩) ينظر: رياض عصمت، «تشرين ومسرح الحرب»، في مجلة المعرفة، (تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٤)، العدد ١٥٢، ص ١٣١ - ١٤٨.

الحرجة» و«المخططون» ليوسف إدريس و«النار والزيتون» لألفرد فرج، «والغريب» و«باب الفتوح» لمحمود دياب، و«أغنية على الممر» لعلي سالم.

إن عدد المسرحيات التي كتبت لمعالجة القضية الفلسطينية في المغرب العربي قليل جداً، ومن أبرز هذه المسرحيات «زلزال تل أبيب» للكاتب التونسي الميداني بن صالح، عالج فيها الكاتب الثورة والوحدة والأرض، وهو إذ يستعرض المراحل الأساسية التي مرت بها الثورة الفلسطينية يحلل خلال ذلك أهم القضايا، سواء منها المتعلقة بفلسطين والثورة بصورة خاصة أو المتعلقة بالوطن العربي عامة. ويدور الحدث في مخيم للاجئين. وتتدرج المشاهد من مظاهر البؤس والانتظار إلى مظاهر النضال الثوري الذي يرفض الانتظار ويفرض الحركية والتغيير للتعجيل بالنصر. وتتطور الشخصيات من لاجئين يجترون الماضي ويعيدونه في مجال التذكر إلى شبان مناضلين مقاتلين. ومسرحية «الأرض المغصوبة» لمعمر بن سالم أهداها إلى الفدائيين الفلسطينيين وإلى الثوار الأحرار في كل موقع ودار. وتتألف المسرحية من ثلاثة أقسام حلل فيها الكاتب جوانب القضية وطبيعة الصراع بين العرب والإسرائيليين مشيراً إلى أهداف الصهاينة التوسعية، وسعي الشباب العربي للفداء في سبيل استرداد الأرض المغتصبة[٥٠]. ولم تنضج الحركة المسرحية في الخليج العربي إلا قبل سنوات قليلة، ولم تتناول بعد موضوعات خطيرة كالقضية الفلسطينية.

وماذا عن المسرح الفلسطيني؟ لا تسمح السلطات الإسرائيلية بعرض مسرحية عربية إلا بعد أخذ موافقة الحاكم العسكري الإسرائيلي. وهم يتشددون في الترخيص للفرق المسرحية العربية، لذا نشأ مسرح للهواة، وكتب بعض من الشباب الفلسطيني في الأرض المحتلة مسرحيات لتقرأ أو لتمثل. فقد قدم الشباب الهواة مسرحية « قراقاش » الشعرية لسميح القاسم. ومسرحيته الثانية « كيف رد الرابي مندل على تلاميذه» . «وفلسطين في هذه المسرحية قطعة أرض تحمل ملامح حديقة قديمة أمام منزلين متلاصقين أحدهما مبني على الطراز العربي والآخر أوروبي الطراز أمام البيت الأول نخلة وأمام البيت الثاني شجرة موز. بطلا المسرحية هما رضوان العربي صاحب المنزل والحديقة، وشلومو الذي بنى منزله الأوروبي حديثاً، وهو يهودي قدم إلى المنطقة المحتلة منذ فترة ليست طويلة. الصراع بين الاثنين يمر خلال ست مراحل يتخللها تدخل السيد عالم لكنه يفشل في التوفيق بين الإثنين. ويتدخل الشرطي أيضاً وهو منحاز إلى جانب شلومو ضد

---

(٥٠) مواعده، « قضية فلسطين . . . » .

رضوان، لكنه لا يملك سوى إدانة العربي رضوان ويشكل يضيف على الأزمة شيئاً ولا يزيدها إلا إصرار رضوان على متابعة الصراع الذي تنتهي به المسرحية وهو لما يزل مستمراً[٥١] .

وقدمت فرقة البالونات عدة مسرحيات منها «قطعة من الحياة» وتظهر عاملاً عربياً يدفعه اليأس من واقعه إلى تدمير المعمل الذي يعمل فيه. ومسرحية «النشرة الجوية» ، وهي تصور خلافات المؤسسات الدينية مع المواطنين العرب ومسرحية «ثوب الإمبراطور»، التي تروي كيف تدفع السلطات المواطنين إلى رؤية العالم كما تصوره لهم. ومسرحية «العتمة» ومسرحيه «يا عتب الخليل» ومسرحية «باجس أبو عطوان يزرع أشجار العنب» لشاعر الثورة الفلسطينية عز الدين المناصرة، وهي تتحدث عن حياة واستشهاد المناضل باجس أبو عطوان»[٥٢] .

وقدم بعض المسرحيين الشباب مسرحياتهم في الأرض المحتلة قبل الرحيل عنها، مثل توفيق فياض الذي كتب مسرحيته «بيت الجنون» في الأرض المحتلة، والتي نشرت في جريدة الأنوار اللبنانية في عددين من آب/أغسطس عام ١٩٦٧ «يقدم لنا هذه المسرحية كعلامة بارزة في أدب المقاومة في فلسطين المحتلة. فهي، شكلاً ومضموناً، أكثر من صرخة شجاعة، إنها تفسير وموقف ونبوءة، فالبطل سامي وحده هو بطل المسرحية. . . وهو إعلان عن الموقف بالشكل والجمهور الذي يواجهه البطل طرف في صلب المسرحية»[٥٣] .

وتتحدد ملامح المسرح الفلسطيني المقاتل في الأرض المحتلة بما يأتي:

١ : ـ يقوم المسرح الفلسطيني من منطلق التحريض ويستعمل في سبيل ذلك كافة الوسائل الممكنة.

٢ : ـ يحاول الوصول إلى الجماهير الواسعة عن طريق إيجاد لغة مسرحية سهلة الانتقال.

٣: ـ يعتمد على النصوص المعدة فهو لا يعبأ مرحلياً بالشح في النص المحلي. وإنما

---

(٥١) مسرحية جديدة لسميح القاسم عن « اورينت برس » (بيروت) ملحق جريدة الجمهورية العراقية .

(٥٢) عادل ابو شنب ، « المسرح الفلسطيني في الأراضي المحتلة ، » في مجلة المعرفة ، (أيار / مايو ١٩٧٥) ، العدد ١٥٩ .

(٥٣) عباس خضر ، ادب المقاومة (القاهرة : ١٩٦٨) ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

يكيف النصوص التي بين يديه بحيث تتلاءم والواقع المعاش.

٤: ـ يحاول المسرح الفلسطيني كسر التقليدية في التقنية والأداء، عن طريق الخروج إلى الشارع وعدم التقيد بالحرفية المطلوبة[٥٤] .

٥: ـ إنه مسرح جماعي يهدف إلى تقديم الروح الجماعية النضالية المستمدة من وحي الواقع وظروفه من خلال الفعل والرؤية.

يقول غسان كنفاني: «إن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة يتميز بهذه الرؤيا العميقة، ولذلك فهو يقاتل على أكثر من جهة. وسيكون من المدهش حقاً أن يرى الدارس في انتاج أدباء الأرض المحتلة أدباً مبكراً عبر الشعر والقصة والمسرحية لكثير من معطيات الموقف الذي اكتشفه الأدباء العرب في مختلف البلاد العربية على العموم في أعقاب حزيران»[٥٥] .

شعر المقاومة في الأرض المحتلة

لقد انبعث شعر المقاومة في الأرض المحتلة مع إحساس أبناء الشعب العربي في فلسطين بالحصار والاضطهاد والسور الحديدي المقام حولهم لعزلهم عن الوطن العربي الكبير، ومحاولة إضعاف الروح القومية لديهم. وسرعان ما خاب توقع الكيان الإسرائيلي المحتل للأرض العربية. فقد انطلقت بندقية الفدائي وشعر المقاومين من الداخل. ذلك أن المقاومين شعراً ولدوا مع المقاومين دماً «وتهاوى الشباب عشقاً للموت الجديد وللشعر الجديد، وأشرفت ابتسامة درويش وبراءة سميح... وبرهن الشعر ثانية أنه دم آخر للشعب العربي وأنه الرد الإنساني على الإعلام. فصوت حق واحد يخرس. وتلك ظاهرة الصحة في قصائد درويش وقاسم وزياد والمجموعة كلها، التي تعزف وتتكامل كالأوركسترا لحناً واحداً أساسياً تردده حنجرات متعددة ليصبح صوتاً خاصاً لكل حنجرة في الوقت ذاته. فالجميع يعزفون من قاموس الحرية اللغوية ويتفننون في صقل الألفاظ اليومية وردها إلى تحريضها الشعري. والجميع يتحررون ويحررون من أساطير الشعب المتخلف ومن أنماط الركود في الاعتقاد والقول والممارسة. وجميعهم محرضون لحياة فوق الجثث، وانبهار أخاذ بما يرونه هم ولا يراه الآخرون»[٥٦] .

يعتمد شعر المقاومة الفلسطينية، من حيث المضمون، على ثلاثة محاور أساسية:

---

(٥٤) ابو شنب، «المسرح الفلسطيني...».

(٥٥) خضر، أدب المقاومة، ص ٩٩.

(٥٦) مطاع صفدي، مقدمة ديوان سميح القاسم، ص ل. س.

الشعر الوطني الداعي إلى تحرير الأرض من المحتلين الغاصبين والتشبث بها. والشعر القومي الذي يؤكد الانتماء إلى الأمة العربية وأن فلسطين جزء من الوطن العربي الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج. والشعر الإنساني الذي يتعرض إلى ما يقاسيه الإنسان العربي في الأرض المحتلة من اضطهاد وتضييق وكبت للحريات، وحصار اقتصادي ومعاملة إرهابية غير إنسانية. ويثبت الشعر بأن الثورة العربية في فلسطين ما هي إلا واحدة من ثورات العالم التحريرية في سبيل استرداد كرامة الإنسان وحقه المغتصب على أرضه.

وإذا كانت هذه المحاور الثلاثة هي التي اعتمد عليها الشعر الفلسطيني قبل التقسيم أيضاً، فإن شعر المقاومة امتاز بموقف فكري واضح تجاه الاحتلال الإسرائيلي. ومن الشعراء من اعتنق مذهباً سياسياً معيناً مثل سميح القاسم وتوفيق زياد وغيرهما، مما ولد التناقض بين عروبتهم وانضمام بعضهم إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي «أصبح يشكل اختيار المقاومة الوحيد في الأرض المحتلة. وإذا لم يكن لنا هنا شأن بمقررات هذا الحزب عن القضية الفلسطينية، فإن الحد الأدنى مما توفر من هذه المقررات قد أفسح مجالاً واسعاً أمام الشعراء لينطلقوا جميعاً. ويغض النظر عن قناعتهم - إلى ما هو أبعد منها»(٥٧).

ولكن سرعان ما تمكن بعض هؤلاء الشعراء من التخلص من التناقض الكامن في دواخلهم، وحددوا انتماءهم إلى العروبة ورفعوه وميزوه على أي انتماء آخر، كما فعل محمود درويش، وأعلن ذلك في قصيدته «بطاقة هوية»(٥٨) من ديوانه «أوراق الزيتون» الصادر عام ١٩٦٤. فهو يطالب بأرضه وانتمائه إلى الأمة، ويتوعد المغتصب بالويل والثبور إذا لم يترك أرض الأجداد.

سجل
أنا عربي
سلبت كروم أجدادي
وأرضاً كنت أفلحها
أنا وجميع أولادي

---

(٥٧) مصطفى، الشعر الفلسطيني الحديث، ص ٢٤٩.

(٥٨) محمود درويش، ديوان محمود درويش، الطبعة ٥ (بيروت: دار العودة، ١٩٧٧)، ج١، ص ١٢١ - ١٢٧.

ولم تترك لنا ولكل أحفادي
سوى هذي الصخور
فهل ستأخذها
حكومتكم كما قيلا؟!

إذن
سجل برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكني إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار حذار من جوعي
ومن غضبي!!

إن الشاعر قد عرف موضع قدمه كما عرف انتماءه، فهو ليس معتدياً، وإنما هو صاحب حق يطالب به. فإذا لم يتحقق فإنه سيقاتل من أجل استرداد الحق المغتصب ويمتزج في هذه القصيدة الحس القومي بالحس الطبقي ليشكل الثورة العارمة ضد المحتلين والمغتصبين.

وتعرض شعراء المقاومة في الأرض المحتلة من جراء ذلك إلى السجن والتعذيب، ولكنهم لم يبالوا، وسخروا من سجانيهم وبدوا أقوى من سجنهم: يقول توفيق زياد في قصيدته «من وراء القضبان»(٥٩) :

الـقـوا الـقـيـود عـلى الـقـيـود فـالـقـيـد أوهـى مـن زنـودي
لـي مـن هـوى شـعـبـي ومـن حـب الـكـفـاح ومـن صـمـودي
عـزم تـسـعـر فـي دمـي نـاراً عـلى الـحـطـب الـشـديـد

وتعرض شعراء الأرض المحتلة لأنواع التصفيات: الجسدية والروحية والمعنوية، وما زادهم ذلك إلا صلابة وقوة انتماء إلى الأمة العربية. فالشاعر سميح القاسم في قصيدة «ليد ظلت تقاوم»(٦٠) لايبكي القتلى، إنما ينشد للمقاومين للإستعمار في الوطن العربي ويشعر بانتمائه القومي الكبير بزهو وإعتزاز:

---

(٥٩) توفيق زياد، ديوان توفيق زياد (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠)، ص ١٠٢.
(٦٠) ديوان دمي على كفي ص ١٨ ـ ٢٢.

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى
ما بكيت
قلت: فوج آخر يمضي
ومن بيت لبيت
رحت أروي نبأ الغلة في العام الجديد
ومن المذياع أنباء عن العام الجديد
مصر بركان وكل الشعب يحمي بور سعيد
أيها الأخوة والنصر أكيد

وقد نشأ شعر المقاومة في داخل الأرض المحتلة وخارجها شعراً تحريضياً، يسعى إلى التغيير ولا يرضى بالواقع الآسن. والشعر المقاتل يستفيد من الأحداث والتاريخ والمناسبات مستعيناً بكافة الأدوات الفنية من أجل الوصول إلى هدفه، سواء أتم ذلك بأسلوب مباشر وصيغ واضحة، أم بأسلوب غير مباشر وصيغ إيجابية. فالشاعر أحمد دحبور يستعين بالتاريخ ليأخذ منه رمز الشهادة في سبيل العقيدة، وهو بذلك يحرض على القتال لا يأساً بل إيماناً بالنصر، لأنه يؤمن بأن البندقية هي الحد الفاصل بين الموت المعنوي والكرامة في استرداد الأرض المغتصبة. يقول أحمد دحبور من قصيدة بعنوان «الولد الفلسطيني»:

فجأة سطعت في دمي
قال لي: إنها الجلجلة
قلت: فليبدأ الماء يا فقراء العرب
إنني خالع صاحبي فاخلعوهم معا

* * *

ولكن موعدنا الثورة المقبلة
من رآنا على الماء نعدو سيعدو
عصافير مذبوحة تطلب الآن قاتلها وهي تشدو
هنا كل قدر تفور
فتخرج منا العقاقير والشاي
والتعب الثعلبي المساوم
والغضب العرضي الصغير

ويبقى لنا أن ننظم لب الغضب
هكذا اكتملت دورة الأرض
فاكتملت نبرة الحزن
فاكتملت حشوة البندقية(٦١)

والشعر المقاتل كما يدعو إلى النضال ويحرض على التغيير، فهو يبشر بالوصول والنصر، ويرسم صورة الوطن المنتظر المحرر. يقول خالد أبو خالد من قصيدة بعنوان «شهرزاد»(٦٢):

مرحباً يا مرحباً زمن الوصولُ
القدس يا عصر البنادق والمحبة والسلام
ـ أعمل بنّاء
أضع الأحجار على الأحجار
اثنين اثنين حبيباً ضمّ حبيبة
أكملت اليوم مشاريع السنوات الألف
بيوتاً تربط بين الواحد والآخر
روضة أطفال وحديقة
يربط بين الواحد والآخر
جسر محبة
فالبيت الواحد بيت بيتان مدينة
كل الناس لهم في الأرض منازل
حتى أطفالي من سكنوا الريح البرد الموت
بنيت لهم في الرملة آخر بيت
وغداً يبدأ مشروع السنوات الألف الأخرى

والشعر المقاتل هو إلى جانب كل ثورة في أي جزء من أجزاء الوطن العربي سواء أكانت في اليمن أم في العراق في الجزائر أم في عدن. والشاعر المقاتل بما أنه واحد من

---

(٦١) نزيه ابو نضال، الشعر الفلسطيني المقاتل (بيروت: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٤). عن طافر الوحدات ديوان أحمد دحبور ص ١٠٧.

(٦٢) عن: خالد ابو خالد، ديوان اجتياز الليالي الألف يبدأ بخطوة واحدة (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٢)، ص ١٠٥ ـ ١١٦.

الشعب العربي فإن انتصار الشعب العربي في أي جزء من أجزاء الوطن هو انتصار له أيضاً، وها هو الشاعر توفيق زياد يحيي شعب العراق في ثورته على الحكم الملكي الفاسد من قصيدة بعنوان «تموز»:

أنا علقته والثأر يحيا في دمي عرساً
غزلت الحبل في صمت على نول الضنى غزلاً
أنا علقته الآن فقد علقني قبلاً

* * *

أنا عملاق هذى الأرض لن أرضى لها غيرى
أنا جبار دجلتها ورب فراتها السحرى
وذا البترول بترولي وتبر مناجمي تبري[63]

والشعر المقاوم يستمد موضوعاته من تاريخ الشعب العربي عامة والفلسطينيين خاصة في التشبث بالأرض والبقاء بها وعدم مغادرتها على الرغم من حراب الصهاينة الأعداء. وقد استمد حنا أبو حنا موضوع قصيدته «حكاية قرية» من صمود أهل كفر ياسيف قرب عكا، ووقوفهم في وجه الإسرائيليين الذين أرادوا ترحيلهم عن القرية مما فاجأ اليهود وأحبط صنيعهم:

حكاية قرية تزين صدر الجليل بطهر الجبين وبأس الحمية
قبل سنين أفاق الصباح هناك على هول صوت العراك
وقد نشر الجند فوق الدروب وبين البيوت تعالى نحيب هنا وهناك
وومض الحراب يهل على كل باب

فيقتلع الطفل من أمه ويقتلع الأم من بنيها
يسوق الرجال يسوق النساء مواكب مذعورة في العراء
لتقذف خلف الحدود بعيداً بعيداً
وتملأ سيارة ثم أخرى وتهدر في صلف وغرور
لتقذف شحنتها البشرية بعيداً بعيداً وراء الحدود
وتزحف لكنها تذعر ففي الدرب سد الصدور

---

(٦٣) توفيق زياد، اشد على ايديكم (بيروت: دار العودة، ١٩٦٩)، ص ٥٧، ٦٠.

قـفـي أو عـلـيـنـا ازحـفـي قـفـي يـا وحـوش الـغـرور
كـف يـلاطـم مـخـرزاً ويـلـطم وجـه الـفـجـور
وعـاد الـضـحـايـا فـمـا شـردوا وراح الـطـغـاة وهـم يـرعـدون
وسـد الـصـدور أمـضـى سـلاح أضـحـى شـعـار الـكـفـاح[٦٤]

لقد ارتبط الشعر المقاتل شعر المقاومة بالثورة الفلسطينية، فالشعر كالثورة تحول مستمر مع الشاعر ومع الثائر. فتحديد الشعر أو الثورة يختلط بتاريخ الثورة والشعراء بحياتهم ومشكلاتهم. ومع ارتباط شعر المقاومة بالثورة الفلسطينية احتوى معان جديدة. هذه المعاني ـ كما بينا سابقاً ـ انتزعها الشعراء من واقع الحياة في داخل فلسطين المحتلة ومن ظروف الشعب العربي في الأرض المحتلة. واحتاجت هذه المعاني الجديدة التي فرضتها ظروف الثورة وأحوال الواقع في فلسطين المحتلة تناولاً جديداً وشكلاً جديداً. فقد استوعب شعراء الأرض المحتلة التجارب الشعرية القديمة والحديثة منذ امرؤ القيس وحتى السياب. وخبروا موسيقى الشعر ودفعهم حبهم للوطن ومرابعه إلى التغني بجماله. وأفادتهم ثقافتهم الأجنبية وتشابك الحياة في الأرض المحتلة إلى ترابط الغنائية في شعرهم بالرمز الواضح البين لتحقيق الإيحاء في نفس السامع. إن ارتباطهم بالأرض وتشبثهم بها وتفاعلهم مع الشعب العربي في فلسطين ومع الذكريات والموروثات مع الأماكن والمرابع، بقاؤهم فيها وترحالهم عنها جعلهم يقفون منها كما كان يقف الشاعر الجاهلي عند مروره على طلل من الأطلال أو مربع من مرابع قضى فيه أوقاتاً طيبة. كما أن تشبثهم بالشعب بآماله وآلامه بحياته وترابه، بموجوداته وأشيائه جعلهم يلجأون في شعرهم إلى الموروثات الشعبية ويستفيدون من إيحائها ومن موسيقاها. إن الصدق في التعبير عن المشاعر والأحاسيس جعل الشاعر المقاوم لا يصدر شعره عن تجربة شعورية صادقة فحسب، بل هو يفصّل هذه التجربة ولا يلخصها فقط. وقد دفعهم ذلك إلى اتباع أسلوب الشعر القصصي لإعطاء التفصيل الضروري لتجربتهم الشعرية.

وقد لجأ الشعر المقاوم إلى الأسلوب التعبيري على الرغم من أن الأسلوب الخطابي التقريري قد ملأ حيزاً لا يستهان به وتبوأ مكاناً مرموقاً في هذا الشعر[٦٥]،وكان لا بد لهم لتحقيق رسالتهم القومية الثورية والفنية معاً من تحقيق لغة ومفردة تنسجم ومضامينهم الشعرية وتوصيلها إلى أقصى مدى ممكن، إلى الشعب العربي من محيطه إلى خليجه،

---

(٦٤) الشعر الفلسطيني، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .
(٦٥) المصدر نفسه، ص ٥٢٢ .

ولإسماع العالم، وبالذات شعوب العالم الثالث والفئات الثورية والطبقات العمالية والفلاحية والواعية في العالم. ولأجل ذلك لجأ شعر المقاومة إلى المفردة العربية الفصحى السهلة، والتي تقترب من لغة الجمهور وفهمه وإدراكه، والقدرة على استخدام المفردة لتوصيل المعنى بشحناته الكاملة للمتلقين: «وقد يتميز كل شاعر بقاموس شعري خاص يكشف طبيعة المرحلة وظروفها السائدة، كما يكشف الموضوعات والمهمات التي تؤرق ضمير الشاعر مما يكشف طبيعته الخاصة وتكوينه النفسي وموقعه الاجتماعي والتزامه السياسي وقناعاته الفكرية»(٦٦).

وتعتمد لغة الشعر المقاوم على الجملة القصيرة وارتباط الجمل ببعضها بعلاقات معنوية. كما تعتمد على نوع من التكرار وعلى التركيز وعلى الرمز(٦٧). ولا يعد الرمز مجرد رمز، بل هو أسلوب بنائي للقصيدة وشكل من الأشكال الشعرية الجديدة، حيث «لا يغدو الرمز إلى القوم بالأب عند سميح القاسم والرمز إلى الوطن بالأم عند درويش وتعلق هذا بأمه وانتظار ذاك لأبيه، مجرد مصادفة عارضة هنا وهناك. وإنما يشكل كل رمز منها الأساس الراسخ الذي يقيم عليه كل من الشاعرين كامل بنيانه الشعري»(٦٨). إن الفضل في تسمية شعر المقاومة يعود إلى الشهيد غسان كنفاني فهو الذي نظّره وبين مميزاته، يقول كنفاني عن شعر المقاومة: «أطلقت شعر المقاومة أو الشعر المقاوم على ما يكتبه الشعراء في الأرض الفلسطينية المحتلة. لأنه كان أداة من أدوات المقاومة والتصدي للإحتلال... كان ذلك الشعب يناضل ويواجه يومياً أقسى أنواع الإستعمار الإستيطاني وأكثرها ضراوة بكل الأسلحة المتوافرة لديه، ومنها سلاح الكلمة. كان الشعب ولا يزال يعاني من نوع مزدوج من المنفى: التواجد في الأرض ولكن مع الأسر، مع المصادرة والإرهاب والحصار... ذلك الوضع البطولي والمريع في آن كان ينعكس على نتاجات الأدب الفلسطيني، وعلى الأخص الشعر. وبينما كان الأديب العربي ـ وضمنه الأديب الفلسطيني في المنفى ـ ينشر شعر التحسر والعويل والحنين الممزوج بالانسحاق، كان الشاعر الفلسطيني في الطرف الآخر يقف وراء متراسه ويغني شعر المقاومة الصادر عن موقف باسل شجاع جنباً إلى جنب مع الموهبة الفنية... فإنهم بعد زلزال حزيران لم يفقدوا أعصابهم ولم يتخاذل إيمانهم ولم يوزعوا التهم على أحد، مضوا في شعرهم المقاوم،

---

(٦٦) ابو نضال، الشعر الفلسطيني المقاتل، ص ١٨٦.
(٦٧) مصطفى، الشعر الفلسطيني الحديث، ص ٣٠٠.
(٦٨) يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتل (دمشق: ١٩٦٨)، ص ٦٠.

الشعر الجماهيري الذي يظل وجهاً معيناً من وجوه المقاومة الباسلة، الشعر المتحلي بالإيمان والثقة والطموح إلى مجتمع جديد متحرر تقدمي إنساني... وهذا الشعر الجماهيري ليس بنبراته، وإنما بقيمه وأبعاده وآفاقه»(٦٩) .

ويحدد محمد دكروب معالم هذا الأدب قائلاً «الأدب العربي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة أعطى بعد هزيمة حزيران بالذات، أروع نتاجه منذ النكبة الأولى، ولا يزال يعطي هذا النتاج الرائع في الشعر خصوصاً. وفي القصة والرواية والمسرحية كما تدل البدايات حتى ليمكننا القول أن هذا الأدب الفلسطيني من حيث هو جزء أصيل وطليعي من الأدب العربي عامة استطاع أن يعبر، بصورة أكثر صفاء وعمقا، عن المضمون الأصيل لحركة التحرر الثورية العربية... هم في خط الصدام اليومي مع السلطة في المظاهرات، في الإضرابات، في شتى أشكال الاجتماع وصور الغضب، وهم في السجن كذلك وفي عداد الشهداء». وتتحول قصائد الحب نفسها إلى رصاصات كفاح، والحبيبة تتجلى في الأرض والزيتون والبرتقال ويغدو وشاحها ضمادات جراح. والكتاب هم مناضلون وليسوا فقط كتاب نضال. والقصيدة ليست صورة عن المعركة، وإنما هي عنصر من عناصرها وقوة محركة لها... فجاء كلامهم شعراً كالرصاص والسكاكين وعبير الأرض والإنسان... وتبين أن ما عنده هو قضيته»(٧٠) .

ويقول سمير سعد عن تشبث شعر المقاومة بالأرض: «لأنها عنده علاقة إنسانية يصر عليها بوعي... وهكذا كل أشيائه الأخرى: الزيتون والبرتقال والشباك، إن علاقته بها ليست علاقة بأشياء إلا ظاهرياً، إنها علاقة بالناس يكرس نفسه لها»(٧١) .

---

(٦٩) مجلة المعرفة، (أيار / مايو ١٩٧٥)، العدد ١٥٩ .

(٧٠) محمد دكروب، «لأدب المقاومة في فلسطين،» في مجلة الطريق، السنة ٢٧، (تشرين الثاني / نوفمبر ـ كانون أول / ديسمبر ١٩٦٨)، العدد ١٠ ـ ١١، ص ٤١ ـ ٤٧ .

(٧١) سمير سعد، «محمود درويش: الشعر الثوري علاقات جديدة،» في مجلة الطريق، السنة ٢٩، (حزيران / يونيو ١٩٧٠)، العدد ٦، ص ٧١ ـ ٨٠ .

المناقشات

ماجد السامرائي: كنت حتى مجيئي إلى هذه الندوة أظن أن هذه الطريقة التي اعتمدها الدكتور عمر الطالب من طرائف البحث قد انتهت منذ زمن قديم، وأننا دخلنا مرحلة البحث العلمي الجاد والمتفحص للنتاجات في ضوء تطور النظريات الأدبية، وفي ضوء تطور الدراسة الأدبية العربية. إلا أن بحث الدكتور عمر الطالب، وبعض البحوث التي استعمت إليها في هذه الندوة، قد خيبت ظني، وأكدت لي أن الوحدة العربية والأدب القومي من خلال القضية الفلسطينية موضوع قد سبح في بحر عريض وعميق، ولم يمتلك وسائل السباحة في مثل هذا البحر فغرق أكثر من مرة، وكلما حاول أن ينتشل نفسه خاف أو فشل. الموضوع يتناول الشعر والقضية الفلسطينية والقصة والرواية، المسرح والشعر المقاومة، هذه الموضوعات الطويلة والعريضة والتي كان من الممكن الأقتصار على واحد منها واشباعه لم تعطنا أية إشارات جديدة على هذا الطريق، على طريق بحث مثل هذه الموضوعات. هي عبارة عن تكرار لأفكار شائعة واستشهاد باراء أكثر عمومية أيضاً. فالبحث معظمه لا يتجاوز كونه عبارة عن «ببليوغرافيا» وصفية ببليوغرافيا ناقصة أيضاً. هذا أولاً. هناك التعميم في الأحكام. والأحكام التي أطلقها قليلة، وقد أفتقدت كما أشار الدكتور محسن موسوي إلى دقة المصطلح، افتقدت المنهج في البحث.

هناك إلى جانب ذلك موضوع أريد أن أتوقف عنده وهو موضوع القصة والرواية والذي أخذ حيزا امتد على نحو ١٠ صفحات، فهو مثلاً يتحدث عن القصة الفلسطينية ويشير إلى أمين شنار ويضعه ضمن مجموعة من الأسماء التي لا تلتقي معه، ويتحدث عن قصصهم. والحقيقة أن أمين شنار هو شاعر ولم يكتب قصة، وإنما كتب رواية قصيرة

واحدة هي «الكابوس» ويتحدث عن نكسة حزيران/ يوليو ١٩٦٧ فيقول: ومثل هذا الهبوط الفني نجده عند أكثر كتاب الستينات الذين نجدهم عالجوا القضية الفلسطينية في رواياتهم، بينما نجح جبرا إبراهيم جبرا في روايته «البحث عن وليد مسعود»، وعبد الرحمن منيف في روايته «الأشجار واغتيال مرزوق». . لا أريد أن أتهم الدكتور عمر طالب بأنه لم يقرأ رواية «الأشجار واغتيال مرزوق»، ولو كان قرأها لوجدها لا تمت بأية صلة لا من قريب ولا من بعيد للقضية الفلسطينية أو للموضوع الفلسطيني. فهي رواية تتحدث عن موضوع آخر وتأخذ موضوعاً آخر. في موضع آخر يقول: أما القسم الثاني، الأعمال القصصية والروائية التي تدور حول القضية الفلسطينية، فقد ارتفعت إلى مستوى القضية، وخير مثال على ذلك قصص غسان كنفاني ورواياته موت سرير رقم ١٢، أرض البرتقال حزين، رجال في الشمس، عالم ليس لنا، ما تبقى لكم، عن الرجال والبنادق من أم سعد، عائد إلى حيفا، ورواية حليم بركات ستة أيام. وبطبيعة الحال أهمل عودة الطائر إلى البحر، ورواية أميل حبيبي «سداسية الأيام الستة»، ورواية جبرا إبراهيم جبرا «البحث عن وليد مسعود»، وروايات عبد الرحمن منيف أعود إلى عبد الرحمن منيف ما صلة «قصة حب مجوسية» بالقضية الفلسطينية. ما صلة «الأشجار واغتيال مرزوق» بالقضية الفلسطينية، ما صلة رواية «شرق المتوسط» بالقضية الفلسطينية؟. اللهم إلا إذا استثنينا حين تركنا الجسر التي اتخذت من موضوع حزيران جزء من موضوعها. من الممكن أن أقدم مثلاً على التعميم أو قبل التعميم، هناك أيضاً إشارة أخرى إلى عبد الرحمن منيف على نضوج الرواية الواقعية الفلسطينية وزج أسم عبد الرحمن منيف بين أسماء توفيق فياض ورشاد أبو شاور وجبرا إبراهيم جبرا، في حين أن عبد الرحمن منيف ليس فلسطينياً وإنما هو من أبناء السعودية ولد في العراق،سعودي عراقي، وإن رواياته لا تتناول قضايا محددة وإنما يلاحظ على روايات عبد الرحمن منيف افتقادها إلى عنصر المكان المحدد.

هناك إشارة أخرى أوردها وهو يتحدث عن الشعراء، أسم محمود السمرة وعبد الرحمن الكيالي ضمن الشعراء الذين تحدث عنهم وأنا أعرف أن محمود السمرة هو مترجم وكاتب دراسة وأن عبد الرحمن الكيالي قد درس الشعر الفلسطيني في كتاب له عن الشعر الفلسطيني ولم أعرف أنهما شاعران. في الواقع هناك ملاحظات كثيرة على هذا البحث، وكنت أتمنى لو أنه أقتصر على جانب واحد كالرواية مثلاً، ليشبع هذا الموضوع لا يتشعب بنقلات غير منهجية من موضوع إلى آخر ومن فترة إلى أخرى وأحياناً يتحدث عن النكسة ثم يعود إلى النكبة وهكذا.

ناصيف عواد: أود أن أبدأ بشكر الباحث على هذه الدراسة القيمة، والتي أختلف كثيراً مع ما جاء في تعليق الاستاذ ماجد السامرائي حولها. ولعل ما قاله الاستاذ يدعوني إلى الخروج قليلاً عن موضوع البحث لأؤكد نقطة أعتبرها مهمة في حياتنا الأدبية وفي حياتنا الثقافية، وهذه النقطة هي التي يتميز بها الناقدون أكثر من غيرهم، وهي استخدام الأسلوب المر والقاسي في الهجوم، وفي التقريظ أحياناً يستخدمون الأسلوب نفسه، لكنه معكوس ودون وجه حق. علينا أن نكون موضوعيين، ولا أقول مجاملين، وإنما أقول موضوعيين. لم يتح لي مع الأسف أن اقرأ البحث قراءة دقيقة، ولكنني من خلال العرض الذي تفضل به الأستاذ الباحث أستطيع أن أشكره وأنا مطمئن إلى هذا الجهد الذي بذله وإلى هذه الشمولية الذي تميز بها بحثه. وواضح جداً أن هذا الموضوع موضوع القضية الفلسطينية وعلاقته بالوعي القومي والوحدة العربية من الضخامة بمكان، بحيث لا يستطيع أن يستوعبه بحث أو كتاب، ولا يكفي لبحثه ساعة أو ساعتان. إنه موضوع عميق بقدر عمق القضية الفلسطينية في الوجدان القومي. الملاحظة السريعة على السيد الباحث هي أنه أهمل نقطة في غاية الأهمية، وهي أن هذه القضية من حيث أنها خلاصة للقضية العربية والوحدة العربية، ولكل ما يجيش في النفس العربية أثبتت في ميدان الأدب والفن عموماً حقيقة أساسية، وهي أهمية الوحدة العربية وتفجر الشعور والوعي القومي عند الإنسان العربي عندما يتعرض جزء من هذا الوطن إلى الأغتصاب. حتى الذين حاولوا أن يجعلوا من القضية الفلسطينية مجرد مأساة إنسانية بحكم إنتمائهم الفكري الأممي لم يستطيعوا أن يستمروا في هذا النهج واضطروا إلى العودة، نتيجة إلى تفجر الوعي القومي في داخلهم، لكي يضعوا القضية في سياقها الصحيح ويعطوها بعدها القومي. أكبر مثال على ذلك الشعراء المعروفون محمود درويش وسميح القاسم وحتى اميل حبيبي لا يزال حتى الآن ملتزماً بالبعد الأممي، وهو عضو في حزب «راكاح» الذي يؤمن بوجود الكيان الصهيوني لم يستطع في أعماله أن يتجاهل العمق القومي للقضية الفلسطينية. كنت أتمنى لو أن الأستاذ الباحث ركز على هذا الجانب. وهذا يجرني إلى موضوع آخر أشار إليه الأستاذ ماجد السامرائي عندما تحدث عن روايات عبد الرحمن منيف وقال أنه ليس فلسطينياً. إن أهمية القضية الفلسطينية في الأدب القومي هي أنها جعلت كل الأدب العربي ينصب في فلسطين، وأنا لا أدري أنه من الضروري أن يكون الانسان فلسطينياً حتى يعبر عن القضية الفلسطينية. هذا منتهى الأقليمية وروايات عبد الرحمن منيف التي آطلعت عليها مهما كان موضوعها هي بشكل أو آخر في القضية الفلسطينية من خلال تصويرها لمعاناة الإنسان العربي المرتبط بالقضية الفلسطينية على نحو أو آخر.

عباس توفيق: لاحظت من خلال تصفح بحث الدكتور عمر الطالب أنه يشير في بعض الهوامش الخاصة لدراسة الشعر إلى كتاب درر الأدب في معركة التحرير والبناء في إيراد الإستشارات الشعرية، وقد أشار الأستاذ الباحث إلى أنه أخذ النصوص من ذلك المصدر مما يعني أنه لم يرجع إلى النصوص الأصلية أو إلى المجاميع الشعرية لكي يكون على رؤية أوضح فيما يخص هذه القضية. وقد أشار الأستاذ الباحث إلى أن النقص فقط مقتبس من ذلك غير أني لاحظت ـ وهي ملاحظة متواضعة ـ أن التعليقات حول هذا الشعر أو ذاك واردة في ذلك الكتاب أيضاً، وتفصيلات الموضوع الخاص بالشعر أو الهيكل العام لهذا البحث فيما يخص الشعر هو موجود في ذلك الكتاب، وبصورة خاصة في بحث سمير عزام وبحث الدكتور جميل سعيد. وإذا استخرجنا من هذا البحث الإستشهادات بحزب البعث فإننا لا نجد شيئاً جديداً في ما يتعلق بالشعر.

الدكتور عمر الطالب: شكراً لجميع الأخوة المناقشين، وإني أعتبر هذا الهجوم إلى جانب البحث لا ضده، وإلا لما ارتفعت الحرارة إلى هذه الدرجة. بالنسبة للأخ الدكتور محسن تحدث حول الأرباكات النقدية وأورد مثلاً عن حديثي حول رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني، وتأكيدي على أن هذه الرواية تعد من الروايات الجديدة التي استطاعت أن تستوعب القضية الفلسطينية ويشير إلى صفحات تقول أن عدة قصص لم تستوعب القضية الفلسطينية. ما قاله الدكتور محسن صحيح فعلاً فأنا قسمت القصص إلى قسمين، القسم الأول أستطاع أن يستوعب القضية الفلسطينية ومنها قصص غسان كنفاني وبينت بدراسة نقدية أهمية هذه القصص بالنسبة للقضية الفلسطينية، وبالنسبة للقومية والوحدة العربية ككل. وأنا لم أفرق بين القضية الفلسطينية والقومية العربية وبين الوحدة العربية، إنما أعتمدت خلال البحث على هذه الركائز.

ما تفضل به الأستاذ ماجد السامرائي قال بأنني تقليدي، وأن المنهج مرتبك وتحدث عن العمومية. ثلاث نقاط أساسية أتهم بها الأستاذ ماجد السامرائي البحث. لا أدري مفهوم التقليدية، هل يقصد أن الأساليب الجامعية هي أساليب تقليدية أم ماذا. ولهذا لن أجيب على هذا الاعتراض.

أما المنهج فاعتبره مرتبك وأورد أمثلة على ذلك، من هذه الأمثلة رواية «الكابوس» ورواية «الأشجار واغتيال مرزوق»، ثم حديثي عن الروائي عبد الرحمن منيف أقول أنني عندما تحدثت عن القصة لم أفصل بين الوطن العربي وبين فلسطين، وأكدت أكثر من مرة لو عاد الأستاذ ماجد السامرائي وقرأ البحث بتمعن أكثر لا مجرد تصفح للموضوع لوجد أنني تحدثت عن أثر القضية الفلسطينية على الوطن كله. فإذا لم يتحدث عبد الرحمن

منيف في «الأشجار واغتيال مرزوق» عن صلب القضية، إنما تناول موضوعاً له علاقة كبرى بالقضية الفلسطينية لأن القضية الفلسطينية أثرت بالنسبة للوطن العربي ككل. وهذا ما وجدته في رواية «الكابوس»، وهذا ما وجدته في رواية «شرق البحر المتوسط» هذه المعاناة يعانيها الإنسان من اضطهاد له ارتباط كبير جداً بالقضية الفلسطينية. إن الإنسان العربي عندما يضطهد في أي قطر عربي إنما هو فلسطيني عربي من قبل السلطات الإسرائيلية. وهكذا لم أرد أن أحدد في بحثي أموراً محلية ونحن تحت شعار يدعو إلى القومية، إنما أخذت القضية الفلسطينية كقضية عربية لا كقضية محلية. أتهمني الأستاذ ماجد السامرائي بالعموميات، وقال أنني ذكرت عبد الرحمن منيف مع كتاب فلسطين. في الحقيقة أنا أعرف أن الأستاذ عبد الرحمن منيف سعودي الأصل وعراقي، وأن جبرا إبراهيم جبرا وإن كان فلسطينياً هو أستاذي في الجامعة هو عراقي أيضاً بكتاباته وموضوعاته التي تناولها، ولكنني أردت أن أقول بأن القصة العربية تطورت على أيدي هؤلاء الكتاب الكبار، وشكراً للأستاذ ماجد السامرائي على ملاحظاته القيمة.

شكري الجزيل للأستاذ ناصيف عواد، وفي الحقيقة أنا مغتبط جداً للتقييم الذي قدمه إنسان يعرف قيمة هذه البحوث، وهو يكفيني فخراً، ولم أقدم في الحقيقة إلا بحثاً متواضعاً يدفعني الحديث الذي تفضل به الأستاذ ناصيف إلى ملاحظة ذكرها الأستاذ ماجد السامرائي بأن البحث متشعب وهو لا يتناول أربعة أقسام، كما تفضل بذلك الأستاذ ماجد السامرائي بل يتناول سبعة أقسام. وكان هذا اعتراضي الأول، ولكنني كلفت بمنهج محدد لاكتب هذه الدراسة، ولا مفر من أتباعها. أما ما تفضل به الأستاذ ناصيف عواد عن أهمية الوحدة العربية في حياة الأمة وتفجير الشعور القومي فقد ذكرت هذا من خلال البحث وأكدت أكثر من مرة ولو تفضل الأستاذ ناصيف وقرأ البحث لوجد هذه الفكرة هي الأساس والمحور في الموضوع. الأستاذ عباس توفيق يقول بأنني أخذت نماذج من كتاب معين، ويعتقد بأنني لم أتابع المجاميع الشعرية، وحديثه يدور حول القسم الأول من البحث. في الحقيقة أنا ذكرت هذا وأنا قلت بأنني استعنت بهذه النماذج الموجودة في هذا الكتاب، وهذا هو الأسلوب العلمي المتبع بالبحث العلمي، لأنني وجدت هذا الرجل انتقى نماذج جيدة، ولكن لا يعني هذا بأنني المتحدث على هذا الكتاب فقط. فلو رجع الأستاذ عباس لوجد بأنني أعتمدت على دواوين شعرية أخرى عديدة إلى جانب النماذج التي أشرت بأنني أخذتها من هذا الكتاب. أما ما تفضل به من أن هذا البحث شبيه بما قرأه عن بحث سميرة عزام والدكتور جميل سعيد فلا علم بي بهذا لأنني لم ار مثل هذا البحث إطلاقاً وحبذا لو دلني الأستاذ عباس لأغناني في كتابة البحث، ولا أريد أن أعلق على ما قاله الأستاذ عباس بأن هذا البحث لم يضف جديدا.

الفصل التاسع

الواقع العربي وتحولاته

الحركة والرمز

محيي الدين اسماعيل

في فترة المائة عام ونيف الفائتة تم للإستعمار العالمي بسط سيطرته على ملايين من ابناء الشعوب المنسحقة، التي ساقها إلى جحيم الكوارث والفقر والعمل المضني بالعصا، فبرز عهد البرجوازية البلوتوقراطية التي أرادت أن تحول كل معرفة العالم ومهارته إلى شروط ساحقة لتحول بها العالم الذي أسمي، فيما بعد، بالعالم الثالث إلى مجموعات منسحقة من «الكوليين» الذين يعتاشون على ما لا يكاد يقيم أودهم، وقد فقدت مغزى حياتها ووجودها باذعان مذل مهين.

في هذه الفترة، أو بعدها بقليل، كتب رديارد كبلنغ قصيدته التي يقول فيها:

«أنت أيها الجندي تذكر وأنت تسحق كل شيء
مما يحيط بالإله الذهبي في بورما،
تذكر أن عينيه قد صيغتا من الجوهر الثمين
وتذكر أنك إذا ما سددّت عصا التطهير
إلى الزنجي، فإنه سيبوح لك بكل ما يمتلك
فاسكب الماء على الأرض، ويومئذ سيقول:
لم يبق شيء
ثم اغرز حربتك في باطن الأرض وتأكد
أن هناك شيئاً عليك أن تستولي عليه.....»

وخلال هذه الفترة بدأت تظهر كتب صموئيل سمايلز «أعن نفسك» و«الواجب» و«الشخصية» و«التدبير الاقتصادي» وغيرها من الكتب التي احتلت رفوف مكتبات

البورجوازيين في العصر الفكتوري، إذ وضعت المثال الأعلى في الحياة البورجوازية القدرة على جمع المال وانتهابه وتحقيق النجاح اليومي وكسب الإحترام الإجتماعي القائم على المواصفات السطحية في المجتمع البورجوازي، طبقا لتلك المعايير والقيم التي سادت ذلك العصر.

وقد شاعت هذه الكتب في بريطانيا، وفي القارة الأوروبية، إلى درجة أنها أزاحت عن رفوف الكتب كتبا ككتب سويفت اللاذعة وكتاب «رحلة الحاج» وكتاب «الاقتداء بالمسيح».

وإلى جانب النظريات الإقتصادية التي كانت تبرز ملحمة التوسع الإستعماري ظهرت النظريات الفلسفية التي عبرت عن المرحلة التاريخية التي كان يمر بها الإستعمار. ففي هذه الفترة هجر ولهلم استوالد الألماني مختبره الكيماوي، وعكف على وضع نظريته الفلسفية في الطاقة، التي ذهب فيها إلى أن الطاقة هي القدرة على إنجاز عمل ناجح في الحياة. وأن جميع ما ينطبق على الآلة من نواميس تنطبق، أو ينبغي أن تنطبق، على الإنسان. فنجاح الإنسان هو النظير لنجاح الآلة، إذ كلاهما يستخدم نوعا واحدا من الطاقة، وأنه ليس هناك من فارق جوهري بين الكم والكيف، بل كل ما في الأمر أن قياس الكم هو أسهل للإنسان، نظرا لتوافر أدوات القياس الكمي. وتقترب الماركسية من هذه النقطة النظرية في تداخل الكم مع الكيف.

وفي عام ١٨٧٨ ظهرت مقالة تشارلز بيرس «الطريق إلى توضيح فكرنا»، فأثارت تلك الضجة الكبرى في الأوساط الفلسفية البورجوازية فتلقفها وليم جيمس لتكون الحجر الأساس في فلسفته «البراغماتية» التي وطدت دعائم «الخيار الحر» بمعناه البورجوازي، والتي أكدت على فردية الإنسان من خلال حرية متحركة مقياسها الإنسان وحده، ولا شيء غير الإنسان. والإنسان هنا بلغة «البراغماتية» هو الإنسان المتحدر من «إنسان بروتاغوراس»، وبروتاغوراس هو القائل بأن الإنسان هو مقياس كل شيء، مقياس ما يوجد ومقياس ما لا يوجد، وأن الإنسان هو مقياس الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، والحقيقة هي ما تبدو لي ولا شيء آخر سواها، وبذلك كانت تحاول القضاء على كل المقاييس والمعايير الموضوعية لفضائل الإنسان ورذائله.

وفي هذه الفترة ذاتها ظهرت الكلية «الهوليزم» على يد الجنرال سمطس مستوحاة من فكرة «شمولية الكومنولث». فالكومنولث البريطاني - كما تزعم كلية سمطس - هي كل متجانس لا فارق بين «المتروبول» الاستعماري وبريشوريا والترانسفال. ولا فارق

نوعيا بين الزمان والمكان، وما دام التناقض منعدما في الكون بين الزمان والمكان في المدى اللانهائي، كذلك التناقض منعدم في البناء التركيبي للإمبراطورية البريطانية التي ينبغي أن لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها.

هذه التيارات الفكرية ومثيلاتها ظهرت في هذه الفترة لتؤلف الملامح والسمات الأساسية للماثة ونيف من الأعوام المنصرمة التي تشكل فترة المد الإستعماري التي تخللتها الفترة التي دعيت بفترة «الصيف الهندي»، التي بلغ فيها التطور الإقتصادي الإستهلاكي أقصاه بالنسبة للبورجوازية الغربية، بصفة عامة، والبورجوازية البريطانية والفرنسية والألمانية، على نحو أخص.

وهكذا نجد أنه ما أن أطل القرن العشرون حتى أخذ الإنسان المرتبط بقيم المجتمع البورجوازي الغربي يفقد خصوصيته الذاتية ليصبح جزءا من قطيع المجتمع البورجوازي الباحث عن فرص العيش، وعن توظيف رؤوس الأموال بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، دون النظر إلى أي موقف أخلاقي، وهكذا وضع هذا المجتمع جميع قدرات العقل الإنساني في صالح حفنات مشوهة من الصناعيين ووظف المعرفة الإنسانية توظيفا كاملا من أجل صهر المجتمع صهرا تاما، من أجل التحرك الإستعماري في أطراف الأرض الأربعة. وبهذا تحولت الملايين المملينة في المستعمرات وأشباه المستعمرات، الواقعة تحت كوابس الإمبراطوريات الحديثة والسلطنة العثمانية المهترئة، إلى قطعان بشرية جاهزة للإستغلال مهمتها الأبدية المفترضة التي كان عليها أن تفهمها بوضوح وأن تحفظها عن ظهر قلب، هي أن تموت فقرا وجهلا ومرضا من أجل هؤلاء الأسياد الآخرين.

وكان الوطن العربي الواقع في بؤرة الضغط الإستعماري قد تعرض لمحاولة إعداده ليكون جزءا من الممتلكات الأبدية للسلطات الإستعمارية. فكانت الإسكندرية قد ضربتها الأساطيل البريطانية ضربتها الضارية، وتمت العملية الأولى في حصد شوكة المقاومة الوطنية في مراحلها الأولى. وبعد ذلك بدأ «دارسي» كشوفاته وتنقيباته عن النفط في شمال العراق، وبدأ الضغط الصهيوني المباشر في بريطانيا وفرنسا وعلى الباب العالي لإقامة ما أسمي بالوطن الصهيوني في فلسطين بعد مؤتمر «بازل» وأحكمت قبضة الاستعمار الفرنسي على المغرب العربي بالتعاون مع الإستعمار الإيطالي، كل ذلك كان قد وضع الوطن العربي على منعطف التاريخ حيال كل تلك التحديات المتالة عليه من كل جانب...

ولقد كانت كل هاتيك التحديات باعثا على الاستجابة العربية، وكانت الإستجابة هي الجواب وهي الوجدان القومي.

فإزاء هذه اللوحة كان الوعي القومي الذي نبهته تلك التحديات الإستعمارية المثيرة في المشرق العربي ومصر والسودان والمغرب العربي قد بدأ استجاباته الأولى لهاتيك التحديات، على شكل صراع ضد الهيمنة الإستعمارية والإحتلال الأجنبي، الذي كان مصادرة للحريات ومحاولة شرسة لمصادرة كل المقومات الوطنية والقومية للأمة العربية. بالإضافة إلى ذلك التواطؤ الضمني بين الدول الإستعمارية الحديثة والسلطنة العثمانية، الذي دام عهوداً طويلة قبل انفجار التناقضات الحادة بين الباب العالي والقوى الإستعمارية الجديدة.

فلقد كان من منطلق الأشياء ومنطلق حركتها أن يكون هذا التواطؤ الضمني بين الباب العالي والدول الاستعمارية الصاعدة حديثا، وأبرز مثال على ذلك أن بريطانيا قد وقفت إلى جانب الباب العالي ضد بيان العلماء والساسة في مصر الصادر عام ١٨٣٨، والذي أكد مساندة شعب مصر لاستقلال مصر وقيام دولة وطنية متحررة من القبضة العثمانية في وادي النيل. ولقد رأت الدول الإستعمارية وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا أن تحرر وادي النيل قد يتسبب في خلق مشكلات لحركة التجارة الغربية بين الغرب والشرق. وهنا أقدمت بريطانيا، بالرغم من كل التناقضات الدفينة بينها وبين الباب العالي، على إبرام الإتفاقية التجارية مع الآستانة في آب/أغسطس ١٨٣٨. وكانت هذه المعاهدة فرصة ثمينة للتجارة البريطانية التي كانت في تنام سريع مع الشرق، لا سيما مع شبه القارة الهندية. وكان في نية بريطانيا في تلك الفترة أن تمد فرنسا لها يد العون لكي توسع من طرق التجارة الدولية الإستعمارية، وذلك عن طريق إنشاء طريق دولي متشعب عبر الفرات إلى البصرة ثم عبر الخليج العربي إلى الهند. ولكن المشكلات السياسية التي وقعت فيها فرنسا آنذاك واضطراباتها السياسية من ناحية، وطموح محمد علي في مصر في الاستيلاء على طرق المواصلات في الجزيرة العربية من ناحية أخرى، كل هذه العوامل قد أحبطت المشروع البريطاني.

وبقيت الدول الإستعمارية تنمي تجارتها التي كانت تقتضي مزيدا من السيطرة وتشديد القبضة على الطرق التجارية، الذي كان بدوره يقتضي مزيدا من خلق مواقع إجتماعية مصطنعة في الأقطار العربية، تعتمد عليها الإدارات الإستعمارية المتسللة إلى الوطن العربي، تحت شعار حرية التجارة وطرق المواصلات. ومن هنا تفاقمت أشكال

التفاوت الطبقي في المشرق العربي ومغربه، وتحول الوطن العربي في اللغة الاستعمارية آنذاك إلى ما أسمي بـ«الجبهة الثانية». والجبهة الثانية في لغة الإستعمار هي خلق وضع إقتصادي إجتماعي جديد يعتمد قيام نقاط إرتكاز لنظام إقطاعي أو شبه إقطاعي، يتعامل مع عدد من رؤساء القبائل والأفراد الذين يتقون للتعامل مع الأدوات الإستعمارية، مع إهمال كامل لكل القاعدة الشعبية التي كانت تعيش كل معضلات الحياة التي مثلها التخلف، وإيقاف أية حركة جوهرية نحو تحسين أوضاعها.

وفي العقود الأخيرة، أو إن شئنا شيئا من التحديد ، ففي العقود الأربعة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت أفكار العدالة الإجتماعية قد بدأت تتسرب إلى بعض الفئات من مثقفي ذلك العصر، إلى أن بدت في الأفكار الإصلاحية التي بدأ بترويجها بعض مثقفي مصر والشام . فنشأت الحركة التي أراد لها بعض مثقفينا وبعض من المؤرخين الغربيين أن تدعى بالحركة «الجيروندية» العربية نسبة إلى «الجيروندين» في الثورة الفرنسية. وفي الحقيقة إن ما أسميت بالحركة الجيروندية العربية لا سيما في مصر، والتي نشأت أول ما نشأت على يد الشيخ محمد عبده ومن بعده مصطفى عبد الرزاق وأحمد لطفي السيد، قد وجدت التعبير عن الليبرالية العربية آنذاك في أفكار العدالة الإجتماعية الإصلاحية، التي كانت تحاول إصلاح العلاقة بين القصر وطبقات المثقفين.

وفي الحقيقة أن القول بأن تأثير أفكار الجيروندين واليعاقبة الفرنسيين كان أساسيا في خلق الأفكار الإصلاحية لدى الفئات المثقفة الطالعة في مصر والمشرق العربي، يعني القول بأن هذا الفكر كان إلى حد ما فكرا هجينا لم يصدر عن الظروف الموضوعية التي كان يمر بها الوطن العربي، أو على الأقل أن مثل هذا القول قد يعني أنه لولا تجربة الطهطاوي وأمثاله لما كانت هناك حركة الدعوة إلى الإصلاح الإجتماعي. وبهذا نكون قد حصرنا حركة التجديد العربي في أضيق حدود الممارسة الفردية، وبذلك نكون قد أسقطنا كثيرا من حلقات الحركة الطالعة آنذاك.

وعلى أية حال، فإن التطابق بين أفكار «اليعاقبة» و«الجيروندين» في الثورة الفرنسية، وبين أفكار الإصلاحيين العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يؤكد أصالة الفكر العربي وإنسانيته، وتماثله مع كبريات الحركات الإنسانية في العالم، بأكثر مما يؤكد هجانته وقصوره.

وهكذا فإن القطاع الإجتماعي الذي تبنى أفكار الإصلاح في أجهزة الحكم، ودعا إلى تقنين الصلة بين الحاكم والمحكوم، وما إلى ذلك من الأفكار التي مثلت ذروة الليبرالية

في جميع تشكلاتها في ذلك العصر، أقول إن هذه القطاعات هي التي مهدت إلى قيام المرحلة التالية في الفكر العربي، والذي شق أفقا جديدا في الوضع العربي على يد الجيل التالي من المفكرين في المشرق العربي، في مجابهة مباشرة مع الإستعمار والسلطة الأجنبية.

ولعل من أصدق الأمثلة على وحدة وتناغم حركة الفكر العربي القومي في شتى أقطاره مشرقا ومغربا، هو أن الأفكار التي تجاوزت في تصوراتها الإجتماعية نقاط البدء عند لطفي السيد وأمثاله، ممن أسموا بالجيرونديين العرب، قد عادت مرة أخرى إلى وادي النيل، لتؤلف حركات راديكالية تألفت على شكل لجان وجمعيات ثقافية أول الأمر، تطالب بإعادة النظر في أوضاع مصر بوجه عام. وفي هذه الفترة لم يكن من المصادفات العابرة أن يصدر محمد حسنين هيكل كتابه عن جان جاك روسو، ومحمد صبري كتابه عن «أصل الروح الوطنية المصرية»، وعبد الرحمن الرافعي كتابه في أجزائه الأربعة عشر عن طريق الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، وعلي عبد الرزاق كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، كذلك مقالات قاسم أمين عن تحرير المرأة. وأنه ليس من المصادفات العابرة أيضا أن يستجيب الجيل الناشيء آنذاك للدعوة الراديكالية هذه الداعية إلى تأثيل وتأصيل قيم العدالة الإجتماعية، فيبدأ ذلك الجيل بمناقشة مستقبل الثقافة العربية والمصرية. فستعلن حركة أحياء واسعة للتراث العربي، ليكتشف فيها من جديد المعري والجاحظ وابن رشد وابن سينا والفارابي وابن خلدون وغيرهم. ويكفي أن نشير هنا إلى أن ابن خلدون يكاد يكون إكتشافه الحقيقي على يد هذا الجيل الذي تلا جيل الرواد من الراديكاليين العرب الأوائل. إذ تم في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، ولم يكن ثمة مناص من تأثر الأدب في جميع أجناسه وأشكاله بالأفكار الراديكالية بمعناها الليبرالي، سواء في مصر أم في المشرق العربي عموما، فظهرت مع مطلع العشرينات حركات التجديد في الشعر والقصة والمسرح والمقالة على يد فئة من رواد التجديد بعد الحرب العالمية الأولى التي رافقتها حركات سياسية كانت الموجه الحقيقي للتيارات الأدبية الحديثة آنذاك. وفي فترة ما بين الحربين برزت في الأدب العربي، في مشرق الوطن العربي بوجه خاص، ولظروف موضوعية محضة، الطلائع الأولى للفكر القومي التأسيسي الذي بدأ بوعي متعاظم يعد نفسه لمواجهة تحديات العوائق في أساليب الحكم وتركيبة المؤسسات، ويجهز نفسه لإحداث تغييرات في النظم والمؤسسات عن طريق إزالة العوائق، وكذلك تحديد إمكانات الأمة للمواجهة العصرية مع العالم.

في هذه الفترة، فترة ما بين الحربين العالميتين، كانت آخر مرحلة من مراحل الخصب الراديكالي بمعناه الليبرالي. ففي هذه الفترة كانت قد اندثرت المؤثرات الإقليمية

في التيار الفكري العربي العام، فلم تكن المسألة الشرقية أو المسألة المصرية، أو أي من القضايا الإقليمية، هي المحرك الأساسي للمواجهة المعاصرة مع العالم. بل بدت في ميدان الفكر، من حيث هو تيار حي عام ، عناصر جديدة ترى في المفهوم العربي الإنساني جوهراً ومضموناً لأي إنجاز عقلي.

وكانت طلائع هذه المرحلة وليدة عوامل عديدة ذاتية وموضوعية اشتد بها الصراع بين قوى التحرر العربي والقوى المعادية. ولعل من أبرز الظواهر التي تستحق التسجيل في هذه الفترة أن الأديب العربي كان عنصرا هاما وأساسيا في معركة التحدي القومي، حتى أن مؤرخ هذه الفترة ليس بوسعه أن يجد تيارا من التيارات الأدبية في هذه الفترة استطاع أن يستخلص نفسه من آثار المعركة القومية والإجابة على التحديات التي تلقتها الأمة، وفي المشرق العربي على وجه الخصوص. وبهذا تحول الأدب عموما إلى أدب قتالي له ضحاياه وله انتصاراته وانتكاساته. وكان سلاحه طوال معركة هذه الفترة هي رؤياه العامة في التحرر السياسي بمعنى التحول الراديكالي في النظم والمؤسسات.

أما الدعوة إلى التحول الشامل في تركيبة المجتمع وبناء نظمه ومؤسساته على أساس من قيم حضارية جديدة، فقد بدأ مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع بروز طلائع حركة الفكر القومي الجديد. وكانت أدبيات هذه الحركة الثورية الطالعة قد اتسمت منذ بدايتها بالنصاعة والوضوح وبالبساطة التي هي بساطة قضية الأمة ووضوحها في الوعي العربي.

في هذه الفترة ظهر كتّاب وشعراء على هذه الجبهة استجابوا وعيا وحركة لمعركة الأمة العربية الحضارية ولجهد التأهيل القومي للمهام الإنسانية التي أعيد اكتشافها في الروح العربية.

ومن أبرز من كانوا في صميم جبهة المعركة الحضارية الشاعر سليمان العيسى. هذا الشاعر ولد ونشأ تحت أشجار التوت الحزينة في قرية النعيرية على نهر العاصي، وعرف وهو في يفاعته حسرات الأسى والضياع، وعرف المعنى الحي الأليم لكل تجربة الحزن الأرضي.

منذ يفاعته تساءل عن ملحمة الخلاص، تساءل عن سفر الثأر، وانتظر المولد الجديد... منذ البدء استمع إلى التحيات تهزه من الأعماق صادرة من أعماق أجداث أسلافه...

«أنا الطريد المثخن الشريد
في وطني على ثرى الأجداد
أنا النزيف المرّ في صحراء من حداد
تحية من ظلمة الجدث
من كل قبر هزه الحدث
يا ساكبي الربيع والمطر
في دمنا، يا مطلع السحر
طويلة في الأرض
في السحاب، في البحار
طويلة ملحمة الخلاص، سفر الثأر»

إن أول ما نلحظه ويجبهنا في شعر سليمان العيسى أنه ليس بوسعنا إطلاقا أن نفهم قصائده فهما تجريديا بمعزل عن مغزى اللفظة التي يستخدمها والصورة التي يبدعها. فحقائق الواقع في حياته وحياة أمته كامنة في كل أعماله الشعرية، وتؤلف نسقا جدليا بين الشعر ورؤيا الشاعر للعالم وقضاياه والأمة ومسيرتها. ومن هذا النسق الجدلي نجد هذا التوتر في اسْتخدام الألفاظ وانتقائها على نحو متفرد بقدر صلتها مع الألفاظ الأخرى.

إن سليمان العيسى يستخدم الألفاظ وعلاقاتها استخداما متوترا يخلق لنا صورة مؤثرة على بساطتها يودعها شيئا في شعره هو الحنين.

إذن فالبداية في فهم قصائد سليمان العيسى هى هذا التوتر الذي يبلغ أقصاه من أجل خلق أبسط الصور وأكثرها تأثيراً، ليعرب لنا عن إحساسه الذي لا يخونه أبداً بالحنين.

فالحنين هو الفعل الأساسي في المضمون الشعري لسليمان العيسى مؤسسا على قيمة اللفظ المتوتر والصورة البسيطة.

هذه الجدلية الأولية ينبغي أن ندركها من أجل أن نضعها معيارا لتقويمنا لمكانة الشاعر ودوره في حركة الشعر العربي المعاصر، إذ من غير أن ندرك هذه الحقيقة الأساسية: الجدلية الأولية في طبيعة اللفظ والصورة والحنين في قصائد الشاعر سيستغلق علينا الدور الذي تؤديه قصائده، وهو دور متفرد في صناعة العمل الفني،

«قبلة من شفة الصحراء، بيت من بنيّ

خصلة من عرف مهر، أو إله عربيّ
رفّت الصورة في رأسي كما يخفق شال
مرة في قبضة الريح، ويجمد،
وتحداني في سؤال
لمن الوجه؟
وأهوى صامتاً لم يتجدد...»

هنا يبدأ الشاعر باستخدام لفظة من هنا ولفظة من هناك ليهيء لنا معادلة الجدلي في صورة يهيء أذهاننا لها:

ها هي:
«أيها المجهد، يحلو السفر
عندما يهوى، على كفك
في وحشة ليل قمر
أيها الضائع، ما زلت على أطراف واحة
نسمة يغمس فيها المرهق الصادي جراحه...»

المجهد والسفر ووحشة الليل والقمر والضائع وأطراف الواحة، كلها ألفاظ منتقاة يوطيء بها الشاعر لصورة هذا المجهد الذي يشق ظلمة الصحراء ليبلغ في رهق التيار أطراف الواحة التي يُغمس فيي نسمها جراحه تحت نور القمر في وحشة مستوحدة.

مثل هذا التكنيك الشعري يتكرر عند سليمان العيسى في معظم أعماله الشعرية... ألفاظ ينتقيها انتقاء ليبلغ ذروة الصورة الشعرية، ليثير ذلك الضرب المتمرد من الحنين الأسيان يهزنا بألفاظ بسيطة، توسع من نطاق تأثيرها علاقاتها الداخلية. فالعلاقات الداخلية بين ألفاظ سليمان العيسى علاقات محكمة تؤلف ما يسمى بالصورة الداخلية التي توطيء للصورة النهائية للتجربة الشعرية.

ولنأخذ مثلا قصيدته البسيطة المؤثرة «تينة وشاعر»، وهي القصيدة التي كتبها بعد غربة ست وعشرين سنة زار الشاعر بعدها قريته على ضفة نهر العاصي، تلك القرية التي كتب فيها وتحت إحدى شجرات التين أول ديوان له...

يبدأ الشاعر بانتقاء الألفاظ الموطّئة للصورة الختام.. الغريبان والصمت والغصن

والنهر والصمت والشبّابة والهمس، حتى ينضج جو التجربة للصورة الختام... العناق من جديد بينه وبين سر قريته هناك أو...

«هنا
وتهادت
من ذؤابة
تعانقني سرا
تقول:
تعارفنا»

صورة هذا العناق السرّي بينه وبين القرية... وهي القرية ذاتها هي التي تعرفه وتقول «تعارفنا»... .

إن قصائد سليمان العيسى بحنينها المتمرد الذي تمثله صوره البسيطة المؤثرة تمتزج بكل رياح التاريخ العربي. وصورة رياح التاريخ العربي وأعاصيره هي الأخرى إحدى الصور التي تتكرر في شعره رمزا انقلابيا على الواقع العربي وانحلاله، ذلك الرمز الذي حولته حركة البعث التاريخية إلى واقع للتحولات الإرادية المسؤولة.

الفَصْـل العَاشِـرْ

دَورالشّعرِبالجزَائر في بَثّ الوعيْ القوميْ

عُـثمان سَعديْ

تمهيد

إن العمل من أجل الوحدة العربية يعتبر أشرف عمل يقوم به عربي، لأننا ننتمي إلى أمة واحدة، تتكلم لغة واحدة، وتعيش على امتداد جغرافي واحد صهره الوجود العربي في بوتقة الثقافة العربية منذ آلاف السنين، ومن قبل الفتح الإسلامي بكثير.

والإمبريالية الدولية تعمل بشراسة على منع الأقطار العربية من التوحد خاصة بعد تفجر النفط في الوطن العربي. فاستراتيجيتها تتمثل في منع هذه الوحدة خلال القرن العشرين على الأقل، لأن الوطن العربي في نظر المفكرين الاستراتيجيين للغرب ـ باحتياطيه الضخم من النفط، وبوفوراته الهائلة من «البترودولارات»، وبطاقته الاستهلاكية الكبيرة المتزايدة المعتمدة على الاستيراد ـ يلعب دوراً حاسماً في منع تفكك الأنظمة الرأسمالية الغربية، ومن أجل المد في عمر الرأسمالية بصورة عامة، وبأوروبا الغربية على الخصوص.

وفي تصوري سوف تخف حدة معارضة الغرب للوحدة العربية في مطلع القرن المقبل، عندما تنفد حقول النفط أو توشك على النفاد، وعندما يمكن استيعاب أفراد الطبقة العربية المودعة «للبترودولارات» العربية في إطار النسيج الاقتصادي بل والإجتماعي للمجتمعات الغربية.

ولهذا فأنني أعيد ما سبق أن قلته من أن أشرف رجال وأنبلهم هم الذين يعملون من أجل توحيد شعوب الأمة العربية ضمن إطار سياسي واحد، أي ضمن دولة واحدة، وبمضامين إجتماعية وإقتصادية تقدمية، وتوحيد الأمة العربية لا يتناقض مع توحيد العالم الإسلامي، لأن محمدا صلوات الله عليه وسلم وحد القبائل العربية، وخلق منها قوة

واحدة متراصة، ثم أتجه شرقاً وغرباً في فتوحات الإسلام. ووحدة العالم الإسلامي تمر بالضرورة والحتمية عبر الوحدة العربية، كما أن تجريد الوحدة العربية من البعد الإسلامي عمل غير حكيم وغير واقعي وغير ممكن.

أما الجزائر فان شعبها قاوم أخطر عملية مسخ ثقافي دامت قرناً وثلث قرن. وهو منذ ثماني عشرة سنة يناضل من أجل استرداد مقوماته القومية المتمثلة في التعريب، الذي اتخذ أبعاداً فعالة منذ أنعقاد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني في مطلع العام ١٩٧٩. ويدرس الحزب «ملف تعريب الادارة وميادين العمل» الذي شارك في إثرائه عشرة آلاف مناضل ومسؤول ضمن واحد وثلاثين يوماً دراسياً، جرت في الولايات (المحافظات) الاحدى والثلاثين للقطر الجزائري، خلال شهري شباط/ فبراير وآذار / مارس ١٩٨٠.

ومنذ مطلع آذار، تحرك الإستعمار الفرنسي الجديد وبعض عملائه بالمغرب العربي الأعضاء في نادي الفرنكفونية، لمقاومة تعريب الإدارة وحقول العمل بالجزائر، لأن الإمبريالية الفرنسية إذا سكتت عن تعريب التعليم العام، وكليات العلوم الإنسانية، فإنها ستقاوم وبشراسة وعناد تعريب العلوم وحقول العمل بالجزائر والمغرب العربي، لأن «تعريب التعليم باستثناء العلوم مع أبقاء الإدارة وحقول العمل تدور بالفرنسية» يدخل في باب تعليم العربية للجزائريين وأبناء المغرب العربي لكي ينسوها فيما بعد، لا من أجل ممارستها في حياتهم العملية. وهذا ما لم يرض عنه حزب جبهة التحرير الوطني، الذي قرر تعريب الإدارة والعمل، فتحركت ترد على ذلك الإمبريالية الفرنسية، إنطلاقاً من مقولة الكاتب الفرنسي الاستراتيجي للفرنكفونية روجيه كان Roger Cans «إن الناطقين بالفرنسية بالعالم يمثلون الفرق المسلحة للفرنكفونية» أي للوجود الفرنسي بالكرة الأرضية، والتي نشرها في جريدة «لوموند» الفرنسية ضمن دراسة طويلة في اعداد (٥ ـ ٦ ـ ٧ كانون أول / ديسمبر ١٩٧٩).

ولبست هذه الحركة الشعوبية (الثوب البربري) لأن الامبريالية الفرنسية التي تخلق النزعات الانفصالية في أية منطقة تعاني من عدم إنسجام ديني أو طائفي، هي التي خلقت (النزعة البربرية) بالجزائر وبالمغرب العربي في منطقة تنعم بانسجام ديني وطائفي تام. والعناصر التي حركتها الامبريالية الفرنسية بالجزائر في شهري آذار/مارس ـ ونيسان / ابريل ١٩٨٠، هي عناصر ناطقة بالفرنسية، جاهلة حتى لما يسمى بالثقافة البربرية الأصيلة، وكدليل على ذلك فأنا من الذين يقال عنهم بربر، مثل حي يؤكد لكم، بأن

البربر عبارة عن قبائل عربية هاجرت من جنوب الجزيرة العربية وبلاد الشام منذ آلاف السنين، وقبل الفتح الإسلامي بكثير؛ هم كنعانيون وعمالقة وسبئيون وحميريون. وما اللغة البربرية التي أتقنها سوى لهجة من اللهجات العربية القديمة، التي لا تزال متداولة حتى الآن بين بعض العشائر في جنوب اليمن. ويكاد الباحث لا يجد كلمة باللغة البربرية لا توجد نصا في قاموس لسان العرب.

إذا أستعرضنا أدب الجزائر خلال القرن الجاري وخاصة الشعر منه، وجدنا الشعراء والكتاب يلحّون على العروبة وعلى الإسلام، الذي أدى دور حامي العروبة بأقطار المغرب العربي. ولا أبالغ إذا قلت إن البعد العربي في الأدب المغربي الحديث كان أكثر وضوحاً في الأدب الجزائري، منه في أدب أي قطر آخر من أقطار المغرب العربي. ولعل السبب في ذلك راجع إلى الحرمان الذي كان يحسه الجزائري قبل الإستقلال من ممارسة عروبته بالجزائر. فالجزائري كان يعتبر فرنسياً، والجزائر كانت تعتبر جزءاً من فرنسا، واللغة العربية كانت تعامل معاملة لغة أجنبية طوال قرن وثلث قرن.

والوعي القومي بالجزائر وبأقطار المغرب العربي عموماً امتزج بالإسلام، لأن الفرنسيين عندما احتلوا الجزائر في ١٨٣٠ وقرروا ضمها للبلاد الفرنسية، وجدوا أن أكبر عقبة تقف في طريق التفرنس تتمثل في الدين.

قال سكرتير الجنرال بوجو (أكبر قائد فرنسي من قادة الإحتلال): «في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح. أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً». والمسيحية التي بشر الفرنسيون بها في الجزائر ليست دين المسيح عليه السلام الحقيقي، وإنما هي وسيلة من وسائل الإستعمار. سلط الفرنسيون على الجزائر حملات تبشيرية واسعة، فاضطهدوا المسجد، وحولوا أوقافه إلى ممتلكات فرنسية، وشجعوا رجال الطرق الصوفية المشعوذين. وكان المسجد - طوال فترة الإحتلال - يقوم بدور المحافظ على عروبة الجزائر بتعليم اللغة العربية وعلومها وبث الوعي القومي.

فعبد الحميد بن باديس - زعيم الحركة الإصلاحية بالجزائر - يحدد هوية الشعب الجزائري بأنه مسلم وعربي من نسل العروبة، والذي يريد أن يجعله يخرج عن إطار الإسلام والعروبة ويدمجه في جنس آخر، كالجنس الفرنسي، فهو يطلب أمراً مستحيلاً.. ويختتم ابن باديس هذا النشيد الذي استمر الشعب الجزائري أكثر من نصف قرن يردده - بالحياة للجزائر وللعرب:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب

* *

نحن الأولى عرف الزما ن قديمنا الجمَّ الحسب
ومعين ذاك المجد في نسل العروبة ما نضب
هذا لكم عهدي به حين اوسد بالترب
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

والزاهري[1] يشيد في ١٩٣٤ بجمعية العلماء، التي كانت مهمتها نشر المدارس الأهلية لتعليم العربية ومحاربة أدعياء الدين المتعاملين مع الإدارة الإستعمارية، فيحيّي فيها العروبة والدين الصحيح معاً:

حيٍّ العروبة في (جمعية العلماء) وحي ويحك فيها الدين والشيما
تدعو إلى الله عن علم وبينة لا كالذين إلى جهل دعوا وعمى

والوعي القومي اتخذ في تاريخ الجزائر أشكالاً عديدة كإحياء تراث الأجداد وأمجادهم، وتربية الأبناء على هذا التراث، حتى لا، ينسونه فتسهل مهمة الإستعمار في تجريدهم من شخصيتهم العربية. يقول اللقاني السائح[2] في العشرينات:

بني وطني هل من خطيب مدرب يحرك أرواحاً بمقولة الصادي
يطالب حقاً ضاع مذ ضاع أهله وينشر للأبناء تاريخ أجداد

ومحمد بن دويده[3] يستعرض باكيا ـ من خلال القهر الإستعماري بالجزائر ـ أمجاد العرب وآثارهم الأدبية، يوم أن كانت الدنيا تستمد من الخلافة في بغداد نور العلم والمعرفة، ودور الفنون والآداب، ويبكي الشاعر، وهو يتذكر هذه الأمجاد، كما بكى الشعراء من قبله أحباءهم وهم يقفون على رسم منازلهم.

وقفت برسم العرب وقفة خاشع وقلت: ضياعاً ما نظمتم من الدر
يقول: أنظروا ما شيدت يدعلمهم على الرغم مما غيرته يد الدهر

---

(١) ولد محمد السعيد الزاهري في ليانه بالشرق الجزائري عام ١٩٠٠ ، وتوفي عام ١٩٥٦ . ونشر في كبرى المجلات الأدبية العربية في العشرينات والثلاثينات .

(٢) ولد في نفطة بتونس عام ١٨٩٥ .

(٣) ولد في الطهّير بالشرق الجزائري عام ١٩٠٥ .

وينــدب بدر العلم إذ كــان ســاطعــا		بيغــداد نبراس الحقــائق والفخــر
ويبكي ويستبكي فيــرســـل أبحــرا		من الدمع حتى فاض دمعي على صدري

ومحمد العيد آل خليفة[٤] في ١٩٣٦ يفخر بحضارة العرب التي كانت تشع على البشرية حكمة قبل ظهور الحضارة اليونانية والرومانية. ثم يتأمل واقع أمته ويتساءل هل سيعود للعرب عصر إزدهارهم الذي لم يحافظ عليه الأحفاد؟:

إن للعــرب في الحضــارة قــدمــا		قــدمــا لــلورى عليهــا استــنــاد
كم دعــوا للحجاز من قبــل رومــا		وأثيــنــا، مــن حــكــمــة، وأفــادوا
أيهــا المشــرقــون في ظــلم التــا		ريــخ هــل عصــركم علينــا يعــاد
كلمــا شــدتم على الأرض من مجـــــد		قــديــم أضــاعــه الأحــفــاد

كما يفخر محمد العيد في قصيدة أخرى بفصاحة لغة العرب وسماحة دينهم، وكيف أزدهرت الدنيا بفضل الاشعاع الحضاري العربي الإسلامي. ففي ميدان البطولة أنجبت الأمة العربية عليّا وخالدا وعمرا وغيرهم، كما أنجبت في ميدان الفكر الغزالي وابن خلدون، وابن حيان. فالعرب نشروا العدل، بينما نجد الغربيين الآن ينشرون الخراب والظلم:

ألسنا من الأجناس أفصحهم فمــا		وأســمحهم دينــا وأصلحهم أبــا
تبــادرت الــدنيــا عليهم بخيــرهــا		وأخصب منهــا كل مــا كان أجدبــا
ولــدنــا وأنجبنــا، فقــرنــا عليهم		ومن ولــد الصيــد المناجيــد أنجبــا
فهــل انجبــوا فيهــا (عليــا وخــالــدا		و(عمــرا ومعنا وابن قيس ومصعبــا)
وهــل أنجبوا مثــل (الغزالي) بــاحثــا		ومثــل (ابن خلدون) خبيــرا مــدربــا
وهل أنجبوا مثل (ابن حيان جــابرا)		وهل جربوا من قبل من كان جربــا
وهل نشروا في الكون عدلا ورحمة		كــأجــدادنــا أم صيــروه مخــربــا

ومحمد العيد، في النشيد الذي الفه للمدارس العربية الحرة في عهد الإستعمار، يصف سياسة الاندماج التي كانت تهدف فرنسا بواسطتها إلى إذابة الشعب الجزائري العربي في الأمة الفرنسية، يصفها بالحمق، ويؤكد أن شعبا يدين بدين محمد لا يمكن أن يُقضى عليه:

---

(٤) ولد بعين البيضاء بالشرق الجزائري عام ١٩٠٤، وتوفي عام ١٩٧٩. من اشهر شعراء الجزائر. له ديوان مطبوع، كتب عنه الاستاذان صالح الخرفي وأبو القاسم سعد الله.

إن الذي يبغي أندماجك في سواك لا حمق
لا ينمحي شعب، بشارات الرسول مطوق

وحمزة بوكوشة[٥] يحس في ١٩٣٥ بغربة في بلده الذي صارت لغة الضاد أجنبية به. فيتألم لذلك:

يا بلبل الشرق ما أشجاك أشجاني قم ناج قلبي بتغريد وتحنان
فأن مثلي كئيب حل في شرك وأنت مثلي غريب بين أوطان

والهادي السنوسي[٦] يتجه ببصره إلى السماء في ١٩٢٨ فيشاهد الهلال الذي يذكره بأمجاد العرب، ويستوحي منه أمله أن تخرج أمة العرب من التخلف والاستعباد:

هلالك يا فخر العروبة لم يزل كما كان لكن خانه الطعن والضرب
هلال، إذا ما الحول حال، تجددت لنا فيه آمال يحققها الذب
إذا كان سعدا للعروبة طالعا فأنا وإن غارت طوالعنا عرب

وتوقف السلطات الفرنسية تعليم العربية بالمدارس الرسمية بالجزائر، ويتنادى رجال الإصلاح، ويطلبون من الشعب بناء المدارس وتمويلها بامكانياته لتعلم لغته لابنائه، حتى لا يتحقق هدف الإستعمار في القضاء على العربية والعروبة بالجزائر. وتفتح النوادي لتوعية الشعب توعية ثقافية عربية، ويؤسس (نادي الترقي) بالجزائر العاصمة، الذي لعب دوراً عظيماً في محاربة سياسة الإندماج، ومقاومة تجنس الجزائريين بالجنسية الفرنسية. ومن هذا النادي انطلقت فكرة تأسيس جمعية العلماء[٧]. التي بنت المدارس العربية الحرة، ويتغنى الهادي السنوسي بهذا النادي، الذي أعقب فتحه نواد أخرى في العديد من المدن الجزائرية، يكمل المدارس الحرة ويقوم بدور ثقافي وتربوي للشباب. ويصيح بالشباب الجزائري أن يرتاده، لأنه ينشر اللغة العربية ويحيي ذكرى الأجداد:

ناد الشبيبة وادعها لـ(النادي) أن النوادي شرعة الرواد

---

(٥) ولد في بوادسوف. من رجال حركة الاصلاح.

(٦) ولد في ليانه عام ١٩٠٢. مؤلف كتاب «شعراء الجزائر».

(٧) تأسست جمعية العلماء المسلمين عام ١٩٣١ تحت رئاسة عبد الحميد بن باديس، الذي خلفه بعد وفاته الشيخ الإبراهيمي. جمعت الاموال من الشعب وبنت عشرات المدارس الحرة لتعليم العربية.

نـاد سـيـذكـره الـرواة بـمـالـه | من نعمـة تـتـرى عـلى الأحفـاد
ويسجـل التـاريـخ من أوصـافـه | عـزم المجـد، وهـمـة الأمجـاد
ويهــز من أعـطافـه مـا هـز من | آبـاء فـتيـتـة، لـسـان الـضـاد

ويصف محمد العيد نادي الترقي[8] بأنه صوت العروبة:

منـار بـه صـوت العـروبـة يعتلي | وكهف بـه نشء (البليـدة) يحتمي
رفعتم بـه صـوت العـروبة عـاليـاً | وعـدتم على الإسلام فيـه بـأنعم

ويؤسس أول معهد للتعليم الثانوي العربي الحر في قسنطينة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو معهد عبد الحميد بن باديس الذي يؤدي دوراً إشعاعياً وطنياً وثقافياً عربياً هائلاً ويتسابق الشعراء للتغني به، وسرد تأثيره في الحركة الوطنية، وفي الحفاظ على لغة الضاد.

فمفدي زكريا[9] يعتبر المعهد محط آمال الشعب، حيث يضم بين جدرانه حياة شعب الجزائر كله، عندما يرعى الشخصية العربية في أبنائه:

يـا دار، أنت على التقـوى مؤسسـة | مبناك بـالـطهر مـرصـوص ومشـدود
دار ابن بـاديس في سـرتـا يـظللهـا | نصـر، ألا إن نصـر الله مـوعـود
مـا بين جدرانهـا تحيا الجـزائر، لا | من فـوق جـدرانهـا تتلى التهـاجيـد

وفي عام ١٩٢٢ يمدح الأمين العمودي[10] الأمير خالد ـ حفيد الأمير عبد القادر ـ عندما قررت السلطة الإستعمارية نفيه إلى مدينة بسكرة في الصحراء، نتيجة لمواقفه الوطنية التي تمثلت في تأسيسه لحركة وطنية بعد الحرب العالمية الأولى. فالأمير خالد يعتبر عن جدارة أول من وضع الأسس للحركة الوطنية السياسية بالجزائر. ويشير الشاعر إلى هذه المواقف التي رددتها أقطار الوطن العربي، وكيف استبشرت الأمة خيراً بهذا التيار الوطني الذي يقوده الأمير خالد بشجاعة.

وتبـاشـرت بـك أمـة، علمت بمـا | أوليـتـهـا من سـابق الإحسـان
واهـتـزت الأرجـاء مـن أقـطارنـا | طـربـا فعم الخيـر كـل مكـان

---

(٨) تأسس نادي الترقي عام ١٩٢٦ .

(٩) ولد في بني يزقن جنوب الجزائر عام ١٩٠٨ ، وله ديوانا شعر . توفي قبل سنوات .

(١٠) ولد بوادسوف عام ١٨٩٠ ، واستشهد عام ١٩٥٧ . من رجال الاصلاح الاوائل .

يـا خـالـدا أبقيت ذكـرا خـالـدا يفنى الـزمـان وليس هـو بـفـان

ويهز نبأ لجوء البطل المغربي عبد الكريم خطابي إلى مصر في الأربعينات، الشاعر عبد الكريم عقون[11]، فينظم قصيدة بعنوان «تحية عبد الكريم خطابي» يعبر من خلالها عما تركه نبأ قبول شعب مصر العربي استضافة البطل المغربي، الأمر الذي يؤكد أن أمة العرب واحدة في حقيقتها وآمالها وتطلعاتها، ثم يشير بطريق التلميح إلى أن لغة عبد الكريم خطابي - الذي حمل السلاح ضد الاستعماريين الفرنسي والاسباني بالمغرب الأقصى - هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الاستعمار. وقد نشر الشاعر قصيدته في صحيفة البصائر الجزائرية عام ١٩٤٧، يقول:

قد انفلت الضرغـام من عنت الأسر وحن إلى أسـد هنـالـك في مصـر
كذا العرب جسم واحد إن يذق أذى تـداعت له الأعضـاء بالسهـر والضر
وكـل ديـار العـرب دارك فلتكف قـريرا بعـطف النيل منشـرح الصدر
وعلمتنـا كيف النضال الـذي بـه نحـطم أغـلال الـطغـاة ذوي الغـدر
فكن لبني العـرب الميـامين قـائـدا وجدد عهود العـرب نسلَ بني فهـر
ألا فلتعش (للريف) والعرب حاميا فـإنـك رمـز للمكـارم والـفخـر

وفي ١٩٤٩ يحيي ذكرى شكيب أرسلان الشاعر عبد الكريم العقون، ويعتبر وفاته خسارة للعرب والمسلمين قاطبة:

بني العرب والإسلام في كـل موطن عـزاء جميلا إن تـولى (أرسلان)
أ(لبنـان) لا تجـزع لخـطبك إننـا بنو العرب في الخطب الملم لإخوان
فهـا هـوذا شعب الجـزائر رافعـاً تعـازيه يحـدوهـا عـويـل وإرنـان
لقـد غاب من كـان للعـرب حـاميا فبتنـا نعـاني الهم والقلب اسـوان

ويمدَح الشاعر عيسى حمو النوري عام ١٩٥١ الشيخ بيوض، الزعيم والمصلح الديني (المزابي)(*) ، فيقول بأن دم العروبة يتدفق في شرايين الشيخ بيوض عربياً أصيلاً، رغم افتراءات المستعمرين، الذين حاولوا ويحاولون إظهار البربر بأنهم جنس غير العرب، فينسبونهم إلى أصول غربية، بينما أصولهم مشرقية عربية. يقول الشاعر:

---

(١١) من رجـال الاصلاح وشهـداء الثـورة . اعـدمتـه السلطة الاستعمـاريـة في ١٣ / ٥ / ١٩٥٩ .

(*) الميزابيون فئة (بربرية) بالجزائر .

للشرف آي من جمال خالد تعنو لها في العالم الأقطاب
من رائعات الشرق يوض الذي تسل الشمال وأنجبت (ميزاب)
والعبقرية من فضائل نبته إن أرجعت لأصولها الأعشاب
ودم العروبة في العروق مراجل تغلي وتومض تحتها الأنساب
أكذب بما قال المعمر ضلة إن المعمر ساحر كذاب

ويحيّي الشاعر صالح الحرفي[١٢] آثار رفاة الأمير عبد القادر عندما قررت القيادة الثورية بالجزائر إعادته من دمشق إلى أرض الوطن، فيبرز الشاعر نسبه الهاشمي ويعلن عودة الجزائر إلى صف الوطن العربي بعد أن كانت تابعة لفرنسا.

عد إلينا فدتك نفس أبية أرضك اليوم أصبحت عربية
لك مثوى بين القلوب الوفية حررت أرضها بكأس المنية
وسقتها من الدماء السخية هل لنا منك طلعة (هاشمية)
بعد مرّ النوى وطول الغياب

وتندلع ثورة الجزائر، فينطلق شعراء الجزائر والأقطار العربية معتبرين بطولاته إحياء للبطولات العربية كبطولة عنترة بن شداد وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص. وها هو مفدى زكريا ينشد:

إن كنتم تجار حرب إن من أجدادنا من باع فيها واشترى
فرسان حومتها؟ سلوا صهواتها كم أسرجت بـ(ابن الوليد وعنترا)
سنشنها (عمرية) (سعدية) ستثير رملتها قتاما أغبرا

وفي ١٩٦١ ينشد مفدى زكريا في نفس المعنى فيلح على الهوية العربية لثورة أول تشرين الثاني (نوفمبر) فيقول:

والشعب أسرع للشهادة عندما ناداه (عقبة) للفداء و(حيدر)
وتكلم الرشاش جل جلاله فاهتزت الدنيا وضج المنبر
والذكريات وإن تقادم عهدها في أمة أشباهها تتكرر

وما انفك الشعراء يتغنون بأمجاد (أمة الضاد)، فالشاعر أحمد سحنون[١٣] في

---

(١٢) ولد صالح الحرفي بالغزابري، جنوب الجزائر عام ١٩٣٢ . له عدة دواوين مطبوعة وتأليف في النقد وتاريخ الأدب الجزائري .

(١٣) من رجال الاصلاح . نشر شعره في صحافة الجزائر ، لم يصدر له ديوان .

١٩٤٧ يفتخر بأمة الضاد التي ستنال مرادها، وبأبناء الضاد الذين سينتصرون:

هــات نشئا صــالحــا يبني العــلا ويفـك الضـاد من أســر الأعــادي
لا تقــل شمس بني الضـاد اختفت وطــوت أيــامــهــم ســود عــواد
لا تـضق ذرعــا، ولا تـهلك أسى أمــة الضــاد، ستحــظى بــالمــراد

وإذا كان الطابع العام للأدب الجزائري والشعر الجزائري هو صوب الوعي القومي، من ذكر الأمجاد العربية واستعراض تطلعات شعوب الأمة العربية نحو المصير الواحد المشترك، فإن هذا الشعر لم يهمل التحدث عن الوحدة العربية، فبلقاسم خمّار(١٤) يطالب بأن يستمر النضال حتى تتحقق الوحدة العربية الكبرى:

لا بشر لي، زحفا مواكبنا، وصمتا يا ضجيج
حتى يوحدنا الكفاح من المحيط إلى الخليج
وهنـاك يهتز النشيد ويمـلأ الأفق الأريـج

ومفدى زكريا يقول بأن المحن والمعاناة هي التي تفرض الوحدة:

تلك العــروبـة إن تثــر أعصـابهــا وهن الــزمــان حيــالهــا وتضعضعــا
الضـــاد في الأجيــال خلد مجــدهــا والجــرح وحد في هــواهــا المنــزعــا

ويعيش مفدى زكريا مأساة فشل أول تجربة وحدوية، وحدة سورية ومصر، ويكتب قصيدة تعتبر من أجمل ما قيل، عنوانها «عيد وحدتي» فهو يتألم لفشل هذه التجربة وحلول التناحر والشقاق محلها. فالتخلي عن هذه الوحدة معناه انحراف سفينة أمتنا نحو مسار سيء وخطير.

كنت (للوحــدة) الفــداء الــمــدوي كـيـف لـلخلف أرهـف اليــوم أذنـي
قــد تــراءى الشقــاق حــطمت كــاسا تـي على مـبـسـمي وأحــرقـت دنـي
قــد رأيت السفين يجــرفـهــا اليمّ لـســوء المـصيــر أغــرقـت سفـني

ويتألم الشاعر لنشوة التزعم وعشق الكراسي التي جن بها القادة والرؤساء:

ورأيت الــرؤوس طــافت بهــا حمـ ـى الـكــراسي ونــالـهــا مسُّ جـن
فتخيـرت في الـرقى (ســورة الإخـ ـلاص) مـذ بـات غيــره ليس يغني

---

(١٤) من مواليد بسكرة بالجنوب الجزائري . له ديوانان مطبوعان وعدة مؤلفات في تاريخ الأدب الجزائري .

ثم يعبر عن عمق حزنه الذي يقول أنه سيبقى ملازما له، وسوف لا يحل محله الفرح إلا إذا تحققت الوحدة، فغناء الشاعر لا يحلو إلا في أفراح الوحدة:

ودع الـروح لـلبـلابـل تـشـدو وابعث الشعـر لـلخـلاص يهـنـي
فـرحتي (وحـدتي) وشعـري طيري بسـوى عيد وحـدتي لا أغني[١٥]

* *

استعرضنا شعر أربعة عشر شاعرا ينتمون إلى أجيال مختلفة، أكبرهم سنا ولد عام ١٩٨٠ وأصغرهم ولد عام ١٩٣٢، استشهد اثنان منهم في اثناء ثورة تشرين الثاني (نوفمبر) وهما: الأمين العموري شهيد عام ١٩٥٧، وعبد الكريم عقون الذي أعدمته السلطات الاستعمارية في ١٩٥٩/٥/١٣.

ومجموعة الشعر التي عرضتها بإيجاز تقدم بوضوح فكرة عن الرسالة القومية التي أداها الشعر على الخصوص في نشر الوعي القومي بالجزائر.

فقد أدى الأدباء والشعراء الجزائريون رسالتهم في هذا الميدان، حيث استمروا يمدون الرأي العام الجزائري بأنباء الوطن العربي، رغم الستار الحديدي الذي فرضته السلطة الاستعمارية على الجزائر، ويعرضون أمامه مآثر الحضارة العربية وأمجاد العرب بصورة عامة، حتى لا ينسى أصله واجداده، حيث عملت الإدارة الاستعمارية منذ دخولها الجزائر عام ١٨٣٠ على جعل الجزائريين ينسون ماضيهم العربي وينصرفون عن الثقافة العربية، أي من أجل أن تفقد الجزائر ذاكرتها العربية.

وكان هؤلاء الأدباء والشعراء يشيعون أخبار الوطن العربي وينشرونها بين أبناء الجزائر، متحدّين بذلك السلطات الاستعمارية التي كانت تحاصر النوادي العربية، وتمنع دخول الصحافة والكتب العربية، وتطارد معلم العربية وتضيق عليه الخناق، وتدرج اسمه في قائمة المهددين للأمن بصورة دائمة.

ونظرا لمنع الإدارة الفرنسية تعليم العربية في المدارس الفرنسية، ومحاربة فتح مدارس حرة لتعليمها، فإن الأدب المعبر عنه بالعربية بقي في إطار ضيق ولا يعدو الشعر والمقالة، كما بقي الأدب المعبر عنه بالفرنسية محصورا في طبقة ضيقة جدا، لم ينفذ إلى وجدان الشعب الذي استمر في غالبيته العظمى يجهل الفرنسية.

---

(١٥) كان لي كتاب الصديق الدكتور صالح الخرفي «الشعر الجزائري» نعم المعين في اعداد هذه الدراسة.

وأدى الزجل الشعبي دوره الكبير في التعبير عن خلجات وجدان المواطن الجزائري، وتطور مشاعره، ومرافقة تطور الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية الغازية. ولم يهمل الزجل الشعبي دوره في بث الوعي القومي، فأداه بأمانة وزخم. فزجال من قرية برج الغدير ينشد زجلا في الأربعينات يعبر فيه عن أمنيته المتمثلة في زواجه ممن يحب وإقامته في مدينة سطيف، وهذا في تصوره لا يتم إلا في ظل دولة عربية. يقول:

والله لا وتصير الدوله عربيه
من وليدات عياض غير اللّي نبغيه
نتزوج خيره صاحبة المليانيا
ونسكن وسط سطيف والقلب نزهيه

وزجال آخر من جنود جيش التحرير، ينظم قصيدة طويلة بعنوان «قداش نفكر» يقول فيها مخاطبا فرنسا، بأن العملاء خدعوك فأوهموك أن الجزائر ملك لك بينما هي في الحقيقة (دولة عربية):

أفرنسا يخليك
الكومية زروا بيك
الجزاير ما هي ليك
راهي دولة عربية

وهذا زجال آخر من قبيلة (أولاد سيدي عبيد) بالشرق الجزائري، عندما يستعرض بطولات جنود جيش التحرير يصفهم بأنهم (أولاد العربية):

كي ثاروا أولاد العربية
قصدوا قتال الروم
سكنوا في جبال الظهرية
وين يدوره الحوم
جت الطياره المخلية
وكان اطبلها يزوم
وتبارك في ها الجندية
ومول القلب يقوم
أبطال أولاد العربية
ومن حاضر من القوم

المَراجع

إبراهيم ، حافظ . **ديوان حافظ إبراهيم** . بيروت : دار العودة ، ١٩٦٩ .

ابن الأثير .

ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن علي . **العمدة في صناعة الشعر ونقده** . القاهرة : مطبعة أمين هندية ، ١٩٢٥ .

ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد . **العقد الفريد** . الطبعة ٢ . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣ .

ابن قتيبة الدينوري . **الشعر والشعراء** . تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ .

ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم . **لسان العرب** . بيروت : دار صادر ، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ .

ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك . **السيرة النبوية لابن هشام** ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا ، إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . الطبعة ٢ . القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٥ .

أبو تمام ، حبيب بن أوس . **ديوان الحماسة** . الاستانة : مكتبة إسماعيل سابكي ، ١٩٦٩ .

أبو خالد ، خالد . **ديوان اجتياز الليالي الألف يبدأ بخطوة واحدة** . بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

أبو عبيدة ، سرور طه عبد الباقي . **النقائض** . ليدن : بريل ، ١٩٠٧ .

أبو نضال ، نزيه . **الشعر الفلسطيني المقاتل** . بيروت : اتحاد الكتاب الصحفيين الفلسطينيين ، ١٩٧٤ .

أبي حنيفة الدينوري . **الأخبار الطوال** .

أسد الغابة .

الأصفهاني ، أبو الفرج . **الأغاني** . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤ .

الأعشى ، أبو بصير ميمون بن قيس . **ديوان الأعشى** . بيروت : دار صادر ، ١٩٦٠ .

أمين ، أحمد . **ظهر الإسلام** . الطبعة ٣ . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٤ .

الانباري ، أبو بكر محمد بن القاسم . **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات** . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣ .

الأيادي ، لقيط بن يعمر . **ديوان لقيط بن يعمر الايادي** . بيروت : دار الأمانة ، ١٩٧١ .

الإيراني ، محمد سيف الدين . **ما أقل الثمن** . عمان : ١٩٥٦ .

أيوب ، رشيد . **الأيوبيات** : ديوان . نيويورك : د . ن . ، ١٩١٦ .

بحري ، يونس . **أسرار مايس ١٩٤١ أو الحرب العراقية الإنكليزية** ، تقديم على الخاقاني . بغداد : ١٩٦٨ .

بحيري ، حسن . **ابتسام الضحى** . حيفا : صندوق الأمة العربي ، ١٩٤٦ .

البدوي الملثم . **الديوان** .

البساطي ، إبراهيم . **وحدة العرب** .

البستاني ، وديع . **ديوان الفلسطينيات** . بيروت : [د . ن .] ، ١٩٤٦ .

البصير ، محمد مهدي . **البركان** . بغداد : مجلة المعلم الجديد ، [د . ت .] .

البصير ، محمد مهدي . **سوانح** . بغداد : ١٩٦٧ .

البصير ، محمد مهدي . **المجموعة الشعرية الكاملة** . بغداد : ١٩٧٧ .

بطي ، رفائيل . **الأدب العصري في العراق العربي** . القاهرة : مطبعة السلفية ، ١٩٢٣ .

البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيي . **فتوح البلدان** ، تحقيق ومراجعة دي غويه . ليدن : بريل ، ١٨٦٦ .

بن أبي سلمى ، زهير . **الديوان** . بيروت : دار صادر [و] دار بيروت ، ١٩٦٠ .

بن أبي الصلت ، أمية . **الديوان** ، تحقيق بهجة عبد الغفور . الطبعة ٢ . دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٧ .

بن برد ، بشار . **الديوان** . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٧ .

بن ثابت ، عبد الكريم . **ديوان الحرية** . ١٩٦٨ (سلسلة كتاب العلم) .

بن سيار ، نصر . **ديوان نصر بن سيار** ، تحقيق عبدالله الخطيب . بغداد : ١٩٧٢ .

البياتي ، عادل جاسم . **أيام العرب** .

البياتي ، عبد الوهاب . **عيون الكلاب الميتة** . بيروت : دار العودة ، ١٩٦٩ .

تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : ١٩٧٦ .

التميمي ، قحطان رشيد . مروان بن أبي حفصة وشعره . النجف : ١٩٦٦

ثامر ، فاضل وياسين النصير . قصص عراقية . بغداد : ١٩٧١ .

جايبي ، إدريس . ديوان السوانح . الرباط : ١٩٧١ .

جبران ، خليل جبران . البدائع والطرائف .

الجمحي ، محمد بن سلام . طبقات فحول الشعراء .

الجندي ، أنور . الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والحرية والتجمع ، ١٨٣٠ ـ ١٩٥٩ . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٥٩ .

الجواهري ، محمد مهدي . ديوان الجواهري . بغداد : منشورات وزارة الاعلام ، ١٩٧٣ .

الجواهري ، محمد مهدي . المجموعة الشعرية الكاملة . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ .

الجيوسي ، سلمى الخضراء . العودة من النبع الحالم . بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٠ .

الحبيب ، محمد . ديوان نجوم بين يدي . الدار البيضاء : ١٩٦٥ .

حبيبي ، إميل . سداسية الأيام الستة . بيروت : دار العودة ، د . ت .

حجاب ، محمد نبيه . مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري . القاهرة : نهضة مصر ، ١٩٦١ .

حسين ، محمد كامل . دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٤ .

الحسيني ، أمين . حقائق عن القضية الفلسطينية . القاهرة : الهيئة العربية العليا لفلسطين ، ١٩٥٠ .

حصاد السجن . الطبعة٢ ، بيروت : د . ت .

الحصار ، محمد . ترجمة وانتاج . الرباط : ١٩٧١ .

الحلوي ، محمد . ديوان أنغام وأصداء . الدار البيضاء : دار السلمى ، ١٩٦٥ .

حمود ، نور الدين . ديوان رحلة العبير . تونس : ١٩٦٩ .

الخاقاني ، علي . شعراء الغرى أو النجفيات . النجف : المطبعة الحيدرية ، ١٩٥٤ .

خضر ، عباس . أدب المقاومة . القاهرة : ١٩٦٨ .

الخطيب ، فؤاد . ديوان فؤاد الخطيب . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩ .

الخطيب ، يوسف . ديوان الوطن المحتل . دمشق : ١٩٦٨ .

الخطيب ، يوسف . العيون الظمأى للنور . دمشق : ١٩٥٥ .

الخوري ، بشارة . الهوى والشباب . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٣ .

خوري ، اسكندر . آلام وآمال . القدس : ١٩٦١ .

داعر ، أسعد . ثورة العرب : مقدماتها ، أسبابها ، نتائجها . القاهرة : المقطم ، ١٩١٦ .

الدجيلي ، عبد الكريم . محاضرات عن الشعر العراقي الحديث . القاهرة : جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩ .

دروزة ، محمد عزة . الوحدة العربية . بيروت : المكتب التجاري ، [١٩٥٧] .

درويش ، محمود . ديوان محمود درويش . الطبعة ٥ . بيروت : دار العودة ، ١٩٧٧ .

درويش ، محمود . فلسطين ريشتي ، تأليف عبد الكريم الكرمي . بيروت : ١٩٧١ .

الدقاق ، عمر . الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث . الطبعة ٢ . حلب : مكتبة الشرق ، ١٩٦٣ .

دور الأدب في معركة التحرر والبناء . بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥ .

الدوري ، عبد العزيز . دراسات في العصور العباسية المتأخرة . بغداد : مطبعة السريان ، ١٩٤٥ .

الدوري ، عبد العزيز . العصر العباسي الأول . بغداد : مطبعة التفيض الأهلية ، ١٩٤٥ .

دينوديسو . العرب في سورية . ترجمة عبد الحميد الدواخلي .

ديوان ابن نباته السعدي ، تحقيق عبد الأمير مهدي الطائي . بغداد : دار الحرية ، ١٩٧٧ .

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام . القاهرة : ١٩٧٢ .

ديوان الارجائي . بيروت : مطبعة جريدة بيروت ، ١٣٠٧ هـ .

ديوان الابيوردي ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد . دمشق : مطبعة زيد بن ثابت ، ١٩٧٤ .

ديوان البحتري ، بيروت : دار صادر ، ١٩٦٢ .

ديوان حيص بيص ، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر . بغداد : دار الحرية ، ١٩٧٤ .

ديوان دمي على كفي .

ديوان سبط بن التعاويذي ، تحقيق مرجليوث . القاهرة : مطبعة المقتطف ، ١٩٠٣ .

ديوان الشريف الرضي . بيروت : دار صادر ، ١٩٦١ .

ديوان الطغرائي ، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر ، والدكتور يحيي الجبوري. بغداد : دار الحرية .

ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم . بيروت : لجنة التراث العربي ، د . ت .

ديوان علي الشرقي . جمع وتحقيق إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي . بغداد : ١٩٧٩ .

ديوان المتنبي ، شرح البرقوقي . الطبعة ٢ . القاهرة : مطبعة الاستقامة ، ١٩٣٨ .

ديوان مسلم بن الوليد ، تحقيق الدكتور سامي الدهان . الطبعة ٢ . القاهرة : ١٩٧٠ .

الرصافي ، معروف . ديوان الرصافي . الطبعة ٦ . القاهرة : ١٩٥٧ .

الزركلي ، خير الدين . ديوان الزركلي . القاهرة : ١٩٢٥ .

الزهاوي ، جميل صدقي . الأوشال . بغداد : مطبعة بغداد ، ١٩٣٤ .

الزهاوي ، جميل صدقي . ديوان الزهاوي . القاهرة : المطبعة العربية ، ١٩٢٤ .

الزهاوي ، جميل صدقي . رباعيات الزهاوي . بيروت : ١٩٢٤ .

الزهاوي ، جميل صدقي . الشمالة . بغداد : ١٩٣٩ .

الزهاوي ، جميل صدقي . الكلم المنظوم والرباعيات . القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٥٥ .

الزهاوي ، جميل صدقي . اللباب . بغداد : ١٩٢٨ .

الزهاوي ، جميل صدقي . المجمل مما أرى . مقالات . القاهرة : ١٩٢٤ .

زياد ، توفيق . أشد على أيديكم . بيروت : دار العودة ، ١٩٦٩ .

زياد ، توفيق . ديوان توفيق زياد . بيروت : دار العودة ، ١٩٧٠ .

السوافيري ، كامل . الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٥٢ القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٤ .

السوسي ، محمد المختار . المعسول . الدار البيضاء : مطبعة النجاح ، ١٩٦٠ - ١٩٦٢ .

السولامي ، إبراهيم . ديوان حب . تطوان : ١٩٦٧ .

السولامي ، إبراهيم . الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية . الدار البيضاء : د.ت .

شاعرات العرب في الجاهلية .

شبح الأندلس .

الشبيبي ، محمد رضا . ديوان الشبيبي . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ .

الشعر السياسي .

شعر الفتوح الإسلامية .

الشعر الفلسطيني .

الشعر في حرب داحس والغبراء .

شكري ، غالي . أدب المقاومة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ .

الشنقيطي ، أحمد بن الأمين . الوسيط في أدب شنقيط . القاهرة : ١٩١٣ .

شوقي ، أحمد . الشوقيات . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .

الصالحي ، خضر عباس . شاعرية أبي المحاسن . النجف : ١٩٦٥ .

الصغير ، محمد حسين . فلسطين في الشعر النجفي المعاصر ١٩٢٨ - ١٩٦٨ . بيروت : دار الصدق للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٦٨ .

صفدي ، مطاع . مقدمة ديوان سميح القاسم . بيروت : ١٩٧٠ .
صمادح ، منور . نسر ونصر . تونس : ١٩٧٢ .
ضيف ، شوقي . دراسات في الشعر العربي المعاصر . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٣ .
ضيف ، شوقي . فصول في الشعر ونقده . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١ .
الطالب ، عمر . القصة في الخليج العربي .
الطاهر ، علي جواد . وراء الأفق الأدبي (مقالات) . بغداد : ١٩٧٧ .
الطبال ، عبد الكريم . ديوان الأشياء المتكسرة . الدار البيضاء : ١٩٧٤ .
الطبري .
الطريبق ، حسن محمد . وادي المخازن ، (مسرحية شعرية) .
طوقان ، إبراهيم عبد الفتاح . ديوان إبراهيم طوقان . بيروت : ١٩٥٥ .
عبد علي ، عصام . مهيار الديلمي ، حياته وشعره . بغداد : ١٩٧٦ .
العبوشي ، برهان الدين . وطن الشهيد . القدس : المطبعة الاقتصادية ، ١٩٤٧ .
العدناني ، محمد . اللهيب . لبنان : ١٩٥٤ .
عرفة ، محمد ياسين . ديوان الثورة . القاهرة : المطبعة العربية ، ١٩٢٦ .
العصر الإسلامي.
عطوان ، حسين . الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية . بيروت : ١٩٧٤ .
عفلق ، ميشيل . في سبيل البعث . بيروت : ١٩٥٥ .
العقاد ، عباس محمود . عابر سبيل . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٧ .
العقاد ، عباس محمود . وحي الأربعين ، قصائد ومقطوعات . القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٣٣ .
العلمي ، عبد الكبير . ديوان حور ونور . الدار البيضاء : ١٩٦٣ .
علوان ، علي عباس . تطور الشعر العربي الحديث في العراق . بغداد : ١٩٧٥ .
علوان ، علي عباس . « شعر جميل صدقي الزهاوي » . (رسالة ماجستير) .
علوان ، قصي سالم . الشبيبي شاعراً . بغداد : ١٩٧٥ .
علي ، جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٨ .
عمر ، فاروق . بحوث في التاريخ العباسي . بيروت : ١٩٧٧ .
عيسى ، محيي الدين (الحاج) . أسرة الشهيد . دمشق : ١٩٦٦ .
غلاب ، عبد الكريم . تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال . الدار البيضاء : ١٩٧٦ .

غلاب ، عبد إبراهيم . مع الأدب والأدباء . الدار البيضاء : ١٩٧٤ .

الغلاييني ، مصطفى . ديوان الغلاييني . حيفا : المطبعة العباسية ، ١٩٢٥ .

فارس ، محمد خير . المسألة المغربية (١٩٠٠ ـ ١٩١٢) . القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦١ .

الفاروق عمر .

الفاسي ، علال . الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٨ .

الفاسي ، علال . محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى . القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٥ .

الفرزدق ، أبو فراس همام بن غالب . الديوان . بيروت : دار صادر ، ١٩٦٠ .

القباج ، محمد . الأدب العربي في المغرب الأقصى . الرباط : ١٩٢٩ .

القلماوي ، سهير . المحاكاة . الطبعة ٢ . القاهرة : ١٩٧٣ .

قنصل ، الياس . ديوان السهام . بيونس ايريس : ١٩٣٥ .

الكاظمي ، عبد الحسن . ديوان الكاظمي . دمشق : ١٩٤٠ .

الكتاني ، محمد ابراهيم . من ذكريات سجين مكافح في عهد الحماية الفرنسية . الرباط : ١٩٧٧ .

الكرمي ، عبد الكريم (أبو سلمى) . ديوان المشرد . دمشق : ١٩٥٣ .

كعب بن زهير . ديوان كعب بن زهير .

كنفاني ، غسان . الآثار الكاملة . بيروت : ١٩٧٣ .

كنون ، عبدالله . أحاديث عن الأدب المغربي الحديث . القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٤ .

كنون ، عبدالله . خل وبقل . تطوان : المطبعة المهدية ، د.ت .

كنون ، عبدالله . لوحات شعرية . تطوان : دار كريماديس ، ١٩٦٦ .

لبيد ، أبو عقيل بن ربيعة . ديوان لبيد . ليدن : بريل ، ١٨٩١ .

اللمتوني ، أبو بكر . بقيت وحدي . (مسرحية شعرية) . تطوان : ١٩٦٢ .

لؤلؤة ، عبد الواحد . البحث عن معنى : دراسات نقدية . بغداد : وزارة الإعلام ، ١٩٧٣ .

ماجد ، جعفر . غداً تطلع الشمس . تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٤ .

المتلمس . الديوان .

المحاسني ، زكي . شعر الحرب في أدب العرب . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ .

محمود ، عبد الرحيم . ديوان عبد الرحيم محمود . بيروت : ١٩٧٤ .

مردم ، خليل . ديوان خليل مردم . دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٩ .

مصطفى ، خالد علي . الشعر الفلسطيني الحديث . بغداد : ١٩٧٨ .

المعداوي ، مصطفى . ديوان مصطفى المعداوي . الدار البيضاء : دار الكتاب ، د . ت .

المغرب الأقصى . نشره حزب الاستقلال .

المفضل الضبي ، أبو طالب بن سلمى . ديوان المفضليات . اكسفورد : كلاريندون بريس ، ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ .

المقدسي ، أنيس . الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث . الطبعة ٢ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

المقدم ، عبد القادر . ديوان لمحات الأمل . تطوان : ١٩٤٨ .

المنوني ، محمد . مظاهر يقظة المغرب الحديث . الرباط : مطبعة الأمنية ، ١٩٧٣ .

المولى ، محمد أحمد جاد ، علي الجباوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . أيام العرب في الجاهلية . القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٤٢ .

النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية . الديوان . تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ .

ناصر ، كمال . جراح تغني . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٠ .

الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء : دار الكتاب ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ .

الناعوري ، عيسى . خلي الصيف يقول . القدس : ١٩٥٦ .

نالينو ، كارلو . تاريخ الآداب العربية .

النجفي ، أحمد الصافي . الأمواج . الطبعة ٤ . بيروت : ١٩٦١ .

هدارة ، أحمد مصطفى . اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري .القاهرة : ١٩٨٠

الوائلي ، إبراهيم . ثورة العشرين في الشعر العربي . بغداد : ١٩٦٨ .

وارين ، أوستين ورينيه ويليك . نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي . دمشق : ١٩٧٢ .

الواعظ ، رؤوف . معروف الرصافي ، حياته وأدبه السياسي . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦١ .

الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .

ياغي ، عبد الرحمن . حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة ، حتى النكبة . بيروت : المكتب التجاري ، [١٩٦٨] .

ياقوت الرومي ، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله . معجم البلدان . بيروت : دار بيروت [و] دار صادر ، ١٩٦٨ .

Bowra, Cecil Maurice. **From Vergil to Milton.**London: Macmillan, New York: St. Martin's Press, 1963.

المقالات

أبو شنب ، عادل . « المسرح الفلسطيني في الأراضي المحتلة . » **مجلة المعرفة** : العدد ١٥٩ ، أيار (مايو) ١٩٧٥ .

البصير ، عبد الرزاق . « قضية فلسطين في الأدب الأردني الحديث حتى نكسة حزيران ١٩٦٧ » . **مجلة الكتاب** : العدد ٦ ، ١٩٧٥ . ص ١٥٩ ـ ١٦٤ .

البياتي ، عادل جاسم . « الحارث بن ظالم المري . » **كلية الآداب** : العدد ١٥ . ص ٣٧٤ .

البياتي ، عادل جاسم . « شعر التوحيد في العهد المكي الأول . »

البياتي ، عادل جاسم . « مجموعة المفضل الضبي . » **كلية الآداب** : العدد ١٥ . ص ٣٨٦ .

البياتي ، عادل جاسم . « الموثبات في الأدب العربي . » **الموقف الأدبي** : العدد ١٠٤ ـ ١٠٥ ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ . ص ١١٨ .

جمعة ، حسين . « قضية فلسطين في القصة السورية الحديثة . » **مجلة الكتاب** : العدد ٦ ، ١٩٧٥ . ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

حافظ ، صبري . « نكبة فلسطين في الرواية العربية المعاصرة . » **مجلة الآداب** : العدد ٤ ، ١٩٦٤ .

الخطيب ، حسام . « الموضوع الفلسطيني في القصة السورية الحديثة . » **مجلة الكتاب** : العدد ٦ ، ١٩٧٥ . ص ٩٥ .

دكروب ، محمد . « لأدب المقاومة في فلسطين . » **مجلة الطريق** : السنة ٢٧ ، العدد ١٠ ـ ١١ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ . ص ٤١ ـ ٤٧ .

ركيبي ، عبدالله . « البطل في القصة الجزائرية» . **الآداب** : السنة ٢١ ، العدد ٧ ، تموز (يوليو) ١٩٧٣ . ص ٢٩ ـ ٣٢ .

سعد ، سمير . « محمود درويش : الشعر الثوري علاقات جديدة . » **مجلة الطريق** : السنة ٢٩ ، العدد ٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٠ . ص ٧١ ـ ٨٠ .

الصقلي ، علي . « مسرحية جديدة » . **مجلة آفاق** : العدد ١ ، ١٩٦٧ . ص٨ـ١٦ .

عبد علي ، عصام ، « الإحساس بالعروبة في شعر الشريف الرضي » . (بحث معد للنشر في مجلة آداب الجامعة المستنصرية) .

عصمت ، رياض . « تشرين ومسرح الحرب » . **مجلة المعرفة** : العدد ١٥٢ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤ . ص ١٣١ ـ ١٤٨ .

عطية ، أحمد محمد . « القصة والإنسان في ليبيا » **الآداب** : السنة ١٦ ، العدد ٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٦٨ . ص ٤٣ ـ ٤٨ .

القاسم ، سميح . (مسرحية جديدة عن « أورينت برس » (بيروت) ملحق جريدة الجمهورية العراقية) .

لغة العرب : السنة ٦ ، المجلد ٤ ، ١٩٢٨ . ص ٢٦٣ .

مجلة السلام : تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣ .

مجلة المعرفة : العدد ١٥٩ ، أيار (مايو) ١٩٧٥ .

مواعده ، محمد . « قضية فلسطين في نتاج بعض الأدباء التونسيين » . مجلة الكتاب : العدد ٦ ، ١٩٧٥ .

فهرس عام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

كتب

(ن)

(ي)

(B)

Books

■ التعاون الانمائي بين اقطار مجلس التعاون العربي الخليجي: المنهاج المقترح والاسس المضمونية والعملية
(سلسلة اطروحات الدكتوراه (٦)) (٤٩٢ ص ـ١٩٦ ل.ل./ ١٢ $) .... د. فؤاد حمدي بسيسو
■ المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي... طبعة ثانية
(٥١٦ ص ـ ٢٠٦ ل.ل./ ١٢ $) .... د. حليم بركات
■ مصر والصراع العربي ـ الاسرائيلي: من الصراع المحتوم... الى التسوية المستحيلة
(٢٥٦ ص ـ١٠٢ ل.ل./ ٦ $) .... د. حسن نافعة
■ اللغة العربية والوعي القومي (٤٨٤ ص ـ ١٩٤ ل.ل./ ١٢ $) .... ندوة فكرية
■ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق ... طبعة ثالثة
(سلسلة اطروحات الدكتوراه (٥)) (٤٨٦ ص ـ ١٩٤ ل.ل./ ١٢ $) .... د. وميض جمال عمر نظمي
■ السياسة الامريكية تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٤))
(٣٤٤ ص ـ١٣٨ ل. ل. / ٨ $)............ د. هالة ابو بكر سعودي
■ الهجرة الى النفط... طبعة ثالثة (٢٤٠ ص ـ ٩٦ ل.ل./ ٥ $) .... د. نادر فرجاني
■ العرب وافريقيا (٨٢٤ ص ـ ٣٧٠ ل.ل./ ١٨ $) .... ندوة فكرية
■ الطاقة النووية العربية: عامل بقاء جديد... طبعة ثانية (١٥٦ ص ـ ٦٢ ل.ل./ ٤ $) ...... د. عدنان مصطفى
■ الديمقراطية وحقوق الانسان في الوطن العربي (سلسلة كتب المستقبل العربي (٤))
(٢٥٢ ص ـ ١٤٠ ل. ل. / ٨ $)............ مجموعة من الباحثين
■ الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠ ـ ١٩٣٩ (٢٣٦ ص ـ ٩٤ ل.ل./ ٦ $) .... اعداد مروان بحيري
■ التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٣))
(٣٩٦ ص ـ ١٥٨ ل. ل. / ١٠ $)............ د. محمد السيد سليم
■ العمالة الاجنبية في اقطار الخليج العربي (٧١٢ ص ـ ٢٨٤ ل.ل./ ١٧ $) .... ندوة فكرية
■ انتقال العمالة العربية: المشاكل ـ الآثار ـ السياسات
(٣١٢ ص ـ ١٢٤ ل. ل. / ٨ $)............ د. ابراهيم سعد الدين ود. محمود عبد الفضيل
■ جامعة الدول العربية: الواقع والطموح (١٠٠٤ ص ـ ٤٥٢ ل.ل./ ٢٢ $) .... ندوة فكرية
■ الصراع العربي ـ الاسرائيلي: بين الرادع التقليدي والرادع النووي (٢٤٨ص ـ ١٠٠ل. ل./٦ $) امين حامد هويدي
■ ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الاول: المؤلفون ـ القسم الاول: بالعربية
(١٠٦٠ ص ـ ٥٥٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
■ ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الاول: المؤلفون ـ القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية
(١٠٩٦ ص ـ ٥٥٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
■ ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين ـ القسم الاول: بالعربية
(٤٠٠ ص ـ ٢٠٠ ل. ل. / ١٥ $)............ مركز دراسات الوحدة العربية
■ ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين ـ القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية
(٣٦٨ ص ـ ٢٠٠ ل. ل. / ١٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
■ ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثالث: الموضوعات (ثلاثة اقسام)
(٣٢٧٢ ص ـ ١٦٤٠ ل. ل. / ٩٨ $)............ مركز دراسات الوحدة العربية
■ النظام الاقليمي العربي ... طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة (٢٧٢ ص ـ ١٠٨ ل. ل./ ٧ $). جميل مطر ود. علي الدين هلال
■ التطور التاريخي للانظمة النقدية في الاقطار العربية ... طبعة ثانية
(٤٧٢ ص ـ ١٨٨ ل.ل./ ١١ $) .... د. عبد المنعم السيد علي
■ مصر والعروبة وثورة يوليو (سلسلة كتب المستقبل العربي (٣))
(٤٠٠ ص ـ ١٦٠ ل. ل. / ١٠ $)............ مجموعة من الباحثين
■ الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة... طبعة ثانية
(٢٤٨ ص ـ ١٠٠ ل. ل. / ٦ $)............ د. محمود عبد الفضيل
■ المواصلات في الوطن العربي... طبعة ثانية (٤٠٤ ص ـ ١٦٢ ل. ل. / ٩ $) .... ندوة فكرية
■ السياسة الامريكية والعرب... طبعة ثانية مزيدة ومنقحة (سلسلة كتب المستقبل العربي (٢))
(٣٦٨ ص ـ ١٤٨ ل. ل. / ٩ $) .... مجموعة من الباحثين
■ دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي... طبعة ثالثة (سلسلة كتب المستقبل العربي (١))
(٤٧٦ ص ـ ١٩٠ ل.ل./ ١١ $) .... مجموعة من الباحثين

- التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية
(٥٢٨ ص ـ ٢١٢ ل.ل./ ١٣ $) .... ندوة فكرية
- المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية ... طبعة ثانية (٥٥٦ ص ـ ٢٢٢ ل. ل. / ١٣ $)........ ندوة فكرية
- الامكانات العربية... طبعة ثانية (١٣٦ ص ـ ٥٤ ل.ل./ ٣ $) .... د. علي نصار
- صور المستقبل العربي ... طبعة ثانية (٢١٢ ص ـ ٨٤ ل.ل./ ٥ $) .... د. ابراهيم سعد الدين وآخرون
- النظام الاجتماعي العربي الجديد... طبعة ثالثة (٣٠٤ ص ـ١٢٢ ل. ل. / ٧ $)........... د. سعد الدين ابراهيم
- تجربة دولة الامارات العربية المتحدة ... طبعة ثالثة (٨١٦ ص ـ ٣٦٨ ل.ل./ ٢٠ $) .... ندوة فكرية
- التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ طبعة ثالثة (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢))
(٤١٦ ص ـ ١٦٦ ل.ل./ ١٠ $) .... د. مارلين نصر
- البعد التكنولوجي للوحدة العربية ... طبعة ثالثة (١١٦ ص ـ ٤٦ ل.ل./ ٣ $) .... د. انطوان زحلان
- القومية العربية والاسلام ... طبعة ثانية (٧٨٠ ص ـ ٣٢٥ ل.ل./ ١٩ $) .... ندوة فكرية
- التكامل النقدي العربي: المبررات ـ المشاكل ـ الوسائل... طبعة ثالثة
(٧٤٠ ص ـ ٢٩٦ ل.ل./ ١٨ $) .... ندوة فكرية
- هجرة الكفاءات العربية ... طبعة ثالثة (٤٣٢ ص ـ ١٧٢ ل.ل./ ١٠ $) .... ندوة فكرية
- التعريب وتنسيقه في الوطن العربي... طبعة رابعة (سلسلة اطروحات الدكتوراه (١))
(٦٦٨ ص ـ ٢٦٨ ل.ل./ ١٦ $) .... د. محمد المنجي الصيادي
- هدر الامكانية ... طبعة رابعة (١٤٠ ص ـ ٥٦ ل.ل./ ٣ $) .... د. نادر فرجاني
- تحليل مضمون الفكر القومي العربي... طبعة ثالثة (٢٠٠ ص ـ ٨٠ ل.ل./ ٥ $) .... السيد يسين
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٥ (٨٥٦ ص ـ ٤٥٠ ل.ل./ ٤٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٤ (٧٧٦ ص ـ ٣٨٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٣ (٦١٦ ص ـ ٣١٠ ل.ل./ ٣٠ $). .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٢ (٧٣٢ ص ـ ٣٦٠ ل.ل./ ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨١ (١٠٧٨ ص ـ ٥٤٠ ل.ل./ ٤٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٠ (١٠٦٤ ص ـ ٥٣٠ ل.ل./ ٤٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٧٩ ... طبعة ثالثة (٧٣٦ ص ـ ٣٦٠ ل.ل./ ٤٠ $) ... مركز دراسات الوحدة العربية
- القومية العربية في الفكر والممارسة... طبعة ثالثة (٦٤٠ ص ـ ٢٥٦ ل.ل./ ١٥ $) .... ندوة فكرية
- اتجاهات الرأي العلم العربي نحو مسألة الوحدة: دراسة ميدانية طبعة ثالثة
(٣٧٦ ص ـ ١٥٠ ل. ل. / ٩ $).. د. سعد الدين ابراهيم
- النفط والوحدة العربية ... طبعة خامسة مزيدة ومنقحة (٢٧٢ ص ـ ١٠٨ ل. ل. / ٦ $) .... د. محمود عبد الفضيل
- ابعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل... طبعة رابعة
(٤٤٨ ص ـ ١٨٠ ل.ل./ ١١ $) .... د. عبد الحميد براهيمي
- دور الادب في الوعي القومي العربي ... طبعة ثالثة (٤٣٦ ص ـ ١٧٤ ل.ل./ ١٠ $) .... ندوة فكرية
- خطط التنمية العربية واتجاهاتها التكاملية والتنافرية... طبعة ثالثة
(٢٦٨ ص ـ ١٠٨ ل. ل. / ٦ $).. د. محمود الحمصي
- دور التعليم في الوحدة العربية... طبعة ثالثة (٢٨٠ ص ـ ١١٢ ل. ل. / ٧ $)............ ندوة فكرية
- من التجزئة الى الوحدة... طبعة خامسة (٤٤٨ ص ـ ١٨٠ ل. ل. / ١٠ $) .... د. نديم البيطار
- المشرق العربي والغرب... طبعة رابعة (١٧٦ ص ـ ٧٠ ل. ل. / ٤ $) .... د. جلال أحمد امين
- العلم والسياسة العلمية في الوطن العربية... طبعة رابعة
(٢٨٢ ص ـ ١١٢ ل. ل. / ٧ $) .... د. انطوان زحلان
- مجلة المستقبل العربي: المجلدات السنوية (٨ سنوات)
(ثمن مجلدات السنة الواحدة ٨٠٠ ل. ل. / ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي:

الاعمال القومية لساطع الحصري

- آراء واحاديث في الوطنية والقومية (١)... طبعة ثانية (١٠٨ ص ـ ٤٤ ل.ل./ ٢ $)
- احاديث في التربية والاجتماع (٢)... طبعة ثانية (٣٠٨ ص ـ ١٢٤ ل. ل. / ٦ $)

هــذا الـكـتـاب

اذا كانت الحلقات الدراسية (الندوات) تعقد عادة في إطار لا يتجاوز المشاركون فيه العشرات ، فإن خروجها الى الآلاف من المثقفين والمعنيين هو مهمة فكرية وأمانة علمية واجبة الأداء .

هدف هذا الكتاب ان ينقل الى الآلاف حصيلة جهد فكري خصب وحر ومنطلق اشترك فيه عشرات من الدارسين ضمتهم ندوة فكرية موسعة حول « دور الادب في الوعي القومي والدعوة الى الوحدة العربية » ، أعدها ونظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع اتحاد الادباء والكتاب العرب ونقابة المعلمين العراقيين .

ونظراً لاتساع الموضوع وتشعب نواحيه وعمق دلالاته ، سعت الندوة للاحاطة به من خلال عشر دراسات جادة راوحت بين الخلفية التاريخية والملامح المعاصرة لدور الادب العربي الحديث في قضية الوحدة . وقد جاءت هذه الدراسات والمناقشات الرصينة التي تلتها لتعطي صورة حية عن الوجدان القومي العربي كما يتمثل في الأدب .

إن هذا الكتاب بتسجيله لوقائع هذه الندوة كاملة ، يتميز بتنوع الآراء وتعدد زوايا الرؤية في قضية مهمة : الادب والوحدة في الوجدان العربي .

الطبعة الرابعة



الثمن :

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون

ص. ب : ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون : ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٠٢٢٣٤

برقياً : « مرعربي »

تلكس : ٢٣١١٤ مارابي